ليو تولستوى

إيناخة العصور الحديثة

156

المجلد الرابع

الحرب و السلم

الهيئة العامة لقصور الثقافة
ذاكرة الكتابة

نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر بسورية استنادا إلى التراجم الفرنسية و الإنكليزية و روجع النص على الأصل الروسى

الحرب والسلم

الياذة العصور الحديثة

(الجزء الرابع)

تأليف:
ليوتولستوى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة

ليو تولستوي

الحرب والسلم

الياذة العصور الحديثة

المجلد
٤

نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية نخبة من أسرة

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

استناداً الى الترجمتين الفرنسية والانكليزية
وروجع النص الاخير على الاصل الروسى

الكتاب الرابع

الجزء الأوّل

الفَصلُ الأوّل

رسالة نيافته

خلال ذلك الوقت ، في اجواء بيترسبورج العليا ، استمر النضال بين انصار روميانتسيف والفرنسيين وماري فيدوروفنا والتساريفيتش وشخصيات رفيعة اخرى أشد من ذي قبل ، وظل زنابير البلاط كعادتهم يشتركون فيه وهم يدندنون . لكن تلك الحياة المترفة الخالية التي لايشغلها الا المظاهر والسراب ظلت تتبع مجراها الطبيعي . والذين يحيونها ، كانوا ملزمين ببذل مجهودات كبيرة ليدركوا الخطر والموقف الدقيق الذي تردى اليه الشعب الروسي . ظلت الحفلات الراقصة نفسها والاستقبالات اياها والمسرح الفرنسي ذاته ومصالح البلاط نفسها ومصالح الخدمة والدسائس هي هي . اما في المقامات العليا ، فكانوا يظهرون ما يكفي من القلق لتذكر خطورة الحالة . كانوا يرون همساً ان الامبراطورتان في هـــذا الظرف العصيب تتصرفان تصرفاً معاكساً تماماً . فالامبراطورة ماري فيودوروفنا المنشغلة بحماية المؤسسات الاستشفائية والثقافية المؤسسة باسمها وتحت حمايتها ، تتخذ الاجراءات لنقلها الى كازان فكان كل ما يخص تلك المؤسسات معداً محزوماً . اما الامبراطورة اليزابيث الكسييفنا ، فانها عندمـا تسأل عما اذا كان يجب اتخاذ اجراءات الرحيل ، تجيب بوطنيتها الروسية المألوفة بأنها لاتستطيع اصدار اي امر بهذا المعنى وان هذا من اختصاص

الامبراطور وحده . ولقد أعلنت انها فيما يخصها ، ستكون آخر من يغادر بيترسبورج .

في السادس والعشرين من آب يوم معركة بورودينو بالذات ، كانت اناباقلوفنا تقيم حفلة ساهرة نواتها قراءة رسالة نيافته المرفقة بصورة السعيد القديس سيرج المرسلة الى الامبراطور . كانت تلك الرسالة تعتبر نموذجاً للوطنية والفصاحة الدينية . وكانوا يعتمدون على الأمير بازيل في قراءتها ، وهو المشهور بموهبته كقارىء الذي مارس هذه الموهبة لدى الامبراطورة نفسها . وكانت تلك الموهبة تقوم على أساس لفظ الكلمات بصوت مرتفع غنائي ، تتناوب فيه الخطورة مع العذوبة دون التقيد بالمعنى ، لدرجة كانت بعض المقاطع الاخرى فيما يشبه الهمس وكان لتلك القراءة ، كما لكل حفلات انا بافلوفنا الساهرة ، لوناً سياسياً اذا اتفق على ان يحضر عـــدد من كبار الشخصيات وجب استصراخ شعورهم الوطني وتخجيلهم لأنهم مازالوا دؤوبين على حضور حفلات المسرح الفرنسي . وكان عدد كبير من المدعوين قد حضر . لكن انا بافلوفنا لم تر فيهم من تنتظر ، لذلك فقد أخرت القراءة وسمحت باثارة مناقشة عامة .

كان النبأ الجديد يومذاك يتعلق بمرض الكونتيس بيزوخوف . لقد شعرت فجأة بتوعك وتغيبت هذه الأيام الأخيرة عن حضور بعض الاجتماعات التي كانت زينتها . تناقلت الألسن انها لا تستقبل أحداً وانها منحت ثقتها الى ايطالي زعم انه سيشفيها وفق طريقة جديدة خارقة بدلاً من ان تمنحها الى المشهورين من أطباء العاصمة الذين كانت تعهد اليهم بعلاجها .

وكان كل يعرف ان مرض الكونتيس الفاتنة ناجم عن الارتباك الذي وقعت به بسبب اقترانها برجلين معاً وان علاج الايطالي يتوقف على ازالة هذا الارتباك ولكن ما من احد كان يجرأ على التنويه بالشيء في حضرة انا بافلوفنا فكانوا جميعاً يتظاهرون بجهلهم كل ما له علاقة بهذا الموضوع .

بطرس يساق اسيراً

— يقولون ان مرض الكونتيس رديء جداً. يقول الطبيب انه الذبحة الصدرية.
— الذبحة ؟ اوه ، انها مرض خطير .
— يقولون ان المتنافسين قد تصالحوا بفضل الذبحة . .
وكانت كلمة « ذبحة » تنعم بالرضى العام .
— ان الكونت العجوز يثير الشفقة كما يروون . لقد بكى كطفل عندما انبأه الطبيب بان الحالة خطرة .
— اوه ! ستكون خسارة رهيبة . انها امرأة ساحرة .
قالت انا بافلوفنا وهي تقترب :
— انكم تتحدثون عن الكونتيس المسكينة. لقد ارسلت استطلع أخبارها. فقالوا لي انها متحسنة بعض الشيء .
ثم أضافت وهي تبتسم لحماسها الشخصي :
— اوه ! لاريب انها اكثر نساء العالم فتنة . اننا نمت الى معسكرين مختلفين لكن هذا لايمنع من تقديرها كما تستحق . انها تعيسة جداً .
ولقد خمن شاب طائش ان كلمات انا بافلوفنا ترفع قليلاً حجاب السر الذي يغطي مرض الكونتيس ، فعمد الى اظهار دهشته من ان المريضة استبقت الى جانب سريرها مشعوذاً ايطالياً قادراً على وصف اخطر العقاقير لها بدلاً عن الأطباء المعروفين . فرددت انا بافلوفنا على الفور بلهجة خشنة على الشاب الغرير :
— يمكن ان تكون معلوماتك افضل من معلوماتي . لكنني اعرف من ثقة ان هذا الطبيب رجل عالم جداً وماهر جداً. انه الطبيب الخاص لملكة اسبانيا
وبعد ان اعادت الشاب الى حدوده على هذا النحو ، التفتت انا بافلوفنا الى بيليبين الذي كان في حلقة اخري يجعد جبينه ويتأهب لبسطه وهو يطلق « كلمة » وهو يتحدث عن النمساويين .

قال بصـــدد وثيقة سياسية ارسلت الى فينيا مع علمين غساويين غنمهما ويتجنشتاين[1] « بطل بير بيروبول » كما كانوا يسمونه في بيترسبورج :

– اوى ان هذا رائع .

فقالت انا بافلوفنا رغبة منها في وضع حـد للمناقشات كي تتيح المدعوين فرصة سماع « الكلمة » التي كانت تعرفها سلفاً :

– ماذا تقول؟

ردد بيليبين الكلمات التالية من الرسالة الدبلوماسية التي دبجها :

– يعيد الامبراطور الاعلام النمساوية ، وهي الاعلام الصديقة التائهة التي وجدها متنكبة الطريق .

وبسط جبينه عند المقطع الأخير فهتف الأمير بازيل :

– رائع ! رائع !

وفجأة قال الأمير هيبوليت بصخب :

– لعلها طريق فارسوفيا .

حطت الانظار كلها عليه ولكن مامن احـد أدرك ماذا يريد ان يقول . وألقى الأمير هيبوليت نظرة حوله لأنه لم يكن هو الآخر يدرك اكثر من سواه المعنى الذي يتصل بكلماته . لقد لاحظ اكثر من مرة خلال حياته السياسية ان كلمة تقال عرضاً تبدو فجأة وكأنها منتهى الذكاء . لذلك فقـد راح في كل مناسبة يصرف اول الكلمات التي تتوارد على شفتيه وهو يفكر : « لعلها ستكون شيئاً جيداً . بل انهم سيستخلصون منها شيئاً مـا حق ولو كانت لاتساوي

---

(١) لويس أمير ويتجنشتاين أو ويتجنستن ، فيلد ماريشال روسي ولد في بيريا-سلاف عام ١٧٦٩ وتوفي عام ١٨٤٣ وهو من أصل بروسي ، برز في ايبزيج وخلال حملة فرنسا عام ١٨١٤ .

شيئاً . » وفي الواقع ، انه خلال الفترة التي أعقبت ذلك والتي ران فيها صمت مربك،دخل شخص ما،وكان واحداً من المواطنين شديدي الفتور الذي كانت انا بافلوفنا تنتظره ، فتوعدت هيبوليت باصبعها ودعت الأمير بازيل وهي بالابتسام الى الجلوس قرب المائدة وأتت له بشمعتين وبالرسالة ثم رجته ان يشرع في تلاوتها . وران الصمت .

نطق الأمير بازيل بلهجة خطيرة وهو يتأمل وجوه المستمعين وكأنه يسألهم عما اذا كان لأحدهم اعتراض :

« ايها الامبراطور والعاهل كثير الجود »

ولما لم يرمش احد تابع : « ان موسكو عاصمتك الاولى ، اورشليمنا الجديدة ، ستستقبل مسيحها . » وحرك الضمير المضاف « ها » بقوة .. « وهي كالأم التي يرتمي بين اذرع أبنائها المولعة ، وخلال الضباب الذي يبدو تغني باندفاع وهي تتبصر بمجد حكمك اللامع : هوزانا ، ليكن مباركاً ذلك الذي سيقدم ! »

نطق الأمير بازيل بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة ناحبة .

وكان بيايبين يمعن النظر بأظافره بعناية ، وعدد من الموجودين متخوفين حقاً يبدو على وجوههم كأنهم يتساءلون عما ارتكبوا من ذنوب . وكانت انا بافلوفنا تهمس بالكلمات سلفاً اشبه بعجوز على استعداد لتناول الخبز المقدس ، وتغمغم : « لينشر جوليات الجسور السفيه . . »

« ولينشر جوليات [١] الجسور السفيه القادم من طرف فرنسا القصي على الارض الروسية اهواله المجرمة ، فان الأيمان الخاشع ، هذا المقلاع لداود[٢]

---

(١) و (٢) جوليات ، عملاق فلسطيني قتله داود النبي بحجر من مقلاعه اصابه في جبهته.

الروسي ، سيصرع فجأة رأس تجبره الدموي . ان هذه الصورة لسيرج السعيد الغيور القديم على سعادة وطننا ،ستقدم الى جلالتكم الامبراطورية . وانني آسف لأن قواي المترنحة لاتسمح لي بتأمل طلعتكم الجليلة . انني ارفع الى السماء صلوات حارة ليتفضل عظيم القدرة بإكثار نسل العادلين وليتم اماني جلالتكم . »

هتفوا على شرف القارىء والمؤلف :

– يالقوة ! ياللاسلوب !

تحدث مدعوو انّا بافلوفنا طويلاً حول الموقف والوطن وقـد حركت مشاعرهم هـذه المقطوعة من البلاغة واكثروا من الرجم بالغيب حول نتيجة المعركة التي ستقع دون تأخير فقالت انّا بافلوفنا :

– سوف ترون اننا سنتلقى انباء غداً بمناسبة يوم ميلاد عاهلنا . ان لدى احساسات مسبقة ممتازة .

* * *

الفَصلُ الثّاني

موت هيلين

صدقت والحق يقال احساسات انا بافلوفنا المسبقة . ففي اليوم التالي ، اثناء تلاوة صلاة الشكر «تيديئوم» في القصر بمناسبة عيد ميلاد الامبراطور ،استدعي الأمير فولكونسكي . فخرج من الكنيسة ليتلقى رسالته من لدن كوتوزوف . كانت الرسالة تحوي ذلك التقرير الذي دبج يوم معركة تاتارينوفو والذي ذكر فيه كوتوزوف ان الروسيين لم يتراجعوا خطوة واحدة وان الفرنسيين فقدوا اكثر مما فقدنا بكثير وانه يحرر تقريره على عجل دون ان يتريث حتى يجمع المعلومات الأخيرة . وكان ذلك يبدو اشبه بالبشرى التي تزف بمناسبة النصر ، لذلك ، فقد رفعت الى الله فوراً ، دون الخروج من الكنيسة ، صلوات شكر على المساعدة التي أنعم بها في سبيل النصر .

لقد تحققت احساسات انا بافلوفنا المسبقة وباتت المدينة كلها تكن روح العيد طيلة ذلك الصباح ، فكان كلٌ يعتقد بنصر شامل بل ان بعضهم زعم ان نابوليون أصبح سجينا وانهم خلعوه وانتخبوا في فرنسا رئيساً جديداً .

وكان من العسير جداً ان يدرك المرء بعيداً عن الجيش وفي جو البلاط ، الوقائع في كل دقائقها وقوتها . ان الاحداث تتجمع تلقائياً حول واقعة خاصة ففي تلك الآونة ، كان مبعث أفراد الحاشية بالنصر نفسه أقل مما كانت عليه لورود النبأ نفسه في يوم ميلاد الامبراطور بالذات . لقد كان أشبه بالمفاجأة

الناجحة ، كان تقرير كوتوزوف يشير الى أسماء الضحايامن الروسيين وفي عدادهم أسماء توتشكوف وباجراسيون و كوتائيسوف . لذلك فان فاجعة هذه الأنباء اجتمعت بالنسبة الى الطبقة البيترسبورجية الراقية حول واقعة واحـــدة هي خسارة كوتائيسوف . فكلٌ منهم يعرفه والامبراطور نفسه يقدره . لقد كان شاباً وفتاناً ، فكانوا ذلك اليوم اذا ما تقابلوا يقولون لبعضهم :

ـ يا له من أمر مذهول ! وسط الصلوات ! لكن كوتائيسوف ،يا للخسارة آه ! للشقاء !

وأصبح فاسيلي يهتف الآن وهو فخور ان كان متنبئاً موفقاً :

ـ ماذا قلت لكم عن كوتوزوف ؟ لقد قلت دائماً انه وحده القادر على هزيمة نابوليون .

ولكن في اليوم التالي ، لم ترد أية انباء عن الجيش ، فمال الرأي العام الى القلق وراح أفراد الحاشية يتألمون لرؤية الامبراطور متألمـــاً لافتقاره الى الانباء .

. اخـذ الانصار يقولون وقد كفوا عن اطراء كوتوزوف وباتوا يتهمونه بأنه سبب كآبة الامبراطور : « يا له من موقف ، موقفه ! » ولم يحاول الأمير بازيل ذلك النهار ان يمتدح « محميه » كوتوزوف ، والتزم الصمت كلماورد ذكر الجنرال القائد الأعلى . بل ان كل شيء ذلك المساء بدا كأنه متواطئاً لابلاغ قلق الافكار البيترسبورجية الى الذروة اذا انتشر نبأ رهيب جديد : لقد ماتت الكونتيس بيزوخوف فجأة بتأثير ذلك المرض المريع الذي كانوا يسرون بذكر اسمه . كانو يؤكدون رسمياً في الأبهاء الكبرى انها ماتت اثر نوبة ذبحة صدرية . اما في حلقات العارفين ، فكانوا يروون ان « طبيب ملكة اسبانيا الخاص » وصف لهيلين جرعة صغيرة من دواء خاص يقصد به احداث بعض الأثر الحسن

لكن هيلين ، في غمار اضطرابها من ان يظن بها الظنون فيما يتعلق بالكونت العجوز ، وبسبب عدم تلقيها أي جواب من زوجها (بيير ذاك التاعس الفاجر) اخذت كمية كبيرة من علاجها وماتت تفترسها الآلام العنيفة قبل ان يمكن انقاذها . وكانوا يروون ان الأمير فاسيلي والكونت العجوز ارادا توقيف الايطالي ، لكن هذا كان يملك في يده أوراقاً تدين المرحومة التاعسة بشدة حتى اضطر الى اخلاء سبيله على الفور .

اذن ، لقد تركز الحديث حول ثلاث نقاط : التردد الذي كان العاهل عليه ، خسارة كوتائيسوف وموت هيلين .

وفي غداة اليوم التالي لتقرير كوتوزوف ، وصل بيترسبورج خبر سقوط موسكو ، فلم يلبث نبأ استسلام موسكو الى الفرنسيين ان انتشر في المدينة كلها . كان ذلك شيئاً مردولاً ! وبالنسبة الى الامبراطور ، ياله من موقف ! ان كوتوزوف ليس الا خائناً . وراح الأمير فاسيلي خلال زيارات التعزية التي كان يتلقاها بمناسبة موت ابنته ، يقول عن كوتوزوف هذا نفسه الذي كان فيما مضى يغطيه بالمديح (ولقد كان مسموحاً له في حزنه الابوي ان ينسى ماقاله من قبل) انه لايمكن ان ينتظر خلاف ذلك من كهل أعمى فاجر . ويضيف :

ـ ان ما يدهشني هو ان يُعهد الى شخص كهذا بمصير روسيا .

كان يمكن الاحتفاظ ببعض الشكوك طالما ظل النبأ غير رسمي . لكنهم في اليوم التالي تلقوا التقرير التالي من الكونت روستوبتشين :

« حمل الي مساعد عسكري للكونت كوتوزوف رسالة يسألني فيها ضباطاً من الشرطه لمرافقة الجيش على طريق ريازان ويقول انه يأسف لترك موسكو ياصاحب الجلالة ! ان فعلة كوتوزوف هذه تقرر مصير عاصمة ملككم . سوف تنتفض روسيا عندما تعلم بهجر المدينة التي تمثل عظمتنا والتي تضم رفات اسلافكم

ولقد اذعنت للجيش وامرت بنقل كل شيء فلم يبق لي الا ان أبكي مصير وطني»
وبعد ان اطلع العاهل على فحوى التقرير ، ابلغ كوتوزوف عن طريق الأمير فولكونسكي الكتاب الملكي التالي :

« الأمير ميخائيل ايلاريونوفيتش ! لم اتلق منك أي تقرير منـــذ التاسع والعشرين من آب في حين تلقيت يوم الاول من ايلول عن طريق ياروسلافل تقريراً من حاكم موسكو العام ينهي الي النبأ الكئيب المتعلق بتقريرك هجر هذه المدينة . يمكنك ان تتصور الأثر الذي يمكن ان يحدثه مثل هـذا النبأ في نفسي . انه يدهشني بقدر ما يجعل سكوتك اكثر اقلاقاً . ارسل اليك هـذه الرسالة بواسطة مساعدي العسكري الجنرال فولكونسكي الذي عليه ان يطلع على حالة الجيش الحقيقية منك وعلى الأسباب التي دفعتك الى اتخاذ قرارتك المؤسف . »

★ ★ ★

الفَصلُ الثّالِثُ

حتى آخر رجل...

بعد تسعة أيام على هجر موسكو ، حمل رسول من لدى كوتوزوف النبأ رسمياً الى بيترسبورج . وكان ذلك الرسول الفرنسي ميشو الذي لم يكن يعرف الروسية والذي كان « روسياً قلباً وروحاً رغم انه اجنبي » كما كان يؤكد .

استقبله الامبراطور على الفور في مكتبه في قصر كامينثي — اوستروف . ولقد شعر ميشو الذي لم ير موسكو قط قبل الحرب والذي لم يكن يعرف اللغة الروسية ، بتأثر كبير عندما وجد نفسه في حضرة « عاهلنا الجواد » كما كتب فيما بعد ، ينهي اليه نبأ حريق موسكو « التي كانت نيرانه تضيء طريقه . »

وعلى الرغم من ان مبعث « حزن السيد ميشو لاريب مختلف تماماً عنه لدى الروسيين الحقيقيين ، فان ميشو كان بادي الحزن الشديد عندما ادخل الى مكتب الامبراطور حتى ان هذا بادره على الفور سائلاً :

— هل تحمل الي انباء سيئة ايها الزعيم ؟

اجاب ميشو زافراً وهو يخفض عينيه :

— حزينة جداً يا صاحب الجلالة : اخلاء موسكو .

سأل الامبراطور فجأة في انتفاضة غضب .

— هل سلمت عاصمتي القديمة دون قتال ؟

نقل اليه ميشو باحترام رسالة كوتوزوف التي أورد فيها بصورة خاصة ان

كل معركة عند اسوار المدينة مستحيلة وان الماريشال عندما وجد نفسه مخيراً بين خسران الجيش وموسكو أو خسران موسكو وحدها ، فضل خسارة المدينة.

كان الامبراطور يصغي بصمت دون ان ينظر الى ميشو ثم سأل :

— وهل دخل العدو المدينة ؟

فقال ميشو بلهجة مطمئنة :

— نعم ياصاحب الجلالة ، وهي الآن رماداً في هذه الساعة . غادرتها وهي تحترق .

لكنه عندما نظر الى وجه الامبراطور ، ذعر للأثر الذي خلفته كلماته فيه .

كان الامبراطور لاهثاً ترتعد شفته السفلى وقد امتلأت عيناه الجميلتان الزرقاوان بالدموع .

لكن ذلك لم يدم اكثر من لحظة . قطب حاجبيه فجأة وكأنه يأخذ على نفسه ضعفها ورفع رأسه ثم قال لميشو بصوت حازم :

— ارى ايها الزعيم من كل ما وقع ، ان المشيئة الالهية تتطلب مناتضحيات جمة .. انني على استعداد للخشوع لكل ارادتها . ولكن قل لي ياميشو ، كيف غادرت الجيش وهو يرى هكذا ، دون اية مقاومة ، عاصمتي القديمة تُخلى ؟ الم تلاحظ شيئاً من خمود العزم ؟..

ولما رآى ميشو ان « عاهله الجواد » استرد هدوءه ، هدأ بدوره . لكن ارتباكه عاد عندما طرح عليه الامبراطور سؤالاً دقيقاً لم يكن قد أعد الرد عليه من قبل . التمس كسباً للوقت :

— ياصاحب الجلالة ، هل تسمح لي بان اكلمك بصراحة كعسكري وفي ؟

فاستأنف الامبراطور يقول :

— انني أتطلب الصراحة دائماً ايها الزعيم . لاتخف عني شيئاً ، اريد مهما كلف الامر ان اطلع على حقيقة الواقع .

فقال ميشو وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة لا تكاد ترى اذ نجح في ان يعطي جوابه صيغة التلاعب بالكلمات الخفيفة المحترمة :

ــ ياصاحب الجلالة ! ياصاحب الجلالة ! لقد تركت الجيش ابتداء من ضباطه وحتى آخر جندي فيه ، في رهبة مريعة مخيفة دون استثناء ..

فقاطعه الامبراطور وقد زوى حاجبيه بعنف :

ــ كيف ذلك ؟ هل ينهار روسيّوي بفعل المصيبة ؟.. ابداً !..

لم يكن ميشو يتوقع الا هذا لينعم بنجاح لعبة الكلام التي اعدها فقال وعلى وجهه ابتسامة تنم عن الاحترام :

ــ ياصاحب الجلالة ، انهم يخشون فقط ان تندفعوا جلالتكم بطيبة قلبكم الى عقد الصلح .

وأكد مبعوث الشعب الروسي :

ــ انهم يتحرقون شوقاً للقتال ، ليبرهنوا لجلالتكم بتضحية حيواتهم ، مدى تفانيهم في سبيلكم ...

فقال العاهل المطمئن وقد التمعت عيناه ببريق مهدهد وربت على كتف ميشو بمودة :

ــ آه لقد طمأنتني يازعيم :

وأطرق الامبراطور برأسه وظل بضع لحظات صامتاً وفجأة قال وهو ينصب قامته المديدة ويخاطب ميشو بلهجة مفعمة بالبشاشة والعظمة :

ــ حسناً ، عد الى الجيش وقل لبواسلنا ، قل لكل اتباعنا الطيبين حيثما تمر ، انني عندما لا يبقى جندي واحد ، سأضع نفسي شخصياً على رأس طائفة النبلاء الغالية وفلاحي الطيبين ، وسأنحو على هذا المنوال حتى آخر قطرة من موارد ملكي .

وهتف وهو يزداد حماساً :

ــ ان ملكي يقدم لي من الامكانيات اكثر مما يفكر اعدائي .

واردف وهو يردف عينيه الجميلتين اللامعتين من الانفعال نحو السماء :

ـ ولكن ، اذا صدف وكان مكتوباً في الواح القدر ان ذريتي لن تستمر في اعتلاء عرش أجدادي ، حينئذ ، وبعد ان استنفذ كل الامكانيات الكائنة تحت سلطتي ، سأطلق لحيتي حتى تصل الى هنا ـ وأشار بيده الى منتصف صدره ـ وسأمضي لتناول البطاطا مع الاخير من فلاحي مملكتي على ان اوقع العار وامتي العزيزة التي أعرف كيف أقدر تضحياتها . .

نطق الامبراطور بهذه الكلمات بصوت مضطرب ثم ، وكأنه يرغب في اخفاء الدموع التي ملأت عينيه عن ميشو ، استدار ومضى الى أقصى مكتبه . وبعد ان تمهل هناك بضع لحظات ، عاد بخطى واسعة نحو ميشو وضغط على ذراعه فوق المرفق بيد قوية . وكان وجهه الهادىء الجميل متورداً وعيناه تلتمعان بنار العزم والحفظة . قال وهو يقرع صدره :

ـ ايها الزعيم ميشو ، لاتنسى ماأقوله لك هنا . لعلنا ذات يوم سنستعيد ذكراه بسرور . . نابوليون او انا . لايمكن لنا بعد الآن ان نملك معاً . لقد تعلمت كيف أعرفه ، ولن يخدعني بعد الآن . .

وصمت الامبراطور مقطب الحاجبين . ولقد تأثر ميشو بما قاله منذ حين وبامارات وجهه الحازمة الثابتة . ولقد شعر في تلك اللحظة الجليلة « وهو الروسي قلباً وروحاً رغم انه غريب » ـ وتلك هي عبارته في مذكراته ـ بتحمس لكل ما سمعه من أقوال . فكان شعوره الشخصي مضافاً الى شعور الشعب الروسي الذي كان يعتبر نفسه بمثابة الناقل لارادته همـــا ماظهرا في جواب ميشو الذي قال :

ـ ياصاحب الجلالة ، ان جلالتكم في هذه اللحظه ، توقعون على مجد الامة وخلاص اوربا .

فصرفه الامبراطور باشارة من رأسه .

الفصل الرابع

مهمة روستوف

نحن نتصور رغم أنفسنا ، لأننا لم نعش في تلك الفترة التي كانت نصف مساحة روسيا محتلة وكان سكان موسكو يفرون منها الى أعماق الاقاليم النائية وذوو الشأن يجندون الرجال على نطاق واسع للدفاع عن البلاد ، ان كل الروسيين ، من احطهم قدراً حتى أرفعهم شأناً ، ما كانوا يفكرون الا في التضحية بأنفسهم في سبيل انقاذ الوطن او البكاء على ضياعه . والواقع ان كل الروايات عن تلك الحقبة ، دون استثناء ، مليئة بأعمال التفاني والحب الوطني واليأس والمرارة والبطولة بين الروسيين ، لكن الحقيقة لم تكن هذه . ان الامور تتخذ هـــذا الشكل لأننا لانرى في الماضي الاجانبه التاريخي الذي يجعلنا نتغاضى عن الجانب الانساني وعن المصالح الشخصية للافراد . ان المصالح الشخصية تأخذ ، في حينه معنى يختلف في شدة أهميته عن معنى الصالح العام دون أن يشعر بذلك احـد . لم يكن السواد الاعظم من اناس ذلك العصر يدركون سير الاحداث لشدة انشغالهم بمصالح الساعة الخاصة . مع ذلك ، فان هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين كانوا باعثي تلك الاحداث الحقيقيين .

كان اولئك الذين يحاولون فهم سياق الاحداث والذين يريدون المساهمة فيها بعقلية تجنح الى التضحية وأعمال البطولة ، الأعضاء الأقل نفعاً في المجتمع . كانوا يرون الأشياء على عكس مايراها الآخرون فيبدو ما يعملونه بنية حسنة ،

أشبه بالتفاهة والبلاهة. مثلاً فيلقا بيير و مامونوف ونهبها للقرى الروسية والنسيل الذي كانت السيدات تعده والذي لم يكن يصل الى الجرحى قط الخ . . .
بل ان اولئك الذين كانوا يحاولون اظهار فهمهم وعواطفهم وهم يناقشون موقف روسيا الحقيقي ، كانوا يظهرون في احاديثهم برغمهم ، تنويها ، سواء بالتكاف او بالمبالغة او الكذب ، او يأتون بأحكام خبيثة لاطائل تحتها ، فيدينون بعض الرجال حيث لامجال لإدانة احد . ان الأكثر بداهة في الاحداث التاريخية . هو ممنوعية لمس ثمرات شجرة العلم . والتصرفات اللاشعورية وحدها هي التي تبلغ درجة النضوج . اما الرجل الذى يلعب دوراً في حدث تاريخي ، فانه لا يفقه قط مدلوله . وهو ماان يحاول التعمق في فهمه حتى يجدبه فيصبح عقيماً .

ولقد كان مدلول مايحدث حينذاك في روسيا اقل وضوحاً بالنسبة الى رجل يساهم فيه عن قرب منه بالنسبة الى سواه . ففي بيتر سبورج والاقاليم الواقعة على مسافة بعيدة من موسكو ، كان سادة وسيدات في زي المتطوعين الانيق يتوجعون على مصير روسيا والعاصمة ويتحدثون عن التضحية بحياتهم واشياء اخرى ولكن في الجيش الذي هجر موسكو ، ما كانوا يتحدثون عن موسكو تقريباً ولا يفكرون فيها . بل انهم حتى وهم ينظرون الى الحريق ، ماكان احد يقسم على الانتقام من الفرنسيين لقد كان كل منشغلاً في الدفعة ثلث الشهرية المقبلة من راتبه والمرحلة القادمة وفي ما تريوشكا بائعة المؤن ، الخ .

لقد كان نيكولا روستوف الذي فاجأته الحرب وهو يؤدي خدمته العسكرية لا يشعر قط بوجوب التضحية بحياته . مع ذلك ، فقد كان يضطلع بنصيب عملي في الدفاع عن وطنه وينظر الى الاحداث وهي تتعاقب في غير يأس ولا تختم متشائمة . فلو سألوه رأية عن موقف بلاده الحالي ، لأجاب بأنه ليس عليه ان يفكر فيه ، وان كوتوزوف وآخرين هم موجودون لمثل هذا العمل ولكنه ، بالنظر الى انه سمع

باعادة تشكيل الفيالق والافواج الناقصة ، فانه يعتقد بانهم سيحاربون ، وقتاً آخر طويلاً وانه في الظروف الحاضرة ، لن يصعب عليه في غضون عامين آخرين ان يترأس فيلقاً .

وبفضل هذه الطريقة في تصور الأمور ،قبل بسرور مهمه السفر الى فورونيج لاستكمال الخيول افرقته ليس ان يأسف على عدم استطاعته الاشتراك في المعركة الاخيرة فحسب ، بل وانه اظهر ابتهاجه بالذهاب ووجد زملاؤه ذلك منه طبيعياً تماماً .

تلقى نيكولا قبل أيام قليلة من معركة بورودينو المال والأوراق اللازمة وأرسل طليعة من الفرسان تسبقه ،ثم استقل هو نفسه عربة البريد الى فورونيج.

ان الذي مرت به هذه الظروف ، اي الذي ظل خلال أشهر متتالية في جو الحرب وحياة المعسكرات ، يستطيع وحده ان يفهم البهجة التي احس بها نيكولا وهو يغادر منطقة الجيوش بنواجعها وقوافل الارزاق فيها ومستشفياتها النقالة . ولما وجد نفسه بعيداً عن الجنود وعربات النقل والنفايات المتخلفة عن المعسكرات ورآى من جديد القرى عامرة بالفلاحين والفلاحات وبيوت الأسياد والحقول حيث ترعى القطعان ، ومنازل عربة البريد بنظارها نصف النائمين ، استخفه الفرح وكأنه يرى هذه الاشياء للمرة الاولى . والذي أدهشه وفتنه بذات الوقت ، كان مشهد النساء . كن فتيات صحيحات الاجسام لايحيط بكل منهن « دزينة » من الضباط ، سعيدات راضيات عن دعاباته كضابط عابر سبيل .

وصل نيكولا ليلاً الى نزل فورونيج وكان على أفضل مزاج فأمر لنفسه بكل ما كان محروماً منه في الجيش . وفي اليوم التالي ، بعد ان أزال لحيته ، ارتدى أجمل ثوب لديه لم يكن قد لبسه منذ أمد طويل ، ومثل لدى الحاكم .

بدا قائد المتطوعين ، وهو جنرال مدني عجوز ، مفتوناً حقاً بثوبه ورتبته

استقبل نيكولا بوجه جاهم يعتقد انه ضرورة ملازمة لمثل منصبه ، وسأله بلهجة ذي النفوذ ، وكأن له الحق بالسؤال أو كان هناك لفحص الموضوع وتقبله او رفضه . ولقد كان مزاج نيكولا على غاية من الصفاء حتى ان بعث المرح في نفسه .

انتقل الى مكتب الحاكم بعد ان غادر قائد المتطوعين . وكان الحاكم رجلاً قصير القامة نشيطاً لطيفاً وبسيطاً . دل نيكولا على المرابض التي يستطيع ان يحصل على الجياد منها وزكى له وسيطاً ماهراً في المدينة ومالكاً يقطن على بعد عشرين فرسخاً ، يستطيع ان يجد عنده افضل الافراس . وبالايجاز ، قدم له الحاكم كل عون .

قال له وهو يستأذن في الانصراف عنه :

ـ انت ابن الكونت ايليا اندرييفيتش ؟ لقد كانت زوجتي صديقة حميمة لأمك . انني أستقبل الزوار في بيتي كل يوم خميس . ولما كان اليوم يوم خميس ، فارجو ان تحضر دون حاجة الى رسميات .

ولدى خروجه من عند الحاكم ، إستقل نيكولا عربة بريد ومضى يصحبه رقيب طليعته لزيارته المالك على بعد عشرين فرسخاً ومعاينة خيوله . لقد كان كل شيء في بدء إقامته في فورونيج مسلياً وسهلاً بالنسبة اليه وسار كل شيء على ما يرام بسبب مزاجه المشرق وحده .

كان المالك الذي ذهب نيكولا لزيارته ضابطاً قديماً في سلاح الفرسان ، عزباً مخشوشناً ، عليماً خبيراً بالجياد نقية الدم ، صياداً ومالكاً لكحول الخوخ الذي مر على تقطيره مائة عام ولخمر هنغاري معتق وخيول أصيلة رائعة .

اشترى نيكولا دون مساومة سبعة عشر مهراً منتقاة كانت ستساعد على حد قوله في إبراز كتيبته الراكبة ، ودفع ستة آلاف روبل وبعد ان تناول طعاماً جيداً أترعت فيه الخمرة الهنغارية ، عانق المالك الذي بات يخاطبه بصيغة المفرد

وعاد يجتاز طرقاً قطيعة دون ان يخسر شيئاً من مزاجه الرائق وأخذ يحث سواقه باستمرار كي يصل في الوقت المناسب ويحضر سهرة الحاكم .

وبعد ان بلل رأسه بالماء البارد ، أبدل ثيابه وتعطر ثم دخل بيت الحاكم رغم تأخره عن الموعد وفي رأسه هـــذه الجملة المعدة : التأخير أفضل من عدم الحضور .

لم تكن السهرة راقصة كما لم يعلن أحد عن رقص خلالها . ولكن كل مدعو كان يعرف ان كاترين بيتروفنا ستعزف على بيانها مقطوعات فالس وإيقوسيات وأنه بالتالي لابد من الرقص . لذلك فقد توافدت السيدات في ثياب الرقص .

كانت حياة الأقاليم عام ١٨١٢ شبيهة تماماً بالحياة المألوفة فيها مع فارق واحد هو ان الحميا قد زادت في المدينة بسبب توافد اسر غنية عديدة من موسكو وأنه كان يخيم في كل مكان ـ وهي ميزة إختص بهـا ذلك العهد التذكاري ـ اسراف كبير تبعاً للمثل القائل : بعدي الطوفان : وانه بدلاً من المحادثات الفارغة حول المطر والصحو وصحة الأشخاص من المعارف التي لابد عنها في مثل هذا الظرف كان الحديث يدور حول موسكو والحرب ونابوليون .

كان الأشخاص المجتمعون لدى الحاكم باقة مجتمع فورونيج .

كان هناك عـــدد كبير من السيدات عرف نيكولا كثيرات منهن في موسكو ولكن لم يكن هناك رجل واحد ينافس فارس وسام القديس جورج فارس التعبئة اللامع وبنفس الوقت اللطيف المعتبر الكونت روستوف . وكان بين الرجال أسير إيطالي من الجيش الفرنسي فشعر نيكولا بوجود هذا الأسير برفعة قيمته الشخصية بوصفه بطلاً روسياً ، فكان ذلك بالنسبة اليـه أشبه بالنصر والافتخار . ولما تملكه هذا الشعور ، خيل اليـه ان كلاً من الموجودين يرى الأمر كما يراه لذلك فقـــد أظهر حيال الايطالي غاية من التأدب المفعم بالحرص والترفع .

لم يلبث روستوف إثر دخوله في زي الفرسان ناشراً حوله موجات من العطر والخمرة الجيدة وبعد ان كرر مرات عديدة عبارته : التأخر أفضل من التخلف وأعيد ذكرها مراراً ، ان احيط بجمع غفير وحطت الانظار كلها عليه فشعر فجأة بأنه مصطفى كل هؤلاء الاقليميين ، الأمر الذي يكون مقبولاً دائماً والذي كان اكثر تقبلاً عنده بسبب حرمانه الطويل من ذلك الاحساس المسكر بالوقوع موقع الرضى في النفوس . ففي المراحل التي قطعها والمنازل التي حل فيها وكذلك لدى المالك المولع بالموسيقى ، اعجبت الخادمات بالتفاتاته . أما هنا ، في سهرة الحاكم ، فقد راح عدد كبير من السيدات الشابات والاوانس ـ على ما بدا له ـ ينتظرن بصبر نافذ ان يتنازل بالألتفات نحوهن . كانت السيدات والاوانس يتحدثن بظرف معه ، وبنفس الوقت لم يعد للكهول من شاغل الا تزويج هذا الفارس الانيق . وكانت زوجة الحاكم نفسها في عداد هؤلاء « ولقد استقبلت روستوف وكأنه أحد الاقارب المقربين ولم تلبث ان راحت تخاطبه بصيغة المفرد وتناديه باسمه المجرد « نيكولا » .

بدأت كاتيرين بيتروفنا بالفعل تعزف الفالس والايقوسيات ، وبدأ الرقص فأسر نيكولا ببراعته كل هذا الجمع من الاقليميين اكثر فأكثر . لقد أدهشهم بطريقته الطليقة الرشيقة في الرقص حتى انه نفسه فوجيء باندفاعه . انه لم يرقص قط مثل ذلك في موسكو بل انه كان قميناً بان يجد هذه الطريقة الطليقة مبتذلة ورديئة . لكنه هنا شعر بحاجته الى ادهاش الموجودين جميعاً وان يعمل شيئاً خارقاً يعتبرونه ابتكاراً من العاصمة لم يبلغ الاقاليم بعد .

لم تتوقف أنظار نيكولا خلال السهرة كلها إلا على شقراء فاتنة سامنة ذات عينين زرقاوين ، كانت زوجة أحد الموظفين في المنطقة . وكان روستوف ممتلئاً بتلك الثقة الساذجة التي للشبان المشتطين في المرح الذين يعتقدون ان نساء الغير

صنعن من اجلهم . لذلك فانه لم يفارق تلك السيـدة لحظة واحدة وراح يعامل زوجها في الفة انيسة بل وفي شيء من التآمر وكأنهما يهادون ان ينطقا به ، يعرفان مدى التفاهم الذي سيجمع بينه هو ، نيكولا ، وبين زوجة هذا الزوج . غير ان الزوج رغم ذلك لم يكن يبدو عليه انه يشاطره هذا الاعتقاد قط فكان يعمل جاهداً على لقاء روستوف بوجه عبوس . لكن سلامة طوية نيكولا كانت متخطية كل حد حتى ان الزوج كان احياناً يرى نفسه رغماً عنه مدفوعاً الى مشاطرته ذلك الاعتقاد وفي تلك الاثناء ، كان وجه الزوجـة يزداد حيوية وتضرجاً كلما شارفت السهرة على نهايتها ، بخلاف وجه الزوج الذي كان يزداد كآبة ورزانة ، وكأن جرعة البهجة محدودة كلما اوفت على جانب منها هبط مستوى المتبقي منها .

★ ★ ★

الفصل الخامس

مشروع زواج

استلقى نيكولا مبتهجاً على مقعده وقد افرط في الاقتراب من المرأة الشقراء الشابة وراح يغدق عليها كل أنواع الاطراء .

كان لايني يعقد ساقيه ويبسطها وهما ملفوفتان في سراويل ركوب ضيقة الأكام ، تفوح منه رائحة طيبة ، يتأمل السيدة فخوراً بنفسه وبشكل حذائيه الانيقين ، يحدث الشقراء بأنه ينوي هنا في فورونيج ، اختطاف سيدة معينة .

ــ واية سيدة ؟

ــ اكثرهن فتنة وكما لا . عيناها ــ ونظر نيكولا الى جارته ــ زرقاوان وفمها مرجاني وبشرتها . . ــ ونظر الى كتفيها ــ وقامتها تشبه قامة ديانا . .

واقترب الزوج وسأل زوجته عن موضوع الحديث وهو كالح الوجه . فقال نيكولا وهو ينهض بأدب :

ــ آه ! ها أنتذا يانيكيتا ايفانيتش .

وكأنه كان راغباً في اعلامه بفحوى دعابته ، إذ راح يشرح له نيته في اختطاف شقراء معينة .

ضحك الزوج ضحكة مغتصبة والزوجة بانشراح . واقتربت ربة البيت العطوف وعلى وجهها امارات لومه وقالت :

حریق موسکو

ــ ان آنّا اينياتييفنا تودّ ان تراك . هيا يانيكولا ، انك تسمح لي ان اناديك كذلك أليس كذلك ؟

وضغطت على كلمتي انّا اينياتييفنا بشكل خاص جعل روستوف يدرك على الفور انها سيدة مهمة . قال يجيبها على سؤالها :

ــ بالطبع ياعمتاه . من هي ؟

ــ هي آنّا اينياتييفنا مالفنتسيف . ولقد تناهى اليها ذكرك عن طريق ابنة اختها التي انقذتها .. هل تخمن من هي ؟

هتف نيكولا :

ــ لقد انقذت الكثيرات !

ــ ان ابنة اختها هي الأميرة بولكونسكي . انها هنا في فوروننيج مع خالتها اوه ! اوه ! كم تضرج وجهك ! هل هناك شيء ما ؟ ..

ــ أبداً ، اوه ! أبداً ياعمتاه .

ــ هيا ، حسناً .. اوه ! كم تبدو فتى مضحكاً !

قادته امرأة الحاكم قرب امرأة مديدة القامة ضخمة الجثة ترتدي قلنسوة زرقاء ، كانت قد انتهت لتوها من لعب الورق مع أرفع شخصيات المدينة شأناً وكانت هذه هي السيدة مالفنتسيف ، خالة الأميرة ماري ، أرملة غنية لا أولاد لها ، تقضي العام كله في فورنيج . وكانت واقفة تدفع ديونها عندما اقترب روستوف فنظرت اليه وهي تطرف بعينيها باهتمام ثم استمرت تعرب عن استيائها للجنرال الذي هزمها في اللعب .

قالت وهي تمسك يده :

ــ تفتنني معرفتك ياعزيزي . ادخل السرور على نفسي بالمجيء لزيارتي .

وبعد ان فاهت ببضع كلمات عن الأميرة ماري وأبيها المرحوم الذي لم يبد

عليها انها تحبه ، وبعد ان سألته عما اذا كانت لديه انباء عن الأمير آندريه الذي بدا هو الآخر غير مرضي عليه كل الرضا من طرفها ، صرفته السيدة العجوز الرفيعة وهي تكرر دعوتها .

وعد نيكولا بان يزورها واحمر وجهه مرة اخرى وهو ينحني للسيدة مالفنتسيف . كان يشعر وهو يسمع الحديث عن الأميرة ماري ، بشعور لا يستطيع تفسيره ، شعور يمتزج فيه الارتباك بالخوف .

أراد نيكولا بعد ان غادر السيدة مالفينتسيف ان يلحق بجلبة الرقص لولا ان يد زوجة الحاكم السمينة انحطت على ذراعه . قالت له ان لديها ما تحدثه به وقادته الى مخدعها فلم يلبث الموجودون في المخدع ان خرجوا متسللين .

قالت زوجة الحاكم وعلى وجهها الصغير الطيب امارات الجد :

– حسناً ياعزيزي ، هل تعرف تماماً الزوجة اللازمة لك ؟ هل تريد ان اتحدث باسمك ؟

فاستعلم نيكولا :

– من هي ياعمتاه ؟

– الأميرة . ان كايترين بيتروفنا تقول ان ليلي تناسبك . لكنني أرى انا الأميرة افضل . هل ترغب في ان أتدخل بالأمر ؟ انني واثقة من ان امك ستشكرني . انها فتاة فاتنة حقاً ! ثم انها ليست دميمة الى هذا الحد !

ردد نيكولا وهو يشعر بشيء من المهانة :

– مطلقاً ! انا ياعمتاه ، بصفتي عسكريا ، لا اطلب ولا ارفض شيئا ابدا .

ولقد اضاف هذه العبارة دون ان يدع لنفسه وقتاً للتفكير فيما يقول .

– حسنا ، فكر اذن . انها ليست دعابة .

– ماهو الذي ليس دعابة ؟

قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ــ كلا ! كلا . ثم ، في عرض الكلام ياعزيزي ،انك شديد الدأب بالقرب من الاخرى ، الشقراء ، ان الزوج يثير الشفقة حقاً ..

فاعترض نيكولا ببساطة قلبه :

ــ ولكن لا ، لا ، اننا اصدقاء ممتازون . ما كان يخطر له على بال ان هذه الطريقة بقضاء الوقت ، المستحبة لديه كثيراً ، يمكن ان تكون غير ذلك بالنسبة الى الآخرين .

حدث نيكولا نفسه فجأة خلال العشاء : « ايةرعونة صدرت عني فيحديثي مع زوجة الحاكم ? انها تريد ان تزوجني بجدع الانف . وسونيا ? » ولمااستأذن ربة البيت منصرفا ، وكررت له باسمة : « فكر في الموضوع جيداً » ، انفرد بها وقال :

ــ على اية حال ياعمتاه ، يجب ان اقول لك ..

ــ ماذا ياصديقي ? تعال من هنا ، لنجلس .

شعر نيكولا فجأة بالحاجة الملحة الى الافضاء بمكنونات نفسه الى هــــذه المرأة المجهولة منه تقريباً وان يقول لها مالم يكن ليصرح به الى امه او الى اخته او صديقه . ولما تذكر فيما بعد هذه النوبة من الاخلاص التي لايبررها مبرر ، خيل اليه ــ كما يبدو دائماً ــ انه ارتكب حماقة جسيمة . مع ذلك ، فان هذه النوبة من الاخلاص ، اضافة الى بعض الوقائع الصغيرة الاخرى ، عادت عليه وعلى ذويه كلهم بنتائج جسيمة . قال :

ــ اليك الموضوع ياعمتاه . ان امي تود منذ زمن بعيــد ان تزوجني فتاة غنية . لكن هذه الفكرة وحــدها تثير اشمئزازي . انني لا اريد ان اتزوج كسباً للمال .

فقالت زوجة الحاكم :

ــ اوه ! انني افهم تماما .

ــ بيد أن الاميرة بولكونسكي شيء آخر : اولاً ، اعترف لك بأنها تعجبني كثيراً ، انها توافق قلبي . ومنذ ان قابلتها في ملابسات شديدة الغرابة ، مازلت افكر دائماً في انها مشيئة القدر . فكري معي : لقد كانت امي تفكر فيها منذ زمن بعيد وانا ، ما كنت اجد المناسبة لمقابلتها . ولست ادري كيف كان يقع ذلك ، لكننا ما كنا نتقابل قط . وطالما كانت اختي ناتاشا مخطوبة لاخيها ، ماكنت استطيع الاقتران بها . ولقد كتب ان لااقابلها الا بعد ان فصمت عرى زواج ناتاشا ، وبعد كل شيء .. نعم كل ما .. انني لم اتحدث بهذا قط الى انسان ولست اريد التحدث عنه . انك وحدك ..

ضغطت زوجة الحاكم على مرفقه بحركة متوددة .

ــ هل تعرفين ابنة عمي سونيا ؟ انني احبها ولقد وعدتها بالاقتران بها وسأتزوجها ..

ثم اعقب وهو متردد والحمرة تغزو وجهه :

ــ بذلك ترين انه لايجب التفكير في هذا الموضوع .

ــ ياعزيزي ، ياعزيزي ، ماهذا القول ؟ ولكن تمعن ، ان سونيا لا تملك شيئاً . وانت نفسك تقول ان امورأبيك في حالة سيئة . ثم امك ؟ ان مثل هذا الزواج سيقتلها . كن واثقاً من ذلك ، اما فيما يتعلق بسونيا ، ماذا ستكون حياتها اذا كانت ذا قلب حساس ؟ امك في يأس وثروتك في خطر . . كلا ياعزيزي ، يجب ان تفهما الامور ، سونيا وانت .

صمت نيكولا اذ كانت هذه الاستنتاجات لاتروقه قط . قال بعدفترةصمت :

ــ على كل حال ياعمتاه ، ان هذا لايمكن ان يكون . ثم هل ترغب الاميرة

بي زوجاً .. اضف الى ذلك انها في حداد . هل يمكن مجرد التفكير في الامر ؟

قالت زوجة الحاكم :

– وهل تتصور انني سأزوجك من فوري ؟ هناك وسيلة ووسيلة .

فقال نيكولا وهو يقبل يدها السمينة :

– يالك من مزوجة بارعة ياعمتاه ..

* * *

الفصل السادس

الزيارة الاولى

بعد لقائها بنيكولا روستوف ، وجدت الاميرة ماري عند وصولها الى موسكو ، ابن اخيها مع مربيه ورسالة من الامير اندريه يشرح لها فيها خط المسير لتصل الى فورونيج ، عند عمتها مالفنتسيف . ولقد كبتت مشاغل الرحلة والقلق الذي تشعر به بسبب اخيها وأقامتها في مسكن جديد والوجوه الجديدة والعناية التي وجب ان تصرفها في تثقيف ابن اخيها ، كل ذلك كبت في نفسها ذلك اللون من السأم الذي ناءت به طيلة فترة مرض ابيها وبعد موته وخصوصاً منذ ان تعرفت على روستوف . لقد كانت حزينه . وكانت خسارة ابيها تختلط في قلبها بخسارة روسيا . والآن ، بعد ان قضت شهراً في هدوء عميم ، بات حزنها اشد ايلاماً من أي وقت مضى . كانت تشعر انها مهمومة وفكرة الخطر الذي يتعرض له اخوها ، المخلوق الأقرب اليها الذي بقي لها ، لاتني تعذبها . وكانت تعنى كل العناية بتثقيف ابن اخيها ، وهى المهمة التي مافتئت تعتبر نفسها عاجزة عن انجازها . لذلك فقد اتخذت في اعماق نفسها قرارا بخنق الاحلام والآمال التي ايقظها لقاؤها مع روستوف في نفسها .

في اليوم التالي للسهرة ، جاءت زوجة الحاكم الى بيت السيدة مالفنتسيف وتناقشت معها في خططها بعد ان اخطرتها بان الامر في الظروف الحاضرة لايعني خطوبة رسمية بل مجرد الجمع بين الشابين والسماح لهما بالتعارف . ولما

حصلت على موافقة الخالة ، راحت زوجة الحاكم تتحدث عن روستوف امام ماري فتمتدحه وتروي كيف انه تضرج وجهه عندما نطقت باسم الاميرة . اما ماري ، فقد شعرت بضيق بدلاً من شعورها بالفرح لأن عزمها القلبي اخذ ينهار من جديد ليترك المجال للرغبات والشكوك واللوم والآمال .

ظلت الأميرة ماري خلال اليومين التاليين تنتظر زيارة روستوف وهي لاتني تفكر في الموقف الذي ستتخذه حياله . فحيناً تقرر ان لاتظهر في البهو عندما يحضر لزيارة خالتها ، لأنه لايليق بها ان تتقبل الزيارات بسبب حدادها ، وحيناً تفكر ان ذلك سيكون غلطه من جانبها بعد الذي عمله من أجلها . تارة تواتيها فكرة ان لخالتها ولزوجة الحاكم وجهات نظر معينة تتعلق بها وبروستوف اذ كانت نظراتها وأقوالها تؤيد هذا الافتراض أحياناً ، وتارة تحدث نفسها بأنها مخطئة بالتفكير على هذا النحو : ألا يجب ان تفكر هاتان السيدتان بأن أفكاراً تتعلق بالزواج تعتبر ، وهي في وضعها الراهن لم تنزع بعد شارة الحداد اهانة ليس لها فحسب ، بل لذكرى ابيها كذلك ؟ وعندما تفكر انها تتقدم نحوه ، كانت الأميره ماري تسمع سلفاً الكلمات التي سيقولها والتي ستجيبه بها فكانت تلك الكلمات تبدو لها تاره على جمود لايحتمل وطوراً حافلة بشتى المعاني وفضلاً عن ذلك ، كانت تخاف الاضطراب الذي تشعر به والذي سيستولي ولا بد عليها فيفضحها للنظرة الاولى .

ولكن عندما جاء الخادم الى البهو بعدصلاة يوم الأحد يعلن قدوم الكونت روستوف ، لم تظهر الاميرة ماري أي ارتباك باستثناء الحمرة الخفيفة التي صبغت وجنتيها والتماع عينيها ببريق أشد وميضاً .

سألت الاميرة ماري بصوت هادىء وقد دهشت هي نفسها لقدرتها على الظهور بمثل هذا السكون وعلى مثل هذا المظهر الطبيعي :

- هل رأيته من قبل ياخالتي ؟

دخل روستوف الى الحجرة فخفضت الأميرة رأسها وكأنها تتيح الوقت للزائر لتقديم مجاملاته الى خالتها ، ثم رفعت جبهتها في اللحظة نفسها التي استدار فيها نحوها فلاقت عيناها المتوهجتان نظرته . نهضت بابتسامة مرحة ومدت له يدها الدقيقة الرخصة بحركة كيسة جديرة بها وراحت تتحدث بصوت اهتزت فيه لأول مرة نبرات نسوية وعميقة ، فنظرت الآنسة بوريين التي كانت موجودة في البهو، الى الأميرة ماري بدهشة لأن أية غنية ماجنة ما كانت تستطيع التصرف على نحو أفضل لدى ظهور رجل تريد ان تروق في عينيه .

تساءلت الآنسة بوريين : « أهو اللون الأسود الذي يناسب وجهها أم تراها اكتسبت جمالاً دون ان ألاحظ ؟ من أين لها بهذا الظرف وهذه اللباقة ؟ »

ولو أن الأميرة ماري كانت في تلك اللحظة في حالة تفكير، لدهشت أكثر من الآنسة بوريين نفسها للتغيير الذي طرأ عليها . لم تكد ترى ذلك الوجه الفتان الذي تحبه حتى تملكتها حياة قوية جديدة وجعلتها تتصرف وتتحدث تبعاً لقوتها. لقد تحول وجهها فجأة ودبت الحياة في تقاطيعها ، كمثل زجاج مصباح رسم عليه فنان خطوطاً خشنة قاتمة ومحرومة من أي معنى ، لا يكاد يضيء داخله حتى تأخذ تلك الخطوط مظهراً أخـاذاً بجماله ، كذلك اصبحت تقاطيع الأميرة ماري جديدة في مظهرها . لقد بزغ الى فجر الحياة لأول مرة ما كان يعتلج في روحها النقيه من احساسات قلبية . اخذت حياتها النفسية كلها وكل مايسبب عذابهـا وآلامها واندفاعاتها نحو الخير والضراعة والحب والتضحية ، كل ذلك أخذ يتألق الآن في عينيها المشعتين وفي ابتسامتها وفي كل قسمة من قسمات وجهها الحاني .

ولقد أحس روستوف بذلك احساساً مسبقاً بلغ من شدة وضوحه انه بدا كأنه عرف حياة الاميرة ماري كلها . أدرك أن المخلوقة الماثلة أمامه تختلف كل

الاختلاف عن كل من صدفهن في حياته حتى الآن ، وانها أفضل منهن جميعـــا وبصورة خاصة أفضل منه هو .

لبثت المحادثة من أكثر الاحاديث سطحية. تكلموا عن الحرب وهم يبالغون في اظهار غمهم دون تعمد اسوة بكل الناس . وتكلموا عن مقابلتهم الاخيرة، فأظهر نيكولا لباقة ساعدته على الانتقال الى موضوع آخر ، فتحدثوا عن زوجة الحاكم وعن أقربائهم المتبادلين .

لكن الاميرة ماري لم تنبس ببكلمة عن أخيها بل سارعت بدورها تحول مجرى الحديث عندما نوهت خالتها بالامير آندريه في سياق الكلام ، وكان واضحاً أنها اذا كانت تستطيع أن تعبر عن آلام روسيا بعبارات اصطلاحيـة فان أخاها قريب جداً من قلبها حتى ليتعذر عليها أن تتحدث عنـه في عرض الحديث ، لاحظ نيكولا ذلك كما لاحظ بفراسة من قبل ان ذويه لايمكن ان يخمنوا درجات نفسية الامـــيرة ماري ، تلك الدرجات التي لم تزدالا رسوخ الاعتقاد فيه بانها امرأة ممتازة تماماً . لقد كان نيكولا يحس بمثل احساس الاميرة ماري لذلك كان يضطرب ويتضرج وجهه احمراراً كلما ذكروا الاميرة امامـه بل وكلما فكر فيها . لكنه في حضرتها كان يشعر بارتياح تام ويقول مايتوارد في ذهنه بساعته وليس ماأعد من قبل ويجد دائماً الكلمة المناسبة الصحيحة .

خلال زيارته القصيرة إقترب نيكولا في فترة صمت من ابن الأمير آندريه الصغير كما هي العادة دائماً كلما وجد في المكان أطفـال ولاطفه وسأله عما اذا كان يحب ان يصبح فارساً . ثم حمله بين ذراعيه وجعله يقفز ببهجة والقى نحو الأميرة ماري نظرة مختلسة . وكانت هذه تتبع الطفل الذي تحبـه بنظرة حانية سعيدة خجلى وهي بين زراعي الرجل التى تحبـه . فلاحظ نيكولا تلك النظرة واحمر وجهه من السرور وكأنه أدرك كنهها ثم قبل الصغير من كل قلبه .

ماكانت الأميرة ماري تخرج بسبب حزنها ، فقدر نيكولا انه ليس من المناسب تكرار الزيارة . لكن زوجة الحاكم لم تكف عن تدابيرها الخاصة بالزواج، وظلت تردد أمام نيكولا ماقالته الأميرة عنه من كلام مفتن، وللأميرة ما يقوله روستوف ، وهي تلح دائماً على روستوف ان يصارحها برغبته . بل انها نظمت لبلوغ هذه الغاية لقاء للشابين عند رئيس الكهنة قبل القداس .

ورغم ان روستوف أخطر زوجة الحاكم بأنه لن يعرب عن عزمه للأميرة ماري في ذلك اللقاء فانه وعد بالحضور .

ووقع الأمر كما قدر عندمالم يسمح روستوف لنفسه ان يشك في جودة وسمو ما يراه كل شخص كاملاً . وبعد صراع قصير ولكن مخلص بين الرغبة في تسويه حياته بشكل معقول والخضوع المتوجب عليه للظروف ، إختار الجانب الأخير واستسلم للقدر الذي كان يجرفه بقوة لاتقاوم كما كان يشعر . وكان يعرف أن إعلان عواطفه للأميرة ماري بعد وعوده ليسونيا ، يعتبر نذالة من جانبه ويعرف كذلك أنه لن يكون قط نذلاً . لكنه كان يعرف أيضاً من أعماق نفسه أنه إذا ترك الأشخاص يعملون والأشياء تجرفه إلى الأمام ، فانه لايرتكب بذلك سوءاً بل على العكس ينجز شيئاً بالغ الخطورة ، خطيراً لدرجة لا يمكن مقارنة كل ما عمله في حياته به .

لم يبد أي تغيير على شكل حياته الخارجي بعد مقابلته مع الأميرة ماري . مع ذلك فإن كل ما كان يفتنه من قبل أخذ يفقد فتنته . كان يفكر فيها غالباً مع ذلك لم يكن تفكيره في الأميرة ماري كمثل طريقته في التفكير بكل الفتيات اللاتي قابلهن في المجتمع ، كما انه لم يكن يشعر حيالها بالهوس الذي استولى عليه لفترة ما نحو سونيا . كان ككل الشبان الشرفاء تقريبا ، عندما يفكر بفتاة ، يرى فيها الزوجة المنتظرة ويميز في خياله شروط حياته العائلية :

الزوجة الجالسة قرب السماور في ثوب منزلي ابيض ، عربة السيدة ، الأولاد الذين يقولون ماما وبابا ، تعلق أحدهم بالآخر ، الى آخر ما هنالك وكانت هذه اللوحات عن المستقبل تملأه بالارتياح . لكنه عندما كان يفكر في الأميرة ماري التي يريدون ان يزوجوه بها ، لم يكن يستطيع ان يتخيل أية حياة زوجية : فكلما حاول التخيل ، بدا له كل ما أقامه خطأ وفي غير محله ، فكان ذلك يترك في نفسه شعوراً بالقلق العميق .

الفصل السابع

حرية نيقولا

بلغت انباء معركة بورودينو الرهيبة وخسائرنا الجسيمة بين قتلى وجرحى وكذلك إعلان خسارة موسكو مدينة فورونيج في أواسط ايلول . وعلمت ماري عن طريق الصحف بجرح أخيها . ولما كانت لاتعرف عنه شيئاً دقيقاً ، فقد استعدت للسفر بحثاً عنه كما تناهي الى نيكولا الذي لم يرها حين ذلك .

أما روستوف ، فان نبأ معركة بورودينو وهجران موسكو لم يحدث فيه يأساً ولا غضباً ولا رغبة في الانتقام ولا أي شعور آخر من هذا النوع لكنه أحس فجأة بسأم في فورونيج وأنه ليس في مكانه ولا كما يشتهي ،فكانت المحاضرات التي يسمعها حول هذا الموضوع تبدو له نشازاً . ماكان يعرف كيف يفكر في تلك الحال ،لكنه كان يظن ان الأمور ستنجلي له حال عودته الى فوجه . لذلك فقد عجل في الانتهاء من شراء الجياد وهو يتبرم كيفما اتفق من خدمه ورقيب كوكبته .

أقيم قبل سفره ببضعة أيام قداس جليل في الكاتدرائية إحتفالاً بنصر الجيوش الروسية حضره نيكولا . اتخذ لنفسه مكاناً وراء الحاكم قليلاً وعلى سيماه خطورة مصطنعة وحضر الاحتفال الديني وهو يفكر في شيء مختلف تماماً . فلما

انتهى القداس استدعته زوجة الحاكم وسألته وهي تشير الى شبح في ثياب سوداء وراء جوقة المرتلين :

ــ هل رأيت الاميرة ؟

عرف نيكولا على الفور الأميرة مــاري ليس بصورة وجهها الجانبية التي بدت تحت القبعة فحسب بل كذلك من شعور التحفظ والوجل والحنان الذي استبد به . وكانت على صدرها شارات الصليب الأخيرة قبل خروجها من الكنيسة وهي غارقة في انشغالها .

دهش لمرآى وجهها . لقد كان ذلك الوجه نفسه الذي يعرفه والذي نقشت عليه الأحاسيس الداخلية ، لكنه كان مشعــاً بضوء مختلف . إنه يحمل إمارات الحزن المؤثرة والصلاة والامل . وكما وقع له من قبل في حضرة الأميرة ماري لم ينتظر نيكولا موافقة زوجة الحاكم ليقترب نحوها كما لم يتساءل عما إذا كانت الآداب واللياقة تسمح له بالدنو من الأميرة مــاري في صلب الكنيسة ، بل مضى اليها وقال لها إنه علم بمصيبتها الحــــديثة وإنه يشاطرها الأسى من كل جوارحه .

ولم تكد تسمع صوته حتى اضاء وجهها نور متوهج ، نور أضاء حزنها وسرورها معاً . قال روستوف :

ــ كنت اعتزم ان أقول لك يا أميرة بأن الأمير آندريه نيكولا ييفيتش برأس فوجاً وأنه لو فقد حياته لنشرت الصحف ذلك .

نظرت اليه الأميرة دون ان تدرك كنه أقواله وهي شديدة السعادة بالحماسة التي قرأتها على قسمات وجهه .

أضاف روستوف :

ــ وأعرف امثلة كثيرة كانت فيها الجروح التي تحدثها القذائف ــ وكانت

الصحف تدعوها القنابل إذا لم تقتل لفورها ، تبـدو على العكس طفيفة . يجب التأمل بالأفضل واني واثق ان ..

فقاطعته الأميرة ماري وشرعت تقول :

ـ أوه ! سيكون ذلك شديد الهو . . ل . . !

وأطرقت برأسها بحركة كيّسة ككل الحركات التي تصدر عنها في حضوره وقد منعتها شدة التأثر عن إتمام جملتها ثم القت عليه نظرة عرفان وتبعت خالتها .

لم يذهب نيكولا ذاك المساء في زيارة الى أي مكان بل عكف في غرفته على ترتيب حساباته مع باعة الخيول . فلما فرغ من أعماله ، كان الوقت متأخراً جداً للخروج ومبكراً جداً للنوم لذلك فقد ظل يذرع غرفته وهو يفكر في مقدره ، الامر الذي ندر ان وقع له مثله .

لقد أحدثت فيه الأميرة ماري من قبل أثراً عنيفاً في سمولنسك . ولقد أدهشته الظروف الخاصة التي التقى بها فيها ،هي التي عنتها امه على اعتبارها أغنى زوجة يمكن الحصول عليها لذلك فقد راح يتأمل الفتاة بعناية خاصة . وفي فورونيج ، لم تترك زيارته لها ذكرى مستحبة في نفسه فحسب بل تركت كذلك تأثيراً قوياً . لقد حرك مشاعره جمالها الخاص ، الجمال الخافي الذي اكتشفه فيها وها هو ذا يستعد للرحيل دون ان تواتيه فكرة الأسف على مغادرته المدينة لأنه سيحرم من رؤيتها . لكن اللقاء الذي جرى له معها في الكنيسة ، كان ينقش صورة الأميرة في قلب نيكولا – وهو الذي لمس ذلك – نقشاً عميقاً اكثر مما كان يتوقع ، نقشاً أعمق مما كان يرجوه لراحته . . كان ذلك الوجه الدقيق الشاحب الحزين وتلك النظرة المشعة والحركات الموزونة المليئة بالانسجام وذلك الفم الضعيف العميق الذي تنطق به قسماتها ، كل ذلك كان يهز نيكولا ويستفز ميله . ما كان يستطيع احتمال رؤية دلالة تفوق فكري على وجه رجل – وهذا

هو سبب إمتناعه عن حب الأمير آنـدريه - كما كان يحس بالاحتقار لكل ما يدعوه فلسفة ولكل أصحاب الأوهام . لكن الحزن عنـد الأميرة ماري كان ينم عن عمق هذا العالم الفكري المجهول منـــه ، هذا العالم الذي يجذبه بقوة لاتقاوم .

حدث نفسه : « لاريب انها فتاة مدهشة ! ملك حقيقي . لماذا لست حراً لماذا تعجلت الى هذا الحد مع سونيا ؟ » وراح رغمـاً عنه يقارن بين الفتاتين . ففي الواحدة فقرها بهذه المواهب الفكرية التي يقدرها بقدر ما تنقصه هو شخصياً وفي الاخرى ، ثروتها منها . اخذ يحاول ان يتمثل ماذا كان سيتم لو وجد نفسه حراً من كل قيد . كيف كان سيعلن عن حبه لها؟ كيف كانت ستصبح زوجته ؟ ولكن ما فائدة التفكير فيها ؟ كان يشعر بالانزعاج فكانت هـذه الصور كلها تختلط أمام عينيه . لقد كانت لوحة حياته المقبلة مع سونيـا مخطوطة منذ أمد طويل ، وكل شيء فيها بسيط وواضح لأن كل شيء متوقع فيها ولأنه لايجهل شيئاً عن ابنة عمه . في حين انه مع الأميرة ماري عـاجز عن تكوين صورة المستقبل . انه لايفهمها بل يحبها فحسب .

ان يحلم في سونيا ، امر مبهج يشبه اللعب . اما ان يحلم في الأميرة ماري ، فشيء صعب بل ومخيف بعض الشيء .

حدث نفسه : « كيف كانت تصلي ! كان واضحـاً ان روحها كلها تنساب في صلاتها . صحيح ان الايمان ينقل الجبال واني واثق من صلاتها ستقبل . لماذا لا اسأل الله انا الآخر ما انا في حاجة اليه ؟ ولكن ، ماهي حاجتي ؟ ان اكون حراً ، ان أفصم علاقتي مع سونيا . لن ينجم عنهـا إلا مايؤسي : الارتباكات المالية ، حزن « ماما » .. هذه الهموم .. متاعب ، متاعب رهيبة . ثم انني لا احبها في اعماق نفسي . كلا ، لا احبها كما ينبغي . آه ! ياربي ! اخرجني من هذا

المأزق البشع الذي لامخرج له ! » وقال فجـأة وهو يبتهل رغم انفه : « نعم ، ان الايمان ينقل الجبال ، ولكن يجب ان تكون النفس مشبعة به لا ان نصلي كما نفعل نحن ، ناتاشا وأنا ، عندما كنا طفلين وكنا نسأل ان يصبح الثلج سكراً فما ان تنتهي الصلاة حتى نهرع الى الفناء لنرى ما اذا كان الثلج قد تحول الى سكر أم لا . كلا ، ليست هذه التفاهات هي ما يجب ان اسأله الآن . » بذلك كان يحدث نفسه وهو يضع غليونه في ركن ويمضي امام الصور المقدسة فيقيم معقود اليدين . ولقد تحنن لذكرى الأميرة مـاري ، فراح يصلي كما لم يفعل منذ أمد طويل . وكانت الدموع تنبجس من عينيه وتتصاعد الى حلقه عندما فتح لافروشا الباب وفي يديه بعض الاوراق .

هتف نيكولا وهو يبدل وضعيته بسرعة :

ـ ايها الغبي ، ماذا دهاك حتى تدخل عندما لايدعوك احد !

فقال لافروشا بصوت خامل :

ـ انه من لدن الحاكم . لقد وصل بريد يحمل رسالتين لك .

ـ حسناً ، حسناً جداً ، شكراً يمكنك ان تذهب .

اخذ نيكولا الرسالتين . كانت الواحدة من امـه والثانية من سونيا . وبعد ان تعرف على الخطوط ، فض رسالة سونيـا بادىء الأمر ، شحب وجهه لدى تلاوة السطور الاولى وجحظت عيناه من الخشية والفرح وقال بصوت مرتفع :

ـ كلا ، هذا لا يمكن ان يكون !

عجز عن البقاء في مكانه فراح يذرع الغرفة والرسالة في يده يقرأها . تصفحها بادىء الأمر ثم قرأها مرة واعاد تلاوتها وأخيراً تسمر في مكانه متأرجح الذراعين فاغر الفم شاخص العينين . ان ما طلبه منذ حين مع كامل الثقة بان الله سيستجيبه قبل ، فكان ذهوله شديداً . ان في هذا الأمر شيئاً ما كان يستطيع ان يتوقعه

ولكن السرعة التي اسبجيب طلبـه بها دلت على ان الامر بدلاً من ان يكون تدخلًا ربانياً ، بات مجرد صدفة .

على ذلك ، فقد بدا ان تلك العقدة المستعصيـة على الحل التي كانت تربط حرية نيكولا قد انحلت من تلقاء نفسها في هذه الرسالة غير المنتظرة التي جاءته من سونيا ، تلك الرسالة التي لم يكن هناك ما يشير اليهـا أو على الاقل ، هذا ما يراه نيكولا . كانت تخبره في رسالتها ان مصائب الأيام الأخـيرة وضياع كل مقتنيات اسرة روستوف في موسكو والرغبة التي ابدتها الكونتيس مراراً في ان تراه يتزوج الأميرة بولكونسكي ، وسكوتها وبرودها في الأيام الأخيرة كل ذلك دفعها الى ان تقرر حله من الوعد الذي قطعـه على نفسه وان تعيد له الحرية المطلقة .

كتبت : « وانه سيؤلمني جـداً ان افكر بأنني يمكن ان اصبح سبباً للغم أو للتجافي في اسرة انا مدينـة لها بكل شيء . ثم ان غرامي يستهدف شيئاً واحداً : سعادة من احب . لذلك فانني اتوسل اليك يانيكولا ان تعتبر نفسك حراً رغم ان ما من احد يمكنه ان يحبك اكثر من سونياك . »

كانت الرسالتان صـادرتين من ترونيتـا ورسالة الكونتيس تصف الايام الأخيرة التي قضتها الاسرة في موسكو وسفرهاوالحريق وضياع مقتنياتهم . مع ذلك ، فان الكونتيس كانت تقول في تلك الرسالةان الأمير آندريهوعدداً كبيراً من الجرحى يسافرون معهم وان الأمير آندريه فيحالة شديدة الخطورةولكن الطبيب يؤكد ان هناك الآن أملًا قوياً في شفائه ، وان سونيا وناتاشا تقومان على تمريضه .

مضى نيكولا غداة اليوم التالي حاملاً رسالة امه الى الأميرة ماري . لم يعلق هو ولا هي على التنوية الذي تحويه عبارة : « ناتاشا تقوم على تمريضه » . مع ذلك ، فانهما شعرا بتقارب بفضل هذه الرسالة بل وأشبه بالاقرباء .

وفي اليوم التالي ، رافق روستوف الأميرة ماري الى ايا روسلاف ثم لحق بفوجه بعد بضعة ايام .

* * *

الفَصْلُ الثّامِنُ

اسباب رسالة سونيا

كانت رسالة سونيا التي استجابت لامـاني نيكولا، لامرسلة من تروئيتسا وفيما يلي كيف حـدث الأمر : باتت فكرة رؤية ابنها يقترن بوارثة غنية تزيد في تعذيب الكونتيس العجوز وايلامها يوماً بعد يوم . وكانت تعرف ان العائق الرئيسي هو سونيا . وقد أصبحت حياة سونيا خلال الأيام الأخيرة وخصوصاً منذ ان ارسل نيكولا رسالة يذكر فيها انه التقى بالاميرة ماري في بوجوتشاروفو تزداد صعوبة ، اذ ان الكونتيس ما كانت تترك سانحة الا واستغلتها لتوجه الى الفتاة المسكينة تلويحات جارحة بل وقاسية .

وقبل مغادرة موسكو بأيام ، استدعت الكونتيس - التي قلبتها الاحداث ظهراً لبطن - سونيا اليها . وبدلاً من ان تطالبها بالتضحية وهي تبهظها بالتعنيف توسلت اليها باكية ان تعرب عن عرفـانها بكل ما اسدوه اليها من جميل بفصم علاقاتها مع نيكولا وأضافت :

— لن يهدأ لي بال قبل ان تعديني بذلك .

داهمت سونيا موجة من الدموع وأجـابت خلال نشيجها انها ستعمل كل شيء وانها مستعـدة لكل شيء ولكن دون ان تصرف الوعد القاطع وهي العاجزة في الاعماق نفسها عن اعتزام ما يفرض عليهـا ان تضحي بنفسها في سبيل

سعادة الاسرة التي انشأتها واطعمتها . وكان من عـادتها ان تضحي بنفسها في سبيل الآخرين . ولقد كان مركزها في البيت على حال لايصلح معه الا نسيان ذاتها لابراز قيمتها . لذلك فقد باتت تجد حجب نفسها دائمـاً أمراً طبيعياً . مع ذلك ، فانها كلما قامت بتضحية ، كانت تجد البهجة في ان تقول لنفسها انها اعظمت في عيني نفسها وفي عيون الآخرين وانها بذلك تجعل نفسها اكثر جدارة بنيكولا الذي تحبه اكثر من كل الناس . اما الآن ، فان مـا يطلبونه منها ، هو هجران المكافأة على تضحياتها ، هجران كل مـــاله معنى في حياتها . وللمرة الاولى في في حياتها ، شعرت بالمرارة حيال هؤلاء الناس الذين لم يغدقو عليها احسانهم الا ليزيدوا في عذابها . شعرت بالغيرة من ناتاشا التي لم تحس قط بمثل هذا الاحساس والتي لم تعرض لها قط الحاجة الى تضحية نفسهـا والتي ارغمت الآخرين على ان يضحوا بانفسهم من اجلها وظلت رغم ذلـك تنعم بحب الجميع . وللمرة الاولى شعرت سونيا ان غرامها الهادىء الطاهر لنيكولا قد تحول فجأة الى هوى جامح يطغى على العقل والعرفان والدين . وبتأثير هذا الهوى الجامح ، اجابت سونيا التي ألفت اخفاء كل شيء عن حيـاتها المستقلة ، على طلب الكونتيس بعبارات مبهمة وتحاشت كل تفسير وقررت بينها وبين نفسها ان تنتظر نيكولا لا لتحرره من كلمته بل لتقترن به الى الأبد .

ولقـد غمرت رهبة الأيام الأخيرة التي قضاها آل روستوف في موسكو ومخاوفها ، افكار سونيا القاتمة التي كانت تعذبها ، ولقد اسعدها ان وجدت الخلاص في الاعمال المادية . لكنها لما عرفت بوجود الأمير آنـدريه في البيت ، استولى عليها رغم كل اشفاقها المخلص عليه وعلى ناتاشا ، شعور خرافي ومنعش . ان الله لايريدها ان تفترق عن نيكولا . كانت تعرف ان ناتاشا تحب الأمير آنـدريه وانها لم تكف عن حبه ، وتعرف انها وقد اجتمعا الآن في مثل هـذه الظروف

المؤسية ، سيتحابان اكثر من اي وقت مضى ، وان نيكولا لن يستطيع حينئذ ان يتزوج الاميرة ماري بسبب روابط القرابة الجديدة التي ستجتمع بينهما . — المعروف ان الديانة الاورثوذوكسية لا تسمح بالزواج بين اخوات الزواج واخوان الزوجة . — وعلى الرغم من كل هول ما كان يقع وصعوبات ايام السفر الاولى ، فان الثقة بان القدرة الالهية في سبيل التدخل في شؤون سونيا الشخصية كانت تبهجها .

توقف آل روستوف في المرحـــلة الاولى من يوم سفرهم في دير الثلاثون « تريلنيتيه » .

احتجزوا لهم في فندق الدير ثلاث غرف ، احتل الأمير آندريه واحدة منها وكان الجريح ذاك اليوم في حالة افضل من حالته في الأيام السابقة ، وناتاشا لاتبارح سريره . وفي الغرفة الملاصقة ، كان الكونت والكونتيس يتحدثان باحترام مع رئيس الدير الذي جاء يزور معطيه القدماء واصدقائه . وكانت سونيا هناك ايضاً تتحرق فضولاً وتتساءل عما يتحدث به الأمير آندريه مع ناتاشا . انها تسمع جلبة صوتيهما خلال الباب . وفجأة فتح ذلك الباب وتقدمت ناتاشا منقلبة الاسارير . اقتربت من سونيا دون ان تلاحظ الرئيس الذي نهض ليتقدم نحوها ويباركها وهو يمسك بيسراه كم جبته العريض ويبقيه فوق ذراعه الايمن ، وامسكت بيدها . فقالت الكونتيس :

— ناتاشا ، هه ؟ تعالي الى هنا .

فاقتربت ناتاشا وتلقت مباركة الرئيس الذي سألها أن تلتمس عون الله وقديسه ! — لان الدير يحوى مومياء القديس سيرج — .

وما ان خرج ، حتى اخذت ناتاشا بيد صديقتها وذهبت معها الى الغرفة غير المسكونة . هتفت :

— سونيا ، هل صحيح ؟ سيعيش ؟ سونيا ، كم انا سعيدة وبنفس الوقت تعيسة ! سونيا ياعزيزتي ، ان الحال كما كانت عليه من قبل تماما . ليعش فقط . ولن يستطيع .. لأن .. لأن ..

وقطعت العبرات صوتها . فقالت سونيا :

— آه ! نعم . كنت اعرف ذلك ! حمداً لله ! سوف يعيش !

لم تكن سونيا اقل تأثراً من صديقتها التي كانت احزانها ومخاوفها تختلط بالافكار التي ما كانت تستطيع الاعراب عنها امام احد. عانقت ناتاشا وواستها وهي مجهشة وراحت تفكر : « المهم هوان يعيش! » وبعد ان بكتا وثرثرتا ما طاب لها ، مسحت الصديقتان دموعهما واقتربتا من باب الأمير اندريه ففتحته ناتاشا بهدوء ونظرت داخل الحجرة . والقت سونيا التي ما زالت بجانبها خلال الباب الموارب .

كان الامير آندريه مستريحاً على ثلاث وسائد ووجهه الشاحب هادئاً وعيناه مغمضتان وقد اتضح ان تنفسه منتظم . قالت سونيا بصوت اقرب الى الصراخ وهي تمسك بابنة عمها من ذراعها وتبتعد عن الباب :

آه ! ناتاشا .

سألت ناتاشا :

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

— انه لكذلك ، كذلك تماما ..

فقالت سونيا متقعة الوجه مضطربة الشفتين :

اغلقت ناتاشا الباب برفق وقادت سونيـــا قرب النافذة دون ان تفهم ما ارادت ان تقول .

قالت سونيا وعلى وجهها امارات الذعر والجلال :

— هل تـذكرين عندما نظرت في المرآة من اجلك .. في اوترادنواي ،

مساء عيد الميلاد ؟ .. هل تذكرين ماذا رأيت ؟

فقالت ناتاشا وقد اتسعت عيناها :

ــ نعم ، نعم .

تذكرت بابهام ان سونيا قالت لها حينذاك شيئاً ما بصدد الأمير آندريه الذي رأته مستلقياً .

استأنفت سونيا :

ــ هل تذكرين ؟ لقد رأيته حينذاك وذكرت ما رأيت لكل الناس ، لك ولد ونياشا . لقد رأيته في سرير ــ وراحت تضغط على الكلمات وترفق كل كلمة بحركة من يدها وسبابتها مرفوعة ــ رأيته في سرير وعيناه مغمضتان ، يغطيه غطاء وردي كما هو الآن تماما ويداه معقودتان .

كانت سونيا مقتنعة انها وهي تصف تفاصيل مارأته منذ حين انما تصف ما شاهدته في المرآة ذلك اليوم . في حين انها لم تر شيئاً مطلقاً ولم تقصص الا ما طاف بخيالها حينذاك . لكن ما تخيلته بدا لها على مثل حقيقة الذكرى . زعمت حينذاك انه نظر اليها باسما وانه كان مغطي بشيء احمر . اما الآن ، فقدأصبحت واثقة من انها قالت ورأت انه مغطى بغطاء وردي ، هذا الغطاء الوردي بالتدقيق وان عينيه كانتا مغلقتين .

هتفت ناتاشا التي باتت هي الاخرى تظن الآن انها تذكر ان سونيا اخبرتها حينذاك عن هذا الغطاء الوردي والتي اصبحت ترى في هذه الواقعة تنبئة خارقة في الغموض :

ــ نعم ، نعم ، وردي ، صحيح !

ثم سألت ساهمة :

ــ ماذا يمكن ان يكون معنى هذا ؟

جابت سونيا وهي تمسك برأسها بين يديها :

ـ آه ! لست ادري . شيئاً لكنه امر مثير .

وبعد دقائق ، قرع الأمير آندريه الجرس فعادت ناتاشا الى قربه وظلت سونيا التي نادراً ماشعرت بمثل هذا الانفعال ، واقفة امام النافذة تفكر في مثل هذه الصدفة المذهلة .

وفي ذلـك اليوم ، عرضت فرصة ارسال التحارير الى الجيش ، فكتبت الكونتيس لابنها . . ثم قالت وهي تكف عن الكتابة عنـــدما اقتربت سونيا منها .

ـ سونيا ، سونيا اليس لديك ما تقولينه لينكولا ؟

وارتعدصوتها عند طرح هذا السؤال ، فقرأت سونيا في عيني الكونتيس المتعبتين التي اخذت تنظر اليها خلال نظارتيها ، كل ماارادت ان تقوله بهذاالسؤال كانت تلك النظرة تعبرعن توسل وخشية من الرفض ، والخجل من وجوب طلبه ، واخيراً الحقد الوشيك الذي لاينسى في حالة الرفض .

اقتربت سونيا من الكونتيس وركعت امامها وقبلت يدها ثم قالت :

ـ سأكتب لفوري يا أماه .

كانت سونيا مزعزعة متأثرة متحننة بسبب كل ما وقع أخيراً ، وخصوصاً تحت دلالة الأمس بذلك الشكل الغامض . احست الآن ، بعد ان اصبحت مصالحة ناتاشا مع الأمير آندريه تمنع نيكولا من الاقتران بالأميرة ماري ، بفرح عودة ذلك الشعور بالتضحية الذي كان اليفاً لديها . ولقد كتبت الرسالة المؤثرة التي أدهشت نيكولا ايما دهشة ، وهي تمسح اكثر من مرة الدموع التي تملأ عينيها السوداوين المخمليتين ، وكلها ثقة بأنها انما تقوم بعمل بطولي .

الفصل التاسع

الاستجواب الاول

عامل الضباط والجنود . بيير في مركز الحرس حيث ساقوه ، معاملة عدائية لكنها لم تخل من الالتفات . فكان واضحاً انهم يخافون ان يكون سجينهم شخصية كبيرة رغم حقدهم عليه بسبب العراك الذى أثاره معهم .

ولكن ، ما ان ازف الصباح حتى أبدل الحرس ، فلاحظ بيير ان الضباط والجنود الجدد لم يعودوا يعاملونه بمثل المعاملة التي لقيها من الذين اوقفوه كان هذا العملاق الطويل الضخم ذو معطف القرويين في نظرهم، ذلك الرجل القوي الذى اشتبك في معركة بالأيدي مع السلابين وجنود الدورية، والذي تحدث بلهجة مهيبة عن طفل انقذ من النار وأصبح يعرف برقم ١٧ على لائحة السجناء الروسيين الذين اوقفوا بناء على أمر القيادة العليا . فاذا كان فيه شيء ما خاص فلم يكن الا تلك الرزانة التي تبدو على حركاته وذلك الفخار ثم اللغة الفرنسية التي يتحدث بها بكمال وطلاقة تدهشان الفرنسيين انفسهم . مع ذلك ، فقد الحق بالمشبوهين الآخرين منذ ذلك اليوم لأن أحد الضباط طلب احتلال الغرفة الخاصة التي اودع فيها .

كان كل الروسيين الذين اوقفوا مع بيير اناساً من طبقة منحطة عرفوا فيه كلهم سيداً ، فأخذوا يتحاشونه خصوصاً وانه يتحدث اللغة الفرنسية . بل ان

بيير سمعهم يتفكهون على حسابه ، فكان لذلك وقع اليم في نفسه .

وفي اليوم التالي ، عرف ان كل الموقوفين – وهو في عدادهم بلا ريب – سيحاكمون على اعتبارهم مشعلي حرائق . وفي اليوم الذي تلاه ، اقتيدوا جميعاً الى بناء يقيم فيه جنرال فرنسي اشيب الشاربين ، وزعيان وفرنسيون آخرون يلفون الأشرطة حول أذرعهم . واستجوب بيير كالآخرين بتلك اللهجة الواضحة الدقيقة التي يستعملها عادة الرجال المتجردون – زعماً – عن كل ضعف بشري عندما يستجوبون متهمين . من هو ؟ الى أين كان يمضي ؟ مـــاذا كانت غايته ؟ الخ . . .

كانت تلك الاسئلة التي لاعلاقة لها مطلقاً بصميم القضيـة ، والتي تجعل أي ايضاح مستحيلاً ، لاتهدف الا الى دعم الاتهام ، ككل الاسئلة التي تطرح في القضاء والى تحويل اجوبة المتهم الى الاتجاه المطلوب ، اي الى الاعتراف بجرمه . فكلما شرع يقول شيئاً في غير صالح الاتهـام ، كانوا يسارعون الى اعادته نحو النقطة التي يريدون ايصـاله اليها . اضف الى ذلك ان بيير كان معرضاً للنهاية المشتركة التي تنتظر كل الموقوفين ، فكان الهـدف الذي ترمي اليه الاسئلة التي تطرح عليه . وكان يستطيع ان يخمن ان الحيل التي يستعملها الاتهام ترجع الى المجاملات أو الى التأدب الذي يظهرونه حيـاله . وكان يعرف انه رهن مشيئة هؤلاء الناس وانهم جاؤوا به الى هناك بالقوة وان القوة وحدها هي التي تقدر على مطالبته باجوبة على اسئلتهم وان الغاية الوحيدة لهذه الجمعية انما هي اعلان تجريمه وبما ان القوة في يدهم وانهم في حاجـة الى اتهام الناس ، فان بيير لم يكن يرى مبرراً للمكر الذي يستعملونه . من البديهي جداً ان كل جواب لاريب سيفسر على محمل التجريم . ولما سألوه عما كان يعمل حينما اوقفوه ، قـال بيير بلهجة ميلودرامية انه كان «يعيد طفلة الى ذويها انقذها من النيران» ولما سئل لماذا تعارك مع

سلاب ؟ أجاب بأنه كان «يدافع عن امرأة ، والدفاع عن امرأة أهينت ، واجب كل رجل وان . . » فاستوقفوه قبل ان يستفيض لأن ذلك لا دخل له بالاتهام . ولكن ماذا كان يعمل في فناء بيت يحترق ، حيث شاهده بعض الشهود ؟ اجاب بأنه « ذهب ليري ماذا يقع في موسكو » . ومن جديد استوقفوه ليسألوه ليس الى أين كان يذهب ، بل لماذا كان بالقرب من الحريق . ثم قالوا وهم يستأنفون السؤال الأول الذي رفض ان يجيب عليه : من انت ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع ان يذكر اسمه .

قال الجنرال ذو الشاربين الأشيبين والوجه المتضرج بلهجة صارمة :

– ايها المسجل ، اكتب . ان الحالة خطيرة ، ان الحالة خطيرة جداً .

شبت النار بعد توقيف بيير باربعة ايام بالقرب من حاجز زوبوف .

ولقد نقل بيير وثلاثة عشر متهماً اخرين الى « جي دو كريمية » مجازة القرم في بيت مأجور لأحد الباعة . وبينما هو يجتاز الشوارع ، كاد بيير ان يختنق من الدخان الذي بدا كأنه يخيم على المدينة كلها . لم يكن المرء ليشاهد غير الحرائق في كل مكان . لكنه لم يكن قد أدرك بعد اهمية حريق موسكو ، لذلك فقد راح ينظر حوله بذهول .

في ذلك البيت المأجور من منطقة « مخاضة القرم » ، امضى بيير اربعة أيام عرف خلالها من حديثه مع الجنود الفرنسيين انهم ينتظرون يوماً بعد يوم ، القرار الذي سيتخذه الماريشال حيال الموقوفين . مع ذلك ، فقد ظل يبدو بالنسبة الى الجنود سلطة غامضة عليا مجسدة فيه ولا ريب .

ولقد كانت تلك الأيام التي سبقت اليوم الثامن من ايلول ، يوم اخضاع الموقوفين لاستجواب ثان ، من اكثر الايام مشقة وايلاماً بالنسبة الى بيير .

الفصل العاشر

الاستجواب الثاني

في الثامن من ايلول ، جاء ضابط رفيع الشأن ، اذا روعيت الاعتبارات التي اظهرها الحراس حياله ، لزيارة المساجين . راح ذلك الضابط الذي كان ولا ريب تابعاً لأركان حرب الجيش ، يتفقد السجناء وبيده قائمة ، فنادى بيير : الذي لايدلي باسمه . القى عليهم نظرة غير آبهة متراخية وأمر ضابط الحرس ان يعني بتنظيفهم والباسهم ثياباً مناسبة قبل ان يصحبهم للمثول بين يدي الماريشال. وبعد ساعة ، اصطفت فصيلة من الجنـد ، ساقت بيير والمساجين الثلاثة عشر الآخرين الى ساحة العذراى « شان دي فييرج » وقد اطلق هذا الاسم على ذلك المكان ، ذكرى للتتر الذين أمروا بان تدفع لهم الجزية فضة وعذارى نبيلات في ذلك المكان .

كان يوماً مشرقاً مشمساً بعد المطر والهواء ، يمتاز بنقاء خاص ، والدخان ، بدلاً من ان يزحف كما كان شأنه يوم ان نقل بيير من مركز كتيبة الحرس في حاجز زوبوفو ، يتصاعد اعمـدة في الهواء النقي . لم يكن المرء يرى ناراً في اي مكان . لكن موسكو كانت تعس بالدخان المتصاعد من كل اجزائها وموسكو أو على الأقل ما شاهده بيير منها ، لم تكن الا خراباً . ففي كل مكان أراض خواء تناثرت فيها حطام المدافىء والمداخن ، وهنا وهناك ، أجزاء من جدران

مارشال دافو

منهارة متفحمة . ولقد نظر بيير بأمعان ، لكنه لم يتعرف على احياء المدينة المألوفة لقد كانت الكنائس في بعض الاماكن لاتزال قائمة ، والكريملن سليماً من كل أذى ، يرتسم بلون ابيض بابراجه وايفـان الأكبر — وهو برج جرس ارتفاعه ٩٧ متراً —وبالقرب منه ، قبة دير نوفو — ديفيتشي — واسمه مستمد من ساحة العذارى القريبة منه — تلتمع ببهجـة ، وصوت أجراس تقرع مدويه بشكل خاص ، يتعالى في الفضاء . ولقـد ذكرت الاجراس بيير بأن اليوم احد وانه عيد مولد العذراء . لكن ذلك لم يكن عيداً لأحد : لم تكن ترى الا الاطلال التي خلفتها الحرائق ،اما من حيث السكان ، فكان المرء يلاقي بين الحين والآخر بعض الاشخاص المساكين الفزعين في أسمال بالية يختبئون لدى رؤية الفرنسيين .

كان واضحاً ان عش روسيا قد دمر وشتت ،فكان بيير يشعر شعوراً مبهماً ان عهداً آخر مختلفاً جداً وقاسياً ، هو عهـد الفرنسيين ، قائماً على انقاض العهد الروسي المدمر . كان يشعر بذلك من حياة جنود الموكب الذين كانوا يتقدمون بنظام جيد وعلى وجوههم امارات عرفية مرحة ، ويشعر به من رؤية موظف فرنسي هام جاء يلاقيهم في عربة خفيفة يجرها جوادان ، يقودها جندي ، ومن أصوات موسيقى عسكرية جذابة تتصاعد من الجانب الأيسر من ساحة العذارى بل انه شعر به بصورة خاصة وتفهمه ، منـذ ان جاء الضابط الفرنسي والقائمة في يده ، يتفقد السجناء . ولقد اوقف بيير من قبل جنود عاديين واقتيد من مكان الى آخر مع عشرات من المساجين فكان يمكن نسيانه والخلط بينه وبينهم . ولكن لا ، ابداً ! ان اجوبتـه التي أدلى بها في الاستجواب الاول ظلت تشير اليه . لقد كان : الذي يرفض الادلاء باسمه . فكانوا يسوقونه الآن الى مكان ما تحت ذلك الميسم الذي يخيفه . ماكان يشك من مظهر المواكبين المطمئن ، ان السجناء الآخرين وهو بينهم ، هم انفسهم الذين يحتـاجون اليهم وانهم يقودونهم

الى حيث يجب سوقهم ، فأحس بيير بأنـه ليس الا قذى تافهاً سقط تحت عجلة آلة مجهولة ذات تجهيز آلي شديد الاحكام .

قادوا بيير والمتهمين الآخرين الى ساحة العذارى من جهة اليمين ، قريباً من الدير ، وادخلوهم بيتاً ابيض تحيط به حديقـة كبيرة . ذلك كان بيت الامير ستشير باتوف ، حيث جاء بيير غالبا ، وحيث كان يقطن ، على حدقول الجنود ، الأمير ديكموهل .

قادوهم نحو المرقاة ثم ادخلوهم واحداً واحداً . فـدخل بيير السادس . اخذوه عبر الرواق ذي النوافذ الزجاجية والردهة والدهليز التي كانت كلها مألوفة لدى بيير ، حتى بلغوا به مكتبـــاً طويلًا منخفض السقف وقف على بابه مساعد عسكري .

كان دافو جالساً الى طاولة عندالجانب الآخر من الغرفة وعلى انفه نظارتان اقترب بيير فسأل دافو بصوت خافت دون ان يرفع عينيه عن الورقة المنشورة امامه التي بدا شديد الانشغال بها : « من انت ؟ »

لزم بيير الصمت وهو عاجز عن النطق بكلمة . لم يكن دافو بالنسبة اليه جنرالاً فرنسياً فحسب ، بل كان رجلًا مشهوراً بقسوته . كان وجه دافو يذكر الناظر اليه بسحنة احد التربويين القساة وهو ينتظر هنيهـة الجواب المطلوب . وكان بيير يعرف ان كل دقيقة تردد يمكن ان تكلفه حيـاته . مع ذلك ، فانه لم يكن يعرف ماذا يقول . بدا له ان تكرار ما قاله خلال الاستجواب الاول لون من السخف المضحك ، كما ان اعلان اسمه ومركزه الاجتماعي ، عار وخطر بنفس الوقت فـالافضل اذن ان يلزم الصمت . لكن دافو لم يترك له الوقت لاختيار الجهة التي يتشيع لها ، اذ رفع رأسه ورفع نظارتيـه الى جبينه وراح يتأمل بيير محدقاً وهو يطرف بعينيه .

قال بصوت مجمد موزون كاف للتأثير على بيير .
ـ انني اعرف هذا الرجل .
سرى البرد في ظهر بيير ثم شعر بصدغيه وكأنهما بين فكي كلابة .
ـ ياسيدي الجنرال ، لايمكنك ان تعرفني لأنني لم ارك قط ..
قاطعه دافو وهو يخاطب جنرالاً آخر كان هناك لم يلاحظ بيير وجوده :
ـ انه جاسوس روسي .
وأدار دافو له ظهره . وفجأة شعر بيير بلسانه ينطلق فشرع يتكلم بطلاقة :
قال وهو يذكر فجأة ان دافو أمير :
ـ كلا ياصاحب السعادة ، كلا ياصاحب السعادة ، لم يتح لك ان تعرفني . انني ضابط في فرقة المتطوعين ولم اغادر موسكو .
ردد دافو :
ـ اسمك ؟
ـ بيزوخوف .
ـ ما الذي يبرهن لي بأنك لاتكذب ؟
فهتف بيير بصوت فيه توسل اكثر ما فيه من شعور بالمهانة :
ـ ياصاحب السعادة !
رفع دافو رأسه ومن جديد حدق في وجه بيير . تبادلا النظر بضع ثوان فكان هذا هو الذي انقذ بيير . لقد مرت نظراتهما فوق مسائل الحرب والعدالة لتعود من جديد نظرات رجلين وقفا متقابلين . ولقد شعر كلاهما خلال بضع ثوان بألف شيء شعوراً مبهما وأدركا انهما من ابناء الانسان ، اخوان .
في الفترة الاولى ، عندما رفع دافو رأسه عن قائمته التي اشير الى مصائر عدد من الآدميين بارقام ، لم يكن بيير بالنسبة اليه الا شيئاً ما ، فكان يستطيع

ان يأمر باعدامه دون أي تبكيت من ضميره . اما الآن ، فقد اصبح يرى فيه الانسان . ظل فترة مفكراً ثم قال ببرود :

– كيف تثبت لي حقيقة ما تقول ؟

تذكر بيير دورامبال ، فأشار الى اسم ذلك الرئيس الفرنسي واسم زوجه والشارع الذي يقطن فيه . فكرر دافو :

– انك لست من تزعم .

فقدم بيير بصوت متهدج مرتعد متقطع الادلة على قوله .

وفي تلك اللحظة ، جاء المساعد العسكري ينهي الى دافو شيئاً ما .

اشرق وجه هذا بالأنباء التي حملها له المساعد العسكري فلم يلبث ان زر سترته ومضى دون ان يأبه بعد ذلك الى بيير .

ولما ذكره المساعد العسكري بسجينه ، قطب حاجبيه واشار برأسه نحو بيير ثم أمر بأخذه . ولكن ، الى اين وجب ان يسوقوه ؟ ما كان بيير يعرف شيئاً : هل يأخذونه الى مستقره القديم ام الى المكان المعد لتنفيذ حكم الاعدام الذي اروه موقعه على ساحة العذراء ؟

أدار رأسه ، فرأى المساعد العسكري يسأل دافو فأجاب هذا :

– نعم ، بلاريب !

ولكن ما معنى نعم تلك وكيف يخمن معناها ؟

لم يذكر قط كم سيروه من الوقت والى أين أخذوه . لقد كان في حالة من التبلد وفقد الشعور حتى انه لم يكن يرى ما حوله . لقد ظل يضع قدماً امام اخرى طالما وجب ان يمشي . ولما وقفوا ، توقف بدوره . ظلت فكرة واحدة مستقرة في رأسه . من ، من هو الذي حكم عليه ؟ لابد وانهم ليسوا اولئك الناس الذين استجوبوه بادىء الأمر . ما من أحد منهم كان يريد ذلك أو يقدر

عليه . كذلك لم يكن دافو الذي نظر اليه بحقد . لو ان دقيقة اخرى انقضت لفهم دافو انهم مخطئون باتهامه ، فكان المساعد العسكري بدخوله حينذاك ، هو الذي منع وقوع ذلك . لكن هذا المساعد العسكري نفسه لم يكن هو الآخر يريد به شراً . لكنه كان يستطيع ان يمتنع عن الدخول . واذن ، من، من هو الذي أراد له ان يموت ، أراد انيحرمه الحياة والآمال والافكار ؟ من كان يريد ذلك ؟ أحس بيير بأن مامن أحد كان يريده .

لقد كان ذلك هو النظام القائم وتضافر الظروف .

لقد حكم عليه النظام القائم بالموت ، هو ، بيير . انه ينتزع منه الحياة، انه يسلبه كل شيء ، انه يبيده .

* * *

الفصل الحادي عشر

الاعدام

اقتيد السجناء من بيت الامير ستشيرباتوف الى اسفل ساحة العذارى على يسار الدير ومن هناك الى بستان خضار غرس فيه عمود . ووراء العمود ، حفرت حفرة كبيرة وقد تناثر التراب الندي وتراكم حولها . وبالقرب من الحفرة والعمود ، اجتمع جمهور غفير على شكل نصف دائرة . وكان ذلك الجمهور الذي ظهر فيه بعض الروسيين ، يتألف في غالبيته من جنود عاطلين تابعين لجيش نابوليون ، فكان بينهم المانيون وايطاليون وفرنسيون في ازياء مختلفة . والى يسار الوتد وعلى يمينه ، وقفت فرقة فرنسية مساحة يلبس أفرادها المعاطف الزرقاء ذات الشارات الحمراء على الكتفين ، والرانات والعمرات .

صفوا المحكومين تبعاً لترتيبهم على القائمة ، وبيير السادس ، ثم ساقوهم نحو العمود . وفجأة انبعث قرع طبول من كل جهة فأحس بيير حيال هذا الدوي بفؤاده يتمزق . فقد ميزه التفكير والتذكر فلم يعد مستبقياً في خدمته إلا عينيه واذنيه . لم تبق لديه الا رغبة واحدة ، الخلاص بأسرع ما يمكن من ذلك الشيء المريع الذي يوشك ان يقع . مع ذلك ، فقد جال بطرفه في وجوه رفاقه وراح يتأملهم .

كان للاثنين الاولين رأسان حليقان يشبهان رؤوس المحكومين بالاشغال

الشاقه . الاول طويل نحيل والآخر اسمر شعراني عاضل ذو أنف أفطس .
وكان الثالث خادماً تجاوز الاربعين ، بدأ الشيب يخالط شعره، تدل هيئته على
حسن التغذية . والرابع ، قروياً جميلاً ذا لحية مغراء منبسطة مستديرة وعينين
سوداوين ، بينما كان الخامس عاملاً في شرخ الشباب ، فتى لم يتخط الثامنة عشرة
بلون صفراوي وجسم ضعيف ، يتدثر برداء فضفاض طويل .

سمع بيير الفرنسيين يتساءلون عن الطريقة التي سينفذون بواسطتها الحكم
بالمحكومين ، واحداً فواحداً ام اثنين اثنين . اجاب الضابط ببرود حازم « اثنين
اثنين » ، فقامت حركة بين صفوف الجنود : كان واضحاً انهم متعجلون . لكن
عجلتهم لم تكن تشبه عجلة الاشخاص الماضين لاداء مهمة معروفة منهم جميعاً
بل كانت عجلة من يريد انجاز عمل ضروري ولكنه مع ذلك منفر ومكروه .

وقف موظف فرنسي يحيط ذراعه بشارة ، الى يمين رتل المحكومين وقرأ
الحكم بالروسي والفرنسي .

ثم ، بناء على اشارة من الضابط ، جاء اربعة جنود احاط كل اثنين منهما
بواحد من المحكومين اللذين كانا على رأس الصف . اسكنت حركة المحكومين
بشدهما الى العمود ، فراحا ينظران حولهما خلال الوقت الذي استغرقه وصول
من ذهبوا للمجيء بالاكياس ، نظرة الحيوان المشوش الذي يرى الصياد يقترب
منه . يكف احدهما عن رسم شارة الصليب بينما انصرف الآخر يحك ظهره
وقد عجا وجهه بما يشبه الابتسامة . عصب الجنود عيونهما والبسوهما كيسين ثم
ربطوهما الى العمود بحركات سريعة .

خرجت من الصفوف مفرزة من الجنود تعدادها اثنا عشر جندياً وسارت
بخطى موزونة ووقف الرجال على بعد ثماني خطوات من العمود ، فأدار بيير رأسه
كيلا يرى ما سيحدث . وفجأة دوى انفجار خيل الى بيير انه اقوى من اشد الرعود

هولا فماد ينظر من جديد . رآى دخاناً وفرنسيين شاحبي الوجوه ترتعد ايديهم وهم منصرفون الى عمل ما على حافة الحفرة . قدموا الاثنين التاليين فنظرا حولهما بمثل عيون المحكومين الأولين دون ان يصدقا ما سوف يقع لهما أو يفهماه . ما كانا يستطيعان تصديقه لأنهما وحدهما يعرفان قيمة الحياة بالنسبة اليهما فما كانا يقدران ان يفهما ولا ان يصدقا انهم سينتزعون الحياة منهما .

اشاح بيير بوجهه من جديد كيلا يرى ، ومن جديد ، دوى انفجار مريع مزق الاذان ، ومن جديد ، شاهد بيير وقت الانفجار بالذات ، دخاناً ودماء ووجوه الفرنسيين الممتقعة وهم منصرفون الى العمل قرب الحفرة ، يتدافعون بالمناكب حول العمود ، بأيديهم المرتعدة . نظر بيير حوله لاهث الانفاس وكأنه يسأل : « ولكن ، مامعنى كل هذا أخيراً ؟ » فكانت السؤال نفسه يقرأ في كل النظرات التي تلاقت مع نظراته .

فعلى وجوه الحاضرين جميعاً ، من روسيين وجنود فرنسيين وضباط ، على كل الوجوه دون استثناء ، قرأ الهول نفسه والذعر نفسه والصراع نفسه الذي يعتلج في اعماق قلبه . « ولكن اخيراً ، من المسؤول ؟ انهم جميعاً يتألمون بقدر ما أتألم . فمن هو اذن ؟ من ؟ » ولقد اجتازت هذه الفكرة رأسه كومض البرق .

صاح احدهم :

— رماة السرية السادسة والثمانين ، الى الأمام !

وقدموا الخامس وحده الذي كان واقفاً الى جانب بيير فلم يدرك بيير انه قد نجا وانه وكل الباقين معه لم يساقوا الى هناك الا لحضور تنفيذ الحكم فحسب ظل ينظر الى ما يقع بهول آخذ بالازدياد دون ان يحس بفرح أو براحة . كان المحكوم الخامس هو العامل ذو الرداء الفضفاض . لم يكادوا يلمسونه حتى قفز
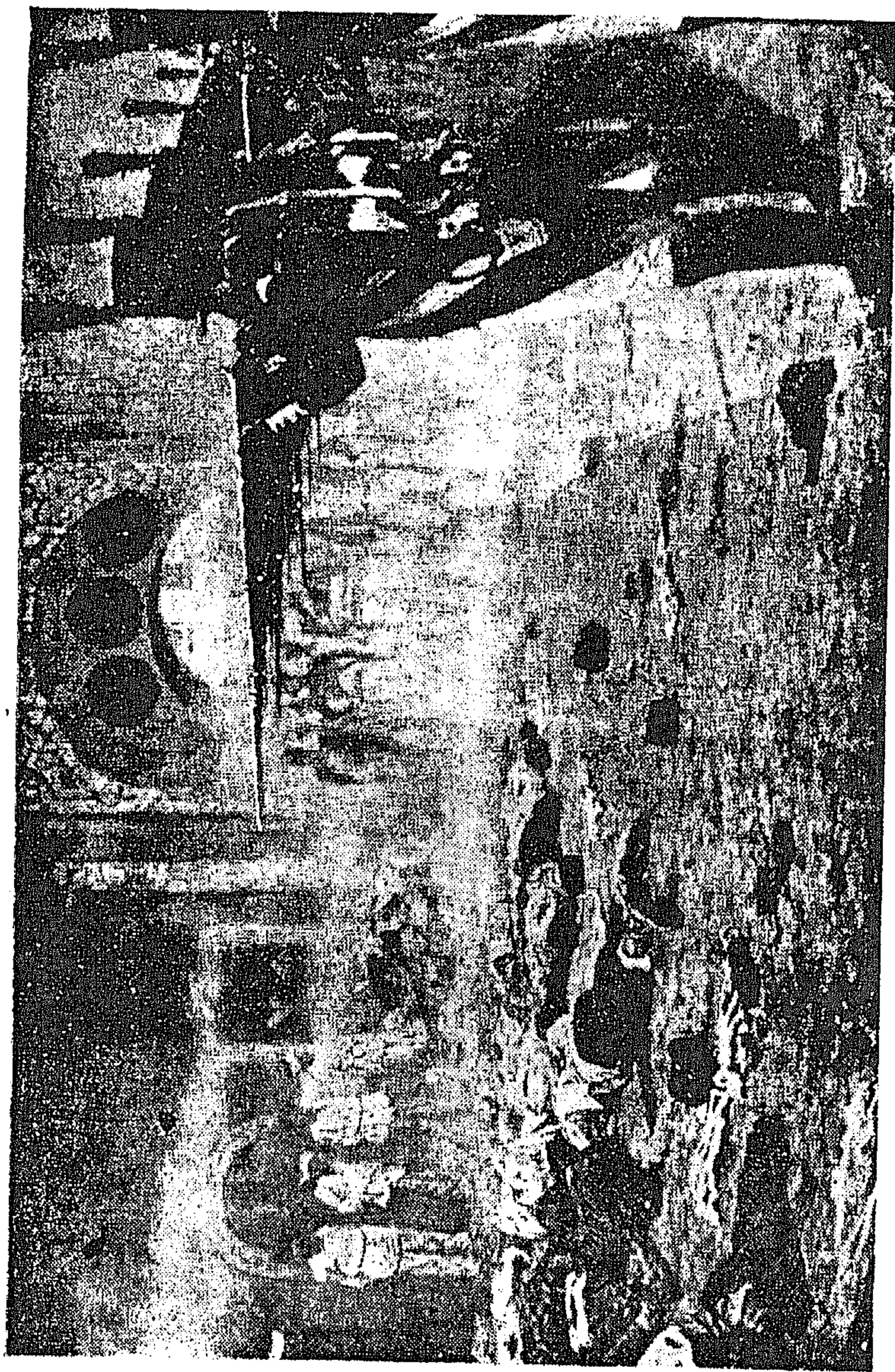
اعدام الخونة

من موضعه وتشبث ببيير . فانتفض بيير وحاول ان يزيحه عنه . كان العامل يزمجر ويرفض التقدم فامسكوا بـه من تحت ابطيه وجروه جراً . فلما قيدوه الى العمود ، صمت فجأة . بدا عليه انه فهم أخيراً . فهل فهم ان صرخاته كانت غير مجدية امأنه يستحيل انيورد مورد الهلاك ؟ على أية حال ، لقد وقف منتظراً ان يشد وثاقه مع آخر وراح ينظر حوله بعينين الحيوان الجريح البراقتين .

لم يستطع بيير هذه المرة ان يأخذ على نفسه الاشاحة بوجهه واغماض عينيه لقد بلغ الفضول والتأثر اللذين اخذ يشاطر ذلك الجمهور الاحساس بهما ، الذروة امام هذه الجريمة الخامسة . بـدا المحكوم الخامس ككل الذين سبقوه ، هادئاً فكان متدثراً بردائه يفرك قدميه الحافيتين ، احداهما بالاخرى .

وعندما عصبوا عينيه ، سوى بنفسه العقدة التي بدا كأنها تؤلم قذاله . ثم ، عندما أسندوه الى العمود الملوث بالدم ، مال الى الوراء . ولما كانت تلك الوضعية غير ملائمة بالنسبة اليه ، فقد انتصب وجعل قدميـه الحافيتين في وضع مستقيم واستند بهدوء . ولم تفت بيير حركة واحـــدة من حركاته ، وهو الذي لم يغادره بعينيه .

لاريب وانهم سمعوا أمراً . وبعد ذلك الأمر ، انطلقت ثماني بنادق معاً . لكن بيير لم يسمع أي انفجار رغم ما بذله فيما بعد بقصد التذكر . رأى العامل ينهار في وثاقه ثم ظهر الدم من موضعين ، وتمدد الحبل بفعل ثقل الجسد اما الرجل ، فقد حنى رأسه انحناء شديـداً وانطوت ساقاه تحته وسقط . جرى بيير الى العمودفلم يستوقفه احد . تكأكأ حول العامل اشخاص ممتقعو الوجوه يبدو الذعر على قسماتهم . وكان فك الجندي الفرنسي العجوز الاسفل يرتعدوهو يفك الحبل . وانهار الجسد . فبادر الجنود بخرق يجرونه وراء العمود ويقذفون به الى الحفرة .

كانوا جميعاً يشعرون بشكل واضح بأنهم مجرمون تستبد بهم حاجة اخفاء آثار جريمتهم باسرع ما يمكن .

نظر بيير الى الحفرة ، فرآى العامل مسجى وركبتـاه على مستوى رأسه تقريباً ، واحدى كتفيه اكثر ارتفاعـاً من الاخرى . ورآى تلك الكتف ترتفع وتنخفض بحركات تشنجية ، لكن المجارف راحت تهيل التراب ملء راحتها فوق الجسد . وصاح أحد الجنود ببيير يطلب اليه التراجع بصوت محنق ساخط أليم . لكنه لم يفهم ، بل ظل واقفاً قرب العمود فلم يطرده من هناك أحد .

وعندما ردمت الحفرة ، تعالى أمر فأعـادوا بيير الى صفه ، وراح الجنود القائمون على جانبي العمود يسيرون بخطى موزونة بعد ان استداروا نصف دائرة اما الرماة الاربعة والعشرون الذين كانوا وسط الدائرة والذين افرغوا بنادقهم فقد هرعوا جميعاً راكضين لاستعـادة اماكنهم في الصفوف عندما تمر سريتهم بالقرب منهم .

راح بيير الآن يحـــدق بعينيه دون اي تفكير في الجنود الذين راحوا يغادرون عمود الاعدام مثنى مثنى وهم يجرون . لقد لحقوا جميعهم بسريتهم باستثناء واحد . كان هذا جندياً فتياً على صفرة قاتلة وقـد انزلقت عمرته على قذاله ، بينما كانت بندقيته بحذاء قدمه . ظل هذا جامداً في المكان الذي اطلق منه النار قبالة الحفرة . كان يترنح كالرجل الثمل وهو يقـدم خطوة الى الامام واخرى الى الوراء كي يحافظ على توازنه . فخرج صنف ضـابط مسن من الصف امسك بكتفيه واعاده الى سريته . واخذ جمع الروسيين والفرنسيين يتبدد . لقد ذهبوا جميعاً وقد اطرق كل منهم برأسه . وهتف احد الفرنسيين :

ــ ان هذا يعلمهم كيف يشعلون الحرائق .

نظر بيير الى ذلك الذي تكلم فوجد انه جندي راح يبحث عن عـذر لما وقع منذ حين بغية تهدئة خـاطره دون ان يوفق في ايجاد العذر . على اية حال لم يضف قولاً آخر الى ماقال بل ندت عنه حركة تدل على اللامبالاة وانصرف .

الفصل الثاني عشر

في السجن

بعد تنفيذ حكم الاعدام ، فصل بيير عن الموقوفين الآخرين وحبس وحيداً في معبد متهدم مليء بالقذر .

وحوالي المساء ، دخل صف ضابط من الحرس يصحبه جنديان وأعلن لبيير نبأ العفو عنه وانه يجب ان ينتقل الى مبنى اعد لاسرى الحرب . فنهض بيير دون ان يفهم ما يقال له وتبع حرسه . قادوه الى واحد من ابنية المدن من الواح الخشب والاعمدة المنتزعة من انقاض الحريق ، اقيمت في اعلى حصن . احاط به في الظلام ما يقرب من عشرين شخصاً فنظر اليهم بيير دون ان يفقه من هم وماذا يفعلون هناك وماذا يريدون منه . سمع الكلمات التي يتفوهون بها لكنه ظل عاجزاً عن استخلاص شيء منها اذ ما كان يفهم معناها . مع ذلك ، فقد اجاب على الاسئلة التي وجهت اليه دون ان ينتبه الى انهم مصغون اليه وان اجوبته ستحمل على مختلف المعاني . كان ينظر الى وجوه وأجساد فكان كل شيء يبدو له مسلوباً من المعنى .

منذ ان حضر بيير ذلك القتل المريع الذي ارتكبه رجال لم تكن بهم اية رغبة في ارتكابه ، بدا المحور الذي ترتكز حوله حياته وتقوم ، كأنه استسلم فجأة وكأن كل شيء قد انهار ركماً من الشظايا لاشكل له . لقد فني ايمانه

بالانسجام العام والانسانية وبروحه نفسهـا وبالله ، دون ان ينتبه الى ذلك .
لقد شعر من قبل بمثل هذا الاحساس ، لكنـه لم يكن قط بمثل هذا العنف .
كان فيما مضى ، يلوم نفسه كلما اختلجت في نفسه مثل هذه الريب ، ويشعر في في اعماق نفسه انه سينتهي به الأمر الى ايجاد سبيل الخلاص خلال يأسه وشكوكه اما الآن ، فان العالم هو الذي ينهار دون ان يكون له دخل فيه ، العالم الذي اصبح امام عينيه ركاماً من الخرائب عـديمة المعنى . لذلك احس بأنه ليس في طوقه استعادة ايمانه بالحياة .

احاط به اناس في الظلام . لاريب انهم شديـدو الاهتمام بوجوده بينهم . انهم يروون له شيئاً ما ويسألونه . ثم اقتـاده بعضهم واجلسوه في ركن بين رجال أخذوا يتنادون من كل الاركان وهم يضحكون .

قال صوت من الجانب المضاد وهو يضغط على كلمـة الذي : « ها هو ذا ايها الاخوان .. هاهو ذا الأمير الذي .. »

جلس بيير صامتا لاحراك على القش مستنداً الى حاجز المبنى واخذ يفتح عينيه ويغلقهما . كان لا يـكاد يغلقهما حتى يرى وجه العامل المخيف بصورة خاصة في بساطته ووجوه قتلته غير الاراديين اشد هولاً كذلك في القلق المستولي عليها ثم كان يفتح عينيه ويلقي حوله نظرات تائهة .

جلس الى جانب بيير رجل قصير القامة لاحظ بيير وجوده فوراً الى جانبه بسبب رائحة العرق الشديدة التي كانت تفوح منه لدى كل حركة من حركاته . وكان ذلك الرجل يعمل شيئاً مـا بقدميه في الظل فلم يكن بيير يرى وجهه . لكنه كان يشعر بانظاره شاخصة اليه . اخيراً ادرك بيير انه انما يخلع جوربه ، فأثارته الطريقة التي سلكها في هذا السبيل .

لف بحذق عصابته الكتان التي تحيط باحدى قدميه بعد ان فك الخيط الذي

يربطها ثم اهتم بقـدمه الثانية دون ان يكف عن تأمل بيير . وبينما راح يعلق الخيط بمسمار باحدى يديه ، أخذ باليد الاخرى يحل عصابة القـدم الاخرى .
وهكذا خلع جوربين بحذاقة وبحركات دقيقة ناجحة منسقة لابطء فيها ، وعلق حذاءيه الى وتد مغروس فوق رأسه ثم اخذ سكينه فقطع بها شيئاً ما ثم اغلقه ووضعه تحت فراشه من جهة الرأس ، واخيراً جلس بوضع اكثر إراحة واحاط ركبتيه المرقوعتين بذراعيه وراح يتأمل بيير محدقاً في وجهه . شعر بيير بشيء مؤنس مطمئن متآلف في حركات هذا الرجل المنظم الذي يرتب شؤونه المنزلية في ركنه الصغير ذاك . بل ان رائحته النفاذة نفسها لم تنفره ، فراح هو الآخر ينظر اليه محدقاً .
قال القصير فجأة .
ـ لاريب أنك شاهدت بعضها ، أليس كذلك ياسيدي ؟
كان لصوته الغنائي انعطافاً مهدهداً وبساطة قصوى حتى ان بيير أراد ان يجيبه . لكن فكه راح يرتعد واغرورقت عيناه بالدموع . لم يترك له الرجل الصغير وقتاً لاظهار خزيه اذ قال على طريقـــة الفلاحات الروسيات العجائز الحانية الرخيمة :
ـ ايه ! لاتغتم يا قلبي الصغير ! لا تغتم ياعزيزي . انه لا شيء . فترة رديئة يجب قضاؤها ! ليس اكثر من هذا يا صديقي الطيب . نحمد الله على أننا ما زلنا احياء ليس فينا شيء محطم . واذا كان هنـــاك اناس لايساوون شيئاً فهناك اناس طيبون ..
وركع وهو في سياق الكلام بحركة مرنة ثم نهض وابتعد وهو يسعل . ثم سمع بيير صوته الرخيم صادراً من طرف القاعة الآخر :
ـ آه ! انتذا ايها السافل ! ها أنتذا ايها السافل ، لقد عدت . كفى ، هيا ، الى الاسفل !

وراح الجندي وهو يدفع عنه كلباً صغيراً ملفوفـــاً بخرقة . قال وهو يستعيد لهجته المحترمة :

ـ خذ ، كل باسيدي :

واخرج من الخرقة بطاطا مشوية في الفرن قدمها الى بيير وأضاف :

ـ لقد قدموا لنا حساء وقت العشاء . ولكن ليس هناك ما يشبه البطاطا !

لم يكن بيير قد تناول شيئاً من الطعام طيلة يومه فبدت له رائحة البطاطا لطيفة بشكل خارق . شكر الجندي وشرع يأكل فقال هذا وهو يبتسم :

ـ هه ماذا ؟ اتأكل البطاطا هكذا ؟

واخذ واحدة واضاف :

ـ هكذا يأكلون .

استعاد سكينه ففتحه وقطع البطاطا فوق راحة يده ثم ذرّ عليها ملحاً اخرجه من الخرقة وقدمها لبيير وهو يكرر :

ـ لاشيء مثل البطاطا . جرب لي هذه .

هتف بيير :

ـ ان كل شيء سيان عندي ولكن لماذا أعدوا اولئك التعساء ! . .

ان الاخير لم يكن قد بلغ العشرين بعد .

قال الرجل القصير بقوة وكأن الكلمات تتوارد على لسانه من تلقاء نفسها وتفلت من فمه برغمه :

ـ صه ! . . صه ! . . لايجب ان تقول هذا ، لايجب . .

ثم استرسل :

ـ اذن ياسيدي ، لقد بقيت هكذا في موسكو ؟

قال بيير :

- ما كنت اظن أنهم سيصلون بهـذه السرعة فلبثت في موسكو بمحض الصدفة .

- اذن ياعزيزي ، لقد أوقفوك في بيتك ؟

- كلا . لقـد ذهبت ارى الحريق وهناك اوقفوني وحاكموني بوصفي مشعلاً للحرائق .

فرد الرجل القصير :

- حيث يكون القضاة تكون المظالم !

سأل بيير بعد أن ابتلع آخر قطعة البطاطا :

- وانت ، انت هنا منذ أمد طويل ؟

- انا ! لقد اخذوني يوم الأحد من مستشفى موسكو .

- وانت جندي ؟

نعم من فوج ابشيرون . كنت اموت من الحمى . لم يقولوا لنا شيئاً . كنا عشرين رجلاً تقريباً وما كنا نفكر في الأمر ولانصدقه . .

سأله بيير :

وهل تشعر بالسأم هنا ؟

كيـف لا يسأم المرء ياعزيزى ؟ ان اسمي بلاتون - افلاطون - واسم اسرتي كاراتاييف .

واضاف تسهيلاً لعلاقته مع بيير :

- ولقد لقبوني في الفوج بالصقر الصغير . آه! كيف لاأسأم! ان موسكو أم مدننا ! كيف لا نسأم برؤية هذا . نعم ، لكن الدودة التي تنخر القرنبيط تموت اولاً .

واردف بحميا :

ـ نعم ، كذلك يقول اسلافنا .

سأل بيير :

ـ ماذا ، كيف قلت ؟

فأجاب كاراتاييف الذي ظن انه يردد المثل نفسه :

ـ انا ؟ اقول : ليس لنا نحن ان نحكم ، انه عمل الله .

ثم استرسل دفعة واحدة :

ـ اذن ياسيدي ، انت ذو املاك ؟ بيت ؟ كل شيء برخاء ؟ وربة بيت ؟ وابواك ، امازالا على قيد الحياة ؟

ما كان بيير يراه في الظلام . لكنه كان يحس بأن شفتي الجندي تنطويان في ابتسامة ودودة بينما هو يطرح اسئلته . ولقد اغتم بوضوح عندما علم ان بيير فقد أبويه وخصوصاً امه فقال :

ـ ان الزوجة للنصيحة الطيبة ، والحماة للاستقبال الحسن . ولكن ما من شيء يوازي أماً حانية !

ثم سأل أيضاً :

ـ وهل لك أطفال ؟

اضطرب من جديد لجواب بيير السلبي السريع لأنه بادر الى القول :

ـ ليس في ذلك ما يسيء لانك ما زلت شاباً يمكنك والحمد لله ان تنجب أطفالاً . المهم هو حسن التفاهم ...

هتف بيير بالرغم منه :

ـ ان كل شيء الآن سيان عندي !

فردّ بلاتون :

ـ ايه يارجلي الباسل . ان الحرية والخروج من السجن ، شيئان لا يرفضان .

جلس في جلسة مريحة وسعل فبان عليه انه يستعد لحديث طويل .
شرع يقول :

– نعم يا صديقي العزيز ، اننا نقطن جميعنا معاً . ان ملكنا واسع ولدينا اراض كثيرة ، والفلاحون يعيشون عيشة راضية ونحن كذلك ، والحمد لله ! لقد كنا ستة حصادين حول ابينا . نعم ، كنا نعيش عيشة طيبة وكنا مسيحيين طيبين . وهذا ما حصل لنا ...

روى بلاتون مطولاً كيف ذهب يقطع الخشب في غابة جاره فأمسك به حارس وهناك ضربوه بالعصي ثم حاكموه وارسلوه جندياً عقاباً له .

واسترسل بصوت يبدل ابتسامته :

– ايه ، ماذا ياعزيزي ، انك تعتبر هذا شقاء ، وهو سعادة . كان على أخي ان يذهب جندياً لولم ارتكب خطيئتي . ولأخي أربعة اطفال اما انا ، فلم اترك الا زوجتي . صحيح انني رزقت بطفلة . لكن الله استردها مني قبل ان اذهب الى الجندية . يجب ان اقول انني عدت ذات مرة مأذوناً ، فماذا رأيت ؟ انهم لازالوا يعيشون افضل من ذي قبل . ان الفناء مليء بالحيوانات والنساء يقمن بشؤون البيت واثنان من اخوتي يعملان خارج القرية ، وليس هناك الا ميكائيل ، الاصغر سناً . ولقد قال لي أبي : « ان اولادي كلهم متساوون في نظري إذ ان المرء يشعر بالألم أياً كان الاصبع الذي يُعضّ . ولو انهم لم يأخذوا بلاتون لكان على ميكائيل ان يذهب جندياً . » هل تصدقه ؟ لقد استقدمنا جميعاً أمام الصور المقدسة وقال : « ميكائيل ، تقدم ، ونحن امامه ، وكذلك زوجك واولادك أيضاً . هل فهمتم ؟ » هذا هو المعنى يا عزيزي . ان القدر ينتقي ما يعجبه . بينما نحن هنا بسبيل اصدار الاحكام دائماً : هـذا جيد وهذا سيء ... ان سعادتنا ياعزيزي اشبه بالماء في الشبكة : يجرها المرء فتنتفخ فاذا

ما اخرجها بدت فارغة . هو كذلك !

وصمت بلاتون وقد غاص في قشه .

وبعد لحظة صمت نهض وقال :

— حسناً ، اظن ان الرغبة في النوم تستبد بي :

وشرع يرسم شارة الصليب مسرعاً وهو يدمدم :

— ايها المولى يسوع المسيح ، يا قديس نيكولا ، يا قديس فلور ، يا قديس لوران ! ايها المولى يسوع المسيح ارأف بنا وانقذنا !

ولمـــا فرغ من صلاته ، عاد يجلس على القش ونطق قبل ان يستلقي ويتدثر بمعطفه :

— وهكذا ! ايها الرب ! اجعلني انام كقطعة من الحجر واجعلني استيقظ كالرغيف الجيد !

سأله بيير :

— اية صلاة هي هذه التي تلوتها ؟

فقال بلاتون وقد بدأ ينام فعلاً :

— ماذا ؟ ماذا تلوت ؟ لقد صليت الى الله . وانت ، ألا تصلي ؟

فقال بيير :

— ولكن بلى ، انني اصلي انا الآخر . ولكن لماذا قلت : يا قديس فلور ، ياقديس لوران ؟

رد بلاتون بحميا :

— لماذا ؟ لأنهم حفظة الجيـاد ويجب ان يفكر المرء بالحيوانات ... انظر الى هذه ، يا للسافلة ، لقد تكورت كالكرة .

واضاف وهو يلمس الكلب النائم على ساقيه :

– يا لها من دافئة هذه القذرة .

ثم استدار على جنبه الآخر ولم يلبث ان نام .

وفي الخارج ، في مكان ما بعيد ، كان بعضهم يبكي ويصرخ ، بينما كانت النار ترى خلال خصاص الجدران الخشبية . ولكن كل شيء كان ساكناً في الداخل ومظلماً . ظل بيير فترة طويلة مستلقياً دون حراك وعيناه مفتوحتان في الظلام . كان يصغي الى بلاتون الذي كان يشخر بايقاع وهو مستلق بجانبه ويشعر بان العالم الروحي الذي انهار منذ حين في سريرته اخذ يقوم من جديد على قواعد اخرى ، قواعد جديدة كل الجدة ، لا تتزعزع في جمالها .

الفصل الثالث عشر

بلاتون كاراتاييف

كان في المبنى الخشبي الذي اقتيد اليه بيير والذي امضى فيه أربعة أسابيع ، ثلاثة وعشرون جندياً اسيراً وثلاثة ضباط وموظفان .

لم يترك هؤلاء كلهم في ذهنه الا اثراً غامضاً باستثناء بلاتون كاراتيف الذي انطبع في ذاكرته الى الأبد بوصفه أقوى ذكرى واثمنها ، وبوصفه المثال الحي لكل ما هو روسي ، لكل ما هو جيد ومنسجم . وعندما شاهد بيير اخيراً جاره فجر اليوم التالي ، تأكد في نفسه احساسه الاول بالتناسق والانسجام . فكل شخصية بلاتون ، في معطفه الفرنسي المخصور بقطعة حبل وقبعته ذات الحافة وحذائيه المصنوعين من قشر القنب كانت منسجمة . لقد كان رأسه كرة حقيقية وظهره وصدره وكتفاه بل وذراعاه أيضاً اللذان لم يكن يكف عن ارجحتها وكأنه دائماً يستعد لتلقف شيء ما ، مستديرة كلها وكذلك ابتسامته الأنيسة وعيناه الكبيرتان الداكنتان الهادئتان كانت مستديرة .

لاريب ان بلاتون كاراتاييف جاوز الخمسين من عمره ، اذا روعي في ذلك ما يرويه عن المعارك التي ساهم فيها . انه نفسه لايعرف سنه ولا يستطيع ذكره بتأكيد . لكن أسنانه الجميلة ناصعة البياض التي يكشف عن صفين منها كلما ضحك وهو كثيراً ما يضحك ـ ، كانت متينة وسليمة . ولم تكن هناك شعرة

بيضاء واحدة في لحيته او في رأسه . وكان جسمه ينطق بالمرونة بل وبأكثر من ذلك : بالقوة والجلد .

وعلى الرغم من بعض الغضون المحيطة بعينيه ، فان وجهه كان يعكس البراءة والشباب ، وصوته ظل لطيفاً عذباً . لكن الشيء الاكثر استلفاتاً فيه ، كان نسق كلامه البديهي النشيط ، فيبدو كأنه لا يفكر قط فيما سيقوله . لذلك كانت سرعته في الكلام ودقة الفاظه ونطقه تعطيانه ميزة اقناع على جانب كبير من التأثير .

بلغت مقاومته البدنية واندفاعه حداً لم تبـــدو عليه معه خلال أيام أسره الاولى أية بادرة من بوادر التعب أو المرض . كان يردد في كل صباح وكل مساء عند النوم : « ايها المولى ، اجعلني انام كقطعة من الحجر واجعلني استيقظ كالرغيف الجيد . » وفي الصباح عندما ينهض ، كان يقول وهو يمارس حركة لا تتبدل من كتفيه : « عندما يستلقي المرء ، ينطوي على نفسه كالكرة ، وعندما ينهض ، ينفض نفسه . » والحقيقة انه لا يكاد يستلقي حتى ينام كقطعة من الحجر ثم لا يكاد ينتفض حتى يزاول عملاً ما دون ان يتوانى ثانية واحدة ، اشبه بالأطفال الذين لا يكادون يستيقظون حتى يعودون الى ألعابهم . وكان يحسن كل شيء ، واذا لم يكن ذلك بشكل كامل ، فعلى الأقل ، بطريقة لا بأس بها . كان يطهو ويخيط وينجر ويرتق الأحذية . وكان دائم الانشغال لا يسمح لنفسه بالثرثرة والغناء اللذين يميل اليهما كثيراً ، الا عندما يهبط الظلام . ثم انه لا يغني على طريقة المحترفين اللذين يعرفون ان الناس يصغون اليهم ، بل على طريقة الطيور ، فكان بث الانغام بالنسبة اليه ، شيئاً لا مندوحة منه كالتمطي أو السير . وحينئـذ يتخذ وجهه امارات رزينة . وأياً كان الصوت الذي يخرج من حنجرته ، فانه لم يكن يخلو من شيء حنون رخيم نسوي وحزين .

وعندما أصبح أسيراً ونبتت لحيته من جديد ، بدا أنه تخلص بشكل واضح

من كل مظهر غريب وعسكري مفروض ، ليعود رغماً عنه ، ذلك القروي السابق ، ابن الشعب .

كان يقول : « ان الجندي المأذون ، يحتفظ بقميصه غير اللائق . »

ما كان يحب التحدث عن أيام خدمته رغم انه لم يكن يشكو منها ، وانه ردد غالباً انهم لم يضربوه مرة واحــــده . فاذا شرع يروي شيئاً تحدث غالباً عن ذكرياته القديمة ، العزيزة على نفسه كما يبـدو بوضوح ، ذكريات الوقت الذي كان فيه « مسيحياً » . وهذا هو الاسم الذي يطلقـه على القروي [1] . لم يكن للأمثال التي تزين احاديثه أية رابطة مع العبارات البذيئة غالبا والخلاعيه التي يألفها الجنود ، بل كانت دائماً احكاماً شعبية اذا أخذت معزولة عن الحديث ، فقدت كل معناها فلا تحوي على معنى شديد العمق الا اذا اوردت في مناسباتها .

غالباً ما كان يحدث له ان يناقض نفسه . مع ذلك ، فان ما يقوله كان دائماً صحيحاً . كان يحب الكلام ويحسن التعبير ، يزين احاديثه باسمـاء تصغير ممالقة وبأمثال ينسجها حسب الاقتضـاء ، كما خيل الى بيير ، لكن الفتنة في احاديثه كانت تنبعث عن الحوادث الأكثر بساطة ، الحوادث التي يراها بيير دون ان يعيرها أي التفات ، والتي تأخذ في فمه طابعاً من العظمة الحقيقية . وكان يحب الاصغاء الى الاحـدوثات (وهي لم تكن لتتبدل قط) التي يرويها أحد الجنود مساء ، ويفضلها على كل اقاصيص الحياة الواقعـة . فاذا ما اصغى الى تلك الاحدوثات ، ارتسمت على وجهه ابتسامـة بهيجة ، وعلق عليها بكلمة أو طرح

(١) جاء في ذيل النص الفرنسي : ان كلمة قروي تلفظ بالروسية كريستيانين من كلمة كريست أي الصليب لأن القرويين الروسيين كانوا يحملون صليباً على صدورهم . امـا كاراتاييف فكان يلفظ الكلمة كريستيانين — لاحظ الفرق بين الكلمتين بالفرنسية — ومعناها مسيحي .

سؤالاً ، دلالة على ان عقله ميال الى البحث عن الجانب الخلقي فيما يروى على مسامعه . ما كان يعرف التعلق ولا الصداقة ولا الحب على الطريقة التي يفهمها بيير بها . لكنه كان يحب كل انسان ويعيش عيشة ودية مع كل الذين تقحمهم الحياة في سبيله ، ليس مع هذا وذاك من الرجال بصورة خاصة ، بل مع كل الرجال الذين تقع ابصاره عليهم . وكان يحب كليبه وزملائه والفرنسيين ويحب بيير الذي هو جاره ، لكن بيير كان يشعر بان كاراتاييف – رغم كل الكلمات المماقة التي يوجهها اليه والتي كانت تكريماً غير ارادي لصفات زميله الخلقية – لايمكن ان يغتم دقيقة واحدة بسبب ذهابه . وعلى ذلك ، فقد راح بيير يشعر حيال كاراتاييف بأحاسيس مماثلة .

كان بلاتون كاراتاييف جندياً عادياً تماماً بالنسبة الى كل السجناء الآخرين فكانوا ينادونه تارة : الصقر الصغير ، وطوراً بلاتون ، ويمازحونه في غير خبث ويوفدونه في سخرات . اما بالنسبة الى بيير ، فقد ظل ووجب ان يظل ، كما رآه في الليلة الاولى ، مثالاً مفعماً منيعاً خالداً للبساطة والصراحة .

ما كان بلاتون كاراتاييف يحفظ شيئاً عن ظهر قلب باستثناء صلاته . فاذا ما شرع في روايه قصة ، بدا كأنه لايدرى كيف سينهيها .

وأحياناً عندما كان بيير يدهش لعمق غور أقواله فيطلب اليه ان يعيدها ، كان بلاتون لايقدر على تذكر ما قاله منذ حين كما لايستطيع بالمثل ان يقول لبيير كلمات اغنيته المفضلة . كانت تلك الاغنية تبحث عن « السندر ، اخي الصغير » وعن « القلب الذي يؤلمني » . لكنها تفقد معناها اذا قيلت كلاماً . ولم يكن بلاتون يفهم كما لم يكن يستطع ان يفهم قيمة كلمة مأخوذة وحدها . فكل كلمة

من كلماته وكل بادرة ، كانت ظاهرة خارجية لذلك النشاط اللاشعوري الذي هو حياته . وحياته ، كما كان يحس بها ، كانت تبدو عارية من كل معنى اذا اخذت على اعتبارها حياة شخصية ، وتأخذ معنى اذا باتت جزءاً من كل ، لا يني يشعر به . كانت كلماته وتصرفاته تصدر عنه بمثل الانتظام والامتثال للضرورة والبديهية التي يخضع لها اريج زهرة . لكن بلاتون لم يكن يقدر أن يفهم قيمة فعل أو كلمة أو معناهما اذا أخذا مستقلين .

* * *

الفصل الرابع عشر

رحلة ماري

عندمـــا علمت الأميرة ماري من نيكولا أن أخاها موجود لدى آل روستوف في ايارو سلافل ، شرعت تعد العدة للرحيل رغم اعتراضات خالتها وارادت كذلك ان تصحب ابن اخيها معها . لم تكن تتساءل بل لم تكن تريد أن تعرف ما إذا كان عزمها ميسوراً او حتى ممكن التنفيذ . لم يكن واجبها الذهاب الى قرب أخيها الذي قـد يكون على وشك الموت فحسب ، بل ان تعمل على ايصال ولده اليه . لذلك فقد قررت ان تذهب . واذا لم يكتب لها الأمير آندريه ، فقد راحت تفسر ذلك بأنه شديد الضعف لا يستطيع الكتابة أو أنه يرى السفر الذي ستقوم به مع ابنه طويلاً جداً وشاقاً جداً وخطيراً جداً .

باتت في غضون بضعة أيام مستعدة للرحيل ، فكانت عدتهـــا للسفر عربة الامير « البرلين » الفسيحة التي استعملتها في السفر الى فورونيج وبعض عربات النقل وعربات الخيزران الخفيفة . وكانت تعتزم اصطحاب الآنسة بوريين ونيكولا الفتى ومربيه والمرضعة العجوز وثلاث خادمات وتيخون ووصيف شاب وحارس قدمته خالتها لمواكبتها .

ما كان يجب التفكير في اتباع الطريق العادية التي تمر بموسكو . اما الطريق غير المطروق الذي يمر بليبيتسك وريازان وفلاديمير وشوايا ، فكان يطيل

المسافة ويزيد في المصاعب بسبب فقدان خيول البرد ، ولأنه في ضواحي ريازان ، كان الفرنسيون يظهرون أحياناً – كما يزعم الناس – فيتعرض المسافر للخطر كذلك .

دهش : الآنسة بوريين وديسال والخدم المرافقون للأميرة خلال الرحلة الشاقة من جلد ماري ونشاطها . كانت آخر من نيام واول من ينهض ، لا توقفها صعوبة . وبفضل هذه الهمة الفعالة دون توان ، التي ابقت على المعنويات رفاقها بالسفر ، استطاعوا ان يبلغوا ايا روسلافل في نهاية الاسبوع التالي .

عادت الأيام الأخيرة التي قضتها الأميرة ماري في فورونيج عليها بأكبر سعادة ذاقتها في حياتها . لم يعد حبها لروستوف يسبب لها عذاباً أو قلقاً . لم تعد تناضل ضده اذ بات يملأ روحها ويتحد معها في جسد واحد . لقد كانت الأميرة ماري واثقة دون ان تعلن ثقتها ابداً ، من أنها محبوبة وانها تحب . ولقد أتتها تلك الثقة المكينة ابان لقائها الأخير مع نيكولا ، عندما جاء ينبئها بأن أخاها موجود لدى آل روستوف . لم يلمح نيكولا قط عن عودة الامور الى سابق عهدها في حال شفاء الأمير آندريه ، بين الامير آندريه وناتاشا . لكنها رأت على قسمات وجهه ان تلك المصالحة باتت تشغله . اما طريقته حيالها فقد ظلت متحفظة حانية ودودة . لكنه بدا وكأنه مبتهجاً اذ باتت القرابة الآن تتيح له ان يعبر بأكثر حرية للأميرة ماري عن صداقة غرامية تبلغ حد ما كانت تحلم بمثله أحياناً . كانت تعرف أنها تحب للمرة الاولى في حياتها وللمرة الأخيرة وتشعر بأنها محبوبة فكانت سعيدة بذلك وهانئة .

وتلك السعادة ، التي كانت خلال ذلك الوقت تملأ كل روحها ، لم تمنعها من ان تشعر بغم شديد بسبب اخيها . على العكس . فالسلام الذي ربحته من جانب واحد راح يسمح لها الاستسلام كلياً وبأكثر كمالاً من الجانب الاول الى عاطفتها

الأخوية . بل ان قلقها كان من العنف في اوبقات السفر الاولى حتى ان رفاقها بالسفر خافوا عليها من المرض خلال الطريق . لكن الصعوبات والمشاغل المتعلقة بالسفر التي اضطلعت بها بنشاط كبير ، أنقذتها لوقت ما من حزنها واعادت اليها قواها .

وكما يحدث دائماً ، نسيت الأميرة ماري التي احتكر السفر نفسه كل عنايتها الغاية من السفر . ولكن ، عندما باتوا قريبين من ياروسلافل ، عندما فكرت فيما يمكن ان ينتظرها ليس في غضون بضعة ايام ، بل ذلك المساء بالذات ، تجاوز تأثرها كل الحدود .

وعندما عاد الحارس الذي ارسلوه للاستطلاع عن مسكن آل روستوف في ياروسلافل وعن حالة الامير آندريه والتقى بعربة « البرلين » التي تقل الأميرة ماري عند مدخل المدينة ، روع روعاً شديداً لشدة ما كان الوجه الذي اطلت عليه به من نافذة العربة شاحباً ومنقلباً .

قال الحارس :

ـ لدي كل المعلومات ياصاحبة السعادة . ان آل روستوف يقطنون على الساحة ، في مسكن البائع برونيكوف ، على ضفة الفولجا تماماً .

حدقت الأميرة ماري في وجهه بعينين مذعورتين متوسلتين دون ان تفقه السبب الذي من أجله تغاضى عن الاجابة على السؤال الرئيسي المتعلق بأخيها . ولقد طرحت الآنسة بوريين ذلك السؤال بدلاً من الأميرة . سألت :

ـ والأمير ؟

ـ ان سعادته معهم في المسكن ذاته .

فكرت الأميرة : « ان معنى هذا انه على قيد الحياة . » وأضافت بلهجة هادئة : « كيف حاله ؟ » .

ـ يقول الخدم انه لازال على حاله .

لم تسأل الأميرة عما يُفهم من هذا القول ، بل اختلست نظرة الى نيكولا الصغير،وهو طفل في السابعة من عمره جلس قبالتها وبدا شديد السعادةبالوصول الى مدينة ، ثم أطرقت برأسها فلم ترفعه الا عندما توقفت عربتها البرلين الثقيلة التي كانت تقفز وتهتز وتصر ، واصطفت المرقاة عندما انزلوها .

فتحوا الأبواب . الى اليسار ، ظهر أديم ماء النهر المتسع والى اليمين مرقاة وعلى هذه المرقاة كان عـدد من الخدم ينتظرون وبينهم فتاة شابة يانعة ذات ضفيرة سوداء كبيرة وابتسامة مغتصبة ضعيفة البشاشة ـــ او هكذا خيل للأميرة ماري ـ هي سونيا اندفعت الأميرة تريد ارتقاء الدرجات ، لكن الفتاة ذات الابتسامه المغتصبة قالت : « من هنا ، من هنا ! » ووجدت ماري نفسها في بهو في حضرة سيدة ذات طابع شرقي هرعت للقائها وهي بادية التأثر الشديد . تلك كانت الكونتيس العجوز . احاطت الأميرة ماري بذراعيهـــا وراحت تقبلها وتقول :

ـ يا طفلتي ! انني احبك واعرفك منذ أمد طويل .

فهمت الأميرة ماري رغم شدة انفعالها انها في حضرة الكونتيس وان عليها ان تجيب بشيء . فنطقت بكلمات مجاملة بالفرنسية على مثل الاسلوب الذي استعمل لاستقبالها دون ان تدرك كيف تم ذلك ثم سألت : « كيف حاله ؟ »

فأكدت الكونتيس :

ـ ان الطبيب يقول ان الخطر قد زال .

لكنها ناقضت بنفس الوقت اقوالها بان رفعت عينيها الى السماء واشفعت ذلك بزفرة .

سألت الأميرة :

ـ اين هو ؟ هل يمكن رؤيته ؟ هل يمكن ؟

ـ فوراً يا أميرة ، فوراً ياصديقي .

ثم سألت الأميرة وهي تلتفت نحو نيكولا الذي دخل حينذاك مع ديسال :

ـ وهذا هو ابنه ؟ لدينا أمكنة كافية لايوائكم ، فالبيت كبير . اوه إياله من طفل فتان !

ادخلت الكونتيس ماري الى البهو ،وكانت سونيا تتحدث مع الآنسة بوريين . راحت الكونتيس تطر الطفل بالملق ودخل الكونت العجوز ليحيي الاميرة . لقد تغير كثيراً منذ أن رأته آخر مرة. لم يعد الكهل الصغير النشيط المليء بالاندفاع والثقه الا رجلا مسكيناً مشوشاً يثير الاشفاق. ما كان يكف وهو يتحدث مع الاميرة عن القاء نظرات قلقة حوله وكأنه يتأكد من أنه يعمل تماماً ما وجب عليه عمله . لقد فقد بشكل واضح الاهتمام بكرامته الشخصية وأصبح يرى نفسه عالة في الحياة بعد ان فقـــد ثقته بنفسه اثر نكبة موسكو ودماره الشخصي .

لم يكن للأميرة الا رغبة واحدة ، هي رؤية اخيها بأسرع ما يمكن وترى في غضب انهم يضيعون عليها وقتاً ثميناً بكل هذه المجاملات والتهاني المبالغ فيها التي اغدقوها على ابن اخيها . مع ذلك ، فانها لم تتوان عن التطلع الى ما حولها ، وشعرت بضرورة الخضوع لهذه الاساليب الجديدة بالتصرف . كانت تعرف ان كل هذا لاريب فيه وانه يجب احتماله مهما بلغت مشقته .

قالت الكونتيس وهي تقدم سونيا :

ـ هذه ابنة اختي سونيا ، انك لاتعرفينها بعد يا أميرة .

فالتفتت الأميرة نحو سونيا وقبلتها وهي تحاول جاهدة كبت شعور العداء الذي استبد بها نحو الفتاة. لكن الاكثر ايلاماً بالنسبة اليها حينذاك كان اطلاعها على مدى بُعد الاستعداد الفكري لدى كل من حولها عن اتجاهها الشخصي .

سألت من جديد موجهة حديثها اليهم بدون استثناء :

— اين هو ؟

فأجابت سونيا ووجهها يتضرج :

— انه في الأسفل وناتاشا تسهر عليه . لقد ذهبوا يعلنون قدومك . اظن انك شديدة التعب ياأميرة !

انبثقت دموع الغضب من عيني ماري ،فاستدارت وكادت ان تطلب الى الكونتيس الطريق الى حيث أخيها عندما ارتفعت عند الباب خطى خفيفة حازمة تبدو كأنها تنبىء بالفرح . فنظرت الأميرة وراءها لترى ناتاشا داخلة في ما يشبه الجري ، ناتاشا تلك نفسها التي لم ترق لعينيها قط ابان لقائها الأخير في موسكو .

لكنها ما كادت تطالع وجهها حتى ادركت من فورها أن ناتاشا هذه هي رفيقة أحزانها المخلصة وبالتالي صديقتها . اندفعت للقائها وطوقتها بذراعيها ثم راحت تبكي على كتفها .

لم تكد ناتاشا الجالسة قرب سرير الامير آندريه تعلم بوصول الاميرة ماري حتى خرجت بهدوء من غرفة المريض وجرت اليها بتلك الخطى التي بدت مرحة بادىء الأمر في نظر الأميرة ماري .

ولما دخلت البهو وهي في شبه جري ، لم يكن وجهها المنفعل ينم الا بعاطفة واحدة ، الحب ، الحب الذي لاتحده حدود ، نحوه ،نحوها ونحو كل ما يتصل بالرجل الذي تحب ، عاطفة اشفاق وحنان ، ورغبة جامحة في ان تنذر نفسها للترفية عن الآخرين . كان يُرى في تلك الدقيقة ان ناتاشا لاتفكر في نفسها ولا في علاقاتها مع الأمير آندريه .

ولقد لمست الأميرة ماري بكل هذا ببديهتها من النظرة الاولى التي القتها

على وجه ناتاشا ، لذلك فقد انصرفت تبكي على كتفها بفرحة مرة . قالت ناتاشا وهي تأخذها الى حجرة اخرى :

ــ هيا بنا ، هيا بنا اليه ياماري .

رفعت الأميرة ماري رأسها وجففت دموعها وارادت ان تسألها . كانت تحس بأنها تستطيع معرفة كل شيء عن طريقها . شرعت تقول :

ــ اذن ؟

لكنها توقفت . شعرت بأنه يتعذر السؤال والجواب باستعمال الكلمات ، فوجه ناتاشا ، وعيناها كانت تنطق بلغة أشد وضوحاً وابعد عمقاً .

كانت ناتاشا تنظر اليها ولكنها تبدو كأنها طافحة بالقلق والتردد . ترى هل يجب عليها ان تقول ما تعرفه ام تخفيه ؟ كانت تحس بأنه يستحيل اخفاء الحقيقة كما تعرفها هاتين العينين اللامعتين اللتين تتغلغلان الى أعماق قلبها . وفجأة ارتعدت شفتا ناتاشا وطافت بفمها حركة فغيرة ، ثم انخرطت تبكي وقداخفت وجهها بين يديها .

ادركت ماري كل شيء .

مع ذلك ، لقد جنحت الى الأمل رغم كل شيء وسألت دون ان تصدق الكلمات التي تنطق بها :

ــ وكيف حال جرحه ؟ في أية حال هو !

فلم تستطع سونيا الا ان تقول :

ــ سوف ، سوف . . ترين .

ظلتا بضع لحظات في الاسفل في غرفة مجاورة لحجرة الأمير كي تخفيا دموعهما وتصلا بالقرب منه بوجهين هادئين . سألت الاميرة ماري :

ــ كيف كان سير مرضه ؟ هل هو أسوأ حالاً منذ زمن طويل ؟ متى وقع « ذلك » ؟

روت ناتاشا انه خلال الايام الاولى،هدد الألم والحمى حياته بالخطر ولكنه في ترويتسا طرأ تحسن على حالته فلم يعد الطبيب يخشى الا الأكلة . ثم استبعد هذا الخطر كذلك . . أما في اياروسلافل ، فقدحصل إصداد — ولقد أصبحت ناتاشا خبيرة في هذه الأمور — فأكد الطبيب ان هذا الاصداد سوف ينقطع ثانية . ثم عادت الحمى . لكنه أكد ثانية انها لن تكون خطيرة .

وشرعت ناتاشا تقول :

— مع ذلك ، فان « ذلك » وقع فجأة أول أمس . — وابتلعت شهقة — لست أدري لماذا ، لكنك ستتأكدين بنفسك كيف حاله .

سألت الاميرة :

— هل هو أشد ضعفاً ؟ هل هزل ؟

— كلا ، ليس الأمر متعلقاً بهذا ، انه شيء أسوأ كثيراً . سوف ترين . آه ! ياماري ، انه شديد الطيبة ، لن يستطيع ، كلا ، لن يستطيع ان يعيش لأنه . .

الفصل الخامس عشر

الدلائل الاولى

عندما فتحت ناتاشا الباب بحركتها المألوفة ،وقدمتها عن نفسها في الدخول ، شعرت الأميرة بالعبرات تخنقها . لقد عملت ما بوسعها لتستعد وحاولت جهدها ان تظهر هادئة ؛ لكنها كانت تعرف انها ستكون عاجزة عن رؤية أخيها دون أن تبكي .

لقد فهمت الأميرة ماري ما أرادت ناتاشا ان تقوله بهذه الكلمات : لقـــد وقع « ذلك » فجأة أول أمس . فهمت ان معنى ذلك انه افرط فجأة في التحنان وان ذلك الحنو الفجائي من آيات الموت السابقة . عادت ترى في خيالها وهي تقترب من الباب وجه آندريه طفولتها الصغير ذلك وجه اللطيف المليح الحاني المحتشم الذي قلما عادت تراه فيما بعد والذي كان كل مرة يزيد في انفعالها بأكثر قوة من المرة السابقة . كانت تعرف انه سيقول لها تلك الكلمات الهادئة الحانية نفسها التي قالها ابوها لها قبل وفاته وانها لن تحتمل سماعها فتذوب في دموعهـا . ولكن ! طالمـا وجب ذلك آجلا ام عاجلًا ، فقد حزمت امرها ودخلت الى الغرفة . وكلما تبينت عيناها الكليلتان بوضوح شكل اخيها أكثر وتقاطيعه ، تدافعت الغصات الى حلقها . واخيراً شاهدت وجهه وقابلت نظرته .

كان ممدداً فوق أريكة متكئاً على وسائد ، متدثراً بمعطف منزلي مبطن بفراء السنجاب ، وكان شديد النحول شاحباً ، واحدى يديه نحيلة لدرجة الشفف تحمل منديلاً بينما راحت الاخرى تفتل شاربه الرفيع المسترسل بحركة خفيفة من أصابعها . اما عيناه ، فكانت شاخصتان اليهما .

عندما شاهدت وجه أخيها ولاقت عينيه ، ابطأت الأميرة ماري خطاها . شعرت فجأة بدموعها تخف ونحيبها يهدأ . أحست فجأة وكأنها مذنب أمام هذا الوجه وامام تلك النظرة .

تساءلت « ولكن أي ذنب جنيت ؟ »

وأجابت نظرة الأمير آندريه الباردة الصارمة : « ذنب الحياة والتفكير في العيش بينما أنا . . » لقد أصبحت تلك النظرة العميقة التي لاترى ما في الخارج فحسب بل كذلك ما في داخل نفسه ، شبه عدائية عندما استدار ببطء نحو الأميرة ماري ونحو ناناشا .

تعانق الاخ والاخت قلبياً حسب عادتهما . وقال بصوت جامد ضعيف وغريب مماثل في هذه الصفات لنظرته :

— مرحباً يا ماري . كيف عملت لتصلي الى هنا ؟

ولو انه اطلق صرخة ثاقبة لما اذهلت تلك الصرخة الأميرة ماري وروعتها كلهجة ذلك الصوت .

قال بذلك الصوت الهادىء البسيط وهو يبذل جهداً ظاهراً للتذكر :

— هل جئت بصغيري نيكولا معك ؟

سألت الأميرة ماري وهي دهشة لسؤالها :

— كيف حالك الآن ؟

فأجاب :

ـ هذا باعزيزتي ، يجب سؤال الطبيب عنه .

ولكي يبدو انيساً قال باستخفاف ـ وكان واضحاً انه لايفكر قط في ما يقول ـ :

ـ شكراً ياصديقتي العزيزة لمجيئك .

ضغطت الاميرة ماري على يده ، فقطب حاجبيه عند ذلك تقطيباً خفيفاً . كان ملتزماً الصمت بينما لم تكن هي تعرف ماذا تقول . فهمت ماذا جرى له منذ يومين . ان كلماته ورنة صوته ، وبصورة خاصة نظرته الباردة شبه العدائية ، كانت تنطق بذلك التخلي عن كل مـــا هو دنيوي ، ذلك التخلي الذي يروع الانسان صحيح الجسم . كان الأمـــير آندريه يبدو كأنه يفهم العـالم الحي بصعوبة وكان يُرى ان ذلك غير ناجم عن انعدام ميزة الفهم لديه ، بل عن انـــه يفهم شيئاً آخر لا يستطيع الاحياء فهمه ولا يفهمونه ، شيئاً يغمره كله .

هتف فجأة وهو يقطع الصمت ويشير الى ناتاشا :

ـ نعم ، لقد جمعنا القدر بطريقة غريبة ! انها هي التي تعنى بي الآن .

كانت الأميرة ماري تسمع جيداً ولكن دون ان تفهم ما كان يقوله أخوها . هو ، شديد اللطف ، شديد الحنان ، كيف أمكنه ان يتكلم هكذا أمام تلك التي يحبها والتي تحبه ! لو أنه كان يعتقد بشفائه لما تحدث بمثل هذه اللهجة المتحررة المهينة . ولو علم انه مائت ، فكيف لم يشفق عليها ، كيف يمكنه ان يتكلم في حضورها على هذا النحو ؟ لايمكن اعطاء كلماته الا تفسيراً واحداً : ان كل شيء متساوياً لديه وذلك بكل دقة ، لأن شيئاً ما آخر ، اكثر أهمية ، قد كُشف له .

وكانت المحادثة الباردة المتواترة تتوقف في كل لحظة :

قالت ناتاشا :

ـ لقد جاءت ماري عن طريق ريازان .

لم يلاحظ الأمير آندريه انها تنادي اخته باسمها الصغير . لكن ناتاشا انتبهت لأول مرة في حضرته . سأل :

ــ حسناً ؟

ــ رووا لها ان موسكو أصبحت رماداً كلها وان . . .

وتوقفت ناتاشا . الأفضل ان تصمت . لقد كان يبذل جهداً ظاهراً للاصغاء دون ان يصل الى بغيته .

ــ نعم ، يقولون ان موسكو قد احترقت وهذا محزن للغاية .

خلال ذلك ، كانت نظرته شاخصة امامه وأصابعه تجذب شاربه بحركة آلية.

قال الأمير آندريه فجأة وهو يرغب في الظهور بمظهر المؤنس :

ــ وهل قابلت الكونت نيكولا ؟

ثم أردف ببساطة وهدوء وكأنه لا يملك القوة على تصور مدى أهمية كلماته بالنسبة الى احياء :

ــ لقد كتب الى هذا يقول انك تروقين له كثيراً !

وانهى حديثه قائلاً بسرعة وكأنه سعيد اذ وجدا أخيراً الكلمة التي طال بحثه عنها :

ــ فاذا كان يروق لك بالمثل ، فان ذلك يكون لخير كما . . سوف تقترنين به .

لم تكن لتلك الكلمات أكثر من معنى واحد عند الأميرة ماري ؛ انهــا تشير الى ان أخاها بعيد الآن بشكل مريع عن عالم الاحياء .

هتف بلهجة هادئة وهي تنظر الى ناتاشا :

ــ لمَ التحدث عني !

واحست ناتاشا بتلك النظرة تنحط عليها لكنها لم ترفع رأسها . ومن جديد ران الصمت ؟

ــ آندريه ، هل تريد . . هل تريد رؤية صغيرك نيكولا .

طرحت الأميرة ماري هذا السؤال فجأة بصوت مرتعد واضافت :

ـ انه لابني يتحدث عنك !

طافت على شفتي الأمير آندريه لأول مرة ابتسامة خفيفة . لكن الأميرة التي كانت تعرف وجهه تماماً ، ادركت بهول انهـــا لم تكن ابتسامة سرور أو حنان لفكرة وجود ولده ، بل ابتسامة سخرية رقيقة لبقة موجهة اليها لأنها استعملت الوسيلة الاخيرة التي ـ حسب رأيها ـ كانت قمينة بايقاظ العاطفة فيه .

ـ نعم ، سأكون مسروراً برؤية صغيري نيكولا . هل صحته جيدة ؟

وعندما جيء بنيكولا الصغير للأمير آندريه ، نظر الطفل الى أبيه بذعر وروع ولكن دون ان يبكي لأنه لم ير احداً يبكي ،فقبله الأمير آندريه دون ان يعرف ماذا يقول له .

ثم صرفوا الصغير واقتربت الأميرة ماري من أخيها من جـديد فقبلته وانفجرت منتحبة وقد عجزت عن امتلاك أعصابها اكثر مما فعلت .

تأملها بنظرة محدقة ثم سأل :

ـ اتبكين بسبب نيكولا ؟

فأشارت الأميرة ماري خلال دموعها بحركة ايجابية من رأسها .

ـ ماري ، هل تعرفين الانجـ . .

وصمت فجأة .

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

فقال وهو يحدق فيها بنظرته عديمة الاحساس :

ـ لا شيء هنا ، لا يجب البكاء .

عندما رأى اخته تنفجر باكية ، ادرك الامير آندريه ان اخته تبكي لأن نيكولا الصغير سيصبح بعد حين يتيما . فبذل جهداً كبيراً على نفسه ليعود الى الوراء قليلا في الحياة وليستعيد وجهة نظر الاحياء .

فكر : « نعم ، ان ذلك لابد يؤلمهم كثيراً ! مع ذلك ، كم هو بسيط ! »
حدث نفسه وهو راغب في ان يشرك اخته في تفكيره ذاك : « ان عصافير الاجواء لاتزرع ولا تحصد. مع ذلك ، فان ابانا السماوي يطعمها . ولكن لا ، انهما ستفهمان ذلك على طريقتهما ام لعلهما لن تفهما ذلك ! انهما لا تستطيعان فهم هذا : ان كل هذه العواطف التي تعلقان عليها كل هذه الاهمية وكل ما هو شخصي بحت في نظرنا وكل هذه الافكار التي تبدو لنا بالغة الاهمية ، ان كل هذا عديم الفائدة ! كلا ، ما عدنا نستطيع ان نتفاهم ! » ثم صمت .

كان ابن الامير آندريه الصغير على وشك بلوغ السنة السابعة من عمره ، فكان بالكاد يعرف القراءة ولم يكن بعد قد تعلم شيئاً ، ولقد كان عليه منذ ذلك اليوم ان يكتسب خبرة ومعلومات وميزة الملاحظة . مع ذلك ، لو انه استطاع ان يستعمل حينذاك كل الكفاءات التي وزعها فيما بعد ، لما استطاع ان يفهم معنى المشهد الذي رآه يمثل بين أبيه والأميرة ماري وناتاشا أفضل مما فهمه . لقد فهم كل شيء ، وخرج من الحجرة دون ان يبكي واقترب بسكون من ناتاشا التي تبعته ونظر اليها بوجل بعينيه الجميلتين الحالمتين وقد طافت رعدة خفيفة بشفتيه القرمزية الشامخة قليلاً ثم اخفى رأسه في هيكل الفتاة وراح يبكي .

ومنذ ذلك الحين ، اخذ يتحاشى ديسال وملاطفات الكونتيس فكان يلبث العليا وحيداً تارة وتارة يقترب من الأميرة ماري وناتاشا التي بدا انه يفضلها على عمته نفسها ، ويستخلص بخجل ووجل ملاطفاتهما .

وعندما خرجت الاميرة ماري من مقابلتها مع اخيها ، وفهمت كل مـــا حدثها به وجه ناتاشا ، لم تعد تتحدث الى الفتاة عن امل بالشفاء . حلت محلها قرب الاريكة حيث كان الأمير آندريه مسجى ، وراحت دون أن تبكي اكثر مما بكيت ، ترفع الى الازلي الخالد صلوات من كل روحها ، الى الممتنع الذي جلت معرفته ، والذي كان حضوره عند رأس المحتضر يكاد يكون ملموساً

الفصل السادس عشر

موت آندريه

لم يكن الأمير اندريه يعرف انه سيموت فحسب ، بل كان يشعر كذلك انه يموت ، بل انه اصبح نصف ميت . كان شاعراً تماماً بانفكاكه عن الاشياء الدنيوية ، يحس بخفة مرحة غريبة . وكان ينتظر الذي لابد منه دون تعجل ولا قلق . ان ذلك الوجود المنذر الخالد المجهول الذي لم يكف طيلة حياته عن الاحساس به ، بات الآن قريباً جداً ولم تكن هذه الخفة الغريبة الا الدليل الملموس الحساس .

* * *

لقد خاف الموت فيما مضى واحس مرتين بالقلق المريع اذ رآى نفسه قريباً من نهايته اما الآن فانه لم يعد يشعر بهذا القلق .

شعر به أول مرة حينما كانت القنبلة تدور أمامه وهو ينظر الى الحصد والادغال والسماء وهو عارف بدنو الموت . فلما استعاد حواسه بعد جرحه ، خيل اليه انه قد تخلص بصورة ما من ثقل الحياة الذي كان يمسك به ولم تلبث بعد ذلك ان تفتحت في نفسه زهرة الحب الابدي الحر وقد تحرر من كل رباط مع هذه الحياة . ومنذ ذلك الحين لم يعد يفكر في الموت قط بدلاً من أن يخاف منه .

فكر ملياً خلال ساعات الوحدة الأليمة ونصف الهذيان التى أعقبت جرحه

في ذلك الحب الازلي الذي اكتشفه حديثاً ، حتى انه راح ينفصل أكثر فأكثر عن الحياة الدنيوية دون ان يكون لديه شك في ذلك . حب كل شيء وكل الناس،والتضحية بالذات دائماً في سبيل الحب ،يعني عدم محبة أحد بالذات وبالتالي عدم العيش حياة دنيوية. وعلى هذا،فان كلما ازداد تعمقاً في ذلك الحب الجديد، ازداد اعتكافاًلأشياءهذا العالم، وازال تماماً الحاجز الرهيب الذي لولا الحب ، يقع بين الموت والحياة . وعندما شعر في الآونة الاولى بانه على وشك الموت ، قال لنفسه : « حسناً ، هذا أفضل ! »

لكنه بعد تلك الليلة في ميتيشتشي ، حيث رآى وهو في حالة اقرب الى الهذيان ، تلك التي يرغب فيها تظهر أمامه ، وحيث سفح دموع فرح حلوة وهو يضغط يدها على شفتيه ، عاد الحب الذي تسلل خلسة الى قلبه فأعطاه طعم الحياة وعادت اليه أفكار مشرقة مقلقة . كان يشعر حينذاك بعجزه عن استعادة ذلك الشعور الذي احس به عندما رآى كوراجين في مستشفى الميدان واخذ يتعذب لمعرفة ما اذا كان سيعيش ولكنه ما كان يجرأ على طرح ذلك السؤال .

خلال ذلك ، تبع المرض طريقه الطبيعي ووحت « ذلك » الذي تحدثت عنه ناتاشا قبل وصول الأميرة ماري بيومين . لقد كان النضال الرفيع بين الموت والحياة ، ذلك النضال الذي تفوق فيه الموت . كان التأكيد غير المنتظر بأنه لايزال يتعلق بالحياة لانها تمثل له حب ناتاشا ،وكان التمرد النهائي من جانب كيانه كله ضد المجهول الماثل .

كان المساء قد هبط وكان كعادته بعد ان تناول الطعام ، مرتفع الحرارة قليلاً ولكن أفكاره كانت من أكثر الافكار اشراقاً . وكانت سونيا جالسة قرب الطاولة وهو يحلم . وفجأة استولى عليه شعور بالسعادة .

فكر : « آه ! ها هي ذي ! »

والواقع ان ناتاشا دخلت حينداك وحلت محل سونيا دون اية ضجة .

لقد ظل يشعر منذ أن بدأت تعنى به ، بذلك الشعور المادي في حضرتها . كانت جالسة على مقعد وثير يظهر منها جانب وجهها، تحجب ضوء الشمعة وتسرد جورباً ، (لقد تعلمت السرد لأن الأمير آندريه قال لها ذات يوم انه ما من أحد يحسن العناية بالمرضى أفضل من عجائز المربيات اللواتي يسردن الجوارب وان في السرد شيئاً مهدئاً .) تزلق اصابعها الدقيقة الصنانير بنشاط وهي تشتبك من حين الى آخر . وكان يرى جانب وجهها الساهم المنحني مرتسماً بوضوح على صفحة العتمة . اتت بحركة فتدحرجت كنبها على ركبتيها فانتفضت والقت نظرة على الامير اندريه ثم حجبت ضوء الشمعة بيدها وبحركة حريصة مرنه وسريعة ، انحنت فلمت كتبها واستعادت وضعيتها الاولى .

كان ينظر اليها دون ان يتحرك فلاحظ انها بعد حركتها تلك ، في حاجة الى نفس عميق بعد ان انحنت على ذلك النحو ، لكنها لاتسمح لنفسها به وتسعى ان تتنفس بهدوء وحذر .

لقد تحدثا عن الماضي في دير الثالوث فقال له انه اذا عاش فسينذر الى الله عرفاناً أبدياً لذلك الجرح الذي ساقه اليها . لكنهما منذ ذلك الحين لم يتحدثا عن المستقبل أبداً .

فكر الآن وهو ينظر اليها ويصغي الى قرع الصنانير الفولاذية الخفيف : « هل يمكن ، نعم ، هل يمكن ؟ هل يمكن ان تكون القدرة قد جمعتني بها على هذا النحو المدهش لكي اموت فقط ؟ . . هل يعقل ان تكون حقيقة الحياة لم تكشف لي الا لتكذبني ؟ انني احبها اكثر من كل الناس . واذا كنت احبها هكذا ، فماذا علي ان افعل ؟ » وفجأة افلت واحدة من أنّاته العميقة التي تنتابه في أويقات الألم .

وضعت ناتاشا سردها عند سماعها تلك الأنة وانحنت عليه . فلما لاحظت فجأة عينيه اللامعتين ، جاءت اليه بخطى خفيفة .

— الست نائماً ؟

— كلا . لقد مضى علي وقت طويل وانا انظر اليك . لقد شعرت بك تدخلين ما من أحد يهبني مثلك تلك الراحة الحلوة . . ذلك الاشراق ، وددت ، وددت لو بكيت من الفرح .

ازدادت ناتاشا انحناء عليه ووجهها يضيء بفرحة لاتوصف .

— ناتاشا ، احبك حباً مفرطاً . اكثر من كل الناس .

— وانا !

ثم أدارت رأسها فترة وقالت :

— ولكن لماذا حباً مفرطاً ؟

— لماذا مفرطاً ؟ هه ، ماذا تفكرين وجدانياً ، من كل وجدانك ، هل سأعيش ؟ هل تصدقين هذا ؟

فقالت ناتاشا في شبه صرخة وهي تمسك بيديه بحركة كافة :

— بل انني واثقة ، واثقة !

فصمت . ثم قال وهو يأخذ يدها ويقبلها :

— كم سيكون ذلك رائعاً !

كانت ناتاشا سعيدة وقلقة . لكنها تذكرت فجأة ان المريض يجب ان يبتعد عن التأثر وانه في حاجة الى الهدوء ، فقالت وهي تخنق فرحتها :

— وانت الذي لم تنم حاول ان تنام . . ارجوك .

وازداد ضغطاً على يدها ثم تركها تذهب فعادت ناتاشا تجلس قرب الشمعة في وضعيتها السالفة ، ولقد اختلست اليه النظر مرتين ولاقت في كل مرة عينيه

اللامعتين . وحينئذ رتبت على نفسها واجباً في حياكة جوربها ووعدت نفسها بان لاتنظر اليه طالماً لم تفرغ من عملها .

وفي الواقع انه لم يلبث بعدئذ ان اغمض عينيه ونام . لكنه نام نوماً قصيراً اذ سرعان ما استفاق فجأة وقد نضح جسمه بعرق بارد .

لم يفتأ في نومه يفكر في ما ظل يشغله طيلة هـــذه الحقبة : في الموت وفي الحياة . وبصورة خاصة في الموت الذي كان يشعر به اكثر قرباً .

حدث نفسه ؟ « الحب ، ما هو الحب ؟ »

« ان الحب يعارض الحياة . الحب هو الحياة . ان كل ، كل ما افهمه ، لا أفهمه الا لأنني احب . ان كل شيء قائم ، كل شيء موجود لأنني احب فقط . ان كل شيء يتعلق بالحب . ان الحب هو الله . والموت في نظري يعني ذرة من هذا الحب ، العودة الى الكل الكبير ، الى المنهل الازلي . » بدت له هذه الافكار مواسية ولكنها لم تكن الا مجرد افكار. لقد كان شيء مايسفهها : ففيها شيء ملزم من جانب واحد ، شيء شخصي ، شيء قياسي بحت . وهي مفتقرة الى البيان . وهذا يجلب الكآبة والشك . أخيراً ، اغفى .

حلم بأنه مستلق في تلك الحجرة بالذات التي هو فيها الآن ، لكنه بدلاً من ان يكون جريحاً ، كان في عافية جيدة . ومر امامه اناس كثيرون تافهون وغير مبالين فكان يحدثهم ويناقشهم حول موضوع عديم الأهمية . وكانوا يستعدون الى الذهاب الى جهة ما والأمير آندريه يرى بابهام ان كل ذلك عقيم وان في رأسه عدداً من المشاغل الأكثر خطورة . مع ذلك فقد ظل يدهشهم ويحدثهم ببديهة متقدة عن أشياء تافهة . وبالتدريج ، ودون ان يُشعر بهم ، بدأ هؤلاء الناس كلهم يتفرقون ويختفون ولم يبق الا مشكلة واحدة ، مشكلة اغلاق الباب . فنهض واقترب من الباب ليغلقه ، وليدفع المزلاج . ترى، هل سيجد

الوقت لاغلاق الباب ام لا ، هـذا ما كان « كل شيء » يتوقف عليه . مضى مستعجلاً ولم تعد قدماه تحملانه . انه يعرف ان الوقت لن يتاح له. خلاله ذلك ، شدد من قواه بشكل مؤلم فاعتصره قلق شديد . وهذا القلق الشديد هو قلق الموت : « انه » كامن في الجانب الآخر من الباب . وبينما هو منهمك بخرق وعجز في اغلاقه ، كان شيء ما مخيف من الجانب الآخر يميل بثقله عليه ويقتحمه شيء ما ، لا يمت الى الانسانية بصلة ، الموت ، يقتحم الباب وهو على وشك الدخول. منع الباب بكل ما تبقى له من قوى ، فطالما انه لا يستطيع اغلاق الباب فلا اقل من ان يمنع الموت من الدخول . لكنه بالغ الخرق شديد الضعف . وفتح الباب تحت الضغط الخارجي الرهيب ثم اغلق .

جاءت دفعة أخيرة من الخارج ، ثم مجهود أخير فوق طاقة البشر ، عقيم ، واستسلم المصراعان معاً دون جلبة . « هو ذا دخل » ، انه الموت ، وأخـذ الامير اندريه يموت .

لكنه وهو في سياق الموت ، تذكر انه نائم ، فبذل وهو يموت مجهوداً عنيفاً أيقظه .

« نعم ، ذاك كان الموت ، لقد كنت ميتاً واستيقظت . نعم ان الموت يقظه . » وفجأة اضاءت روحه وارتفع الستر الذي ظل حتى ذلك الحين يحجب عن نظرة الداخلي . شعر كأنه تحرر من القوة التي ظلت تغله حتى ذلك الحين ولم يعد ذلك التخفيف الذي شعر به يفارقه حتى النهاية .

عندما استيقظ سابحاً في العرق البارد ، تحرك فوق الاريكة فجاءت اليه ناتاشا وسألته عما يريد . فلم يجبها وراح ينظر اليها بنظرة فريدة دون ان يفهم ما تسأله .

ذاك كان ما حصل له قبل وصول الأميرة ماري بيومين . ومنذ ذلك الحين

ـ كما لاحظ الطبيب ـ اخذت الحمى البطيئة تأخذ طوراً مؤذياً. ولكن لم تكن مزاعم الطبيب هي التي تثير الحنو في قلب ناتاشا. لقد شاهدت الاعراض الروحية التي كانت أشد هولاً وامتناعاً عن الجدل بالنسبة اليها.

وفي الواقع ان الأمير اندريه شرع منذ ذلك اليوم يخرج من الحياة بنفس وقت خروجه من حلمه. ولقد بدا له ان مبارحة الحياة اشد بطءاً من الافاقة من مرئيات حلم.

لم يميز يقظته البطيئة لحياة اخرى شيء مريع أو مثير.

لقد انقضت ايامه الأخيرة وساعاته الأخيرة على نحو أبسط من المعتاد. ولقد شعرت بذلك الاميرة ماري وناتاشا اللتين ما كانتا تفارقانه. لم تبك هـذه ولا تلك وكفتا كلتاهما عن تعذيب نفسهما وباتتا تشعران خلال اللحظات الأخيرة انه لم يعد هو الذي تعنيان به وهو الذي لم يعد له وجود اذ كان قد فارقهما، بل ذكراه القريبة وجسده المحتضر. ولقد كان هذا الاحساس من القوة لدى كلتيهما حتى لم يعد الجانب الرهيب، الجانب الابدي من الموت يؤثر فيهما ولم تعودا تجدان فائدة من اذكاء نار آلامهما. لم تبكيا بالقرب منه ولا بعيدتين عنه ولم تتحدثا عنه فيما بينهما أبداً. كانتا تشعران بانهما لن تستطيعا التعبير عما فهمتاه بواسطة الكلام.

كانتا كلتاهما تريانه يفلت من ايديهما اكثر فأكثر، ببطء وهـدوء، ليمضي بعيداً. وكانتا كلتاهما تعرفان ان ذلك لابد واقع وانه حسن.

جعلوه يعترف ويتناول وجاؤوا جميعهم يودعونه. ولما جاؤوه بابنه، ضغط بشفتيه على وجنته واستدار، ليس لان ذلك كان اليم الوقع عليه جم الحزن له ـ وقـد فهمت الاميرة ماري وناتاشا ذلك ـ بل لانه كان يفترض ان هذا كل ما يتوقعونه منه. مع ذلك، فانه عندما طلب اليه ان يبارك ابنه، قام بما طلب

اليه والقى نظرة محيطة وكأنه يتساءل عما اذا بقي عليه ان يفعل شيئاً ما .
حضرت الاميرة ماري وناتاشا تشنجان الجسد الاخير الذي فارقه الذهن .
وقالت الاميرة ماري عندما بات جسد أخيها لاحراك به امامها منذ اكثر من دقائق وأخذ البرد يدب اليه .

ـ لقد انتهى !

فاقتربت ناتاشا ونظرت الى العينين الميتتين وسارعت تغمضها . اطبقتهما ولم تقبلهما ، بل وضعت شفتيها بخشوع على ما أصبح الآن الذكرى الاقرب الى الذهن للأمير اندريه .

« الى اين ذهب ؟ اين هو الآن ؟ . . »

وعندما اسجي الجسد بعدغسله والباسه الثياب في نعشه فوق المائدة،اقتربوا جميعهم منه يودعونه .

أخذ نيكولا الصغير ينشج وهو في تلك اوهشة الأليمة التي كانت تمزق نياط قلبه . وراحت الكونتيس وسونيا تترجمان على على ناتاشا وعلى ذلك الذي لم يعد له وجود . اما الكونت العجوز ، فكان يذرف الدموع وهو يفكر في انه هو الآخر ، سيجتاز قريباً هذه الخطوة الرهيبة نفسها .

الآن ، اخذت الأميرة وناتاشا تبكيان . لم يكن دموعها منبعثاعن الهما الشخصي ، بل من التأثر الخاشع الذي امتلأت به نفسها امام هذا السر البسيط الجليل ، سر الموت الذي وقع وانجز تحت بصرهما .

الجـــزء الثّاني

الفصل الأول

سير الجناح

ان مجموعة اسباب الظاهرات شيء لايبلغه العقل البشري . غير ان الرغبة في اكتشاف الأسباب مغروسة فطرياً في قلب الانسان . وعلى هذا فان الفكر يتعلق بأول حدث وافد سهل المنال ويقول : هذا هو السبب لأنه عاجز عن التعمق في شروط الظاهرات المعقدة ومداها اللانهائي . وفي الظاهرات التاريخية حيث الدراسة تقتصر على أفعال الاشخاص ، تبدو ارادة الآله أقدم الأحداث المصاحبة ثم تأتي بعدها إرادة الرجال الذين يشغلون المراكز الأكثر رفعة في التاريخ أي الأبطال. مع ذلك يكفي ان يتعمق المرء في جوهر كل حدث تاريخي أي في نشاط الجمهور البشري الذي ساهم فيه ليتأكد من أن إرادة بطل لاتوجه ذلك النشاط الجماهيري بل انها نفسها موجهة باستمرار . وفهم حدث تاريخي على هذا اللون أو على نهج آخر يمكن ان يبدو معدوم الفرق . مع ذلك فإن بين من يقول أن شعوب الغرب اتجهت نحو الشرق لان نابليون كان يريد ذلك وبين الذي يقول ان الامر قد وقع لانه لم يكن هنا بد من وقوعه ، مثل انعدام الفرق بين الاشخاص الذين يؤكدون ان الارض جامدة والكواكب تدور حولها وبين الذين يقولون بجهلهم على أي شيء ترتكز الارض ولكن يؤيدون مع ذلك ان هناك قوانين تنظم حركتها وحركة الكواكب الاخرى . ولا يوجد

كما لا يمكن أن يوجد سبب آخر للحدث التاريخي غير سبب الاسباب . لكن هناك القوانين التي تدير الاحداث وهذه القوانين التي غالباً ما تكون مجهولة تبدو لنا أحياناً محسوسة ، واكتشافها غير ممكن الا عندما نتنكب نهائياً البحث عن اسباب الاحداث في ارادة شخص واحد كما لم يصبح إكتشاف قوانين حركة الكواكب ممكناً إلا بعد أن أغفلت نظرية إنعدام حركة الارض .

بعـــد معركة بوروديئو واحتلال موسكو واحتراقها باتت أهم مرحلة في حرب عام ١٨١٢ في نظر المؤرخين هي سير الجيش الروسي من طريق ريازان نحو طريق كالوجا باتجاه معسكر تاروتينو — وهي قرية واقعة على نهر نارا — أي ما أطلقوا عليه اسم سير الجناح ، وراء كراسنايا باخرا — وهي قرية وراء باخرا ، رافد موسكفا الأيمن — ان المؤرخين يعزون شرف هذه المـأثره الى مختلفين لم يتفقوا فيما بينهم عليهم . والغرباء أنفسهم والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم يعترفون بعبقرية الجنرالات الروسيين عندما يتحدثون عن سير الجناح هـــذا (راجع تيير الجزء ١٤ ص — ٤٠٥) . ولكن لماذا يرى المؤرخون العسكريون والناس كلهم في أعقابهم في سير الجناح ذاك نفاذ بصيرةٍ أو نفاذ بصيرة شخص واحد ، ذلك التبصر الذي أنقذ روسيا وقضى على نابليون ، هـذا ما هو صعب على الادراك . ففي المرحلة الاولى لا يمكن لمس ما في هذه الحركة من عمق وعبقرية لانه لا يقتضي الحال مجهوداً فكرياً كبيراً لمعرفه أن أفضل موقع لجيش عندما لا يكون مهاجماً ، هو المكان الذي يجد أكثر الموارد بالنسبة اليه . إن تلميذاً في الثالثة عشر من عمره حتى ولو كان محدود الفكر يستطيع دون عناء ان يدرك ان أفضل موقع للجيش عام ١٨١٢ بعد هجر موسكو هو طريق كالوجا . لذلك لا يمكن الفهم الوهلة الأولى ، بنتيجة أية استنتاجات توصل بعض المؤرخين الى إكتشاف شيء ما عميق في تلك الحركة . وفي المرحلة الثانية ، انه اكثر

قنصل الحرب في فيلي

صعوبة على الفهم معرفة السبب الذي يرى بعض المؤرخين في تلك الحركة خلاص الروسيين وضياع الفرنسيين ، لان سير الجناح ذاك في مناسبات تختلف عن تلك التي سبقته وصاحبته وتبعته ، لأولى الى ضياع الجيش الروسي وخلاص الجيش الفرنسي . وإذا كان وضع الجيش الروسي قد تحسن منذ ان أنجزت هذه الحركة ، فإنه لايمكن قط الاستنتاج ان هذه الحركة هي التي كانت السبب .

ان سير الجناح ذاك لم يكن يستطيع إضفاء أي تحسن او ميزة فحسب بل كان كذلك يمكن أن يسبب ضياع الجيش الروسي لولم تتدخل لمساعدته ظروف اخرى . فماذا كان يحدث ياترى لو أن موسكو لم تحترق ؟ ولو أن مورا لم يفقد اتصاله مع الروسيين ؟ ولو أن نابوليون لم يجد نفسه محمولاً على العجز ؟ ولو أن الجيش الروسي خاض المعركة في كراسنايا باخرا كما كان يريد بينيجسن وباركلي ماذا كان يقع ياترى لو أن الفرنسيين هاجموا الروسيين أثناء سيرهم الى وراء باخرا ؟ ثم ماذا كان يحدث لو أن نابوليون فيما بعد كان هاجم الروسيين عند مشارف تاروتينو بعشر الحماس الذي بذله أمام سمولنسك ؟ وماذا كان يحدث لو أن الفرنسيين مشوا الى بيتر سبورج ! . . ان حسنات سير الجناح ذاك في كل هذه الافتراضات كان يمكن ان ينقلب الى دمار تام .

وفي المرحلة الثالثة : ان أشد ما هو ممتنع عن الادراك يقوم في رؤية الناس يدرسون التاريخ ويرفضون بتعمد ان يفهموا ان سير الجناح ذاك لايمكن ان يعزى قط الى مشيئة رجل واحد وان ما من أحد دبره في اية لحظة وان هذه « المناورة » وكذلك الانسحاب في فيلي لم يكن في مجموعها معدة من جانب احد بل تكونت خطوة فخطوة ، وانتقلت من حدث الى حدث دقيقة فدقيقة ، نتيجة لعدد لايحصى من المناسبات وان سير الجناح ذاك بالاختصار لم يظهر في مجموعه الا بعد ان تم واضحى جزءاً من الماضي .

في المجلس الحربي المعقود في فيلي، كانت الفكرة المسيطرة في القيادة الروسية العامة هي الانسحاب المفروض فرضاً بخط مستقيم أي عن طريق – نيجني – نوفجورود . ولقد تأيد هذا بواقعة انحياز أكثر الأصوات في ذلك المؤتمر الى الى هذه الفكرة وخصوصاً بالحادثة الخاصة التي جرت بعد ذلك بين القائد العام ولانسكوي، الممون العام . عرض لانسكوي للقائد العام أن تموين الجيش قد رُكّز بصورة خاصة على ضفاف نهر أوكا في حكومات تولا وكالوجا وانه في حالة التراجع بإتجاه نيجني – نوفجورود ، فإن التموين سينقطع عن الجيش بسبب عرض مجرى نهر أوكا الذي يستحيل الشروع في نقل على الزوارق عبره في بدء الشتاء . وكانت هذه الاشارة الاولى الدالة على ضرورة اغفال التقهقر على خط مستقيم باتجاه نيجني – نوفجورود ، ذلك التقهقر الذي قد بادىء الأمر بأنه طبيعي جداً . إضطر الجيش ان يتجه متوغلاً نحو الجنوب على طريق ريازان ليقترب من مراكز تموينية . وبالتالي اضطر الجيش أن يسير في انحناء اكثر نحو الجنوب على طريق تولا بسبب جمود الفرنسيين الذي بلغ درجة اغفالهم الجيش الروسي . والانشغال في الدفاع عن مصنع تولا وبصورة خاصة بسبب ميزة الاقتراب من مراكز التموين . وبعد سير غير مأمون بغية الوصول الى طريق تولا عبر ضفة باخرا الثانية ، فكرت القيادة الروسية العليا في التوقف عند بولواسك دون ان تتصور قط حصن تاروتينو . لكن عدداً لايحصى من الظروف ثم ظهور الفرنسيين الجديد الذين أضاعوا أثر الروسيين قبل ذلك ونوايا خوض المعركة وبصورة رئيسية غزارة المؤن في كالوجا ، كل ذلك دفع جيشنا الى الانحناء اكثر نحو الجنوب والوصول الى مركز تموينه منتقلاً من طريق تولا الى طريق كالوجا باتجاه تاروتينو . ولم يخطر ببال احد ان يصدق ان الشيء قد اريد واعد منذ امد طويل الا عندما عسكر الجيش في تاروتينو وبعد ان تدخلت قوى تفاضلية لاتحصى .

الفصل الثاني

رسالة نابوليون

قام سير الجناح العتيد فقط على اساس ان الجيش الروسي الذي كان يتراجع بخط مستقيم الى الوراء على عكس الهجوم ، انحرف عن طريقه السابقة منذ ان توقف الهجوم ، ورأى نفسه انه غير متبوع واستدار بحركة طبيعية نحو الجهة التى تجتذبه اليها وفرة المؤن .

فلو فرضنا ان الجيش الروسي حينذاك كان محروماً من الرؤساء العباقرة أو انه كان دون رؤساء اطلاقاً ، فانه ما كان يستطيع أن يعمل غير حركة عودة نحو موسكو راسماً قوس دائرة من الجهة التي تكون فيها الارزاق أكثر وفرة والارض اغزر انتاجاً .

فانتقاله من طريق نيجني - نوفجورود ، الى طريق ريازان، تولا ، وكالوجا كان طبيعياً جداً مثل ما كان اتجاه سلابي الجيش الروسي في ذلك الاتجاه وفرض خط المسير ذاك على كوتوزوف من بيتر سبورج طبيعيين تماماً . ففي تاروتينو ، تلقى كوتوزوف ما يشبه التعنيف من الامبراطور لانه سلك طريق ريازان وفرض عليه ان يتمركز قبالة كالوجا في الموقع نفسه الذي كان يحتله عندما وصلت اليه رسالة عاهله .

بعد ان تدحرجت الكتلة التى تشكل الجيش الروسي في الاتجاه الذي

فرضته عليها الحملة كلها ثم معركة بورودينو وبعد ان نجحت من تلقي اية صدمة جديدة بعد توقفها اثر الصدمة الاولى ، استعادت تلك الكتلة الوضعية التي كانت طبيعة بالنسبة اليها .

فموهبة كوتوزوف إذاً ليست فيما يسمونه « مناورة ستراتيجية » عبقرية ، ولكن في أنه وحده كان يفهم معنى الوقائع الدائرة . كان وحده حينذاك الذي يفهم أهمية جمود الجيش الفرنسي ، وحده الذي كان يؤكد أن معركة بورودينو نصر ، وحده الذي رغم ما كان يمكن لمركزه كجنرال قائد اعلى ان يحمله على التحيز نحو فكرة الهجوم ، ظل يستعمل نشاطه كله ليجنب الجيش الروسي المعارك التي لا طائل تحتها .

كان الحيوان الجريح في بورودينو مسجى الآن حيث تركه الصياد الفار . فهل لازال حياً ، هل يحتفظ ببعض القوى أم تراه يتظاهر بانعدام تلك القوى ؟ لم يكن الصياد يعرف شيئاً عن ذلك . لكن الحيوان الجريح أطلق فجأة زمجرة

كانت زمجرة الحيوان الجريح الكاشفة عن نهايته الوشيكة تتلخص في عرض الصلح الذي حمله لوريستون[1] الى معسكر كوتوزوف .

كتب نابوليون الى كوتوزوف متأثراً بقناعته بأن الخير ليس ما هو خير بل ما يخطر له على بال ، الكلمات الاولى التي طافت بذهنه ، فكانت تلك الكلمات عارية من كل معنى :

« سيدي الامير كوتوزوف ، اوفد اليك أحد مساعدي العسكريين الجنرالات ليتحدث معك حول عديد من الاشياء المهمة . انني ارغب ان تثق

---

(١) جاك لاو Law ، مركيزدو لوريستون ، ابن ابن أخ المالي الكبير لاو ، ولد في بونديشيري عام ١٧٦٨ وتوفي عام ١٨٢٨ وكان ماريشال فرنسا على عهد الاصلاح وأمير فرنسا .

سعادتك في كل ما يقوله خصوصاً عندما يعرب عن عواطف التقدير والاعتبار الخاص التي أكنها لشخصكم منذ أمد طويل . ولما كانت هذه الرسالة لاتهدف الى غرض آخر ، فاني ارجو الله ياسيد الامير كوتوزوف ان يكلأك بحمايته القديرة المقدسة .

موسكو – في ٣٠ تشرين الاول ١٨١٢

التوقيع : نابوليون »

أجاب كوتوزوف الذي ظل يعمل كل ما في وسعه ليمنع الجيش عن الجنوح الى الهجوم .

– ستلعنني الاعقاب اذا نُظر إلي بوصفي أول محرك لتدبير ما . ان عقلية امتي الحالية هي على هذا النحو .

خلال الشهر الذي انقضى على الجيش الفرنسي في نهب موسكو والجيش الروسي في استجمامه في تاروتينو ، طرأ تبدل على نسبة قوى الجيش في عددهما وفي الفكرة التي تحركهما لدرجة مال معها الميزان الى الجانب الروسي فبدت ضرورة الهجوم تكشف عن نفسها بألف دلالة رغم ان الوضع الحقيقي للجيش الفرنسي والرقم الحقيقي لتعداده كانا مجهولين من الروسيين . وتلك الدلالات كانت التالية : سلوك لوريستون ، وفرة الارزاق في تاروتينو ، التقارير الواردة من مختلف الجهات حول تعطل الفرنسيين وفوضى صفوفهم ، الافواج المستكملة بوصول الاحتياطي ، الطقس البديع ، الراحة الطويلة التي نعمت بها القطعات ، نفاذ الصبر ذاك الانجاز مهمته الذي يبدو عادة في الجيوش المسترجحة ، الفضول الدافع الى الاستعلام عن حركات وأعمال الجيش الفرنسي الذي انقطع كل احتكاك به منذ وقت طويل ، الجرأة التي أصبحت تظهرها طلائعنا الآن في التسلل بين الفرنسيين المقيمين في منطقة تاروتينو ، أنباء الانتصارات الصغيرة التي حققها

القرويون والانصار ضد الفرنسيين ، التنافس الذي كانت تلك الانباء تحدثه ، الرغبة في الانتقام المغروسة في قلب كل جندي منذ ان احتل الفرنسيون موسكو ، وزيادة على ذلك الايمان الغامض الذي ترغل في روح كل جندي بأن نسبة القوات لم تعد ذاتها وان الغلبة في جانبنا . ولما كانت نسبة القوى قد تبدلت فان الهجوم لا مناص منه . وبمثل السرعة والدقة التي تدق فيها الساعة عندما يطوف العقرب الكبير متمماً دورة الميناء ، كذلك أحدث ذلك التبدل في الاوساط العليا نشاطاً مضاعفاً مثل انطلاق النوابض وحركة اهتزاز جرس الساعة وقرع الاجراس .

الفصل الثالث

القوقازي شابوفالوف

كان الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف وأركان حربه ومن بيتر سبورج، يوجهه الامبرطور . ففي بيتر سبورج ، أعدوا مخططاً مفصلاً لكل الحرب حتى قبل ان يتلقو نبأ تسليم موسكو وأرسلوه الى كوتوزوف ليتبع سنته . وعلى الرغم من ان ذلك المخطط كان مبنياً على افتراض وجود موسكو بين أيدينا ، فإنه تبني من قبل أركان حرب الجيش ووضع موضع التنفيذ. غير ان كوتوزوف أبدي فقط ملاحظة تقول ان الحركات العسكرية البعيدة الرامية الى صرف نظر العدو عن نقطة ما تكون عادة صعبة التنفيذ. لذلك ، ولحسم الصعوبات المعترضة، أخذوا يرسلون اليه من بيتر سبورج تباعاً تعليمات جديدة وأشخاصاً جدداً مهمتهم مراقبة عملياته ورفع تقارير عنها .

أضف الى ذلك ان اركان حرب الجيش تعرض الآن لتبديل عميق إذ وجب تعيين شخص ما مكان باجراسيون الذى قتل وباركلي ،الذي تنحى بعد ان اهين في كرامته . ولقد فحصت أفضل السبل الواجب اتخاذها بخطورة متناهية : وضع « آ » مكان «ب» و «ب» مكان « د » ، أو « د » مكان « آ » ، وكأن كل هذه التسميات كان يمكن ان تهدف الى اكثر من ارضاء « آ » و «ب» .

وبسبب الالفة القائمة بين كوتوزوف ورئيس اركان حربه بينيجسن ، وكذلك

بسبب التنقلات الواجب اجراؤها ، وجود شخصيات حائزة على ثقة الامبراطور في المعسكر ، أخذت الاحزاب تلعب دوراً أكثر رزانة من المألوف ، فكان «آ» يدس على «ب» و « د » على « س » في كل التبديلات والترتيبات . وكانت تلك الدسائس تهدف في الغالب الى الاستيلاء على ادارة العمليات من جانب مثيريها . لكن الحرب كانت تسير سيرها المعتاد في غنى عنهم لانها كانت ناجمة عن ردود الفعل عند الجماهير دون ان تنطبق قط مع الترتيبات المقررة . وكل هذه الترتيبات التي تتلاقى وتتشابك ، لم تكن تمثل في الأوساط العليا الا الانعكاس الصحيح لما كان يجب ان يتم .

في رسالة كتبها الامبراطور يوم الثاني من تشرين الاول وتلقاها كوتوزوف بعد معركة تاروتينو ، كتب الامبراطور : « الامير ميخائيل ايلاريونوفيتش » ! منذ الثاني من ايلول وموسكو في يد الاعداء . ان تقاريرك الأخيرة مؤرخة في ٢٠ . وطيلة هذا الوقت لم تتخذ أية إجراءات ضد العدو لانقاذ عاصمتنا الاولى فحسب بل كذلك ، تبعاً لتقاريرك الاخيرة ، ابثت تتراجع . ان سيربوخوف محتلة من قبل فوج عدو وتولا ، بصنعها الشهير شديد الاهمية بالنسبة الى الجيش باتت في خطر وأرى من تقارير الجنرال ونتزنجيرود ، ان فوجاً معادياً تعداده عشرة آلاف رجل يقترب على طريق بيترسبورج ، وأن آخر تعداده بضعة آلاف من الرجال يتجه نحو دميتروف وثالثاً يسير على طريق فلاديمير ورابعاً على جانب من ضخامة العدد يعسكر بين روزا وموجائيسك . ولقد كان بالذات لايزال في موسكو حتى في يوم ٢٥ . فاذا كان العدو قد جزء قواه كما يستنتج من هذه المعلومات الى فرق كبيرة ، في حين ان نابليون نفسه لازال في موسكو مع كل حرسه ، فهل لايزال ممكناً ان تكون ازاء جيش عرم لاتستطيع لوفرة عدده أن تنقلب الى الهجوم عليه ؟ ان الظاهر يوحي بعكس

ذلك ويفرض احتمال مطاردة العدو لك بفيالق اذا قورنت بالحوادث الموضوعة تحت امرتك ، كانت أقل عدداً وضئيلة جداً. وكان يبدو انك تبعاً لهذه الظروف المواتية ، كنت تستطيع محاولة القيام بهجوم ضد عدو أضعف منك وان تبيده أو أن ترغمه على الاقل على التراجع فتحتفظ في أيدينا الجزء الاكبر من الاقاليم المحتلة اليوم وبذلك تدفع الخطر عن تولا وعن مدن اخرى في الداخل . واذا كان العدو قادراً على ارسال جانب كبير من القوات الى بيترسبورج وان يهدد هذه العاصمة شبه العزلاء تماماً ، فانك ستحتمل المسئولية لان لديك كل الامكانيات للحيلولة بالجيش الذي تحت امرتك دون وقوع هذه المصيبة الجديدة اذا عملت بحزم وثبات . تذكر ان عليك حتى الان مسئولية الرد على سبب ضياع موسكو أمام الوطن الساخط . وانك تعرف بالتجربة مدى استعدادي لمكافأتك . ان حسن الالتفاتة هذه لم تتبدل ، لكن روسيا وأنا ، من حقنا ان ننتظر منك كل الغيرة والحزم والنجاح التي يسمح لنا ذكاؤك وميزاتك العسكرية وبسالة الجنود الموضوعين تحت امرتك ، ان نتوقعها منك ».

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تلك الرسالة الدالة على ان نسبة القوى الصحيحة معروفة كذلك في بيترسبورج ، في طريقها فيه نحو كوتوزوف ، كان هذا في وضع لم يعد يسمح له ان يمنع الجيش الذي بأمره عن اتخاذ الهجوم وكانت المعركة دائرة فعلا .

في الثاني من تشرين الاول ، قتل القوقـــازي شابوفالوف الذي كان في دورية ، أرنبا بريا وجرح آخر فاستسلم لرغبة مطاردة صيده الجريح وتوغل بعيداً في الغابة حتى عثر الجناح الايسر لجيش مورا الذي لم يكن قد اتخذ ايـة حيطة في تلك الجهات . وروى القوقازي لزملائه وهو يضحك انه كاد يقع بين الفرنسيين فرفع حامل العلم الذي سمع هذه الرواية تقريراً الى رئيسه .

استدعي القوقازي واستجوب . ووات رؤساؤه فكرة انتهاز الفرصة للقيام بغزوة يفوزون فيها ببعض الجياد . لكن احد اولئك الرؤساء ، وكان يعرف أرفع ضباط الجيش . أبلغ الخبر الى جنرال من اركان حرب الجيش ، وكان الموقف شديد التوتر في الاركان منذ بعض الوقت . ولقد جاءايرمولوف قبل بضعة ايام يتوسل الى بينيجسن ان يستعمل نفوذه لدى الجنرال القائد الاعلى ليحمله على القيام بالهجوم .

فأجاب بينيجسن :

– لو انني ما كنت اعرفك ، لظننت انك تريد العكس تماماً ، عكس ماتطلب . ليس علي الا ان اشير بشيء ما حتى يعمد الجنرال القائد الاعلى الى عمل عكسه تماماً .

ايدت الاستطلاعات النبأ الذي حمله القوقازي واكدت بشكل نهائي ان الحدث قد نضج . وتمددت نوابض الساعة وصرت ثم قرع الجرس . واضطر كوتوزف ، رغم كل سلطانه العظيم وذكائه وخبرته ومعرفته بالرجال ان يأخذ بعين الاعتبار طلب بينيجسن الذي ارسل من قبل تقريره الشخصي حول هذا الموضوع الى الامبراطور ، ورغبة كل جنرالاته الموحدة وكذلك الرغبة المفروض انها تجيش في نفس الامبراطور نفسه والمعلومات التي قدمهاالقوقازيون فلم يعد يستطيع ايقاف حركة اصبحت لا بد منها ، فاعطى تبعاً لذلك امراً كان يقدر انه خطير وعقيم :

لقد أيد الواقعة الواقعة .

الفَصلُ الرابعُ

اوامر الى ايرمولوف

كان تقرير بينيجسن ومعلومات القوقازيين المؤكدة ان جناح الفرنسيين الأيسر مكشوف ، اخر الدلالات على الضرورة التي تستبد بهم الداعية الى اعداد الهجوم ، وحدد هذا الهجوم لليوم الخامس من تشرين الأول .

ففي اليوم الرابع صباحاً ، وقع كوتوزوف على الاوامر . وقد قرأ تول الاوامر على ايرمولوف واوعز اليه ان يتخذ آخر التدابير ، فقال ايرمولوف :

— حسناً ، حسناً . ولكن ليس لدي الوقت الآن . .

وخرج من كوخه الخشبي .

كانت الخطة التي وضعها تول ممتازة . فكان يقرأ فيها ، تماماً كما في خطة اوسترليتز ، كل ما لم يكن مكتوبا بالألمانية .

الطابور الأول يمشي نحو هذه البقعة او تلك ، والطابور الثاني يمشي نحو هذا او ذاك المكان الآخر ، وهلمجرا . وكل هذه الطوابير التي تصل على الورق في الساعة المحددة الى امكنتها ، ستسحق العدو . كانت خطة منظمة تماماً كما في كل الخطط . وكما في كل الخطط ، لم يصل طابور واحد الى مكانه في الوقت المحدد .

وعندما أصبحت كل نسخ الخطة المطلوبة جاهزه ، استدعي ضابط وأرسل الى ايرمولوف كي يسلمه الاوراق للتنفيذ . وراح الضابط ، وهو فارس شاب

في الحرس ومساعد عسكري الكوتوزوف ، الى مسكن ايرمولوف وهو فخور بالمهمة الموكولة اليه .

أجابه تابع ايرمولوف :

– لقد خرج .

فمضى الضابط الفارس الى مسكن الجنرال الذي درج ايرمولوف على زيارته.

– كلا ، ليس الجنرال هنا .

فامتطى الضابط صهوة جواده من جديد ومضى الى مسكن آخر :

– كلا ، لقد ذهب .

فكر الضابط : « المهم ان لايعتبروني مسؤولاً عن التأخير ! يا لسوء الطالع !» وحث جواده فطاف به المعسكر كله . روى له البعض انهم شاهدوا ايرمولوف يبتعد مع بعض الجنرالات ،بينما اكد البعض الآخر أنه عاد الى مسكنه حتما . وظل الضابط يبحث عن ايرمولوف حتى السادسة مساء دون ان يتناول طعاماً . ولكن ليس من ايرمولوف في اي مكان وما من أحد يستطيع ان يدله على مكان وجوده ! فتناول الضابط لقيمات على عجل لدى أحد زملائه وعاد على الأثر الى الطليعة عند ميلورادوفيتش . لكن ميلورادوفيتش هو الآخر لم يكن في مركزه . لكنهم قالوا لضابط الحرس انه في الحفلة الراقصة المقامة في مسكن الجنرال كيكين وان ايرمولوف لابد بالتالي وان يكون هناك .

– ولكن اين هذا المكان ؟

فقال ضابط قوقازي وهي يشير الى بيت احد السادة في البعد :

– هناك ، في ايتشكينو .

– كيف هناك ! ان هذا وراء خطوطنا .

– لقد أرسلوا فوجين على الخط . انهم الآن يقصفون قصفاً مريعاً ! ان

لديهم فرقتي موسيقى الفوج وثلاث فرق من المغنين .

مضى الفارس الضابط الى ما وراء الخط ، الى ايتشكينو . وقبل ان يصل الى بيت السيد ، تناهى الى سمعه ايقاع مرح لأغنية واقصة شائعة بين الجنود .

— « في الحقول . . في الحقول ! » وكان الغناء يبلغ سماعه مصحوباً بانغام المزامير وقرع الصنوج ، تطغى عليه الأصوات الصاخبة من حين الى آخر . ولقد نشط الضابط لهذه الأصوات البهيجة وبنفس الوقت ذعر لذنبه اذ كان يشعر بانه مذنب لتأخره كل هذا الوقت في نقل الأمر الهام الموكول اليه . وكانت الساعة قد شارفت على التاسعة . ترجل عن جواده وصعد مرقاة بيت احـــد السادة ظل سليماً لوقوعه بين خطوط الفرنسيين والروسيين تماما ، فرآى عدداً من الخدم يحملون النبيذ ويعملون في الردهة وفي المقلاد ، وبعض المغنيين مجتمعين تحت النوافذ . ادخلوا الضابط الذي رآى فجأة معظم جنرالات الجيش مجتمعين وفي عدادهم ايرمولوف ذو الوجه المرتفع الوقور ، وكلهم متقدة وجوههم تجيش بالحمية ، التفوا في نصف دائرة وراحوا يقهقهون ملء حناجرهم وقد حلوا ازرار ستراتهم الرسمية . وفي وسط البهو ، اخذ جنرال جميل معتـدل القامة مضرج الوجه ، يرقص بنشاط وحذق رقصه شعبية يتخللها قرع بالكعبين وثني مفاجىء من الركبتين .

— ها ! ها ! ها ! انشط ! نيكولا ايفانوفيتش ! ها ! ها ! ها !

شعر الضابط الفارس انه بدخوله الآن حاملًا تلك الاوامر المهمة ، سيكون مذنباً مرتين ، فاراد الانسحاب . لكن احد الجنرالات لمحه . فلما عرف سبب وجوده ، اشار الى ايرمولوف عليه فجاء ايرمولوف نحوه مقطب الحاجبين وبعد ان اصغى اليه ، اخذ اوراقه دون ان ينبس بكلمة .

قال احد رفاق الضابط الفارس ذلك المساء في حديث عن ايرمولوف ، وكان ذلك الضابط ملحقاً بالاركان العامة :

— هل تعتقد انه لم يتعمد الاختفاء ؟ انها مؤامرة ، انه تدبير مقصود . انه يريد ان يخدع كونوفنيتش . انتظر ، سترى مدى الفوضى غداً !

الفصل الخامس

حركة فاشلة

في اليوم التالي ، اوقظ كوتوزوف الهرم في ساعة مبكرة فتلا ، صلواته وارتدى ثيابه واستقل عربة خفيفة وهو يحمل بين جنبيه الشعور الكريه باضطراره الى ادارة دفة معركة لا يقرها ، ومضى من ليتاشوفكا ، على بعد خمسة فراسخ وراء تارتينو ، ليلحق بالبقعة التي كان على طوابير الهجوم ان تجتمع فيها . مضى وهو يغفو ويستيقظ ويصيخ السمع ليعرف ما اذا كانوا يطلقون النار على اليمين وما اذا كانت المسألة لم تبدأ بعد . لكن كل شيء لبث حتى ذلك الحين ساكنا وكان فجر يوم خريفي رطب ومكفهر ، منبثق بالكاد، ولما بلغ تارتينو ، لاحظ كوتوزوف فرسانا يأخذون خيولهم الى الورد وهم يجتازون الطريق التي تسلكها عربته . تأملهم واستوقفهم وسألهم عن الفيلق الذين ينتمون اليه . كان اولئك الفرسان تابعين لطابور كان عليه ان يكون منذ وقت طويل ، بعيداً الى الامام في كمين فحدث الجنرال القائد الاعلى العجوز نفسه قائلا : « انه خطأ ولا ريب » ولكنه بعد ذلك شاهد فيالق مشاة وقد ركزوا بنادقهم باقات متباعدة ، يهيئون طعامهم ويجمعون الحطب وهم في سراويلهم الداخلية . استدعى ضابطاً ، فأخبره الضابط أي أمر بالهجوم لم يصدر اليهم .

شرع كوتوزوف يقول :
— كيف ، هل هذا بما . .

لكنه صمت وارسل يستدعي القائد . نزل من عربته مطرق الرأس ضيق الانفاس وراح ينتظر بصمت وهو يذرع الارض جيئة وذهابا . وعندما جاء ضابط الاركان الخن الذي ارسل يستدعيه ، تدفقت الدماء الى وجه كوتوزوف لا لأن هذا الضابط المسؤول عن الخطأ المرتكب ، بل لانه شخص يمكنه ان يصب جام غضبه عليه . وبلغ الرجل العجوز اقصى درجات الغضب التي كانت فيما مضى تجعله يتدحرج على الارض ، واندفع نحو الخن يرتعد لاهث الانفاس مزمجراً يهدده بقبضتيه وامطره بأقذع السباب واحطها . وجاء ضابط آخر ، الرئيس بروزين ، في تلك اللحظة ، فلقي مثل مصير زميله رغم انه لم يكن مذنباً في شيء . راح كوتوزوف يزمجر في صوت أجش وهو يلوح بيديه ويترنح : « ما هذه السفالة ؟ ليعدموهم بالرصاص ! حقيرون ! »

كان يشعر بألم مادي . هو ، الجنرال الاول ، القائد الاعلى الذي كان الناس كلهم يؤكدون له انهم لم يروا قط في روسيا نفوذاً يضاهي نفوذه ، هو الآن في موقف قمين باثارة سخرية الجيش كله ! حدث نفسه : « ما فائدتي من كثرة الصلوات التي تلوتها لهذا اليوم ، ما فائدة عدم الاغفاء طيلة الليل كي أحسب لكل شيء أفضل الحساب ! عندما كنت ضابطاً صغيراً لم يكن احد يجرأ على أن يسخر مني ! » كان يشعر بألم مادي فلم يكن قادراً على الامتناع عن اطلاق صرخات الغضب والألم وكأنه يتلقى جزاءً بدنياً . لكن قواه لم تلبث ان فارقته نظر حوله وشعر بأنه تادى كثيراً في سبابه ، فعاد يصعد الى عربته وارتد في سيره الى الوراء صامتاً .

ولما انقشعت سحابة الغضب تلك ، لم تتلبد بعد ذلك بل اخذ كوتوزوف يصغي وهو يطرف بعينيه ، الى المبررات والدفاع ومرافعات بينيجسن وكونوفنيتش وتول حول ضرورة ارجاء العملية الفاشلة الى الغد ، فاضطر كوتوزوف من جديد الى ابداء موافقته . اما ايرمولوف ، فانه لم يمثل امامه الا في اليوم التالي .

الفَصلُ السَّادِسُ

مقتل باجوفو

في اليوم التالي منذ المساء، اجتمعت القوات في الأمكنة المعينة وبدأ الهجوم خلال الليل. كانت ليلة من ليال الخريف حيث الغيوم تكون بلون اسود مشوب بالبنفسجي ولكن دون مطر، والارض رغم رطوبتها لم تكن موحلة فكانت القطعات تسير دون جلبة ولا يسمع من حين الى آخر الا قرقعة المدفعية المكتومة وكان قد مُنع الحديث بصوت مرتفع والتدخين وقدح الصوان وكانوا يحولون دون صهيل الخيل، فكانت سرية العملية تزيد في فتنتها. اخذ الرجال يتقدمون بانشراح، وتوقفت بعض الطوابير واقام جنودها بنادقهم باقات متقاربة وناموا على الارض الباردة، ظناً منهم انهم بلغوا المكان المحدد لهم. اما البعض الآخر، وهي معظم الطوابير، فقد استمرت في المسير طيلة الليل فبلغت دون ريب المكان الذي لم يكن عليها ان تصل اليه.

الا ان الكونت اورلوف ـ دينيسوف وحده مع جنوده القوقازيين، وهم اصغر الافواج عدداً، وصلوا الى امكنتهم في الوقت المناسب. توقف هذا الفوج عند اقصى حدود الغابة، على درب يؤدي من قرية ستروميلوفو الى قرية دميتروفسكوي.

ايقظوا الكونت اورلوف الذي كان نائماً، قبل الفجر وجاؤوا اليه بأحد

الجنود الفارين من المعسكر الفرنسي . كان هذا صف ضابط بولوني من فوج بونياتووسكي ، شرح لهم ان سبب فراره يرجع الى هضم حقوقه لأنه كان يجب ان يرقى الى رتبة ضابط منذ أمد طويل لأنه أكثر بسالة من كل الآخرين ولهذا السبب ، فقد تنكر للفرنسيين وبات لايفكر الا في الانتقام . ثم أكد ان مورا يقضي الليل على بعد فرسخ واحد من مكان وجودهم وانهم اذا زودوه بمائة رجل ، استطاع ان يأتي به حياً . تشاور الكونت اورلوف – دينيسوف مع زملائه . لقد كانت الفكرة شديدة الاغراء يمتنع طرحها . تطوعوا جميعهم للذهاب واشاروا جميعهم بالمحاولة . وبعد مناقشات ومحادثات كثيرة ، قرر الجنرال ماجور جريكوف ان يتبع البولوني مع سريتين من القوقازيين .

قال الكونت اورلوف – دينيسوف لصف الضابط وهو يصرفه :

– ولكن تذكر جيداً انك اذا كنت كاذباً فسأشنقك كالكلب . اما اذا كنت صادقاً ، فسامنحك مائة دوكا (عملة ذهبية قديمة) .

امتطى صف الضابط جواده دون ان يجيب ومضى بادي العزم مع جريكوف الذي ابتعد بسرعة ونشاط فاختفوا في الغابة . تبع الكونت اورلوف الذي كان يرتعد بتأثير برودة النهار البازغ ويحس بالقلق للمسؤولية التي اضطلع بها ، جريكوف بابصاره ثم تقدم خارج ستر الغابة وراح يراقب معسكر الاعداء الذي كان يرتسم كالسراب تحت الضوء الآخذ بالانتشار ، ويتأمل نيران مخيماته الآخذة بالخمود . وكانت وحداتنا ستخرج على يمين الكونت اورلوف دينيسوف ، عند سفح هضبة مكشوفة فنظر في ذلك الاتجاه ولكنه رغم تيسر الرؤية على البعد ، لم ير أحداً . وخيل للكونت اورلوف دينيسوف ، وخصوصاً مساعده العسكري الذي كان يمتاز ببصر حاد ، ان انتعاشاً مايقع في معسكر الفرنسيين .

قال الكونت اورلوف بعد أن تأمل المعسكر :

ـ آه ! لاريب انه فات الوقت !

وكما يحدث غالباً عندما يكون الشخص الذي وضعت الثقة فيه بعيداً عن الانظار ، ادرك أورلوف فجأة بوضوح بين ان البولوني غشاش ماكر كذب عليه وانه سوف يبلبل الهجوم بدون تينك السريتين اللتين الله يعلم الى اين يقودهما ذلك الماكر . هل كان ممكنا أسر جنرال اعلى في مثل هذه الكثافة من القطعات ؟

أضاف :

ـ نعم ، هذا اكيد ، لقد كذب ، ذلك النذل .

قال احد ضباط الحاشية الذي طافت بذهنه كالكونت اورلوف ـ دينيسوف شكوك حول نجاح المشروع منذ ان راح يتأمل معسكر الاعداء !

ـ نستطيع استدعاءه .

ـ هه ؟ حقاً ؟ ماقولكم ؟ هل يعمل ام لا ؟

ـ هل يصدر الامر باعادته ؟

فقرر الكونت اورلوف فجأة وهو ينظر الى ساعته :

ـ نعم ، نعم ، ليعد ! لقد فات الوقت وانبلج الصبح تماما .

مضى المساعد العسكري « هدبا » على جواده عبر الغابة ليلحق بجريكوف فلما عاد هذا ، قرر اورلوف دينيسوف الهجوم وقد استبد به قلق لهذه المحاولة الفاشلة وكذلك لأنتظاره دون جدوى وصول وحدات المشاة ودنوة من الاعداء ـ (وهو الشعور الذي شاركه فيه كل رجال وحدته) .

أمر بصوت خافت : « الى الجياد » فاتخذ كل مكانه ورسم شارة الصليب « في حراسة الله ! » .

دوت صيحات « هورا » في الغابة وراح القوقازيون في فصائل مؤلفة من مائه فارس ، يتبعثرون بمرح مائة بعد مائة ، اشبه بحبات القمح المنطرحة من كيس ، وهجموا على معسكر العدو وقد ارخوا لجيادهم الاعنة واجتازوا نهيراً . . !

انطلقت صرخة رهيبة من حناجر الفرنسيين الاول الذين شاهدوا القوقازيين وجرى كل من في المعسكر ، نصف عراة ، تاركين المدافع والبنادق والجياد ينفرون فراراً في كل الاتجاه .

ولو ان القوقازيين استمروا يطاردون الفرنسين دون ان يأبهوا لما وراءهم وحولهم ، لاسروا مورا وكل من كان معه . وكان هذا هو مايريده الرؤساء ولكن لم يعد في الامـكان زحزحة القوقازيين الذي اقتصر تفكيرهم على الاسلاب والسجناء . لم يعد احد يصغي الى الاوامر ، ولقد غنموا هناك الفـاً وخمسمائة اسير وثمانية وثلاثين مدفعاً واعلاماً وما يثير اهتمام القوقازيين اكثر من سواه ، خيولا وسروجاً واغطية والف حاجة اخرى مختلفة وكان يجب اعداد كل هذه الاشياء : وضع اليد على الاسرى والمدافع ، توزيع الاسلاب ، التهاحك بل والوصول الى الايـدي . ولم يكن القوقازيون عاجزين عن كل هذا .

استعاد الفرنسيون الذين لم يعد احد يطاردهم حواسهم ، فنظموا صفوفهم وشرعوا يطلقون النـار . وكان اورلوف ـ دينيسوف ينتظر دائما سراياه ولا يوغل في هجومه الى ابعد من ذلك .

في تلك الاثناء ، تبعاً للخطة العسكرية : « الطابور الاول يمشي الخ . . . » تحرك المشاة المتأخرون بقيادة بينيجسن وتوجيه تول ، في الوقت المناسب وبما يشبه الحقيقة ، واتجهوا الى جهة ما ، ولكن ليس الى المكان المعين لهم . وبما

يشبه الحقيقة ، انتهى الامر بالرجـــال الذين ذهبوا والبهجة تملأ نفوسهم ، الى التوقف وقد ظهر عليهم الاستياء والشعور بالخجل فعادوا على اعقابهم . و كان المساعدون العسكريون والجنرالات يجرون صهوات خيولهم ويصرخون ويسخطون ويتخـاصمون ويزعمون انهم ليسوا ابداً في المـكان الذي يجب ان يكونوا فيه وانهم تأخروا ، ويلقي كل منهم تبعة الخطـأ على الآخر حتى انهم اخيراً اقلعوا عن ذلك وراحوا يمشون لمجرد المشي . « سوف نصل حتما الى مكان ما ! » والواقع أنهم وصلوا متأخرين جداً ، ولكن ليس الى حيث كان عليهم ان يصلوا ، بل ليكونوا بالنتيجة هدفاً صالحاً للعدو ، وكان تول الذي لعب في هذه المعركة دور ويرودذر في معركة اوسترليتز ، يجرى على جواده متعجلا من جانب الى آخر ليجد في كل جانب ان الامور سارت على عكس اتجاههـا المفروض ، وعلى هذا النحو ، وقع على فيلق باجوفو في صميم الغابة وقـد طلع النهار ، في حين كان على هذا الفوج ان يكون منذ وقت طويل مع اورلوف دينيسوف ، ولقد غضب تول وشعر بجرح في كرامته لاخفاقه وافترض انـه لابد من وجود مذنب مسؤول ، فجرى على جواده الى قائـد الفوج وامطره وابلا من اللوم الجارح قائلا ان يستحق الاعدام رمياً بالرصاص . فخرج باجوفو الذي لم يكن جنرالا المظاهر بل باسلا عجوزاً ابن القتال مجربا في المعـارك ، خرج الدهشة العامة عن هدوئه الطبيعي وقد احنقته كل هذه التوقفات والبلبلة والاوامر المتناقضة مثلما احنقت تول ، واستبدت به ثورة مفاجئة ، فاجاب تول بقحة قائلا :

ـ لست اريد ان اتلقى درساً من احد واعرف كيف اموت انا وجنودي كأي آخر تماماً .

واندفع الى الأمام يتبعه فوجه وحده .

ولما أصبح على ساحة المعركة ، تحت وابل نيران الفرنسيين ، لم يتساءل باجوفو الباسل في سورة غضبة ماذا كان نافعاً أو عقيماً خوض المعركة في تلك الاثناء بفوجه وحده ، بل قاد جنوده مباشرة الى النار . لقد كان الخطر والقذائف والرصاص كل ماينبغي له في اندفاعه المحنق ، فقتلته احدى الرصاصات الاولى لفوره واردت الرصاصات التالية كثيراً من الجنود وظل فوجه وقتاً ما تحت مرمى النار عبثاً دون جدوى .

* * *

الفصل السابع

معركة تاروتينو

في تلك الاثناء ، الى الامام ، قدر لطابور آخر ان يقع على الفرنسيين . لكنه كان الطابور الذي اقام كوتوزوف قريباً منه . كان يعرف تماماً ان هذه المعركة التي شرع فيها رغم ارادته ، لن تؤدي الا الى الخزي ، فكان يستوقف القطعات على قدر طاقته .

كان ساكن الحركة صامتاً ، ممتطياً صهوة جواده الأشهب الصغير . يجيب دون تلهف على العروض التي يقدمونها اليه حول الهجوم .

قال لميلورادوفيتش الذي كان يسأله ان يتقدم الى الأمام :

ليس على لسانك الا الهجوم ولا ترى اننا لا نحسن القيام بحركات معقدة .

وأجاب على آخر :

ـ انك لم تعرف كيف تأخذ مورا حياً هذا الصباح ولا ان تصل الى مكانك المحدد في الوقت المعين . والآن ، فات الوقت .

ولما جاؤوا ينبئونه ان في اعقاب الفرنسيين الذين كانوا مكشوفين بادىء الأمر حسب معلومات القوقازيين ، يقوم الآن لواءان من البولونيين ، نظر من جانب عينه الى ايرمولوف الذي لم يوجه اليه كلمة ما منذ أمس وقال :

ـ أرأيت . انهم يطالبون بهجوم ويقدمون رزمة من المشاريع . وعندما

ينتقلون الى العمل ، لايكون شيء جاهزاً في حين ان العدو الذي انذر قـــد اتخذ حيطته .

اغمض ايرمولوف عينيه نصف اغماضة وطافت على شفتيه ابتسامة خفيفة لذلك الكلام . ادرك ان العاصفة بالنسبة اليه قـد تبددت وان كوتوزوف سيكتفي بهذا التلميح فحسب .

قال ايرمولوف بصوت خافت وهو يلكز بركبته رايفسكي الذي كان الى جانبه :

ـ انه يسخر مني .

ولم يلبث بعد ان اقترب ايرمولوف وقال لكوتوزوف باحترام :

ـ لم نخسر شيئاً ياصاحب السمو فالعدو لازال هنا اذا أردتم اصدار الأمر بالهجوم . وبغير ذلك ، فان الحرس لن يشموا حتى رائحة البارود .

لم يجب كوتوزوف بشيء . وعندما اعلنوا له ان قطعات موراقد انسحبت اصدر الامر المنتظر ، لكنه بعد كل مائة خطوة ، كان يأمر بتوقف ثلاثة أرباع الساعة .

إذن ، لقد اقتصرت المعركة على هجمة القوقازيين التابعين لاورلوف دينيسوف . أما بقية القطعات ، فقد فقدت دون أي نفع بضع مئات من الجنود .

وكانت النتيجة بالنسبة إلى كوتوزوف وساماً من الماس ، وماسات الى بينيجسن ومائة الف روبل . اما الضباط الآخرون ، فقد أنعم عليهم بحسب رتبهم بهبات ثمينة ، اضف الى ذلك ان تنقلات جديدة وقعت في أركان حرب الجيش .

قال الجنرالات والضباط الروسيون بعد مسألة تاروتينو : «هذا هو النمط التي تسير عليه الأمور عندنا ، كل شيء على عكسه !» كذلك كانوا دائماً يتحدثون كلما أرادوا ان ينوهوا بأنه اذا أخطأ احمق ما في التصرف ، فإن الامور كانت ستدور على نحو مختلف . لكن الذين كانوا يتحدثون على هـذا النحو ، ما كانوا يعرفون شيئاً عن المسألة التي ينتقدونها او كانوا يسخرون عارفين . لأن كل معركة ، سواء أكانت معركة تاروتينو أو بورودينو أو اوسترليتز ، تقع خلافاً

لما يتوقعها واضعو خططها . وهذا أمر جوهري .

ان عدداً لايحصى من القوى المستقلة يؤثر في سياق معركة ما لأن المرء لا يكون قط اكثر حرية منه في غمار معركة حيث الأمر يتعلق بالحياة أو الموت. لذلك فإنه يستحيل اذن معرفة سياق المعركة سلفاً ولا يمكن أن تتبع أبداً اتجاهاً تفرضه قوة واحدة ، أياً كانت هذه القوة

واذا عملت قوى عديدة في آن واحد وفي اتجاهات مختلفة عن جسم ما ، فان اتجاه الحركة المفروضة على هذا الجسم لن يكون اتجاه أية واحدة من هذه القوى بل يكون دائماً الاتجـاه المتوسط الاقرب ، ذلك الاتجاه لم يعبر عنه في علم « الميكانيك » بخط الزاوية المسطح متوازي اضلاع القدرة .

واذا قرأنا في حكايات المؤرخين ، وبصورة خاصة الفرنسيين منهم ، ان حروبهم ومعاركهم اتسعت وجرت وفقاً لخطة مسبقة ، فان المغزي الوحيد الذي نستنتجه من ذلك هو أن حكاياتهم غير صحيحة .

من الواضح ان معركة ناروتينو لم تبلغ الهدف الذي رسمه تول" ، أي ان توجه المعركة تبعاً لنظام خطته ، ولا الهدف الذي كان يتوخاه الكونت اورلوف بأسر مورا ، ولا غاية بينيجسن او آخرين بابادة كل هذا الجانب من جيش العدو دفعة واحدة ، ولا بغية الضباط الراغبين في الاشتراك في عملية ما لابراز ميزاتهم ولا رغبة القوقازي الذي كان يطمع في الاستيلاء على جانب من الاسلاب اكبر مما وجد الخ . . ولكن ، اذا كانت الغاية التي بُلغ اليها بالفعل والتي كان الروسيون كلهم يطمعون فيها ، أي طرد الفرنسيين من روسيا وابادة جيشهم ، فاننا نرى اذن بوضوح كالنهار ، ان معركة تاروتينو انتهت بسبب الاخطاء التي ارتكبت ، الى النهاية المتوجبة خلال فترة الحملة كلها . وانه يصعب بل يستحيل تخيل نهاية أفضل من التي انتهت اليها تلك المعركة . لقد حصلنا على أعظم نتائج الحملة كلها بأقصى درجات الفوضى وبأقل مجهود وبخسائر تكاد تكون تافهة . لقد انقلبنا من التقهقر الى الهجوم وكشف الستر عن ضعف الفرنسيين وانزلت الضربة بجيش نابوليون لتحمله على الشروع بالفرار .

الفصل الثامن

عبقرية نابوليون

دخل نابوليون الى موسكو بعد النصر اللامع في موسكوفا ، وانه لنصر لاريب فيه لأن الفرنسيين ظلوا سادة ساحة المعركة . وتراجع الروسيون وسلموا عاصمتهم ، وموسكو الطافحة بالأرزاق والأسلحة والذخائر وبالثروات التي لاتحصى ، باتت بين يدي نابوليون . والجيش الروسي الأضعف مرتين من الجيش الفرنسي لايظهر طيلة شهر كامل ، اية رغبة في الهجوم . وموقع نابوليون من أفضل المواقع وابرزها ، يستطيع بجيشه المتفوق مرتين على القوات الروسية ان ينقض على فلول هذه ويبيدها ، ويستطيع عقد صلح لمصلحته او على الاقل ، في حالة الرفض ، ان يحاول القيام بحركة تهدد بيترسبورج ، بل انه يستطيع كذلك في حالة عدم النجاح ان يعود باتجاه سمولنسك أو فيلنا أو ان يمكث في موسكو . وبالاختصار ، لكي يحافظ نابوليون على مركزه اللامع الذي كان الجيش الفرنسي يحتله حينذاك ، لم يكن في حاجة على ما يبدو الى ان يكون عبقرياً خارقاً . كان يكفيه من أجل ذلك ان يعمل أبسط الأشياء وأسهلها ، اي ان لايترك جيشه يستسلم للسلب وان يعد ألبسة الشتاء التي تستطيع موسكو ان تقدمها للجيش كله وان ينظم بحكمة توزيع الأرزاق التي كانت في المدينة ، كافية لأكثر من عشرة أشهر تبعاً لأقوال المؤرخين الفرنسيين . غير أن نابوليون

نابوليون قبل موسكو

عبقري العباقرة ، الذي كانت له السلطة — على قول المؤرخين — لم يعمل شيئاً من هذا .

انه لم يغفل هذه التدابير كلهافحسب بل استعمل سلطانه لينتخب من التدابير الواجب اتخاذها ، أسوأها وأنحسها . لم يتخذ نابوليون بين كل ما يستطيع اتخاذه : قضاء الشتاء في موسكو ، الذهاب الى بيترسبورج ، الذهاب الى نيجني — نوفجورود ، التقهقر سواء نحو الشمال أو أبعد الى الجنوب عن الطريق الذي سلكه كوتوزوف فيما بعد ، أسوأ وأكثر شؤماً مما اتخذ : لقد ظل حتى تشرين الأول في موسكو وأعطى الاذن لجنوده بنهب المدينة ، ثم بعد ان ترددفي ترك حامية في موسكو ، خرج منها واقترب من كوتوزوف دون الالتحام معه ، وتوجه نحو اليمين فبلغ مالو - اياروسلافيتز ، وبدلاً من اتخاذ الطريق الذي سلكه كوتوزوف ، عاد الى موجائيسك دون ان يحاول فتح أية ثغرة ، عبر طريق سمولنسك المعبد ، وسط أقاليم مخربة ، وبذلك لم يكن هناك أكثر حمقاً وشؤماً من هذا التصرف ، كما دلت النتائج على ذلك ، فإذا إفترضنا أن غاية نابوليون كانت تهدف الى قيادة جيشه الى نهايته ، فإن أبرع الخطط العسكرية ما كانت تستطيع تنظيم مخطط للعمليات قادر على إلحاق الدمار الكامل المحتوم بالجيش الفرنسي مثل هذه الخطة بصرف النظر عن كل ما كان يمكن للجيش الروسي أن يقوم به !

لقد عمل نابوليون العبقري كل ذلك . لكن القول بأن نابوليون أضاع جيشه لأنه أراد ذلك أو لأنه لم يكن إلا مجرد أحمق ، قول خاطىء أيضاً يتساوى بالخطأ مع القول بأنه قاد قطعاته الى موسكو لأنه أراد ذلك ولأنه كان على ذكاء وعبقرية استثنائيين .

ففي كلتا الحالتين ، لم يكن لتصرفه الشخصي الذي ما كان أكثر أهمية من

تصرف أي من جنوده الا متفقاً مع القوانين التي كانت تسيطر على الأحداث .

وإنه لكذب فاضح الزعم بأن قواته ضعفت في موسكو كما يقول المؤرخون لمجرد ان الأحداث لم تكن في صالح تصرفات نابوليون . ففي تلك الفترة كما من قبلها وكذلك بعدها في عام ١٨١٣، بذل ذكاءه وقواه ليتصرف بصالحه ومصالح جيشه على أفضل وجه . ونشاط نابوليون خلال هذه الحقبة ليس أقل إثارة للدهشة منه في مصر وإيطاليا والنمسا وفي بروسيا . ولسنا ندري الى أي حد كانت عبقرية نابوليون في مصر ، حيث تأملت القرون الأربعون عظمته ، حقيقية، لأن مآثره الرائعة لم تنقل إلينا إلا عن طريق الفرنسيين . وكذلك الحكم على عبقريته في النمسا وفي بروسيا لأن الشهادات المؤيدة لحركاته لا يمكن ان تُنهل الا من مصادر المؤرخين الفرنسيين والألمانيين . فاستسلام جيوش بكاملها دون قتال، والقلاع دون حصار بذلك الشكل الذي لا يصدق ، لابد وأن يدفع الألمانيين الى الاعتراف بعبقرية نابوليون بوصفها المبرر الوحيد للحرب التي وقعت في ألمانيا . أما نحن فليست بنا والحمد لله أية حاجة الى الاعتراف به كعبقري لنستر عارنا . ولقد دفعنا الثمن ليصبح من حقنا النظر في أعماله ببساطة ودون مواربة ولن نتخلى عن هذا الحق .

إن نشاطه في موسكو مدهش وعبقري مثله في كل مكان آخر . فالأوامر تلو الأوامر والخطط تلو الخطط كانت تصدر عنه منذ ساعة دخوله موسكو وحتى لحظة خروجه منها . فغياب السكان وممثلي الأشراف ، بل حتى حريق موسكو لم يقلقه . إنه لم يغفل مصلحة جيشه ولا حركات العدو ولا رفاهية الشعوب الروسية ولا إدارة الأعمال في باريس ولا الترتيبات الدبلوماسية سعياً وراء الصلح .

الفصل التاسع

التنظيمات الادارية

أعطى نابوليون منذ دخوله موسكو ، تعليمات مشددة من الوجهة العسكرية الى الجنرال سيباستياني الذي عليه ان يتبع حركات الجيش الروسي وان يرسل وحدات من الجيش الى مختلف الجهات ، وأشار على مورا أن يجد كوتوزوف . ثم اتخذ التدابير الجدية ليحصن الكرملن ثم رسم على خريطة روسيا الخطة العبقرية المتعلقة بحملته المقبلة .

ومن الناحية الدبلوماسية استدعى نابوليون اليه اياكوفليف ، وهو رئيس مسلوب من كل شيء لم يكن حينذاك أكثر من صعلوك لا يدري كيف يغادر موسكو ، وشرح أمامه سياسته وأظهر له عظمة نفسه . وبعد ان كتب رسالة الى الامبراطور الكسندر أظهر فيها اعتقاده بان من واجبه اخطار صديقه وأخبه ان رستوبتشين أساء التصرف في موسكو ، ارسل اياكوفليف يحملها الى بيترسبورج . كذلك افاض في اظهار عظمة روحه وشرح وجهات نظره امام توتولمين ، وأرسل هذا الكهل كذلك الى بيترسبورج ليشرع في محادثات هناك .

أما من الناحيه القضائية ، فقد أمر فور شبوب الحرائق بالبحث عن الفاعلين واعدامهم ، ولقد أوخذ الوحش روستوبتشين لحريق بيته الشخصي .

بينما جزيت موسكو من الناحية الادارية بدستور . اقيمت بلدية وعلق النداء التالي .

« الى سكان موسكو !

« ان محنتكم قاسية . لكن جلالته ، امبراطور وملك ، يريد ان يضع حداً لها . لقد علمتكم أمثلة رهيبة كيف يعاقب العصيان والجريمة . لقد اتخذت اجراءات صارمه لوضع حد للفوضى وانعاش الأمن العام . سوف تقوم ادارة أبوية ، تنتخب من بينكم ، على تشكيل بلديتكم أي حكومة مدينتكم . سوف تهتم تلك البلدية بكم وباحتياجاتكم ومصالحكم ، وسيُعرف أعضاؤها من الوشاح الأحمر الذي سيضعونه متقاطعاً . أما رئيس البلدية ، فسيتمنطق فوقه بنطاق ابيض . بيد أن الأعضاء البلديين ، لن يحملوا خارج عملهم الاشارة حمراء حول الذراع الأيسر .

« ان الشرطة البلدية قـــد اقيمت على النظام القديم تماماً ، وبفضل نشاط رجالها ، استتب حتى الآن نظام أفضل . لقد عينت الحكومة « قوميسارين » عامين أو صاحبي شرطة وعشرين قوميسراً ، أو « تشاستني بريستافس» وزعوا على كل حي من أحياء المدينة ، ستعرفونهم من الشارة البيضاء التي يلفونها حول ذراع كل منهم الأيسر . ثم أن عديداً من الكنائس تقام فيها الطقوس الدينية لمختلف الملل ، قد فتحت وأصبحت الصلوات الدينية تقام فيها دون عرض . ان مواطنيكم يعيدون كل يوم تأثيث مساكنهم ولقد اعطيت الأوامر اللازمة ليجدوا كل عون وحماية عند المحنة . تلك هي الوسائل التي استعملتها الحكومة لاعاده النظام وتسوية وضعكم . ولكن ، لبلوغ هذه الغاية ، من الضروري ان تضيفوا مجهوداتكم الى مجهوداتهم وان تنسوا ـ اذ أمكن ـ الآلام التي عانيتموها وان تملأوا نفوسكم بأمل الوصول الى نهاية أقل قسوة . كونوا متأكدين من أن

روستوپشین

الموت المحتوم المرذول ينتظر كل الذين يحاولون الاعتداء على أشخاصكم أو على ما تبقى من مقتنياتكم . واذن ، لايجب ان يتطرق الشك الى نفوسكم بان هذه المقتنيات ستحفظ لكم لأن هذه هي إرادة أكبر سلطان وأعدل ملك أيها الجنود والسكان من أية ملة كنتم !أعيدوا الثقة العامة ، هذا المصدر لسعادة الدولة وعيشوا كاخوان ، تبادلوا المساعدة والحماية واتحدوا لمقاتلة المشاريع الاجراميه ، اطيعوا السلطات العسكرية والبلدية ، فلن تلبث دموعكم ان تكف عن الانحدار . »

ومن ناحية القوت ، أعز نابوليون الى كل قواته ان تهبط موسكو دورياً وبشكل غير ملحوظ لتجمع الأرزاق سلباً لتأمين مؤونة الجيش المقبلة .

وأمر نابوليون من الناحية الدينية ان يُعاد القساوسة ليقيموا في الكنائس كسابق عهدهم طقوسهم الدينية .

وأعلن في كل مكان تأميناً لناحيتي التجارة وتأمين الأرزاق للجيش ، مايلي :

اعلان

« اليكم ، يا سكان موسكو الوادعين ورجال العمل والعمال الذين أبعدتكم المحن عن المدينة ، وانتم ، ياعمال الأرض الذين لايزال خوف وهمي يجعلكم مبعثرين في الارياف ! لقد عاد الهدوء الى العاصمة واستتب فيها النظام . ان مواطنيكم يخرجون دون خوف من مآويهم وهم واثقون من أنهم سيُحترمون . ان كل شدة مستعملة ضدهم أو ضد ممتلكاتهم تقمع من فورها . ان جلالته ، امبراطور وملك ، يغطيهم بحمايته ، ولا يعتبر أعداء من بينكم الا اولئك الذين يعصون أوامره . انه يريد أن يضع حداً لآلامكم وان يعيدكم الى بيوتكم وعائلاتكم . تقبلوا اذن تدابيره الرفيقة وتعالوا الينا بكل طمأنينة . أيها السكان ! نظموا مساكنكم بهدوء وستجدون فور ذلك امكانية القيام بأودكم . ايها الصناع والعمال المجدون ! عودوا الى اعمالكم دون مماطلة : ان البيوت والحوانيت ودوريات

المراقبة تنتظركم ، وستتلقون على عملكم الأجر الذي يتفق معكم . وأنتم أخيراً ايها الفلاحون ، أخرجو من الغابات حيث جعلكم الخوف تختبئون ، وعودوا دون خوف الى اكواخكم ، ولتكونوا على تمام الثقة بأنكم ستجدون فينا حماتكم لقد اقيمت في المدينة مستودعات كبيرة يستطيع الفلاحون ان يحملوا اليها الفائض من حاصلاتهم . ولقد اتخذت الحكومة التدابير التالية لتأمين الرواج الحر : آ — اعتباراً من اليوم ، يستطيع الفلاحون والمزارعون وسكان ضاحية موسكو الآخرون ان يحملوا دون اي خوف الى المدينة ، حاصلاتهم من اي نوع كانت ، الى المستودعين المقامين لهـذا الغرض في شارع موخوفايا وفي الأخوتنيرياد . ٢ — ان هذه الحاصلات ستبتاع منهم بأسعار تقوم على أساس اتفاق بين البائع والمشتري . فاذا لم يحصل البائع على السعر الذي يطالب به بحق ، فانه حر في اعادة بضاعته الى بيته ، الأمر الذي لايستطيع احد ان يمنعه تحت أي اعتبار . ٣ — ان يومي الأحد والأربعاء من كل اسبوع خصصاً لاقامة السوق الاسبوعية العامة : ولهذا الغرض ، ستقام فصائل من الجند بعـدد كاف على الطرق العامة ايام الثلاثاء والسبت من كل اسبوع لحماية القوافل . وقد اتخذت هـذه التدابير نفسها لعودة القرويين في عرباتهم مع جيادهم دون أية صعوبة . ٤ — ستتخذ تدابير مستمرة لاعادة التجارة الطبيعية . يا سكان المدينة والقرى ، وأنتم يارجال الصناعة والعمال ، من أية ملة كنتم ! ان الامبراطور والملك يدعوكم الى التقيد بتدابيره الابوية وان تتعاونوا معه لاعادة الرفاهية العامة . احملوا الى قدميه احترامكم وثقتكم ولاتترددوا في الاتحاد معنا ! »

وكانوا يقيمون استعراضات مستمرة ويوزعون المكافآت كي يرفعوا من معنويات الجيش والشعب . وكان الامبراطور يجتاز الشوارع على جواده ويطمئن السكان ورغم كل مشاغله بصدد مشاكل الدولة ، فانه كان يرتاد المسارح المقامة بناء على امره .

وكان نابوليون كذلك يعمل كل ما يتعلق به في سبيل الاحسان الذي هو أجمل زخرف في تاج الامراء. لقد أصدر الأمر ان تنقش على واجهات المؤسسات العلاجية : « بيت أمي » كي يجمع بهذا التصرف بره الأبوي الحاني الى رفعته ومروءته كعاهل . لقد زار الميتم ، وبعد ان أعطى يده البيضاء للأيتام الذين انقذهم ليقبلونها ، تحادث ببشاشة مع توتولمين . وأخيراً ، حسب رواية تيير البليغة ، أمر ان تدفع رواتب جنوده بالعمله الروسية المزورة التي ضربت بناء على أوامره .

« لقد أمر بتوزيع المساعدات على منكوبي الحريق ، فشجع على استعمال هـذه الوسائل بيادرة جديرة به وبالجيش الفرنسي . أما الأرزاق ، وهي اثمن من ان تعطى الى غرباء جلهم أعداء ، فان نابوليون فضل ان يقـدم لهم نقوداً لكي يتداركوا المؤن بها عن طريقهم ، لذلك فقد امر ان توزع عليهم روبلات من النقد الورقي . »

اما فيما يتعلق بنظام الجيش والطاعه فيه ، فان اقسى التدابير مافتئت تتخذ لمعاقبة مخالفات فروض الخدمة العسكرية ولوضع حد لاعمال السلب .

الفصل العاشر

... ونتائجها

مع ذلك ، فان كل هذه الاستعدادات وهذه العناية والخطط التي لم تكن أسوأ من غيرها في مناسبات مماثلة ، لم تبلغ ، لغريب الامور ، غور الاشياء ، لكنها كعقاب ساعة على ميناء فصلت عن الجهاز الداخلي ، اخذت تدور انفاقاً ودون هدف دون ان تدير معها مجموعة القطع المكملة .

فمن وجهة النظر العسكرية ، فان خطة الحملة العبقرية التي قال عنها تيير : « ان عبقريته لم تعد قط اكثر عمقاً منها واكثر براعة وروعة » والتي دلل بصددها ، في مجادلته الكتابية مع السيد ڤون[1] ، ان تدبيجها يجب ان يُرجع به الى الخامس عشر من تشرين الأول وليس الى الرابع منه ، ان هذه الخطة لم تنفذ قط ولم يكن تنفيذها مستطاعاً لأنها كانت بعيدة عن الواقع . فأعمال تحصين الكرملان التي وجب هدم الجامع في سبيلها (والجامع هو اللقب الذي كان نابليون يطلقه على كنيسة بازيل السعيد) اظهرت انها عقيمة تماماً . ووضع الألغام تحت الكرملان لم يعد الا في ارضاء رغبة الامبراطور الذي كان يريد نسفه عند خروجه من موسكو والذي يعني انزال عقوبة الضرب بأرض لأنها

---

(١) البارون فرانسوا ڤون ، مؤرخ فرنسي ولد في باريز عام ١٧٧٨ وتوفي عام ١٨٣٧ وكان سكرتير نابليون الاول .

السبب في سقوط طفل صغير . ثم ان ملاحقة الجيش الروسي التي كانت شاغل نابوليون الاكبر تقدم ظاهرة خارقة . لقد اضاع قادة الجيش الفرنسي هـذا الجيش الروسي المؤلف من ستين الف رجل وبحسب تيير ، يعود الفضل الى الفن وحده والى عبقرية مورا ولا شك في العثور على هذه الآلاف الستين من الجيش الروسي ، على رأس دبوس .

ومن جهة النظر الدبلوماسية ، فان كل دلائل عظمة النفس والانصاف التي اظهرها نابوليون امام توتولمين واياكوفليف – وكان هم هذا الاخير ان يتدبر لنفسه قبل كل شيء معطفاً وعربة – لم تجد فتيلاً لأن الكسندر لم يستقبل هذين السفيرين ولم يجب على العروض التي كانا مكلفين بحملها .

ومن جهة النظر القضائية ، احترق النصف الآخر من موسكو الذي ظل سليماً بعد اعدام مشعلي الحرائق المزعومين .

ومن وجهة النظر الادارية ، لم يوقف اقامة بلدية اعمال السلب ولم تكن نافعة الاللقبضة من الاشخاص الذين شكاوها والذين لم يترفعوا انفسهم عن السلب بحجة صيانة النظام او عن حماية املاكهم الشخصية من السلب .

ومن جهة النظر الدينية ، فان ما كان غاية في سهولة اقامته في مصر بفضل زيارة جامع واحد ، لم يعط اية نتيجة في موسكو . لقد حاول الكاهنان او الكهنة الثلاثة الذين وجدوهم ، ان يخضعوا لرغبة نابوليون . ولكن واحداً منهم تعرض للصفع طيلة القداس من قبل جندى فرنسي وكتب موظف فرنسي التقرير التالي عن آخر : « ان القس الذي وجدته ودعوته لاقامة القداس الديني مرة اخرى ، نظف الكنيسة واغلق بابها . ولقد جاؤوا هذه الليلة من جديد ، فاغتصبوا الباب وحطموا الاقفال ومزقوا الكتب وارتكبوا اعمالاً فوضوية اخرى . »

ومن وجهة النظر التجارية ، فان الدعوة الموجهة الى الصناع المجدين والى القرويين لم تبلغ اية نتيجة . لم يتقدم اي صانع مجد . اما القرويون ، فانهم كانوا يطبقون على القوميسيرين الذين يغامرون بالابتعاد قليلاحاملين اعلاناتهم ويقتلونهم .

كذلك لم تسر الامور على نمط افضل من حيث المتع والمسرحيات المعدة للجيش وللسكان اذ لم تلبث المسارح التي اقيمت في الكريملن وفي بيت بوزنيا كوف ان اغلقت ابوابها مرغمة فوراً ماسلبوا الممثلين والممثلات فيها .

والاحسان هو الآخر لم يعد بواحدة من النتائج المرجوة . لقد اغرقت موسكو بأوراق النقد الحقيقية او الزائفة التي فقدت كل قيمة . ولم يكن الفرنسيون جامعوا الاسلاب في حاجة الا الى الذهب . ولم تكن العملة الزائفة التي أمر نابوليون بتوزيعها بكل كرم على المنكوبين هي وحدها التي فقدت قيمتها ، بل ان النقود الفضية نفسها المقايضة بالذهب ، كانت تروج بقيمة اقل كثيراً من قيمتها الحقيقية .

واظهر مثال على عدم جدوى التدابير المتخذة في المراجع العليا في ذلك الحين كان العجز الذي وقع فيه نابوليون عن ايقاف السلب واعادة النظام .

وفيما يلي تقارير السلطات العسكرية :

« ان اعمال السلب مستمرة في المدينة رغم الأمر بوضع حد لها . والنظام غير مؤمن بعد وليس هناك بائع واحد يتجر بشكل مشروع . ان بائعي المؤن وحدهم يغامرون بالبيع ، لكنهم يبيعون اشياء مسروقة . »

« ان جانب قطاعي لايزال عرضة لأعمال السلب من جانب الفوج الثالث الذين لم يكتفوا بانتزاع ما تبقى لدى التعساء اللاجئين الى الاقبية ، بل بلغ من وحشيتهم انهم يجرحونهم بضربات من سيوفهم كما شاهدت بنفسي امثلة كثيرة . »

« لاشيء جديدا اكثر من ان الجنود يسمحون لانفسهم بأن يسرقوا وينهبوا في التاسع من تشرين الاول . »

« السرقة والسلب مستمران . ان في قطاعنا عصابة من اللصوص يجب ايقافها بواسطة حراس عديدين اقوياء . في ١٤ تشرين الاول . »

« ان الامبراطور مستاء جداً اذ يرى رغم التدابير الزجرية المتخذة لايقاف اعمال النهب ، فصائل من السلابين من جنود الحرس تدخل الكرملين . ان الفوضى والسلب قد تجددا بشدة تفوق كل حد سابق بين افراد الحرس القديم امس ، والليلة الفائتة واليوم . ان الامبراطور يرى بألم عميق ، ان جنوداً ممتازين ، اقيموا لحماية شخصه ، ووجب عليهم ان يقدموا من أنفسهم مثالاً عن الطاعة للآخرين ، يشتطون في التمرد لدرجة اجتياح الاقبية والمخازن المعدة للجيش . بل ان بعضهم بلغوا من الانحطاط الى درك عدم احترام الحراس وضباط الحرس واهانتهم وضربهم . »

وقد كتب الحاكم : « ان ماريشال القصر الاكبر يشكو بشدة من انه رغم الحظر المكرر ، لايزال الجنود يقضون حاجاتهم الجسدية في كل الافنية بل حتى تحت نوافذ الامبراطور . »

لقد كان هذا الجيش اشبه بالقطيع المسرح الذي يطأ بالاقدام للغذاء الذي يمكن أن ينقذه من المجاعة . سوف ينهار وكل يوم من اقامته غير المجدية في موسكو كان يدفعه اكثر الى نهايته . مع ذلك ، لم يكن يتحرك مكانه .

وفجأة ، قرر الجيش ان يتحرك عندما دب الذعر في صفوفه اثر نبأ القوافل المأسورة على طريق سمولنسك ونبأ معركة تاروتينو . وهذا النبأ نفسه الذي تلقاه نابوليون اثناء عرض عسكري ، هو الذي ايقظ في نفسه الرغبة في معاقبة الروسيين كما يقول تيير ، فأصدر الامر بالسير ، وهو الامر الذي كان جيشه كله يطالب به .

حمل رجال هذا الجيش في فرارهم من موسكو ، كل اسلابهم المتراكمة . بل ان نابوليون نفسه حمل معه « كنزه » الشخصي . ولقد خاف نابوليون — كما قال تيير — عندما رأى القوافل التي تعيق حركة الجيش ، لكنه لم يأمر ، بفضل خبرته في الحرب ، بأن تحرق العربات الفائضة ، كما فعل بصدد عربات واحد من ماريشالاته قبل دخوله الى موسكو . لقد تأمل تلك العربات الخفيفه وعربات «البرلين » الضخمة الغاصة بجنوده ، ثم اعلن ان كل شيء على مايرام ، وانهم سوف يحتاجون الى كل هذه العربات من اجل الارزاق والمرضى والجرحى .

لقد كان موقف الجيش كله يشبه موقف حيوان جريح يشعر بدنو اجله ولا يعي ماذا يفعل ، ودراسة حركات نابوليون وخططه الحكيمة وحركات جيشه منذ دخوله موسكو حتى اللحظة الذي دمر فيها هذا الجيش ، يعني دراسة القفزات والتشنجات الصادرة عن حيوان جريح جرحاً مميتاً. ان غالباً مايرتمي الحيوان الجريح تحت نار الصياد لأدنى حركة ويعز بخط مستقيم ثم يعود الى الوراء وبذلك يعجل بنهايته . وهذا ماعمله نابليون تحت ضغط جيشه كله لقد دب الذعر في فؤاد الحيوان الجريح لضجة معركة تاروتينو فاندفع يستقبل الطلقة النارية وبلغ مكان الصياد ثم نكص على اعقابه واخيراً ، اندفع الى الوراء ككل الحيونات الجريحة ، سالكاً اسوأ الطرق واكثرها خطورة ولكن على اثار قديمة ومعروفة منه .

ان نابوليون الذي يبدو لنا انه يدير كل هذه الحركة ، اشبه بالصورة المنقوشة على مقدمة سفينة يعتبرها المتوحشون القوة المحركة لتلك السفينة في حين انه في الحقيقة اشبه بطفل صغير في اضطرابه ، طفل متشبث بالسيور الجلدية المثبتة داخل عربة ما ، يتصور نفسه وهو في مكانة ذالك انه يقود تلك العربة ،

الفصل الحادي عشر

بيير في السجن

خرج بيير في السادس من تشرين الاول من مبناه الخشبي صباحاً باكراً جداً وتوقف ، بعد ان نكص على اعقابه ، على العتبة يداعب كلباً ذا شعر بنفسجي وجسد ممدد فوق قوائم قصيرة عوجاء . كان هذا الكلب الصغير يعيش في المبنى وينام مع كاراتاييف ، يفلت احياناً ، ولكنه بعد جولة في المدينة ، يعود دائماً . وكان يبدو عليه انه لم يكن قط لأحد ما ، لأنه في تلك اللحظة كان دون صاحب ودون اسم . كان الفرنسيون يسمونه آزور ، ولقد عمده جندي مولع جداً بالقصص باسم فمجالكا ، اما كاراتاييف والآخرون فقد اطلقوا عليه اسم الاشهب او فيسلي أي ذو الاذنين المتدلتين . لم يكن ذاك الكليب ذو الشعر البنفسجي منزعجاً قط لانه لاعرق له ولا لون ولا سيد ولا اسم محددة . كان ذنبه ينتصب على شكل حزمة دائرية متينة من الريش وقوائمه الملتوية تؤدي له خدمات جليلة حتى انه غالباً ما كان يغفل استعمال قوائمه الاربع فيرفع احدى خلفيتيه بظرافة ويروح يقفز على الثلاث الاخريات برشاقة ملحوظة . لقد كان كل شيء بالنسبة اليه مبعث رضى ، فتارة ينبح مسروراً ويتدحرج على ظهره وتارة يتدفأ تحت الشمس تبدو على وجهه سيماء العظمة والتفكير وتارة يمرح مداعباً قطعة من الخشب أو ساقاً من القش .

كانت لباس بيير يتألف الآن من قميص قدرة ممزقة هي آخر أثر من اثار ثيابه القديمة ، ومن سراويل عسكرية ربط أطرافها بخيوط عند كعبيه ليستمد منه قسطاً اكبر من الدفء تبعاً لنصيحة كاراتاييف ، وقلنسوة يضعها الفلاحون ولقد تبدل بيير من الناحيه الجسدية تبدلاً كبيراً خلال هذه الفترة . لم يعد بادناً كسابق عهده رغم احتفاظه بمظهره المتين الضخم الذي كان طبيعياً في تكوينه . واصبحت لحيته وشاربه يغطيان الجزء الاسفل من وجهه ، بينا راح شعره الذي نبت واستطال مشعثاً مليئاً بالقمل ، يغطي رأسه أشبه بقلنسوة ، ولقد اتخذت نظرته طابعاً حازماً هادئاً شديد الثبات لم يسبق له ان وهب مثلها من قبل . وحل محل استسلامه الذى كانت عيناه تنطقان به ، عزم مكين نشيط وكان يمشي حافي القدمين .

كان بيير ينظر تارة الى الحقل في الاسفل حيث اجتازه ذلك الصباح اشخاص على جياد وعربات، وتارة الى الابعاد ، الى ما وراء النهر ، وطوراً الى الكليب الذي بدا كأنه يريد ان يعضه جدياً ثم الى قدميه الحافيتين اللتين كان يتسلى باعطائها وضعيات مختلفة وهو يحرك أصابعها القذرة . وكلما وقعت عيناه على قدميه الحافيتين ، كانت ابتسامة رضي قوي تطوف على وجهه . كانت رؤيتها تذكره بما قاساه وتعلمه خلال هـــذه الحقبة ، وكانت هذه الذكرى محببة الى نفسه .

منذ بضعة ايام ، كان الطقس هادئاً مشرقاً مع شيء قليل من الجمد الابيض عند الصباح ، وهو ما يطلقون عليه اسم صيف النساء .

كان الطقس حاراً في الخارج تحت الشمس والحرارة بعد برودة الجمد الصباحية المثيرة التي لازالت تشوب الهواء ، كانت لذيذة بشكل خاص .

كان ذلك الضياء السحري ينتشر فوق كل الاشياء القريبة والبعيدة و هي على

حالتها المبلرة التي لاترى الا في مثل ذلك الوقت من الخريف ، وجبل العصافير مع القرية والكنيسة والبيت الابيض الكبير ترتسم على البعد ، والاشجار العارية والرمال والحجار والسقوف وسهم الكنيسة الازرق وزوايا البيت الابيض، كلها تنفصل في زوايا ناتئة دقيقة ، بجلاء غير مألوف في الهواء الشفوف وعلى مسافة اقرب ، ترتسم كذلك خرائب بيت احد السادة المألوفة الذي احتله الفرنسيون ، بازدرختها الاخضر الداكن الذي نما على طول الحاجز . ان هذا المسكن نفسه المتهدم المدنس الذي كان يصبح في الاوقات الكالحة منفراً لبشاعته ، بات الآن في ذلك الاشعاع الضوئي الثابت على جمال يهدىء النفس .

وخرج عريف فرنسي بثوب مهمل وقلنسوة رجال الشرطة ، من وراء زاوية المبنى وبين اسنانه غليون قصير ، فبادر بيير بغمزة عين ودية وقال :

— اي شمس ? هه ياسيد كيريل ، (وهكذا كان الفرنسيون كلهم يسمون بيير) ليقال اننا في الربيع .

واستند العريف الى الباب وعرض على بيير تدخين غليون رغم انه كان دائماً يلاقي الرفض من جانب هذا كلما تقدم اليه بذلك العرض .

شرع العريف يقول :

— لو اننا مشينا في مثل هذا الجو . . .

سأله بيير عما يعرفه عن الرحيل المقبل فقال العريف ان الجيش كان تقريباً سوف يتحرك قريباً وان أمراً يومياً ينبغي ان يصدر ذلك اليوم بالذات بصدد السجناء . كان في المبنى الذي فيه بيير ، احد الجنود واسمه سوكولوف يحتضر ، فأخطر بيير العريف لتتخذ الاجراءات بصدده . فقال له العريف انه يستطيع ان يقرعينا لأن لديهم مستشفيات منظمة للغاية اللازمة بالمرضى وان كل ما يمكن ان يحصل قد قدّر من قبل من جانب القيادة العليا .

ـ ثم ياسيد كيريل ، ليس عليك الا ان تقول كلمة واحدة للرئيس ، وانت تعرف ذلك . اوه ، انه واحد . . . لاينسى شيئاً ابداً. قل للرئيس عندما يقوم بجولته وسوف يعمل كل شيء من اجلك .

وكان الرئيس الذي تحدث عنه العريف قد سبق له انتحدث معبيير مطولاً مرات عديدة وغمره دائماً بحسن التفاته

ـ انظر،وحق القديس توماس انه قال لي ذلك اليوم ان كيريل رجل مثقف يتعلم الفرنسية . انه سيد روسي اصيب بمحنة ، لكنه رجل . ثم انه يمكن التفاهم معه ، الا . . . فاذا سأل شيئاً ، ليقله لي ، لن يرفض له طلب . عندما يكون المرء مثقفاً ، يحب العلم كما ترى ، والرجال الأخيار. انني اقول هذا لك ياسيدي كيريل . فلولا فضلك في مشكلة ذلك اليوم لسارت الأمور على شكل سيء .

وبعد لحظات ثرثرة ، مضى العريف ، وكانت المسألةالتي تحدث عنها العريف هي شجار وقع بين سجناء وفرنسيين استطاع بيير فيه ان يهدىء رفاقه . ولقد سمع بعض السجناء ببيير يتحدث الى العريف فجاؤوا يسألونه عما قاله. وبينما كان بيير يروي لهم ان الأمر يتعلق برحيل وشيك ،وصل جندي فرنسي نحيل اصفر رث الثياب الى الباب . حيابحركة رشيقة ووجلة معاً وهو يرفع اصابعه الى جبينه وخاطب بيير ليسأله عما اذا كان الجندي تلاتوس الذي اعطاه قميصاً لخياطته في المبنى ام لا .

لقد تلقى الفرنسيون في الاسبوع المنصرم جراية من الجلد والكتان فأعطوا احذيتهم وقمصانهم الى السجناء الروسيين يصنعونها .

قال كاراتاييف وهو يقترب حاملا قميصاً مطويا بعناية

ـ انه جاهز ، انه جاهز ياصقري الصغير

كان كاراتاييف لايرتدي الا السراويل وقميصاً ممزقاً بسبب الحرارة

وتيسير العملة . ولقد كان القميص الممزق بلون السخام . وكان شعره ملفوفاً على عادة العمال بشريط من الكتان ووجهه المستدير يبدو اكثر استدارة وبشاشة من المعتاد . .

هتف بلاتون وهو يبسط القميص الجاهز مبتسما :

ـ ان الوعد كان مسؤولا . لقد قلت انه سينتهي يوم الجمعة وانهيته يوم الجمعة .

ألقى الفرنسي حوله نظرة قلقة ثم ، نزع سترته الخارجية بسرعة وكأنه حزم امره على شيء ، ولبس القميص . ولقد بدت تحت سترة الفرنسي مكان القميص المفقود . صدرة طويلة ذات ازهار من الحرير متسخة جداً ، تغطي جذعه العاري الاصفر الهزيل . وكان واضحاً ان الفرنسي يخاف ان يأخذ السجناء لدى رؤيته على ذلك النحو بالضحك ، لذلك فانه سارع الى القميص الجديد يدخل رأسه في فتحته . لكن مامن احد من السجناء انبس بكلمة .

قال بلاتون وهو يجذب اطراف القميص :

ـ انك ترى كم هو حسن الحياكه .

ادخل الفرنسي بادىء الأمر رأسه ثم ذراعيه ثم راح دون ان يرفع عينيه . يتأمل القميص على نفسه ويفحص خياطته

قال بلاتون مفسراً وقد استدار وجهه بابتسامة عريضة وبان عليه الرضى العميق على عجلة :

ـ ذلك انني لااملك مشغلي هنا ياصقري الصغير ولا ادوات مناسبة جيدة واقد قال المثل انه دون عدة لايمكن قتل قملة .

قال الفرنسي :

ـ هذا حسن ، هذا حسن ، شكراً . ولكن لابد وان لديك قماشاً مما بقي منه .

فاسترسل كاراتاييف وهو اكثر اغتباطا بعمله :

ـ سوف يسير كل شيء على مايرام حتى ولو لبسته على جلدك مباشرة . سترى كم ستكون مرتاحا فيه . . .

فكرر الفرنسي باسماً وهو يخرج ورقة نقدية قدمها الى كاراتاييف :

ـ شكراً شكراً ياشيخ . الباقي . . . ولكن الباقي . . .

ولاحظ بيير ان بلاتون ما كان يريد ان يفهم مايقوله الفرنسي ، فراح يراقبهما دون ان يتدخل . وظل كاراتاييف يشكر الفرنسي على الأجر ويطري عمله . غير ان الفرنسي الذي كان متمسكا بما تبقى من الكتان ، لجأ الى بيير اخيراً ليترجم له اقواله .

رد كاراتاييف :

ـ آرابه ؟ ماذا سيعمل بها ؟ انها ستفيدنا نحن فنعمل منها عصابات ممتازة للاقدام . لكنه اذا كان يصر . . .

واكفهر وجه كاراتاييف فجأة فأخرج من قميصه رزمة صغيرة من القصاصة مديده بها الى الفرنسي دون ان ينظر وقال وهو يبتعد « ياحيف » . واستشار الفرنسي بيير بنظرة ثم احمر وجهه وكأن نظرة بيير علمته شيئاً ونادى فجأة بصوت نباح :

ـ بلاتوش ، اسمع يابلاتوش ! احتفظ بها لنفسك .

وبعد ان اعطاها له ، استدار الى الوراء وانصرف . فقال كاراتاييف وهو يهز رأسه :

– انظر الى هـذا ! يقولون انهم ليسوا مسيحيين مع ان لهم نفسا طيبة انهم كما يقول آباؤنا : « ان اليد التي يبللها العرق كريمة ، واليدُ الجافة ليست وهابة . » انه لايملك شيئاً ومع ذلك يعطي .

ظل كاراتاييف فترة صامتاً وعيناه شاخصتان الى آراب القماش وعلى شفتيه ابتسامة حالمة . ثم قال وهو يعود الى المبني :

– ولاريب ياشيخ أنني سأعمل من هذه عصابات رائعة .

* * *

الفصل الثاني عشر

نفسية بيير

كان بيير سجيناً منذ أربعة اسابيع . وعلى الرغم من ان الفرنسيين اظهروا نيتهم في نقله من مبنى الجنود الى مبنى الضباط ، فانه لبث في المبنى الذي قادوه اليه في اليوم الاول .

وكان بيير يتحمل في موسكو المحترقة المتلئة بالخرائب ، اقصى ما يمكن لرجل ان يحتمله من الحرمان . لكنه بفضل تكوينه الممتاز وصحته القوية اللذين لم يفكر فيهما حتى ذلك اليوم ، وبفضل وقوع ذلك الشظف على درجات لا يكاد يشعر بها حتى ليتعذر تحديد الوقت الذي بدأ فيه ، فقد احتمل حالة العري التي وصل اليها ليس دون الم فحسب بل وفي فرح . والواقع أنه في تلك اللحظة بدأ يشعر بذلك الهدوء ، وذلك رضى الداخليين اللذين تذاهما بكثير من اللهفة من قبل لقد بحث طويلاً خلال حياته هنا وهناك عن ذلك الهدوء وذلك التفاهم مع الذات الذين ادهشه أيما دهشة وجودهما لدى الجنود في معركة بورودينو . لقد بحث عن ذلك في محبة الناس وفي الماسونية وفي مباهج الحياة العامة ، في الخمر ، في بطولة التضحية ، في غرامه الرومانطيقي بناتاشا ، لقد بحث عن ذلك في دروب الفكر فخيبته ابحاثه كلها ومحاولاته كلها . وها هو ذا ، دون ان يعرف كيف ، يحصل

على العدو، وعلى الرضى الداخليين من خلال أهوال الموت والعري ، وخصوصاً من خلال ما كان يشعر به في كاراتاييف .

واقد بدت الدقائق الرهيبة التي قضاها اثناء اعدام مشعلي الحرائق ، كأنها كنست من ذهنه وذاكرته الى الأبد ، الافكار والمشاعر التي كانت تعذبه والتي كانت تبدو له من قبل على جانب كبير من الاهمية . لم يعد يفكر في روسيا ولا في الحرب ولا في السياسة ولا في نابوليون . بات يرى بوضوح ان كل هذا لايعنيه في شيء، وانه لم يدع للحكم على كل هذه الامور وانه عاجز عن الحكم . كان يردد على طريقة كاراتاييف : « روسيا والصيف ، لا يتماشيان » وكانت هذه الكلمات ميزة تهدئة بشكل غريب . بات يرى الآن قراره قتل نابوليون غير مفهوم بل ومضحك ، وكذلك حساباته حول الرقم السحري ووحش رؤيا القديس يوحنا . وقد بدا الآن ان غضبه على زوجته وخوفه من ان تحط من شرف اسمه يستحقان الهزء اللاذع بل انهما صورة مشوهة غريبة . ماذا كان يهمه لو ان تلك المرأة عاشت هناك الحياة التي تروق لها ؟ ومن كان يهتم بل اية أهمية بالنسبة اليه نفسه بصورة خاصة لو ان الفرنسيين عرفوا ان اسم سجينهم هو الكونت بيزوخوف او لم يعرفوه ؟

أخذ الآن يتذكر غالباً حديثه مع الاميرالدريه واصبح متفقاً معه بالرأي تماماً وان كان فهمه لفكرته على بعض الاختلاف . كان الامير اندريه يزعم ويقول ان السعادة سلبية فقط . لكنه كان يقول ذلك بطابع من السخرية والمرارة . وكان يبدو وهو يتكلم على هذا النحو ، انه يريد التعبير عن رأي آخر ، ذلك الرأي القائل ان ميولنا نحو السعادة الايجابية ليست مغروسة في نفوسنا الا لتبقى غير مشبعة وبالتالي لتعذبنا . وكان بيير يعترف بحقيقة ذلك دون اية فكرة ضمنية . فغياب كل عامل الأمل وارضاء كل الاحتياجات والذي

هو بالتالي حرية انتقاء المشاغل الشخصية ، اي لون حياة الشخص الخاصة ، باتت تبدو الآن لبيير السعادة الحقيقية القصوى للانسان فهنا ، وللمرة الاولى ، بات يقدر في سره بهجة تناول الطعام عندما يجوع المرء ، والشرب عندما يعطش والنوم عندما ينعس والتدفئة عندما يشعر بالبرد والتحدث عندما يرغب المرء في الحديث وفي سماع صوت انساني ولقد بدت ارضاء الحاجات والغذاء الجيد والنظافة والحرية التي كان محروماً منها الآن ، بدت لبيير السعادة الكاملة ، وانتقاء مشاغله واعني حياته ، الآن وقد بات ذلك الانتقاء بالنسبة اليه محدوداً جداً ، بدا له من السهولة حتى انه كان ينسى ان فرط التسهيلات في الحياة يدمر كل المتعة التي يشعر بها المرء في ارضاء احتياجاته ، ، وان الحرية المفرطة في انتقاء المشاغل ، هذه الحرية التي اغدقتها على حياته ثقافته وثراءه ومركزه في الحياة ، تجعل من جهة ذلك الانتقاء بسيطاً لدرجة لاتضاهي وتهدم من جهة اخرى الحاجة نفسها الى الحياة بل وامكانيتها .

باتت احلام بيير كلها تتجه الآن نحو اللحظة التي سيصبح حراً فيها . وفي تلك الاثناء ، بالتالي وخلال كل حياة ، تذكر بيير وتحدث بحماس عن شهر الاسر ذاك وعن تلك الاحساسات القوية المرحة التي لن يجدها مرة اخرى وخصوصاً عن طمأنينة الروح الكلية وتلك الحرية الداخلية الكاملة التي لم يحس بها الا في تلك الحقبة فقط ،

في اليوم الاول ، نهض مبكراً جداً وخرج من المبنى عند الفجر . وعندما شاهد بادىء الامر القباب المعتمة وصلبان دير نوفوديفيتشي ، ثم الجمد الابيض على الحشائش المغبرة ، ثم سفوح جبل العصافير والمنحدر المشجر المتعرج فوق النهر الذي يمتد ليغيب في الابعاد البنفسجية الزاهية ، عندما أحس بالهواء المنعش يدخل الى اعماق رئتيه وسمع نعيب غربان الزرع وهي تطير من موسكو عبر

السهل ، عندما رآى فجأة الضوء ينبعث من المشرق ، وطرف قرص الشمس يطلع بجلال من وراء الفيوم ، والقباب والصلبان والندى والابعاد والنهر ، تتألق ببهجة الضوء ، شعر بيير شعوراً جديداً كل الجدة بالفرح وبعظمة الحياة شعوراً لم يسبق له ان احس به قط .

ولم يغادره ذلك الشعور ابداً طيلة فترة أسره بل على العكس ، نما باطراد كلما ازدادت مصاعب موقفه .

ولقد ازداد ذلك الشعور بالتأهب لكل شيء والخضوع فكريا لكل شيء تأصلا في نفس بيير بفضل الفكرة الرفيعة التي كونها عنه رفاقه في المبنى حال دخوله اليه . وبمعرفة لغات عديدة ، وبالتقدير الذي ابداه الفرنسي نحوه ، وبطريقته البسيطة كل البساطة في اعطاء مايسأل وهو الذي كان يلتقي اسبوعياً ثلاثة روبلات بوصفه ضابطاً ، وبالقوة التي برهن عليها امام الجنود بغرسه المسامير في حاجز المبنى الخشبي بيده ، وبالدماثة التي اظهرها في معاملته مع رفاقه وقدرته غير المفهومة في نظرهم على البقاء جالساً دون حراك ودون ان يعمل شيئاً ، مفكراً ، بكل ذلك معاً اعتبر بيير شخصاً رفيعاً على بعض من الغموض . وهذه الصفات نفسها التي كانت في العالم الذي عاش فيه من قبل معيقة ان لم تكن مضرة ، هذه الصفات : قوته ، احتقاره لرفاهيات الحياة ، مظهره الحالم ، بساطته ، كانت تجعل منه هنا ، بين هؤلاء الناس ، بطلًا تقريبا فكان بيير يحس بان مثل هذا التقدير يخلق له واجبات عليه اداؤها .

الفصل الثالث عشر

يوم الرحيل

شرع الجيش الفرنسي يتحرك طيلة ليلة السادس الى السابع من تشرين الاول: دمروا المطابخ والمباني وحملوا عربات النقل ثم بدأ الجنود والاحمال في السير .

في الساعة السابعة صباحاً ، اصطفت فصيلة من الفرنسيين في لباس الحرب قبعات واسلحة وأجربة وحزم كبيرة ، امام المبنى وثارت محادثة حامية بالفرنسية تخللتها السباب من طرف الصف الى طرفه الآخر .

كانوا جميعاً في المبنى على استعداد وقد ارتدوا ثيابهم وحزموا امتعتهم وانتعلوا احذيتهم ، لاينتظرون إلا صدور الأمر اليهم بالرحيل ، باستثناء الجندي المريض سوكولوف الشاحب النحيل لدرجة بدت معها عيناه المحاطتان بدوائر زرقاء وكأنها خارجتان من محجريها ، فقد ظل جالساً في مكانه لم يلبس ثيابه ولم ينتعل حذاءه بل راح ينظر الى رفاقه الذين ماكانوا يأبهون له ، ويطلق بانتظام انات خفيفة . ولا ريب ان الخوف والقلق من بقائه وحيداً وهو المصاب بالزحار ، هما اللذان كانا يجعلانه يئن على ذلك النحو وليس الألم وحده

اقترب بيير من المريض وقد تمنطق بحبل وانتعل زوجاً من الاحذية صنعه

كاراتاييف من جلد صندوق للشاي جاء به فرنسي ليجدد به نعلية ، وجلس القرفصاء امامه .

قال بيير :

– حسناً ياسوكولوف ، لاتخف ، انهم لايرحلون نهائيا !ان لديهم مستشفى هنا . لعلك ستكون فيه افضل منا جميعاً .

فأن الجندي بصوت اقوى :

– اوه ، سأموت ! اوه ياربي !

استأنف بيير يقول وهو ينهض ويتجه نحو باب المبنى :

– انني ذاهب تواً اعيد مطالبتهم بذلك .

وفي اللحظة التي كاد ان يجتاز عتبة الباب فيها ، ظهر العريف الفرنسي الذي قدم اليه أمس تدخين غليون يرافقه جنديان وكان العريف والجنديان في ثياب الميدان ، فأجربة وعمرات رباطها مثبت عند الذقن ، الأمر الذي جعل وجوههم الأليفة تبدو مختلفة كل الاختلاف .

اقترب العريف من الباب ليغلقه تبعاً لأمر السلطات اذ كان يجب تفقد السجناء قبل الرحيل .

شرع بيير يقول :

– ايها العريف ، ماذا سيعملون بالمريض ؟

لكنه وهو يقول ذلك ، تساءل مع من يتحدث ، وهل يتحدث مع العريف الذي يعرفه أو مع مجهول لشدة ماطرأ على وجه هذا الرجل من تبدل وبنفس الوقت ، دوى قرع طبول من الجانبين معاً فقطب العريف حاجبيه لدى سماعه اقوال بيير وصفق باب المبنى وهو ينطق بسبة غير مفهومة ، فغرق

كل شيء في الداخل في نصف ظلام وراح قرع الطبول المنبعث من اليمين واليسار يخنق أنات المريض .

حدث بيير نفسه وقد مرت في فقرات ظهره رعشة غير ارادية : « هاهو ذا انه يبدأ من جديد ! » ففي وجه العريف غير المعروف وفي رنة صوته وقرع الطبول المحفز المصم للآذان لمس بيير تلك القوة الخفية التي لاتقهر ، التي تدفع الانسان الى قتل أمثاله من بني الانسان ، تلك القوة التي رآها ناشطة يوم اعدام مشعلي الحرائق . وكان الخوف من تلك القوة اومحاولة الفرار منها او التوجه بابتهالات أو بنصح الى الذين يستعملونها ادوات لهم ، لايجدي فتيلا . لقد كان بيير يعرف هذا الآن . كان يجب الانتظار والصبر فلم يعد بيير الى حيث كان المريض ولم يعد ينظر اليه . ووقف قرب باب المبنى صامتاً مقطب الحاجبين .

وعندما فتح الباب وراح السجناء يتدافعون بعضاً في اثر بعض كقطع من الخراف ، شق بيير لنفسه طريقاً بينهم واقترب من ذلك الرئيس بالذات الذي كان مستعداً — على حد قول العريف — ان يعمل كل شيء من اجله . لقد كان ذلك الرئيس ايضاً وهو في ثياب الميدان ، متخذاً سيماء الجمود وقد بدا عليه « ذاك » الذي لمسه بيير في اقوال العريف وفي جلبة قرع الطبول :

اخذ الرئيس يكرر وهو مقطب الحاجبين بصرامة ينظر الى جمهور السجناء يمر امامه :

— اجروا ، اجروا .

وكان بيير يعرف ان تصرفه سيكون عقيما . مع ذلك فقد تقدم . فقال له الضابط وفي عينيه نظرة باردة وكأنه لايعرفه :

— حسناً ، ماذا هناك ؟

فشرح بيير حالة المريض .

هتف الرئيس :

– سوف يستطيع السير ، ياللشيطان !

ثم اردف دون ان يلقي بالاً الى بيير :

– اجروا ، اجروا .

رد بيير :

– ولكن لا ، انه في النزع . . .

فزمجر الرئيس وقد ازداد حاجباه تقطيباً كما لم يحدث قط من قبل :

– هل تريد ان . . .

ودوت الطبول – بلان ، بلان ، راتابلان ، ففهم بيير ان القوة الخفيه قد سيطرت على كل هؤلاء الرجال وانه لاجدوى الآن من التحدث في أي شيء كان .

فرز الضباط السجناء عن الجنود البسيطين وصدر اليهم الأمر بالسير في المقدمة . كانوا قرابة ثلاثين ضابطاً بما فيهم بيير والجنود حوالي الثلاثمائه .

كان الضباط الاسرى القادمون من ابنية اخرى ،غرباء كلهم عن بيير . ولما كانوا جميعاً افضل منه لباساً ، فقد راحوا يقيسونه بانظارهم ويحدقون الى حذائه بتحفظ عدائي . وعلى مقربة منه ، كان « ماجور » ضخم يسير وقد بدا عليه انه ينعم بالتقدير العام . كان يرتدي معطفاً منزلياً من صنع كازان ويتمنطق بنشفة ووجهه منتفخ صفراوي حقود . وكان يمسك باحدى يديه ابطه بجراب التبغ وبالاخرى يتوكأ على غليونه التركي الطويل . وكان ذلك الماجور الذي ينفخ كالثور ، لايفتأ يزمجر ويثور ضد كل الناس بحجة انهم يدفعون وانهم يمشون بسرعة كبيرة في حين ليس هناك داع للسرعة أو أنهم يدهشون عندمالا يدعو شيء الى الدهشة . وكان ضابط آخر ، قصير نحيل ، يناشد كل واحد

ليعلم الجهة التي يمكن ان يتجهون اليها والمكان الذي سيكون نهاية مرحلة اليوم وكان موظف ينتعل احذية عالية من اللبد ويرتدي زي الاعاشة ، يهرج من جانب الى آخر ليتأمل اضرار حريق موسكو وهو يدلي بملاحظاته بصوت مرتفع عما احترق وعما تبقى من هذا أو ذاك من الأحياء . وضابط ثالث من اصل بولوني تبعاً للكنته ،كان يتنافس مع ذلك الموظف ليبرهن له على انه يخطىء في التعرف على الاحياء

غمغم الماجور بلهجة جافة :

ــ ما فائدة النقاش ؟ سان نيكولا او سان بليز ، هذا سيان وانتم تعرفون ذلك لان كل شيء قد احترق وانتهى الامر .. ماذا بكم تندفعون بهذا الشكل اليس عرض الطريق كافياً ؟

ولقد هتف بهذه الملاحظة عالياً وهو يلتفت غاضباً نحو الذي كان يمشي وراءه والذي لم يدفعه قط .

ومن جانب تارة ومن آخر تارة اخرى ، كان السجناء يهتفون لدى رؤية الانقاض :

ــ اوه ، اوه ! اوه ، اوه ؟ ماذا عملوا ! زاموسكفوريتشية ،وزوبوفو ، وفي الكرملن . . انظروا ، لم يبق منها النصف . نعم ، لقد قلت لك من قبل ان كل زاموسكفوريتشية ستلقى هذا المصير وها هي ذي ، لقد احترقت !

غمغم الماجور :

ــ حسناً ، طالما تعرفون ان كل شيء قد احترق ، فأية فائدة من استمرار الحديث عنه ؟

ولما اجتازوا خاموفنيكي ، (وهو احد الاحياء النادرة التي ظلت سالمة) ، امام الكنيسة ، تكتلت جمهرة السجناء كلها في جانب واحد وانطلقت الهتافات المشبعة بالهول والاشمئزاز من أفواههم .

آه ! ياللحقيرين ! انهم ليسوا مسيحيين . نعم ، هذا ميت ، ان هذا ميت هنا . . لقد لطخوا وجهه بشيء ما .

حمل بيير نفسه هو الآخر نحو الكنيسة حيث كان يوجد ذلك الذي أحدث كل هذه المنافات ، فشاهد بغموض شكلاً مسنداً الى الحاجز . ولقد علم من زملائه الذين كانوا يرون افضل منه ان ذلك الشكل هو جثة رجل نصبت واقفة على الحاجز وقد طلي الوجه كله بالسخام .

أخذ الحراس المواكبون يزجرون وقداستبدت بهم غضبة جديدة فراحوا يطردون جمهور السجناء الذين كانوا يتأملون الجثة ، مستعملين عرض سيوفهم :

ـ سيروا ، اللعنة . . ، اجروا . . يا لثلاثين الف شيطان . .

* * *

الفصل الرابع عشر

المرحلة الاولى

اجتاز السجناء ازقة خاموفنيكي مع حراسهم والعربات والعجال التي تتبعهم دون ان يصادفوا احداً. لكنهم عندما بلغوا على مقربة من مخازن المؤن، وقعوا وسط رتل كبير من المدفعية كان يتقدم بصعوبة وقد تخللت صفوفه عربات خاصة.

ولما بلغوا الجسر، اضطروا ان ينتظروا ريثما يجتازه اولئك الذين كانوا في المقدمة. ومن على ذلك الجسر، استطاع السجناء ان يروا امامهم ووراءهم ارتالاً لا تنتهي من القوافل الاخرى السائره. وعلى اليمين، قرب نيسكوتشني حيث طريق كالوجا ينحرف ويضيع في الابعاد، امتدت القطعات والقوافل الى ما لا نهاية. كان ذلك هو «جمهرة» جيش بورهانيه[1] الذي كان اول من خرج من موسكو. والى الوراء، على طول الرصيف وعبر جسر بيير، أخذت جمهرة جيش الماريشال ني وعرباته تتقدم.

مرت جمهرة جيش داڤو التي يتبعها السجناء من مخاضة القرم وولج قسم منها

---

(١) اوجين دوبوهارنية، ابن الفيكونت الكسندر دوبورهانية وجوزيفين، ابن زوجة نابوليون الاول ونائب ملك ايطاليا ولد في باريز عام ١٧٨١ وتوفي عام ١٨٢٤.

شارع كالوجا . بيد انه كان هناك عدد كبير من العربات حتى ان عجال بوهارنية التي مرت عن طريق شارع كالوجا ، لم تكن قد خرجت من موسكو بعـــد عندما وصلت مقدمة قطعات « ني » اوردنكا الكبرى .

وبعد ان عبر السجناء مخاضة القرم ، ساروا بضع خطوات ثم توقفوا ثم عادوا الى السير ، بينما أصبحت العربات من كل صوب متراصة والرجال باتوا يتزاحمون . ولقد استمروا قرابة ساعة في قطع ما يقرب من المائة خطوة التي يفصل الجسر عن شارع كالوجا . وعندما وصلوا الساحة التي يتحـد فيها طريقاً زاموسكفو ريتيشيه وكالجوجا ، اضطر السجناء ان يتوقفوا من جديد وان يحشروا حشراً وينتظروا ساعات طويلة في تلك المفارق . ومن كل مكان ، كانت تنبعث جلبة متواصلة شبيهة بهدير البحر ، بين صرير عربات وضربات اقدام وصرخات غضب وسباب . ولقد راح بيير يصغي الى هذه الجلبة التي كانت تختلط في خياله بقرع الطبول وهو واقف ملتصق بجدار منزل محترق .

ولقد تسور بعض الضباط الاسرى جدران البيت المحترق الذي استند بيير اليه لتتاح لهم فرصة امعان النظر . اخذوا يتحدثون :

— يا للجمع الغفير ، ياللجمع الغفير ! . . ولكم كدسوا حتى فوق مدافعهم ! انظروا الى هذا الفرو . آه ! ياللسفلة ، كم سرقوا من اشياء . . انظروا الى هذا ، الى الوراء ، في عربته . . وهذا ! . . ان هذه الاشياء ولاريب مسلوبة من ايقونة مقدسة ! انهم الالمانيون بلا ريب ! . . وقروينا ، أين مضى ؟ آه ! للقذرين وهذا ، ان لديه حملاً ثقيلاً جداً حتى انه لايستطيع ان يتقدم . . مع عرباتهم . . وهؤلاء الذين يعتلون الصناديق ! آه ! مولانا الرب ! . . لكن هذا جد ، انهم يتضاربون ! ايه ، هيا اذن ، اضرب وجهه ! على الوجه ، اقول لك . . اما نحن فاننا سنمكث هنا حتى حلول المساء . خذ ، خذ ! . . وهذا ، هـذا لاريب

لنابوليون . هن ، ياللجياد ! بشمار وتاج ! . . وهذه ، انها ضيجة قابلة للانطواء وهذا الذي يدع الرزم تسقط دوون ان يلاحظها ! . . وايضاً أشخاص يتضاربون وهذه المرأة مع طفلها ، انها ليست دمية لعمري ! نعم يا صغيرتي ، سيدعونك تمرين على الفور ! . . انظروا ، ان هذا لن ينتهي أبداً . . فتيات روسيات ، لعمري ، فتيات ، يجلس مستريحات في عربة خفيفة ، « كان ! »

القت موجة جديدة من الفضول العام بالسجناء الى جانب الطريق كما حدث لهم قرب الكنيسة في خاموفنيكي ، فاستطاع بيير بفضل قامته المديدة التي تسمح له بالرؤية من فوق رؤوس رفاقه ، ان يرى ما كان يجذب انتباههم . كانت نساء متبرجات في ثياب زاهية الالوان يطلقن صرخات ثاقبة ، يخطرن مكومات بعضهن فوق بعض في ثلاث عربات ركوب بين صناديق المدفعية .

منذ اللحظة التي شاهد بيير تلك القوة الغامضة تظهر ، لم يعد هناك شيء يبدو له اكثر غرابة ، لا الجثة الملطخة بالسخام استهزاء ، ولا هؤلاء النسوة اللاتي يسرعن الى حيث لا يعلم احد ولا خرائب موسكو . لم يعد شيء مما يراه الآن يحدث في نفسه اثراً حتى ليقال ان روحه كانت تستعد لمعركة رهيبة وترفض أي انفعال قادر على اضعافها .

مرت قافلة النساء . ثم عاد رتل العربات والجنود والعجلات ، ثم جنود من جديد وصناديق وجنود ، وهنا وهناك بعض النساء .

اما بيير ، فانه بدلاً من الاشخاص أنفسهم ، كان يرى مجموع حركتهم فحسب .

كل هؤلاء الناس والجياد ، بدوا كأن قوة غير مرئية تطردهم . كانوا جميعاً خلال تلك الساعة التي رآهم بيير فيها يفدون من كل صوب ، تحركهم رغبة واحدة بعينها : المرور بأسرع ما يمكن ، فكانوا جميعاً يتساوون بالتدافع بالمناكب والاحتداد والاشتباك بالأيدي : لقد كانت الاسنان البيضاء على أهبة

العودة الى القصر

العص ، والحواجب تقطب ، والسباب بعينها دائماً تدوي ، وكل وجه يحمل التعبير اياه بالحزم المكين والبرودة الشرسة الذين أدهشا بيير ذلك الصباح أيما دهشة على وجه العريف عند وقوع الطبول .

ساروا بسرعة فائقة دون توقف أبداً ولم يتوقفوا الى عند مغيب الشمس وحينئذ ، صفت العربات ، الواحدة وراء الاخرى ، واستعد الرجال لليل .
كانوا جميعاً على حالة من الكآبة معتكري المزاج . ولقد تناهت من كل جانب السباب والهتافات الساخطة والمشاجرات وقتاً طويلاً . لقد ارتطمت عربة كبيرة كانت تتبع القافلة بعجلة نقل فحطمتها بجرها . وهرع بعض الجنود ، فراح بعضهم يضرب رأس الخيول المقطورة الى العربة ليجعلها تتراجع واخذ البعض الآخر بتلابيب بعض ، فشاهد بيير جندياً المانياً يصاب بجرح خطير في رأسه بضربه سيف .

الآن وقد توقفوا وسط السهل ، في رخاء غسق خريفي ، بدا هؤلاء الناس كلهم كأنهم يتحسسون بشعور اليقظة الأليم نفسه بعد تلك اللهفة التي أظهروها في الرحيل والتدافع بالمناكب الذي نجم عنه . لقد بدوا جميعاً ، عندما اخلدوا الى الراحة ، يدركون انهم يجهلون الجهة التي يسيرون اليها وانهم في تلك الحركة سيتعرضون ولا ريب لمحن ومصاعب .

عامل الحراس السجناء خلال المرحلة معاملة أسوأ من التي سبقت ساعة الرحيل . ولقد وزعوا عليهم للمرة الاولى لحم خيل .

واعتباراً من الضباط وحتى آخر جندي من جنود الحراسة ، بدا كل منهم وكأنه يحس بعداء شخصي نحو السجناء ، عداء حل فجأة محل روابط الصداقة السالفة .
ولقد تعاظم ذلك العداء في فترة التفقد ، عندما تبينوا ان جندياً روسياً فر في غمار المهرج الذي عم عند الرحيل ، محتجاً بألم في بطنه . ولقد شاهد بيير

فرنسياً يضرب جندياً روسياً حاد على الطريق وسمع صديقه الرئيس يعنف صف ضابط بصدد الجندي الروسي الفار ويهدده بالمجلس الحربي . ولما ردصف الضابط ان الجندي كان مريضاً لم يستطع مواصلة السير ، اجاب الضابط بان الامر كان قد صدر باطلاق الرصاص على المتأخرين شعر بيير بأن تلك القوة المشؤومة التي اجتاحته ابان اعدام مشعلي الحرائق ، والتي لم تظهر نفسها طيلة فترة اسره ، قد عادت الى الاستيلاء على شخصه . لكنه شعر كذلك بأنه بقدر ما كانت تلك القوة المشؤومة تنوء عليه بشدة بغية سحقه ، كانت قوة اخرى حيوية ، مستقلة عن الاخرى ، تنمو في روحه .

أكل بيير من حساء طحين الشيلم مع قطعة من لحم الحصان ثم راح يتحدث مع رفاقه .

لم يتحدث هو ولا واحد من الآخرين بكلمة واحدة عما رأوا في موسكو . لم يتحدث احد عن غلظة الفرنسيين ولا عن الامر باطلاق النار على المتخلفين والفارين الذي بلغوه الى السجناء : لقد تظاهروا جميعهم بالنشاط والفرح وكأنهم يحتجون على تفاقم حالتهم . تحدثوا عن ذكرياتهم الشخصية وعن المشاهد المضحكة التي وقعت ابصارهم عليها خلال المسير وتحاشوا التلميح الى موقفهم الحاضر .

كانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل والنجوم اللامعة قد اخذت تضيء هنا وهناك في قبة السماء ، وضوء القمر البدر الذي كان يشرق ، أحمر كلهب حريق ، ينفسح على حافة الافق ، فكانت رؤية الكرة الحمراء الضخمة تأخذ بمجامع القلوب . وكان الوقت لايزال مضيئاً . لقد بلغ المساء نهايته ، لكن الليل لم يكن قد اسدل ستره بعد تماماً . نهض بيير وغادر رفاقه الجدد ثم حاول المسير خلال نيران المعسكر ، الى الجانب الآخر من الطريق ، حيث قيل له ان الجنود الاسرى يقيمون ، كان يريد ان يتحدث

معهم ، فاستوقفه حارس فرنسي على الطريق وجعله ينكص على أعقابه .

عاد بيير على اثاره ولكن ليس باتجاه نيران زملائه لقد ذهب نحو عربة فصلت جيادها ، كان الى جانبها شخص ما . وهناك أقعى واطرق برأسه واستند الى العجلات مستريحاً على الارض الباردة وظل فترة طويلة ساكناً يفكر . ومدت عليه اكثر من ساعة على ذلك النحو فلم يزعجه احد . وفجأة انفجر مقهقهاً بضحكته المدوية بجلبة شديدة حتى ان الرجال التفتوا نحوه من كل الجهات ليروا سبب انبثاق ذلك المرح الغريب المنفرد

اخذ بيير يضحك ويقول بصوت مرتفع :

ـ ها ! ها ! ها ! لم يدعني الجندي أمر لقد قبضوا علي وسجنوني ولا زالو يبقونني في الاسر . ولكن من أنا ؟ انا ؟ روحي الخالدة ؟ ها ! ها ! ها !

ولقد كان يضحك بقوة حتى ان الدموع ملأت عينيه .

نهض احدهم واتجه نحوه ليرى من أي شيء يضحك هذا العملاق المتين الغريب . لكن بيير هدأ ونهض ثم ابتعد عن الفضولي وهو يلتفت حوله

كان المعسكر الكبير الذي يمتد على مرمى البصر والذى كان يعج بادىء الأمر باحتدام النيران والاحاديث قد هدأ والنيران الحمراء تنطفيء وتشحب وبات البدر الآن مرتفعاً في كبد السماء المنيرة ولقد كشفت الغابات والمروج التي ظلت حتى ذلك الحين غير مرئية خارج حدود المعسكر ، الستر عن نفسها ومن وراء تلك الغابات والحقول ، اخذ البعد اللامتناهى المضيء يخفق ويدعو المرء اليه رفع بيير عينيه نحو السماء ، نحو الاعماق التي تلمع فيها النجوم السائرة وفكرة : « كل هذا لى ، كل هذا فيّ ، كل هذا هو انا . وكل هذا هو ما اخذوه وحبسوه في مبنى تحيط به الواح الخشب ! » ابتسم ومضى يتمدد قرب رفاقه

الفصل الخامس عشر

دوختوروف المغمور

خلال الأيام الاولى من شهر تشرين الاول ، حمل وسيط مـــرة اخرى الى كوتوزوف رسالة من نابوليون تحمـل شروط الصلح ، مؤرخة خطأ مـن موسكو ، طالما أن نابوليون كان حينذاك على طريق كالوجا القديمه . قريباً جداً من الجيش الروسي وأمامه . فأجاب كوتوزوف على هـذه الرسالة ايضاً الجواب نفسه الذي رد به على الرسول لوريستون : أعلن انه لايمكن ان يكون المجال مجال صلح .

وبعد وقت قصير أخبرت كتيبة الانصار العاملة تحت امرة دور وخوف الى يسار تار وتينو ، انهم شاهـدوا قطعات عـدوة في فومينسكوييه ، وانها مؤلفه من فوج بروسيية ، وانها منفصلة عن بقية الجيش يسهل افناؤها . فراح الجنود والضباط يطالبون بالهجوم من جديد . وألح جنرالات اركان حرب الذين شجعتهم ذكرى نصر تاروتينو السهل ، على كوتوزوف ليحملوه على اقرار فكرة دورو خوف . ولم يكن كوتوزوف يرى من الضروري الهجوم .لذلك اتخذوا الحل الوسط ، الحـل الذي يجب ان يتحقق ، فأرسلوا كتيبة صغيرة الى فومينسكوينه مزودة بأمر مهاجمة بروسييه .

وبصدفة غريبة ، انيطت هذه المهمة، وهي من اكثر المهام صعوبة وخطورة كما ثبت فيما بعد ، بدوختوروف ، دوختوروف القصير المتواضع ذاك نفسه ، الذي لم يصفه لنا أحد قط بانه واضع خطط حربية ، مندفعاً على رأس افواجه موزعاً الاوسمة ملء راحتيه في « بطاريات » المدفعية ، الى آخر ماهنالك ، دوختوروف ذاك نفسه الذي كان يبـــدو متردداً محروماً من الفطنة والذي نجده مع ذلك خلال كل الحروب مع الفرنسيين ، ابتداء من اوسترليتز وحتى عام ١٨١٣ ، في المكان الاول حيثما الموقف خطير . ففي اوسترليتز ظل آخر من صمد عند سد او جر ، يجمع الفيالق وينقذ مايمكن انقاذه ، في حين كان الجميع بين فار وقتيل ، ولم يبق جنرال واحد في المؤخرة . وهو الذي في سمولنسك ، رغم نوبات الحمى العنيفة التي انتابته ، جرى مع عشرين الف رجل ليدافع عن المدينة ضد جيوش نابليون . لقد ايقظه المدفع في سمولنسك عندما لم يكن قد اغفى بعد قرب باب مالاخوس ، تائهـــاً في هذيان الحمى ، وبفضله صمدت سمولنسك يوماً كاملا . وفي بورودينو ، عندما قتل باجراسيون ، وفقد جناحنا الايسر تسعة جنود على كل عشرة ، وكانت مدفعية العدو الجبارة كلها مسددة اليه ، ارسلوا على وجه الدقة ، دوختوروف هذا المتردد المحروم من الفطنة ، وبادر كوتوزوف الى اصلاح الخطأ الذي كاد يقترفه بتعيين ضابط آخر لذلك المركز . وبفضل القصير المتواضع دوختوروف ، أصبحت بورودينو احدى أمجاد الجيش الروسي . مع ذلك ، لقد وصفوا لنا نثراً وشعراً عـــدداً كبيراً من الابطال ، لكنهم لم يتحدثوا الينا قط عن دوختوروف .

واذن ، لقد أرسل دوختوروف ايضاً الى فومينسكوييه ومن هنـا الى مالوايارو زلافيتز ، حيث دارت آخر معركة مع الفرنسيين ، وهو المكان الذي بدأت فيه نهايتهم منذ ذلك الحين وبشكل لاريب فيه . مع ذلك ، فانهم

يصفون لنا من جـــديد ابطالاً كثيرين وعباقرة جلال هذه الحقبة مـن الحملة دون ان يشار الى دوختوروف ، الا مـر ببضع كلمات مبهمة جـداً . بيد ان الصمت الذي يظهرون به حيال هذا الرجل ، يبرهن لنا على مؤهلاته بافاضة ان من الطبيعي ان يتصور رجل لايعرف شيئـاً عن حركة آلة مـاء وهو يراها تقف عن الدوران ، ان الجزء الاكثر اهمية فيها هو العصافة التي سقطت صدفة بداخلها فجعلتها تصر وتقف . ولايستطيع ان يـدرك ، دون ان يحيط علما بتكوين الآلة ، ان الاداة الجوهرية ليست العصافة التي تعيق حركتها بـل المسنن الصغير الموصل الذي يدور دون جلبة .

في العاشر من تشرين الاول ،وهو اليوم نفسه الذي قطع فيه دوختوروف نصف الطريق الى فو مينسكويين ، وأمر باستراحة في قرية اريستوفو وهـو على استعداد للقيام بالمهمة التي اوكلت اليه بكل دقة ، بلغ الجيش الفرنسي كله في حركته التشنجيه مواقـع مورا تحت احتمال الاشتباك في معركة هناك ، ثم دون أي سبب ظاهر رسم فجأة نصف دائرة الى اليمين وسار على طريق كالوجا الجديد ودخل قريه فو مينسكوبيه ، حيث لم يكن فيها اول الامر ، الا فيلق بروسيبه وحده . ولم يكن تحت امرة دوختوروف في ذلك الحين باستثناء دوروخوف ، الاكتيبتي فينجر وسيسلافين الصغيرين .

وفي مساء ١١ تشرين الاول ، قاد سيسلافين الى اريستوفو، مركز القياده جنديا فرنسياً من الحرس سقط اسيراًابين يديه . أكد ذلك الرجل ان القطعات التي وصلت ذلك اليوم الى فومينسكوييه تشكل مقدمـة الجيش الكبير وان نابوليون موجود معها وان ذلك الجيش قد غادر موسكو منذ خمسة ايام . وفي الامسية ذاتها ، اعلن خادم لملوك وصل من بوروفسك ، انه شاهد جيشاًعرمرماً يدخل تلك المدينة . وحمل قوقازيو دوروخوف من جانبهم ان الحرس الفرنسي

يسير على بروفسك . فكان واضحاً ، تبعاً لهذه المعلومات الأخيرة ، انه حيث كانوا يقدرون وجود فيلق واحد ، اصبح الجيش الفرنسي الخارج من موسكو كله موجوداً فيه ، متجهاً اتجاهاً غير منتظر ، طريق كولوجا القديم ،ولم يكن دوختوروف تواقا الى الدخول في الحركة لأن واجبه الحالي لم يعد واضحاً جلياً امام عينيه . لقد أصدر اليه الأمر بالهجوم في فومينسكويين . لكنه لم يكن في فومينسكوييه من قبل الا بروسييه بينما اصبح الجيش الفرنسي كله فيها الان وكان ايرمولوف يريد ان يتصرف على هواه . لكن دوختوروف أصر على ضرورة حصوله على امر من القائد الأعلى فقرروا ارسال تقرير الى الاركان .

انتخبوا لذلك ضابطاً ذكياً ، بولخوفيتينوف الذي كان عليه ان يقدم علاوة على التقرير الخطي تفصيلات شفهية عن المسألة . وعند منتصف الليل ، ذهب بولخوفيتينوف مزوداً بتقريره المختوم وباوامره الشفهية ، يحث جواده بأقصى سرعته ، يصحبه قوقازي يقود جياد البدل .

* * *

الفصل السادس عشر

الرسول وكونوفنيتسين

كانت الليلة الخريفية حالكة والمطر الخفيف يهطل منذ اربعة ايام. بلغ بولخوفيتينوف ليتاشوفكا حوالي الساعة الثانية صباحاً بعد ان ابدل جواده مرتين وقطع ثلاثين فرسخاً في ساعة ونصف الساعه عبر طريق لزج من الوحل. ترجل عن جواده امام كوخ خشبي يحمل لافتة « اركان حرب » ودخل الدهليز المعتم.

قال لأحدهم وقد انتصب مترجفاً امامه في عتمة الدهليز:

– بسرعة، الجنرال المنوب! عاجل جداً!

دمدم صوت الحاجب وهو يحمي راحة سيده:

– انه منحرف المزاج كثيراً منذ امس مساء وهذه هي الليلة الثالثة التي لم يغمض له فيها جفن. من الافضل ان اوقظ الرئيس اولا.

فألح بولخوفيتينوف وهو يعبر باباً مفتوحاً متحسساً:

– انها مسألة مستعجلة جداً من جانب الجنراف دوختوروف.

دخل الحاجب اولا وراح يعمل على ايقاظ احدهم

– نبالتكم! نبالتكم! رسول!

هتف صوت يثقله النوم :

— ماذا ؟ ماذا ؟ من جانب من ؟

قال بولخوفيتينوف وهو عاجز عن تمييز الشخص الذي يستجوبه في الظلام، ولكنه عرف من صوته انه ليس كونوفنيتسين :

— من جانب دوختوروف والكسي بيتروفيتش . ان نابليون في فومينسكويه .

اخذ الرجل الذي استيقظ يتثاءب ويتمطى . قال وهو يحرك شيئاً ما :

— ليست بي رغبة الى مناداته . انه مريض جداً . ولعل هذه اشاعات خاطئة !

فرد بولخوفيتينوف :

— هذا هو التقرير . لدي الأمر بتسليمه فوراً الى الجنرال المنوب .

— انتظر حتى أوقد شمعة .

ثم صرخ الرجل الذي كان يتمطى وهو يخاطب التابع :

— ايها تحشرها دائماً ايها الأثيم ؟ (وكان هذا هو شتشربينين ، المساعد العسكري لكونوفنيتسن) آه ! ها هي ذي ، ها هي ذي !

قدح التابع الزناد بينما راح الضابط يبحث تحسساً عن الشمعدان . قال باحتقار :

— آه ! يا للقذرين .

لمح بولخوفيتينوف على ضوء الشرر المتطاير وجه شتشيربينين الفتي الذي وجد الشمعدان وشاهد أمامه ، في زاوية الحجرة رجلاً نائماً كان هو كونوفنيتسن .

وعندما انقلب اللهب على أطراف الأعواد المطلية بالكبريت من الأزرق الى الأحمر عند ملامسته الصوفان ، اضاء شتشيربينين قنديلاً ، الأمر الذي جعل الدويبات التي كانت تقضم الشحم تتراجع هاربة ، ثم أخذ يفحص الرسول . كان بولخوفيتينوف مغطى كله بالوحل ولما أراد ان يمسح وجهه بكمه ، لطخه كله .

سأل شتشيربينين وهو يأخذ الغلاف :

— من الذي أعطى هذه المعلومات ؟

فأجاب بولخوفيتينوف :

— ان المعلومات صحيحة . فالأسرى والقوقازيون والجواسيس متفقون جميعهم على صحتها .

قال شتشيربينين وهو ينهض ويقترب من الرجل النائم المتقلنس بقلنسوة من القطن المتدثر بمعطفه :

— اذن ، لامناص ، يجب ايقاظه .

هتف :

— بيوتر بيتروفيتش ! - فلم يتحرك كونوفنيتش ، فأضاف الضابط وهو يبتسم وكأنه واثق من قدرة ما يقوله على ايقاظة — : الى الاركان العامه !

وفي الواقع ان الرأس ذو القلنسوة القطنية لم يلبث ان ارتفع وظل وجه كونوفنيستين الجميل النشيط ذو الوجنتين اللتين تلهبها الحمى ،محتفظاً حيناً بانعكاس الاحلام المبعدة جداً حول الموقف الحاضر . لكنه بانتفاضه مفاجئة ، سرعان ما استعاد سماته المألوفة الهادئة الحازمة .

لم يلبث ان سأل وهو يطرف عينيه للضوء ، دون ان يكون في لهجته شيء من التلهف :

— ما الخبر ؟ من جانب من !

فض كونوفينتسين الرسالة وأخذ يقرأها وهو يصغي الى تقرير الضابط . ولم يكد يفرغ من القراءة حتى وضع على الارض المسواة قدميه المحجوبتين في جوارب من الصوف وشرع ينتعل حذاءيه العاليين . ثم تخلص من قلنسوته القطنية وسوى شعره على صدغيه ثم وضع عمرته .

– هل جئت سريعاً ؟ هيا بنا الى القائد العام .

ادرك كونوفنيتسين على الفور ان المعلومات المحمولة اليه ذات أهمية كلية وانه لايجب اضاعة الوقت. هل كان ذلك خيراً ام كان شراً ؟ لم يفكر في ذلك بل ولم يطرح السؤال على نفسه . كانت امور الحرب تبدو له غير تابعة للذكاء ولا للعقل ، بل لشيء آخر . وكان يؤمن في أعماق نفسه ايماناً خفياً بان كل شيء سيسير على ما يرام لكنه لايجب تصديقه كما يجب – أقل من ذلك – عدم التحدث عنه وان الواجب يقتضي بكل بساطة انجاز ما يعرض من الامور. فكان يعمل ما يجب عليه عمله ، صارفاً فيه كل قواه .

يبدو ان بيوتر بيتروفيتش كونوفنيتسين مثل دوختوروف ، لم يأت الا اتفاقاً على قائمة أسماء من يدعونهم ابطال ١٨١٢ أمثال باركلي ، رايفسكي ، ايرمولوف . بلاتوف ، وميلوداروفيتش . انه مثل دوختوروف ، اشتهر بأنه رجل محدود الامكانيات والمعلومات وانه مثل دوختوروف ، لم يضع قط خطة معركة رغم وجوده دائماً في الأمكنة الأكثر خطورة . أخذ منذ اللحظة التي رقي فيها الى رتبة جنرال في الاحتياط، ينام دائماً وبابه مفتوح ، يأمر بايقاظه عند وصول كل بريد. ولقد كان دائماً تحت النار طيلة المعركة ، فكان كوتوزوف يلومه على ذلك ويخشى ان يرسله في مهمة . كان مثل دوختوروف ، احدى العجلات المسننة التي لايلحظها المرء والتي تتألف منها الأجزاء الرئيسية للآلة دون ضجة ولا صرير .

ولما خرج من الكوخ الى الليل الحالك الرطيب ، قطب كونوفنيتسين حاجبيه بسبب ألم رأسه الذي كان في ازدياد كما بسبب الفكرة المنغرة التي طرأت على رأسه من ان كتلة الاشخاص ذوي النفوذ في الاركان ستصبح في غليان

لدى اطلاعها على الانباء فكان يخشى بينيجسون بصورة خاصة الذي كان منذ معركة تاروتينو على عداوة مع كوتوزوف سوف يقدمون العروض ويناقشون ويصدرون الاوامر ويلقون قرارات ! فكان ما يراه يزعجه سلفاً رغم علمه بأنه لابد وان يكون كذلك .

والواقع ان تول الذي دخل اليه يعلن النبأ ، أخذ يعرض آراءه على الجنرال الذي يقطن معه فاضطر كونوفنيتش الذي كان يصغي اليه دون ان ينبس ببنت شفة ان يذكره بوجوب الذهاب عند عظيم الرفعة .

الفَصْلُ السَّابعُ عَشَرْ

في حضرة كوتوزوف

كان كوتوزوف ، ككل الاشخاص المسنين ، قليل النوم ليلا ، يغفو غالباً في النهار ، لكنه يقضي الليل ممدداً في سريره دون ان ينزع ثيابه ، وهو في أغلب الاحيان مشغول في التفكير بدلاً من النوم .

كان على تلك الصورة في تلك اللحظة ، مستلقياً فوق سريره ورأسه الضخم الثقيل الذي يحمل اثار جرح كبير ، مرتكز على يده المنتفخة ، مستغرقاً في خواطره وعينه الوحيدة محدقة في الظلام .

أصبح كوتوزوف اكثر هدوءاً منذ اخذ بينيجسن الذي كان يتصل مباشرة مع الامبراطور ويتمتع بأكبر نفوذ في الاركان العامة ، يتجنبه ، هدوءاً بمعنى ان ما من أحد بات يدفعه الى القاء جيوشه في معركة هجوم عقيمة . فكر بأن درس معركة تاروتينو واحداث الأمس التي كانت ذكراها اليمة الوقع على نفسه تنفعهم على كل حال .

راح كوتوزوف يحدث نفسه : « يجب ان يدركوا تماماً اننا سنخسر كل شيء اذا تحولنا الى الهجوم . ان الصبر والوقت ، هذان هما الشجاعان اللذان سيحاربان من اجلي ! » كان يعرف تماماً انه لايجب قطف تفاحة عندما تكون

لاتزال فجة . انها ستسقط من نفسها عندما تنضج . اما بانتزاع التفاحة الفجة ، فاننا نشوه الشجرة ولا تصلح الثمرة الا لاضراس الأسنان . وبوصفه صياداً خبيراً ، كان يعرف ان الحيوان جريح جرحاً لايقدر على مثله الا مجموعة القوات الروسية . وهل الاصابة قاتلة ام لا ، ذلك هو السؤال الذي ظل واجب الايضاح . لقد كان كوتوزوف الآن ، بعد تصرفات لوريستون وبتريتيبه وتقارير الانصار ، واثقاً من ان الجرح مميت . ولكن كان لايزال في حاجة الى البراهن وكان عليه ان ينتظر .

حدث نفسه قائلاً : « ليس بهم الا تلهف واحد ، ان يجروا لرؤية كيف قتل الحيوان . انتظروا ، وسترون تماماً ! أبداً « مناورات » وأبداً هجمات ! ولماذا ؟ بقصد اظهار الذات دائماً . وكأن في القتال شيئاً يحمل على البهجة ! انه أشبه بالاطفال الذين لا يمكن ان يطلق شيء على شيء لكثرة ما يستبد بهم السوق الى اظهار معرفتهم في القتال ، في حين ان الأمر الآن لاعلاقة له بكل هذا »

« ويالها من « مناورات » بارعة تلك التي يعرض هؤلاء الاشخاص على تطبيقها انهم يظنون انهم بمجرد التصبر في طارئين أو ثلاث حوادث عرضية ، تبصروا في كل شيء ، كل شيء . (وتذكر مخطط الحملة العام الذي ارسل من بيتر سبورج) لكن الحوادث العرضية اكثر من ان تحصى ! »

منذ اكثر من شهر ، ظل هذا السؤال معلقاً فوق رأس كوتوزوف : هل الجرح الذي أصيبوا به في بوروودينو قاتل أم لا ؟ ان الفرنسيين يحتلون موسكو وهذه واقعة ملموسة . مع ذلك فان كوتوزوف كان على ثقة مبعثها كل جارحة من جوارحه ، بأن الضربة التي وجهها بمجموع القوات الروسية يجب ان تكون قاتلة . ولما كان في حاجة ماسه الى البراهين ، وكان ينتظر منذ شهر طويل ، فقد اخذ ينفذه صبره أكثر فأكثر كلما مر وقت اطول . وطيلة لياليه البيضاء

اخذ يعمل وهو متمدد فوق سريره ، مثل ما يعمله جنرالاته الشبان ، الشيء بعينيه الذي يأخذه عليهم . كان مثلهم ، يتصور كل العرضيات الممكنة مع هذا الفارق : انه لم يكن يبني شيئاً على تلك الافتراضات وانه بدلاً من ان يرى افتراضين او ثلاثة افتراضات ، يرى الالوف . وكلما ازداد تفكيراً كلما ازداد عدد الافتراضات في خاطره . كان يتصور كل امكانيات حركة جيش نابوليون ، سواء كان مركزاً أو مقسماً الى جمهرات موجهة ضد بيترسبورج وضده هو للاحاطة به ، ويستعرض الافتراض الذي كان يخشاه اكثر ، وهو عودة نابوليون بكل قواته الى موسكو والبقاء فيها بانتظاره ، بل كان كذلك يفكر في حركة تقهقر من جانب جيش نابوليون على ميدين وإيوخنوف[1] . لكن الشيء الوحيد الذي لم يخمنه سلفاً كان ما وقع ، ذلك التنقل المخالف للصواب التشنجي لجيش نابوليون طيلة الاحدى عشر يوماً التي تلت اخلاءه لموسكو ، ذلك التنقل الذي جعل ممكناً ما لم يكن كوتوزوف يجرأ قط ان يتصوره حتى ذلك الحين : التدمير الكامل للجيش الفرنسي . فتقارير دوختوروف حول فوج بروسييه والانباء الجديدة التي حملها الانصار حول ضيقة الجيش الفرنسي والتفاصيل حول تجمع القطعات الخارجية من موسكو ، كل ذلك يؤيد نظريته ان الجيش الفرنسي قد تشتت وانه يعد العدة لتقهقره لكن هذه الاشياء كلها لم تكن الا فرضيات يمكن ان تبدو مهمة في عيون اشخاص اغرار وليس لكوتوزوف . كان يعرف بسنواته الستين التي قضاها في الخبرة ، أي وزن يجب اقطاعه للشائعات ويعرف مبلغ استعداد الاشخاص الراغبين في شيء ما ، لترتيب الحوادث حتى تؤيد رغباتهم ويعرف في مثل هذه الحالة ، كيف يدفعون الأشياء التي تنافي تلك

(١) جاء في النص الفرنسي ان ميدين في حكومة كالوجا وإيوخنوف في حكومة سمولنسك ، وهما على طريق كالوجا .

الرغبات . وعليه ، فان كوتوزوف كلما ازدادت رغبته في رؤية فرضية تتحقق ، كلما أمسك بالسماح لنفسه بالايمان بها . مع ذلك . فان المسألة كانت تحتكر كل مواهبه الفكرية ، اذا كان كل ماتبقى في نظره ، مجرد استرسال للحياة العادية وعلى هذا النحو كان يرى مناقشاته مع أركان حربه ، ورسائله الى السيدة دوستال[1] التي كتبها من تاروتينو ، وقراءة رواية ما وتوزيع المكافآت واتصاله ببيترسبورج الخ . لكن هزيمة الفرنسيين ، التي حدسها وحده ، كانت سره ورغبته الوحيدين .

واذن ، لقد كان ليلة ١١ تشرين الاول ممددا ورأسه مستند الى يده يفكر في ذلك .

ندت حركة في الحجرة المجاورة علت خطوات . كان القادمون هم تول وكونفنيتسين وبوخو فيتينوف . صاح بهم :

– هيه ! من هناك ؟ ادخلوا ، ادخلوا ! ماذا من جديد ؟

وبينما كان وصيف يضيء شمعة ، قدم تول جوهر الانباء ،

سأل كوتوزوف بوجه احدث تأثيراً كبيراً على تول عندما شاهد ما ارتسم عليه من صرامة باردة على ضوء الشمعة :

– من الذي حمل هذه الانباء ؟

– لايمكن ان يحوم حولها الشك ياصاحب السعادة .

– ائتني به ، ائتني به .

جلس كوتوزوف على سريره وقد تدلت ساقه وثنى الاخرى تحت بطنه

---

(١) مدام دوستال ، ابنة نيكر ، ولدت في باريز عام ١٧٦٦ وتوفيت عام ١٨١٧ اشتهرت بكتاباتها ، مؤلفة : دلفين ، وكورين وكتاب ألمانيا . نحاها نابوليون الاول بسبب ارائها .

الضخم المتهدل . رف بعينه السليمة ليتسنى له تأمل الرسول عـــلى نحو افضل وكأنه يريد ان يقرأ على قسماته ماكان يشغله .

قال لبوخوفيتينوف بصوت الكهل الهادىء وهـو يزر قميصه الذي انفتح على صدره :

ـ تكلم ، تكلم ياصديقي . اقترب ، ادن مني اكثر . اي نبأ تحمله الي ؟ هه ؟ لقد خرج نابوليون من موسكو ؟ هذا صحيح هذا ؟ هزه ؟

شرح بوخـوفيتينوف كل شيء بالتفصيل حسب تعليماتـــه فقاطعـــه كوتوزوف :

ـ تكلم ، ادخل في لب الموضوع بسرعة اكثر ، لاتدعني في لهفتي .

وبعد ان روى بوخوفيتينوف كل مالدية ، صمت وانتظار الاوامر . وحاول تول ان يتكلم ، لكن كوتوزوف قاطعه . هم بان يقول شيئاً ، لكن وجهه تقلص فجأة وتصعر ، فازاح تول بحركة من يده واشاح الى الجهة المعاكسة ، نحو الركن الافضل من الـكوخ ، الاكثر حلكة من الاركان الاخرى بسبب الصور المقدسه التي فيه . قال بصوت مرتعد وهو يضم يديه :

ـ مولانا ، ربي ياخالقي ، لقدسمعت صلاتنا . . . لقد انقذت روسيا اشكرك ياربي !

وانخرط في البكاء .

الفصل الثامن عشر

محاولتان

منذ اللحظة التي تلقى فيها هذه الانباء وحتى آخر الحملة ، انصرفت حيوية كوتوزوف كلها الى كبح جماح قطعاته سواء أكان ذلك بالسلطة او بالخدعة او بالرجاء ، ومنعهم عن القيام بهجمات و « مناورات » واصطدامات غير مجدية مع عدو هالك لامحالة . لقد اتجه دوختوروف نحو مالوياروسلافيتز ، لكن كوتوزوف لم يزد من سرعته مع جيشه بل اصدر الأمر باخلاء كالوجا لأن تراجعاً الى ما وراء المدينه بدا له ممكناً كل الامكان .

ظل كوتوزوف يتابع تقهقره في كل الجهات ، بينما العدو الذي لايتوقع ذلك ، يتراجع في اتجاه معاكس .

ان مؤرخي نابليون يصفون لنا « مناوراته » البارعه في تاروتينو ومالوياروسلافيتز ويستخلصون النتائج مما كان يمكن وقوعه لو ان نابليون وجد من الوقت مامكنه من دخول اقاليم الجنوب الغنيه .

لكن ما من شيء كان يمنع نابليون من الدخول الى تلك الاقاليم الغنية طالما ان الجيش الروسي فتح له الطريق اليها ، والمؤرخون ينسون ان جيش نابليون ما كان يمكن ان ينقذ بعد ذلك لأنه بات يحمل في نفسه بذور الموت

الذي لاراد له . كيف كان يمكن لذلك الجيش الذي وجد في موسكو موارد تموين غزيرة وطأها بالاقدام بدلا من ان يحافظ عليها ، والذي عرض الارزاق في سمولنسك للنهب والسلب بدلاً من توزيعها ، كيف يمكن لهذا الجيش ان يعد قواه بعد دخوله ولاية كالوجا ، حيث الشعب مؤلف من اولئك الروسيين انفسهم الذين في موسكو ، تثيرهم مثل مشاعرهم فيقدرون على احراق كل مايمكن حرقه ؟

ان هذا الجيش ماكان يستطيع ان يعيد بناء نفسه بعد بورودينو وسلب موسكو ، الشروط الكيميائية - اذا اصح هذا القول - لتحلله .

كان رجال هذا الجيش العظيم يفرون مع رؤسائهم دون ان يعرفوا الى اين وليست بهم من رغبة (من نابوليون وحتى آخر جندي) الا في شيء واحد : ان يعجل كل لحساب نفسه بأقصى مايمكن في الخروج من هذا المأزق الذي لا سبيل الى الخلاص منه والذي كانوا جميعهم يشعرون به بشيء من الابهام

. ولهذا السبب وحده ، بينما كان الجنرالات يزعمون الاجتماع في مجلس حربي في مالوياروسلافيتز ويقدمون الاراء المختلفة ، فاز الرأي الأخير الذي عبر عنه اكثر الجنود غباء ، موتون[1] الضخم ، اذ قال ما كانوا جميعاً يفكرون فيه : ذلك انه كان يجب المضي بأسرع ما يمكن ولقد اغلق هذاالقول الافواه كلها حتى ان ما من احد ، ولانابوليون نفسه ، وجد مايرد به على تلك الحقيقة المعترف بها من قبل الجميع .

لكن الجميع كانوا رغم معرفتهم الأكيدة بضرورة المضي ، يخجلون من

---

١ - جورج موتون ، كونت دولوبو ، جنرال فرنسي ولد في فالسبورج عام ١٧٧٠ وتوفي عام ١٨٣٨ امتاز في معركتي اوسترليتز وايينا وخصوصاً في ايسلنج رقاه لويس فيليب رتبة مارشال فرنسا .

الاعتراف بأنهم مرغمون على الفرار . ولم يكن يستطيع التغلب على ذلك الخجل الا الصدمة الخارجية . ووقعت تلك الصدمة في الوقت المناسب ، فكان ما أسماه الفرنسيون : « هورّا الامبراطور » .

في اليوم التالي لذلك المجلس الحربي ، خرج نابليون صباحاً باكراً بحجة تفقد القطعات وساحة معركة أمس ومعركة الغد ، وتقدم مع ماريشالاته وحاشيته بين صفوف القتال . وصدف التقاؤه بقوقازيين سلابين هاجموا الامبراطور وكادوا أن يأسروه ولقد أنقذ نابوليون بذلك الشيء بالذات الذي سبب ضياع الفرنسيين الرغبة في الاسلاب التي دفعت القوقازيين هنا كما في تاروتينو ، الى الالقاء بانفسهم على الغنائم واغفال الرجال ، فراحوا ينهبون دون ان يلقوا بالاً الى نابوليون واستطاع نابوليون الافلات .

ثم كاد « أبناء الدون » ان يأسروا الامبراطور وسط جيشه نفسه . اذ كان واضحاً بالنسبة الى الفرنسيين انه ليس عليهم من شيء آخر الا الفرار بأسرع ما يمكن وعلى أفضل الطرق المعروفة واقصرها . ولم يكن نابوليون بكرشه الكبير ذي الاربعين عاماً يشعر بمرونة العهد السابق وجرأته ، فاستوعب الانذار وفهمه لذلك فانه سرعان ما انحاز الى رأي موتون ، تحت تأثير الخوف الذي أحدثه القوقازيون في نفسه ، فأعطى الأمر – كما يقول المؤرخون – بالتقهقر عن طريق سمولنسك .

أن يكون نابوليون من رأي موتون وان يكون جيشه قد أخذ يتراجع لا يدلان على أنه أمر بالتقهقر ، بل يدل على أن القوى المتسلطة على ذلك الجيش لتدفعته على طريق موجائيسك ، تسلطت عليه هو الآخر بالمثل .

الفصل التاسع عشر

نحو النهاية

عندما يشرع رجل ما في الحركة ، يتصور دائماً انه انما يجري نحو هدف ما ولكي يقطع المرء حوالي الف فرسخ ، يجب الزاماً ان يفكر في أرض موعودة ليكون له القوة على التقدم .

كانت الأرض الموعودة عند الافرنسيين لدى غزوهم روسيا ، هي موسكو لكن الوطن كان بعيداً جداً والرجل الذي امامه الف فرسخ يقطعها ، يجب بلا ريب ان يحدث نفسه تاركاً جانباً الغاية النهائية ، انه سيجتاز اليوم أربعين فرسخاً ثم يستريح وينام ، فما ان يقطع المرحلة الاولى ، حتى يسلبه مكان الاستراحة الغاية النهائية ، ويركز كل رغباته وكل أمانيه . وهذه النزعات التي تعتلج في نفس شخص مفرد ، تتضاعف في أنفس جمهور محتشد .

بالنسبة الى الفرنسيين المتقهقرين على طريق سمولنسك القديم ، كان الوطن بعيداً جداً والغاية القريبة التي يهدف اليها هؤلاء الرجال المتجمهرين في كتل هائلة ويتوقون اليها من كل نفوسهم وكل أملهم ، هي سمولنسك . لم يكن ذلك لانهم كانوا يظنون ان سمولنك مليئة بالمؤن والقطعات المستريحة ، اذ لم يحدثهم احد قط بمثل ذلك بل على العكس ، كان أركان حرب نابوليون نفسه لايجهل ان المؤن قد باتت قليلة ، بل لأن ذلك يعطيهم الطاقة على التقدم فقط واحتمال

ضروب الحرمان الحالية ، فكانوا جميعاً ، الذين يعرفون كالذين لا يعرفون ، كلهم يخادعون أنفسهم بالاجماع ، ويندفعون نحو سمولنسك كما يندفعون نحو أرض موعودة .

ما ان بلغوا الطريق الكبرى ، حتى هرع الفرنسيون الى الهدف المنشود بنشاط خارق وسرعة قصوى . والى جانب ذلك الاندفاع الجماعي الذى يربط بين هذه الجماعة الكبيرة من الفرنسيين في كلّ كثيف ويضاعف حاصل نشاطهم كان سبب آخر يبقيهم معاً مرتبطين . ذلك هو عددهم نفسه . ان هذه الحشود الكبيرة من الرجال كانت تجذب اليها الاشخاص كما يعمل في الفيزياء قانون الجاذبية الذرات . لقد كان اولئك الالوف المئات من الرجال يتقدمون كتلة واحدة أشبه بدولة كاملة .

لم يكن كل واحد منهم يرغب غير شيء واحد : ان يؤسر ويفلت من هذه الاهوال وكل هذه الآلام . ولكن من جهة . كانت القوة الجماعية التي تجذبهم نحو سمولنسك تفرض عليهم جميعاً اتجاهاً واحداً ومن جهة اخرى ، كانت جمهرة كاملة من الجندلا تستطيع ان تتحول الى سرية . وعلى الرغم من كل المناسبات الممكنة التي انتهزها الفرنسيون للانحراف والوقوع في الاسر ، فان الذرائع ما كانت دائماً تلتقي بمصادفات سعيدة . لقد كان عددهم الكبير نفسه وسيرهم الحثيث بصفوف متراصة ، يحرمانهم من هذا الأمل . وبالنسبة الى الروسيين ، لم يكن ايقاف تلك الحركة الجماعية التي يبذل فيها الفرنسيون كل حيوتهم صعبا فحسب بل ومستحيلاً . وتوقف هذا الجسم ميكانيكياً لا يمكن ان يزيد أبعد من حد معين تطور الانحلال الذي يكاد ان يتم .

لم يكن احد آخر غير كوتوزوف ، بين كل رؤساء الجيش الروسى ، يدرك هذه الناحية . فما ان تأكدوا من الاتجاه الذي سار فيه الجيش الفرنسى المنهزم على طريق سمولنسك حتى بدأ يتحقق ما خمنه كونوفنيتش سلفاً ليلة

١١ تشرين الاول . اخذ كل كبار الضباط في الجيش ، رغبة منهم في الفات الانظار اليهم ، يطالبون بقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي وتطويقه وأسره وقلبه وباتوا جميعاً يطالبون بالهجوم .

وكوتوزوف وحده ، راح يستعمل قواه كلها ، وليست كبيرة جداً لدى قائد أعلى ، للحيلولة دون الهجوم .

ما كان يستطيع ان يقول لهم ما نقوله الآن . ما فائدة المعركة ، ما فائدة قطع الطريق ، وخسران الجنود ، وتذبيح التعساء بتجرد عن الانسانية ، ما فائدة كل هذا اذا كان ثلث ذلك الجيش قد اضمحل من تلقاء نفسه من موسكو الى فيازما . دون قتال ؟ لم يكن يقول لهم في حكمته كشيخ هرم ، الا ما كانوا قادرين على فهمه . كان يحدثهم عن الجسر الذهبي ، فكانوا يسخرون منه ويهجونه ويضطربون ويثورون كثيراً بل وأكثر ، ويتصلفون على الحيوان المصاب بضربة قاتلة .

لم يستطع ايرمولوف وميلورادوفيتش وبلاتوف والآخرون في فيازما ، الذين كانوا الى جوار الفرنسيين . ان يسيطروا على رغبتهم في تمزيق جمهرتين من الجيش الفرنسي اربا وقلبها . ولكي يخطروا كوتوزوف بعزمهم ، ارسلوا اليه على سبيل التقرير ، غلافاً يحوي على ورقة بيضاء .

ورغم كل جهود كوتوزوف لضبط الجيش ، فقد هاجم جنودنا كذلك بغية قطع الطريق على الفارين . وقد روي لنا ان ألوية كاملة تتقدمها الموسيقى الصادحة ، كانت تمشي الى النـــار فتقتل الوفاً من الرجال وتخسر هي الاخرى الالوف . .

اما من حيث قطع الطريق ؛ فانهم لم يقطعوا شيئاً ولم يقلبوا شيئاً . لقد اعطى الخطر الجيش الفرنسي مزيداً من التلاحم فظل يتابع سيره وهو يتلاشى تدريجياً ، على الطريق الذي قاده الى نهايته ، نحو سمولنسك .

الجزء الثالث

الفَصْلُ الأوّل

هراوة الشعب

ان معركة بورودينو ونتائجها : الاستيلاء على موسكو وتراجع الفرنسيين دون معارك جديدة ، تشكل واحداً من اكثر الاحداث التعليمية للتاريخ .

فكل المؤرخين متفقون في تأييدهم ان النشاط الخارجي للحكومات والشعوب يظهر بواسطة الحروب وان النتيجه المباشرة لنجاحهم الكبير او الصغير هو زيادة نشاطهم السياسي او خموده .

ومهما كانت الروايات التاريخيه عن هذا أو ذاك من الملوك او الاباطرة الذي تخاصم مع هذا او ذلك من الملوك أو الاباطرة الآخرين ، فجمع جيشه وتقارن مع العدد ثم فاز بالنصر وقتل ثلاثة او خمسة او عشرة الاف رجل وبعدئذ غزا الدولة هذه والشعب ذاك الذي تعداده بضعة ملايين من الانفس، ومهما كان غامضاً . واقع انهزية جيش مايمثل جزءمن مجموع القوى العامة لشعب ما ، يجر معه خضوع ذلك الشعب كله ، فان الوقائع التاريخية كلها في النطاق الذي نعرفها فيه ، تؤيد هذه الحقيقة ، من ان زيادة تفوق اسلحة شعب ما او نقصانه على اسلحة شعب آخر ، هي السبب ، او على الاقل الدليل على ازدياد قدرة ذلك الشعب او هبوطها . يربح جيش ما معركة ما ، فلا تلبث حقوق

الغالب حتى تفرض على حساب المغلوب . ولا يمر جيش بهزيمة حتى يفقد شعب ذلك الجيش حقوقه بنسبة الهزيمة ، فاذا ما كان الاخفاق كاملا ، كان كذلك كاملا .

ولقد كان الأمر كذلك – بحسب التاريخ – منذ اقدم العصور وحتى أيامنا هذه . وحروب نابليون كلها ليست الا تأييداً لهذه القاعدة فبقدر ما انهزمت جيوش النمسا سلبت النمسا من حقوقها في حين زادت فرنسا من حقوقها وقوتها ولقد وضع الانتصاران في ايينا وفي اوئير ستادت ، نهاية للطاقة البروسية المستقلة .

ولكن بعد حين ، عام ١٨١٢ ، انتصر الفرنسيون قرب موسكو واحتلوا هذه المدينة . ولكن بدا انه ، دون معارك جديدة ، ليست روسيا هي التي كفت عن البقاء ، بل ذلك الجيش المؤلف من ستمائة الف مقاتل ومن ورائه فرنسا ، « فرانسة » نابليون اما أن نتجنى على الحوادث لنثنيها امتثالا لقوانين التاريخ فنقول مثلا ان ساحة القتال في بورودينو قد ظلت بين ايدي الروسيين وانه بعد موسكو ، ابادت المعارك التي نشبت ، الجيش الفرنسي فان ذلك مستحيل قطعاً .

فبعد نصر بورودينو ، لم تقع معركة واحدة ، لا معركة شاملة فحسب بل ولا حتى على جانب من الاهمية . مع ذلك ، فقد آب الجيش الفرنسي الى نهايته فما معنى هذا ؟ لو ان ذلك كان مثلا اخذ من تاريخ الصين ، لأمكننا ان نزعم ان هذه الظاهرة ليست تاريخية (وهذا مجال افلات المؤرخين حالما يعرض شيء لا يتأطر مع نظرياتهم) . ولو ان المسألة كانت تتعلق بمناوشات قصيرة الأمد لم تساهم فيها الاقوات ضئيلة ، لأمكننا ان نأخذ هذا الحدث على الاستثناء . لكن الواقعة وقعت تحت اعين آبائنا الذين كان موت الوطن وحياته في يد عفريت بالنسبة اليهم ، وكانت هذه الحرب من اكبر كل الحروب المعروفه .

ان فترة حملة ١٨١٢ التي تبدأ من بورودينو حتى طرد الفرنسيين ، تبرهن على ان معركة رابحة ليست دائماً سبب اجتياح بلاد ما ، بل وليست حتى دلالة على ذلك الاجتياح . انها تبرهن على ان القوة التي تقرر مصير شعب ما لم تعد لها علاقة بالغزاة ولا بجيوشهم وبمعاركهم ، بل تتعلق بشيء ما آخر .

ان المؤرخين الفرنسيين الذين يصفون موقع الجيش الفرنسي عشية يوم رحيله من موسكو ، يؤكدون ان كل شيء في ذلك الجيش العظيم كان على احسن حال باستثناء الفرسان والمدفعية وسير العربات ، وانه كان يعوزهم العلف للجياد ولذوات القرون من الحيوان . وعليه ، فان مامن شيء كان يستطيع معالجة هذا الحرمان طالما ان القرويين كانوا يحرقون العلف مفضلين ذلك على اعطائه الى الفرنسيين .

واذا كانت المعركة المكتسبة لم تؤد الى اي من النتائج المألوفه ، فما ذلك إلا لأن الفلاحين (الموجيك) كارب وفلاس اللذين لم يظهر بصورة عامة أية بطولة شخصية ، واللذين ، بعد رحيل الفرنسيين ، جاء الى موسكو لنهب المدينه فعملا مقتديين بالسواد الكبير من مواطنيهم ، وبدلا من ان ينقلوا العلف الى موسكو ، رغم السعر المغري الذي دفع لهما ، اشعلا النار في ذلك العلف .

لنتصور رجلين عازمين على التبارز بالسيف وفقاً لكل قواعد لعب السيف فتطول المبارزه وقتاً طويلا وفجأة ، يدرك احد الخصمين بعد ان يحس بالجرح الذي اصابه ، ان المسألة بدلا من ان تكون دعابه ، تعرض حياته للخطر ، فيلقي بسيفه ويمسك بأول هراوة تقع عليها يده ويشرع في ادارتها حول رأسه . والآن لنفرض ان هذا المبارز الذي يستعمل افضل وسيلة لبلوغ غايته بحكمة فائقة تعتلج نفسه بأعنف العواطف الأبية وانه يريد اخفاء ماوقع تماماً ويحاول ان يزعم بأنه هزم عدوه بالسيف طبقاً لكل قواعد الفن . نستطيع ان نتصور مقدار ما يؤدي وصف هذه المبارزة من ابهام وغموض .

فالمبارز الذي يتطلب ان تدور المعركة وفقاً لقواعد الفن هو الفرنسي . وخصمه الذي طرح سيفه ليمسك بالهراوة ، هو الروسي والاشخاص الذين يشحذون هممهم لشرح الموضوع وفقاً لقواعد فن المبارزة هم المؤرخون.

بدأت حرب لا سابق لها في التقليد العسكري منذ حريق سمولنسك. فحريق المدن والقرى ، والتقهقر بعد المعارك وصدمة بورودينو التي تبعها تراجع جديد وحريق موسكو ومطاردة السلابين والاستيلاء على القوافل وحرب الانصار كل هذه الاشياء خارجة عن قواعد الفن العسكري .

لقد شعر نابليون بذلك منذ اللحظة — الذي وقف في موسكو في وضعية المبارز الصحيحة فرآى بدلاً من السيف الموجه اليه ، هراوة مشرعة فوق رأسه ومنذ تلك اللحظة ، لم يكف عن الشكوى الى كوتوزوف والى الكسندر بان الحرب قد سارت ضد كل القواعد ، وكأن هناك قواعداً لقتل الاشخاص. مع ذلك ، رغم شكاوي الفرنسيين ضد خرق القواعد ، ورغم الخجل الذي شعر به بعض الرجالات البارزين الروسيين الذين رأوا أن من العار القتال بالهراوة وارادو التبارز رباعاً او ثلاثاً حسب القواعد وتوخية ضربة مفاجئة للخصم الخ. فان هراوة الشعب المحارب ارتفعت بكل قوتها المتوعدة الجليلة ، ارتفعت مزدرية كل ذوق سليم وكل علم ببساطة غليظة حقاً ، ولكن باتجاه مباشر نحو الهدف دون اي تمييز ، ارتفعت وهوت فقرعت الفرنسيين حتى افنت الغزوة كلها .

والنجاح لا يليق باولئك الذين كالفرنسيين عام ١٨١٣ ، يحيون عدوهم حسب كل قواعد الفن ويقدمون له سيفهم من المقبض ثم يسلمونه بكياسة وأدب الى المنتصر شريف النفس ، بل ان النجاح يليق بالشعب الذي لا يتساءل ساعة المحنة عما فعل الآخرون وفقاً للقواعد الفنية في ظروف مماثلة ، ولكن يشرع ببساطة ودون جهد اول هراوة يلقاها ، ويضرب بها حتى اللحظة التي يحل محل الحقد في نفسه على الاهانة الحاصلة له ، الاحتقار والاشفاق .

الفصل الثاني

س : ق = ١٥ : ٤

ان اكثر الاستثناءات وضوحاً وأعظمها خصباً لما يسمونه قواعد الحرب، هو نشاط بعض الاشخاص المستقلين ضد كتلة كثيفة من الرجال . وهذاالنوع من العمليات يحدث دائماً في الحرب التي تتخذ صفة قومية . انها تقوم على أساس انه بدلاً من مقارعة العدد بالعدد ، ينقسم الرجال الى فصائل صغيرة ويهاجمون منفردين ويعزون اذا كانوا امام قوات متفوقة ليعودوا الى الهجوم حالما تسنح بذلك . كذلك كان المحاربون في اسبانيا ودفاع الجبليين في القوقاز وكذلك كان حال الروسيين عام ١٨١٢ .

ولقـد دعيت هذه الطريقة بالقتال بحرب الانصار ، واعتقد انهم حددوا معناها بهذه التسمية . بيد ان هذا الشكل من الحرب ، يتنكب كل القواعد بل انه يتعارض مع قوانين « التكتيك » الأكثرشيوعاً ، الشهيرة بأنها لاتخيب وتبعاً لهذه القوانين ، يجب على الذي يهاجم ان يركز قواته بشكل يصبح معه اقوى من خصمه عندما تبدأ المعركة .

وحرب الانصار – وهي دائماً حرب رابحة كما يبرهن التاريخ – تتجه دائماً بعكس هذا القانون .

وهذا التناقص ينجم عن ان العلم العسكري يحدد قوة جيش ما، بعدد ذلك الجيش . والعلم العسكري يقول انه كلما كان جيش ما كبير العدد كان كذلك اكثر قوة . « ان الألوية الضخمة هي المحقة دائماً . »

والعلم العسكري بتأكيده هذا القول ، يشبه حركة لاتتأثر في دراسة القوى ، الا بالعلاقة بين كتلها ، وتستنتج على سبيل تساوي القوى ، واقعة تساوي الكتل فحسب .

في حين ان القوة (كمية الحركة) هي حاصل ضرب الكتلة بالسرعة .

وفي كل حدث حربي ، تكون قوة جيش ما ، حاصل ضرب الكتلة بمجهول س ، كذلك .

والعلم العسكري الذي يرى في التاريخ أمثلة لاتحصى كانت قوة القطعات فيها لاتتناسب مع كتلتها ، بل كانت فصائل صغيرة تتغلب على اخرى اكبر عدداً ، يتقبل بابهام وجود ذلك العدد المضروب فيه المجهول ويسعى جاهداً لكشفه سواء في هندسة خطة ما أوفي التسلح أو - وهذه من اكثر الحالات طبيعية - في عبقرية الرؤساء . لكن استعمال كل قيم المضروب فيه المجهول هذا لاتعطي النتائج المطابقة للأحداث التاريخية .

مع ذلك ، يكفي التنكر للكذبة التي تعزو - دعما الأكبر مصالح الابطال - الفعالية لاستعدادات القياده العليا ، حتى نكتشف ذلك المجهول س .

فهذا ال : « س » ،هو معنوية الجنود ، أي زيادة الرغبة في القتال وفي التعرض للخطر أو نقصانها ، التي يمكن ان تجيش في صدور كل الجنود الذين يشكلون جيشاً ، وذلك على نحو مستقل كل الاستقلال عن مسألة معرفة ما اذا كانوا يقاتلون تحت امرة عباقرة ،على ثلاثة خطوط أو على خطين ، وبالهراوات

او البنادق التي تطلق ثلاثين طلقة في الدقيقة . ان الرجال الذين فيهم رغبة كبرى في القتال ، يقيمون انفسهم دائماً من تلقاء انفسهم في المراكز الاكثر قابلية للقتال

ان معنوية الجنود هي المضروب فيه بالكتلة الذي يكون حاصل ضربه قوة الجيش. وتحديد وتعريف قيمة معنوية جيش ما ، هذا المضروب فيه المجهول هما المسألة واجبة الحل .

ان هذه المسألة لا يمكن ان تحل الا على الطريقة التالية : لنكف عن الادخال الفرضي في المعادلة، مكان س قيمة المجهول كله ، شروط ظهور القوة ، كترتيبات الرئيس والتسلح الخ ، واعتبارها قيم المضروب فيه . ولنأخذ على العكس ، هذا المجهول كاملاً ، أي بوضعه الرغبة القصوى أو الدنيا في القتال والتعرض للموت. وحينئذ فقط ، بعد ان نضع الاحداث التاريخية المعروفة في المعادلة ونقارن بين كل حالة ، قيمة ذلك المجهول ، نستطيع ان نأمل في تحديد طبيعته .

عشر رجال او الوية او أفواج في قتال مع خمسة عشر رجلاً أو لواء أو فوجاً انتصروا، أي قتلوا وأسروا كل خصومهم دون استثناء ولم يخسروا الا أربعة منهم . واذن ، لقد وقع من جانب خسارة أربعة رجال ومن الجانب الآخر خمسة عشر رجلا . وبالتالي ، تساوى أربعة مع خمسة عشر ، ومنها ينجم ان : ٤ س = ١٥ ق وان س : ق = ١٥ : ٤ . وهــــذه المعادلة لاتعطي قيمة س المجهول ،بل النسبة بين المجهولين . وباخضاع مختلف الوحدات التاريخية المأخوذة افرادياً لمثل هذه المعادلة ، (معارك ، حملات ، ازمنة الحرب) نحصل على سلسلة من الارقام يجب ان تحوي على قوانين وان تكشف قوانين فيها .

والقاعدة « التكتيكية » التي توعز بالتصرف خلال الهجوم الجماعي وبنظام مبعثر خلال التقهقر ، تؤكد، دون ان تتعمده ، هذه الحقيقة من ان قوة جيش ما تتوقف على المعنويات التي تحضه . ولكي نقود رجالاً تحت القنابل ، يقتضي

ذلك نظام اكثر من قيادتهم لصد هجوم ، وهذا النظام يتطلب حركة جماعية . لكن هذه القاعدة التي تغفل معنوية الجيش ، لاتني تبرهن على خطئها وعلى انها على وجه الدقة ، معارضة تماماً للوقائع ، حيثما تظهر حمية قوية أو هبوط في معنويات الجنود ، وذلك في كل الحروب القومية عامة .

خلال تقهقرهم عام ١٨١٢ ، اخذ الفرنسيون الذين كان عليهم تبعاً لقواعد «التكتيك» ان يدافعوا عن انفسهم مبعثرين، يتكتلون على العكس فيجمهرات كبيرة ، لأن معنويات الجنود كانت شديدة التدني حتى ان كتلة واحدة تستطيع ايقاف مجموع الجيش اما الروسيون ، فعلى العكس ، كانوا ، تبعاً لنظام « التكتيك » ، مدعوين الى الهجوم عليهم كتلة واحدة ؛ في حين انهم تبعثروا لأن معنوية جنودهم كانت على درجة من الارتفاع ، حتى ان الاشخاص المستقلين ما كانوا في حاجة الى صدور الامر اليهم ليضربوا الفرنسي وليتعرضوا للمتاعب والاخطار .

الفصل الثالث

حرب الانصار

بدأت الحرب المسماة بحرب الانصار ، منذ ان دخل العدو الى سمولنسك .

وقبل وقت طويل من اعتراف حكومتنا رسمياً بهذه الحرب ، استؤصل الالوف من جنود الاعداء ، بين متخلف وسلاب ورائد من قبل القوقازيين و « الموجيك » بشكل لاارادي مثلما يعض الكلاب كلباً مسعوراً . وكان دينيس دافيدوف بحاسته الوطنية ، اول من ادرك القيمة الرهيبة للهراوة التي كانت تبيد الفرنسيين بصرف النظر عن قواعد الفن العسكري ، واليه يرجع الفخر بأنه قام بالخطوة الاولى لتنظيم هذا النوع من القتال .

في الرابع والعشرين من آب ، نظمت الفصيلة الاولى من انصار دافيدوف وتبعه آخرون نهجوا نهجه . وكلما تقدمت الحملة ، ازداد عدد هذه الفصائل .

اخذ الانصار يدمرون الجيش الكبير تفصيلاً ، فكانوا يكنسون الاوراق الميتة التي تتخلف من تلقاء نفسها عن الشجرة في طريقها الى الجفاف — الجيش الفرنسي — بل ويزعزعون الشجرة نفسها احياناً . وفي تشرين الاول ، عندما كان الفرنسيون يفرون باتجاه سمولنسك ، كانت هذه الفصائل ذات الاهمية والسمات المختلفة ، تعد بالمئات . وكان لبعضها كل مظاهر الجيش المنظم بمشاتها

ومدفعيتها واركان حربها وكل وسائل الرفاهية في الحياة بينما كانت فصائل اخرى تضم فرساناً وقوقازيين فحسب ، وفصائل اخرى ، اصغر منها مؤلفة من خليط من المشاة والفرسان . بل ان بعضها كان مؤلفاً من قرويين ومالكين ومدنيين غير معروفين من أحد . انهم يروون ان شماساً على رأس بعض الانصار ، اسر في شهر واحد مئات من الجنود ، وكذلك ان زوجة اقطاعي بولوني، فاسيليسا قتلت مئات من الفرنسيين[1] .

خلال أيام تشرين الاول الأخيرة ، بلغت حرب الانصار الأوج . لقد انقضى ذلك الوقت الذي كان الانصار أنفسهم ، في دهشة لجرأتهم ، يخشون في كل لحظة ان يطوقهم الفرنسيون ويأسروهم ، والذي كانوا خلاله لا يترجلون عن جيادهم او يريحون مطاياهم ، ويختبئون في الغابة بانتظار أن يطاردهم العدو . لقد اتخذت هذه الحرب الآن شكلا معيناً وأصبح كل واحد يعرف بوضوح ما يمكن القيام به ضد الفرنسيين وما يتعذر الشروع به . ومنذ ذلك الحين ، ظل بعض رؤساء الفصائل وحدهم ، الذين كانوا يسيرون بعيداً عن الفرنسيين مع اركان حربهم المنظم . على اعتقادهم بأن كثيراً من المشاريع لازالت مستحيلة التطبيق . اما رؤساء الفصائل الصغيرة ، الذين بدأوا عملهم منذ وقت طويل ورأوا الفرنسيين عن قرب ، فكانوا على العكس ، يجدون ممكناً ما لم يكن قواد الفصائل الكبرى يجرأون على مجرد التفكير فيه . اما القوقازيون والقرويون الذين كانوا من جانبهم يتسللون الى صفوف الفرنسيين ، فكانوا يقدرون انهم منذ ذلك الحين ، يستطيعون عمل أي شيء وبكل قحة .

وفي الثاني والعشرين من تشرين الاول ، وجد دينيسوف نفسه — وكان على رأس فصيلة في عداد الانصار — يتحرق بحمى اللهفة . لقد كان ورجاله منذ

---

(١) تاريخ روسيا ، لمؤلفة آ. رامبو ، ص : ٨٥٦
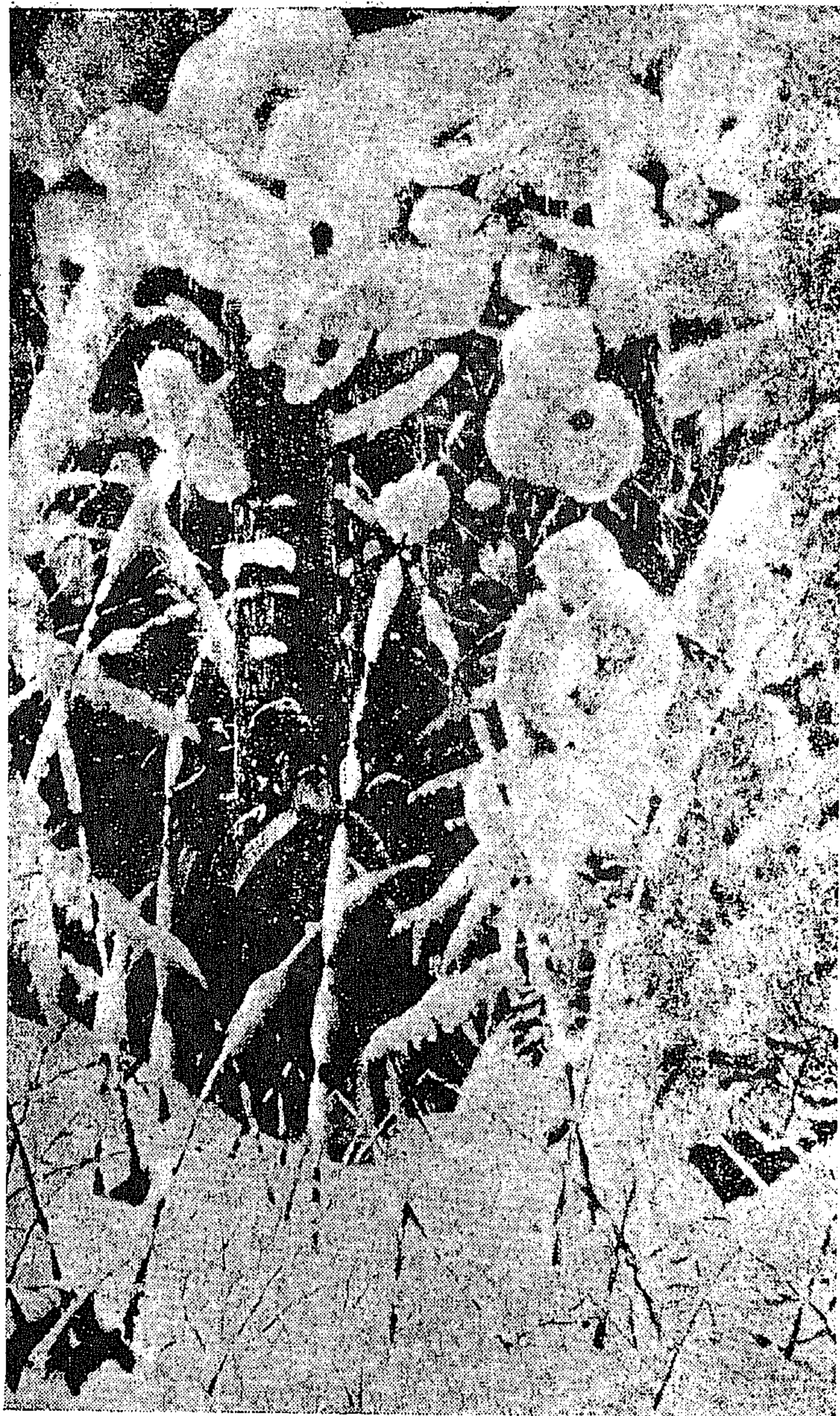
الانصار

الصباح يمشون . لقد راقبوا طيلة النهار ، خلال أغصان الغابة المحاذية للطريق العام ، قافلة فرنسية تحمل العتاد ولوازم الفرسان ولوازم الاسرى ، انفصلت عن مجموع جمهرات الجيش في طريقها الى سمولنسك ، تواكبها قوة كبيرة من الحرس ، بحسب معلومات الجواسيس والاسرى الهاربين . ولم يكن دينيسوف وحده الذي يعرف خبر مرور هذه القافلة ، اذ نمى خبرها الى دولوخوف الذي كان هو الآخر على رأس فصيلة صغيرة من الأنصار ، ينشط في القطاع نفسه . والى رؤساء كتائب اخرى اكبر عدداً ، متمتعة بهيئات اركان حرب خاصة بها . كان الخبر متفشياً في كل مكان اذن ، فكان العارفون به ، على قول دينيسوف نفسه ، يشحذون أسنانهم سلفاً . ولقد أرسل رئيسا كتيبتين كبيرتين الاول بولوني والثاني الماني ، الى دينيسوف بأن واحداً تقريباً ، يسأله كل منهما عما اذا كان يريد ان يتحد معه للهجوم على القافلة . .

هتف دينيسوف وهو يقرأ رسالتيهما :

— كلا يا اخوان ، ان لي شعراً نابتاً حول ذقني .

واجاب الالماني بأنه رغم رغبته المخلصة في العمل تحت امرة جنرال لامع وشهير مثله ، فانه مضطر الى حرمان نفسه من هذا الشرف لأنه قد انضم قبل ذلك تحت لواء الجنرال البولوني . وكتب الى البولوني هذه العبارات بالضبط مؤكداً له انه انضم قبل ذلك تحت لواء الألماني .

وبعد ان اتخذ هذه الاجراءات ، قرر دينيسوف ان يهاجم القافلة مع دولوخوف — دون ان يخطر هذين الجنرالين بالأمر — وان يستوليا عليها بقواتهما الشخصية . وكانت هذه القافلة يوم ٢٢ تشرين الاول ، تتبع الطريق الذاهب من ميكولينو الى قرية شامشيفو . وعلى جانب الطريق الايسر بين هاتين القريتين امتدت احراش كثيفة كانت في بعض الأماكن تبلغ الطريق وفي جهات اخرى

تبتعد عنه مسافة ميل أو اكثر . وفي هذه الاحراش كان دينيسوف يتوغل فيها تارة حتى يبلغ قلب الغابه ، ويعود الى تخومها تارة اخرى ، ويمشي طيلة ذلك النهار دون ان تغيب القافلة عن عينيه . وفي الصباح ، غير بعيد عن ميكولينو ، حيث الغابة تلمس الطريق ،أسر قوقازيو دينيسوف عربتي نقل غائصتين في الوحل كانت محملتين بسروج للجياد ، واقتاداهما الى الغابة . ومنذ ذلك الحين وحتى المساء ، ظلت الفصيلة تتبع حركة الفرنسيين دون ان تهاجم . كان يجب عدم بث الذعر في نفس العدد وتركه في سلام حتى يبلغ شامشيفو ، وحينئذ يتم الاتصال مع دولوخوف الذي يجب ان يكون متمركزاً مساء في مكان ما من الغابة على بعد فرسخ عن القرية ، لاتخاذ الاستعدادات الاخيرة ثم للوقوع فجر اليوم التالي من الجانبين معاً على القافله كالبرد ، وقتل كل الجنود ونهب الاشياء كلها دفعة واحدة .

وعلى بعد فرسخين وراء ميكولينو ،في المكان الذي تتقدم فيه الغابة حتى تبلغ الطريق ، تركوا ستة من القوقازيين مهمتهم اخطار رؤسائهم حالما تظهر لأعينهم على الطريق فرقة فرنسية جديدة .

امام شامشيفو ، كان على دولوخوف ان يفحص الطريق ليعرف المسافة التي تفصل القوات العدوة الاخرى عن مكان القافلة . ولقد قدروا الجنود المواكبين للقافلة بألف وخمسمائة رجل ، وكان مع دينيسوف مائتا نصير ومع دولوخوف مثل هذا العدد تقريباً لكن تفوق العدد ما كان ليعيق دينيسوف . بيد انه كان في حاجة الى معرفة شيء واحد : ماهي على الضبط القوات التي تواكب القافله؟ فكان على دينيسوف والحالة هذه ان يستولي على « لسان » أي ان يأسر رجلاً من القوة العدوة . ولقد كان هجوم الصباح على العربات المحملة سريعاً جداً حتى ان الفرنسيين الذين كانوا قرب العربات قتلوا جميعاً ولم يؤخذ حياً الا قارع طبل

صغير . وكان قارع الطبل هذا متخلفاً ، لم يعرف ان يقـول شيئاً دقيقاً عن تشكيلات الحامية .

رأى دينيسوف ان الهجوم مرة ثانية خطير خشية ان يستنفر الحامية كلها لذلك فقد ارسل الى الأمام قرويا من جماعته اسمه تيخون شتشير باتون ، كان عليه اذا امكن ، ان يأسر على الأقل رائداً فرنسياً من جنود الطليعة المخيمين هناك في ذلك الحين .

الفصلُ الرابعُ

دينيسوف... وبيتيا

كان اليوم ساكناً مطيراً من ايام الخريف والسماء والافق مصطبغان بلون موحد ، لون الماء الكدر والمطر يهطل تارة رذاذاً وتارة قطرات كبيرة تجلد الهواء بخطوط منحنية .

وكان دينيسوف متشحاً بردائه الصوفي المبطن على رأسه قلنسوه من الفراء يقطر منها المطر ، ممتطياً صهوة جواد اصيل هزيل ونحيل . وكأن حصانه ، يحني رأسه الى جانب ، متيقظ الاذن ، متقلص الأسارير تحت ذلك المطر المنهمر يسبر المساحة التي امامه بقلق ، ووجهة المهزول الذي غطته لحية قصيرة سوداء كثيفة ، يبدو غاضباً .

والى جانب دينيسون ، مثله في ردائه الصوفي المبطن باللبد والقلنسوة من الفراء ، كان رئيس الفرق القوقازيين ، مساعـــده ، يخيل على صهوة واحد من جياد الدون ، حسن التغذية ضخم .

وكان الرئيس القوقازي لوفائيسكي الذي يرافقهما في مثل ثيابهما ، ثالث الثلاثة . انه فتى عملاق شاحب ، رقيق كلوح مـن الخشب ، اشقر ذو عينين صافيتين ، يعرب وجهه وكل كيانه عن رجل واثق من نفسه. وعلى الرغم من

استحالة قول ما في ذلك الفرس والفارس من شيء خاص لدى النظرة الاولى التي تلقي على الرئيس ودينيسوف ، فانه كان واضحاً ان دينيسوف ، المبلل بالمطر المنزعج في وضعه ليس الا فارساً اتفاقاً بينما الرئيس المستوي على السرج بهدوء طبيعي وراحة ، لم يكن مع راحلته الا قطعة وقوتاهما متوافقتان .

كان القروي الذي يقوم بدور الدليل ، يسير امامهما متقدماً قليلاً وقد تبلل حتى العظام وهو في معطفه الرمادي وقلنسوته البيضاء .

والى الوراء قليلا ، على صهوة حصان كرجي أصيل نحيل ،ذي ذيل وعرف كثين ، وفم ادماه اللجام ، كان ضابط شاب يختبل وهـو متـدثر بمعطف ازرق فرنسي .

والى جانبه ، فارس شاب كان يردف وراءه فتى صغيراً مرتديا زيا فرنسيا ممزقاً وعلى رأسه قلنسوة زرقاء ، كان يتشبث بالفارس بيديه الحمراوين من البرد ويحرك قدميه العاريتين محاولاً بعث الدفء فيهما وينظر حوله بدهشة مرفوع الحاجبين . انه قارع الطبل الصغير الذي أسر صباح ذلك اليوم .

وفي اعقابهم ، في طريق الغابة الضيق المعزوق ،الذي تناثرت عليه الاوراق الميتة ، اخذ الفرسان يتقدمون في الطليعة ، ثلاثـة او اربعة في كل صف ومن ورائهم القوقازيون بعضهم في اردية وبعضهم في معاطف فرنسية والبعض الآخر يضعون على رؤوسهم اجلال الجياد . وكانت الجياد الشقراء او الكمت تبدو سوداء بسبب المطر الذي كان يسيل عليها . وكانت رقابها تبدو ضيقة بشكل غريب لكثرة ما اصاب اعرافها من بلل ، ومجموع شعرها يتصاعد منه البخار . وكل شيء ، الالبسة والسروج والأعنة ، كلها كانت مبلله ، لزجة ، تلتمع من الماء ، مثل الأرض والاوراق الميتة على الطريق . وكان الفرسان

منهم يعملون جاهدين على ان لا يتحركوا بغية تدفئة الماء الذي تسال الى اجسادهم والحيلولة دون دخول قطرات اخرى اكثر برودة فوق السرج وعلى انوفهم وفوق ركبهم . وفي وسط الفرقة ، في اطار من القوقازيين ، كانت عربتا نقل مقطورتان الى جياد فرنسية وجياد قوقازية — وهذه مسرجة — ترتعدان فوق ارومات الاشجار والاخشاب الميته او تخوضان في الحفر المليئة بالماء .

انتحى حصان دينيسوف جانباً ليتحاشى بركة ماء فاصطدمت ركبة الفارس بشجرة ، فزمجر دينيسوف ساخطاً :

— الف رعد !

وساط الجواد مرتين او ثـــلاث مرات فغطى نفسه بالوحل كما لطخ به جاره :

لم يكن دينيسوف على مايرام لأن المطر كان ينهمر ولأنه كان جائعاً — اذ لم يتناول طعاماً منذ الصباح — وبصورة خاصة ، لأن دولوخوف لم يعطه بعد أية اشارة تدل على وجوده ولأن الرجـل الـــذي ارسله ليجيء « بلسان » لم يعد بعـد .

اخذ دينيسوف يفكر وهو لا ينى يراقب الابعاد آمـلا ان يرى رسول دولوخوف قادماً : « يصعب ايجاد فرصة مماثلة لمهاجمة قافلة والاستيلاء عليها . لكن ، إن اهاجم منفرداً ، امر شديد التعرض للخطر ، وان ارجىء الأمر الى الغد ، معناه ان تفلت الطريدة منا لتستولي عليها كتائب الانصار الكبيرة تحت انوفنا » .

ولما بلغ بقعة جرداء تمتد الرؤيه فيها نحو اليمين ، توقف دينيسوف وقال :

— ان بعضهم آت .

نظر رئيس القوقازيين في الاتجاه الذي عينه دينيسوف .

– قال الرئيس الذي كان يحب الكلمات المجهولة من القوقازيين :

– انهما اثنان ، ضابط وقوقازي . غير انه «غير قابل الحدس» ما اذا كان نائب الزعيم .

انحدر الفرسان اللذان راحوا يرقبونهما من على منحدر واختفيا ليعودا بعد بضع دقائق . بدا الآن في المقدمة ، الضابط يثخن جواده المنهك بضربات السياط وهو يجري متشعثاً ، يقطر الماء منه وقد رفع اكمام سراويله حتى الركبتين . ومن وراءه ، راح قوقازي يجري وهو واقف على ركابيتين . اقترب الضابط ، وهو حدث ذو وجه كبير مستدير قرمزي وعينين جذلتين حيتين ، ومد لدينيسوف غلافاً مبللا ، وقال :

– من جانب الجنرال . اعذرني اذا لم يكن جافاً تماما .

اخذ دينيسوف الورقه ففضها مقطب الحاجبين . فقال الضابط يحدث الرئيس القوقازي بينما كان دينيسوف يقرأ الرسالة :

– لقد قالوا جميعاً ان الامر خطير ، خطير جداً . لذلك فان كوماروف وانا – واشار الى تابعه – اتخـــذنا كل الاحتياطات . فلدى كل منا مسدسان .

ثم سأل عندما رآى قارع الطبل الصغير :

– وهذا، ما هذا ؟ سجين ؟ هل التحمتم في معركة ؟ هل يمكن التحدث اليه ؟

وفجأة هتف دينيسوف بعد ان قرأ رسالته :

– روستوف ! بيتيا ! لماذا لم تقل انك انت ؟

والتفت اليه باسماً ومد يده الى الضابط الشاب .

والحقيقة ان ذلك الضابط كان بيتيا روستوف .

لقد أعد بيتيا نفسه خلا الطريق ليلاقي دينيسوف لقاء الرجل والضابط دون

ان يتظاهر بأنه يذكر علاقاتها السالفة . ولكن ، ما ان ابتسم له دينيسوف حتى اضاء وجهه وتضرج من الفرح فنسي المظهر الرسمي الذي كان يريد الظهور به وشرع يروي سروره لانتقائه لمثل تلك المهمة ويقص كيف مر أمام الفرنسيين وشاهد النار في فيازما ، حيث امتاز واحد من الفرسان . .

قاطعه دينيسوف وقد استعاد مظهره القلق :

– حسنا ، انني مسرور برؤيتك .

وقال وهو يلتفت الى رئيس القوقازيين مساعده :

– يا ميخائيل فيوكليتيتش ، ان الرسالة من الالماني . انه تحت امرته .

وشرح دينيسوف ان الورقة التي سلمت اليه كانت تأكيداً لامر الجنرال الألماني بالتحاق به لمهاجمة القافلة واعقب :

– اذا لم نأسر القافلة حتى غد ، ستمر تحت انفنا .

وبينما دينيسوف يتحدث مع الرئيس ، تصور بيتيا الذي اضطرب للهجته الباردة ، ان كمي سراويله المرفوعين هما سبب ذلك ، فمد يده متحسساً من تحت معطفه فأسدلهما بدقة ثم جاهد ليتخذ افضل مظهر عسكري ممكن وقال لدينيسوف وهو يعود الى وضعه الذي اعده خلال الطريق ، وضع مساعد عسكري امام جنراله ، وهو يرفع يده الى حافة عمرته :

ما هي أوامر نبالتكم العلية ، ام تري يجب ان انتظر الى جانب نبالتكم ؟

قال دينيسوف ساهماً :

– اوامري ؟ هه ، هل تستطيع الانتظار هنا حتى الغد ؟

هتف بيتيا :

– آه ! بكل طيبة خاطر . . وهل أستطيع ملازمتك ؟

سأل دينيسوف :

— نعم . ولكن ما هي الاوامر التي أعطاها اليك الجنرال على الضبط ؟هل قال لك بالعودة فوراً ؟

غدا وجه بيتيا قرمزياً : وسأل بقلق :

— هو ؟ انه لم يصدر الي أي أمر . حسناً ، هل أستطيع ؟

فأجاب دينيسوف :

— حسناً ، اتفقنا .

والتفت الى مرؤسيه فأصدر اليهم تعليماته . كان على الفرقة كلها أن تذهب قرب منظرة ، في المكان المعين من الغابة ، في حين يمضي الضابط ذو الحصان الكرجي للبحث عن دولوخوف لمعرفة مكان وجوده وما اذا كان سيأتي خلال السهرة . وكان هو نفسه ينوي الذهاب مع رئيس القوقازيين وبيتيا الى تخوم الغابة من جهة شامشيفو ليتعرف على المكان الذي سيوجه اليه هجوم الغد من موقع الفرنسيين

قال للقروي الذي كان يقوم بعمل الدليل :

— هيا ، ايها الملتحي . قدنا الى شامشيفو .

واتجه دينيسوف وبيتيا والرئيس ، يتبعهم بعض القوقازيين والفارس مردف السجين ، الى اليسار عبر الوادي ليبلغوا تخوم الغابة .

الفصل الخامس

تيخون ستشرباتي

كف المطر عن الهطول لكنه ظل الرذاذ يتساقط وقطرات الماء تنثال من الاغصان . اخذ دينيسوف والرئيس القوقازي وبيتيا يتقدمون بصمت وراء القروي ذي القلنسوة الذي كان بأحذيته المصنوعة من القنب ، يمشي بخفة ودون صوت على الجذور والاوراق المبللة باتجاه تخوم الغابة .

وبعد ان بلغ مرتفعاً ، توقف القروي وراح يفحص ماحوله ثم اتجه نحو ستو من الاشجار المتناثرة . وبالقرب من شجرة سنديان لم تكن قد اضاعت اوراقها بعد ، توقف واشار بيده بحركة نداء سرية .

تقدم دينيسوف وبتيا . كان المكان الذي وقف فيه الرجل يسمح برؤية الفرنسيين فبعد الغابة مباشرة ، كان حقل من الحنطة ينفتح منحنياً فوق سفح متعرج مضرس ، وعلى اليمين ، على الجهة المقابلة لواد شديد الانحدار ، كانت قريه صغيرة ترى فيها بيت السيد ذو السقوف المتهدمة . وعلى مسافة مائتي «ساجين» من هناك (الساجين ٢،١٣٣٦ م) ، كانت جماعة من الاشخاص ترى وسط الضباب المتحرك . كان الاشخاص في القرية وفي بيت السيد وعلى المنحدر وفي حديقة السيد وعلى مقربة من الآبار والمستنقع وعلى طول الطريق الذي يمر على

جسر يربط التل بالقرية . وكانت النداءات التي يتبادلونها والصيحات التي يطلقونها بلغة اجنبية ليحثوا الجياد المقطورة الى العربات على صعود السفح المنحدر ، تسمع بجلاء .

قال دينيسوف بصوت خافت دون ان يبارح الفرنسين بعينيه :

— جيئوا بالسجين الى هنا .

ترجل القوقازي واخذ الغلام فجاء به الى دينيسوف . فسأله دينيسوف وهو يشير الى الفرنسيين ان يسمي مختلف القطعات . فراح الفتى الذي دس يديه المقرورتين في جيوبه ينظر الى دينيسوف برعب رافعاً حاجبيه . وعلى الرغم من رغبته الصادقة في ان يقول كل مايعرف ، اختلط الأمر عليه في اجوبته فلم يزد على كلمة نعم . يقول في اعقاب كل سؤال يطرح عليه فأشاح دينيسوف برماً وخاطب رئيس القوقازيين يشاطره شعوره .

وكان بيتيا المنشغل المتطلع ، ينظر حيناً الى الطبال الصغير وحيناً الى دينيسوف ، تارة الى الرئيس وتارة اخرى الى الفرنسيين المنتشرين في القرية وعلى الطريق ، ساعياً الى ان لايضيع شيئاً مما يرى .

هتف دينيسوف وقد اضاءت عيناه ببريق من الغبطة :

— سواء أجاء دولوخوف او لم يأت ، يجب مهاجمتهم !.. هه؟ فرد الرئيس .

— نعم ، فالمكان مناسب .

استرسل دينيسوف :

— سنرسل المشاة من جهة المستنقعات وسيتسللون حتى يبلغوا حديقة البيت

واضاف وهو يشير الى الغابة التي تستند اليها القرية :

— وانت مع القوقازيين ، ستقدمون من هنا اما انا مع فرساني ، فمن هنا . ولدى اول طلقة نارية ...

قال الرئيس :

ـ لا يمكن المرور عبر الصدع فهناك ردغة ، وستتعرض الجياد الوقوع فيها لذلك يجب الالتفات نحو اليسار .

وبينما هما يتناقشان بخفوت على هذا النحو ، دوى في اعماق الجانب الآخر من المستنقع طلق ناري تبعته سحابة صغيرة من الدخان الأبيض ثم طلق ثان وبعده اطلق مئات الفرنسيين المرصوفين على المنحدر ، صرخة فزع . قفز دينيسوف والرئيس التابع له الى الوراء للوهلة الاولى . لقد كانا قريبين جداً من العدو حتى خيل اليهما انهما كانا مبعث صرخة الفرح وسبب الطلقتين . ولكن لم يكن السبب متعلقاً بهما . ففي الاسفل، في المستنقع، توحل رجل مرتديا ألبسة حمراء، فكانت الطلقات والصرخات موجهة اليه .

قال الرئيس :

ـ لكن هذا « تيخوننا » !

. نعم ، انه هو حقاً !

صاح دينيسوف :

ـ ياللسافل !

وهتف الرئيس وهو يرمش بعينيه :

ـ اوه ! سوف يخلص نفسه !

هرع الرجل الذي اسمياه تيخون الى الساقية فارتمى فيها باعثا الماء من كل جانب وبعد ان اختفى لحظة ، ظهر من جديد على الضفة اسود من الطين وظل يجري على اربع حتى ابتعد فتوقف الفرنسيون الذين كانوا يتبعونه .

قال الرئيس :

ـ حسنا انه نشيط !

واستأنف دينيسوف الذى عاد القلق الى محياه:

- يالحيوان! أين امضى وقته حتى الآن ؟

سأل بيتيا :

- من هو هذا ؟

- انه كشافنا ارسلته بحثاً عن «لسان»

رد بيتيا وهو يهز رأسه لكلمة دينيسوف الاولى وكأنه على علم بالأمر، في حين انه لم يفهم كلمة واحدة من كل ما سمع:

- آه! حسناً جداً!

كان تيخون ستشرباتي، واحداً من اكثر اعضاء الفرقة لزوماً، انه قروي من بوكروفسكوييه، قرب «جات» ولقد وصل دينيسوف فى بدء عملياته الى تلك القريه واستقدم صاحبها تبعاً لعادته، ليسأله عما يعرفه عن الفرنسيين. فاجابه الاقطاعي ككل اصحاب القرى الذين يكونون حذرين عادة، انه لايعرف شيئاً. ولكن، ما ان افهمه دينيسوف ان غايته حرب الفرنسيين وسأله عما اذا كان هناك امل في مغامرة ما في الجوار، قال صاحب الضيعة انه شاهد «حوامين» فعلاً، لكن تيخون ستشير باتي، هو الوحيد في القرية الذي يهتم بهذه الامور. وحينئذ استدعى دينيسوف ستشر باتي هذا، وبعد ان هنأه على عمله، قال له بحضور الاقطاعي بضعة كلمات عن الاخلاص للقيصر والوطن وعن الحقد على الفرنسيين الذي يجب ان يعتلج في قلوب الروسيين جميعاً

قال تيخون وقد بان عليه الخجل لأقوال دينيسوف :

- اننا لانسيء الى الفرنسيين. ولقد تسلينا كما تقول-باصطياد« الحوامين» فتيان القرية وانا فقتلنا منهم حوالي دزينتين. وباستثناء ذلك، لم نسء اليهم قط.

وفي اليوم التالي، كان دينيسوف قد نسي الرجل تماماً. مع ذلك، فانه

في اللحظة التي هم بأن يغادر القرية فيها ، جاؤوا يقولون له ان تيخون انضم الى الفرقة وهو يطلب الموافقة على العمل فيها . فوافق دينيسوف .

كان تيخون بادىء الأمر باعمال وضعية كإيقاد النار وملء الماء وسلخ الجياد النافعة الخ . . لكنه لم يلبث ان اظهر استعدادات كبيرة لحرب الانصار كان يمضي الى الصيد طيلة الليل ويعود دائماً ومعه ثياب وأسلحة سلبها من الفرنسيين بل ويأتي بأسرى عندما يصدر اليه الأمر بذلك . فلم يتركه دينيسوف يعمل بعد ذلك بل أصبح يصحبه معه في رحلاته ودمجه في سلاح القوقازيين .

وكان تيخون الذي لايحب ركوب الجياد ، يمضي دائماًعلى الأقدام ولكن دون ان يترك الفرسان يسبقونه . كان مسلحاً ببندقية يحملها لمجرد الشكل وبرمح وفأس كان يستعملها بكثير من المهارة كما يستعمل الذئب أسنانه فيطرد البراغيث عن جلده كما يمضغ بها عظمة كبيرة . وكان لتيخون مثل هذه البراعة في ان يشطر عموداً الى جزئين بضربة واحدة أو ان يمسك بفأسه من رأسها فيجتزىء بها صفائح رقيقة أو ملاعق . لقد كان تيخون يحتل في فرقة دينيسوف مكاناً على حده ، مكاناً استثنائياً . فاذا كان الامر يتعلق بالشروع في عمل عسير أو منفر ، كأن يرفع بكتفه عربة متوحلة أو ان يجذب جواداً من ذنبه خارج مستنقع ويسلخه ، أو ان يتسلل بين الفرنسيين او يقطع خمسين فرسخاً في مرحلة واحدة ، فانهم جميعاً يشيرون بأصابعهم الى تيخون ضاحكين .

كانوا يقولون عنه :

— ماذا يمكن ان يضر هذا الشيطان ، ان كل شيء صالح للأكل عنده .

مع ذلك ، فان واحداً من الفرنسيين الذين أسرهم تيخون ، أطلق رصاصة مسدسه على صلبه . ولقد أحدث هذا الجرح الذي عالجه تيخون بالعرق وحده من الداخل والخارج معاً ، سلسلة مداعبات من أكثرها بهجة بين أفراد الفرقة

كلهم ، فكان تيخون يصغي اليها دون ان يرمش .

كان القوقازيون يقولون له وهم يقهقهون :

ـ حسناً ، يا أخانا ، لن يأخذوك مرة اخرى ؟ كدت ان تصبح احدبا .

فيصعر تيخون وجهه ويغضن وجهه متظاهراً بالسخط ثم يغطي الفرنسيين باقذع السباب واغلظها . غير ان تلك المغامرة لم تمر دون ان تترك فيه أثراً ، اذ انه منذ جرحه ذاك ، أصبح قليلاً ما يعود بأسرى .

لقد كان تيخون الرجل الأكثر نفعاً والأكثر جرأة في الفرقة كلها . لم يكن احد يعرف انتقاء فرصة مد الشرك افضل منه ولم يأسر أحد ويقتل بقدرما أسر وقتل من الفرنسيين ، الأمر الذي عاد عليه بأن أصبح مهرج القوقازيين والفرسان كلهم فكان هو نفسه يحشر نفسه بكل طيبة خاطر في هذا المركز الجديد . ولقد أرسله دينيسوف هذه المرة ، الليلة الفائتة الى شامشيغو ليأتيه « بلسان » . ولكن ، سواء انه يكتف بأخذ فرنسي واحد فحسب ، ام انه قضى الليل نائماً ، فانه تسلل في وضح النهار بين الأدغال وسط مجموعة العدو ، فاكتشف أمره كما شاهد دينيسوف منذ حين .

★ ★ ★

الفصل السادس

ماهو السر ؟

بعد ان تناقش وقتا ما آخر مع رئيس القوفازيين حول هجوم الغد الذي بات الآن مقرراً بسبب دنوهم من الفرنسيين ، لوى دينيسوف عنان جواده وعاد على آثاره .

قال لبيتيا :

ـ هيا يا أخي ، يجب الآن ان نجفف ثيابنا .

ولما بلغ مركز الحرس في الغابة ، جمد دينيسوف في مكان وراح يفحص ما يحيط به . شاهد رجلاً طويل الساقين ، متباعد بين الذراعين ، يرتدي سترته ويحتذي أحذية من القنب ويتقلنس بقلنسوة من صنع كازان ، متقلداً بندقيته متمنطقاً بفأس ، يتقدم بخطوات كبيرة بين الادغال . فلما شاهد دينيسوف بادر الرجل فألقي شيئاً مابين الاشواك النامية ونزع قلنسوته المبللة ذات الحوافي المنسدلة ثم اقترب من رئيسه . كان ذاك هو تيخون كان وجهه المجدر . ذو العينين الصغيرتين المكبوحتين ، ممتلئاً بالغضون ، مشرقاً بالرضي . فلما وقف أمام دينيسوف ، رفع رأسه وشخص بعينيه اليه وكأنه يكتم ضحكة تكاد تنفجر من بين شفتيه .

قال دينيسوف :

ـ اذن ، من أين جئت ؟

اجاب تيخون بحماس وجرأة بصوت أجش منخفض رغم رخامته :

من أين جئت ؟ من مطاردة الفرنسيين .

ـ ولماذا اذن في رابعة النهار ؟ حيوان ! ثم ألم تنجح ؟ . .

رد تيخون :

ـ بلى ، بلى ، لقد أسرت واحداً .

ـ اين هو اذن ؟

استرسل تيخون وقد اتخذ له وقفة مريحة اكثر على قدميه الضخمتين المسطحتين في حذائيهما المصنوعين من ليف القنب :

ـ نعم ، لقد أطبقت على واحد ، وكان ذلك قبل طلوع النهار . نعم ، ولقد سقته الى الغابة . لكنني اكتشفت بعد حين انه لاينفع لشيء . وحينئذ فكرت وقلت لنفسي انه ينبغي لي الحصول على آخر ، انتقيته بشكل أفضل .

فقال دينيسوف لرئيس قوقازييه :

ـ آه ! القذر ، هذا هو السبب . ولكن لماذا لم تأتني به اذن ؟

قاطعه تيخون برشاقة وهو يهش

ـ وأية فائدة ، لم يكن ينفع لشيء ، الست أعرف ماذا ينبغي لك ؟

ـ يا للأتان ! . . وبعدئذ ؟ . .

أعقب تيخون :

ـ بحثت عن آخر وقد زحفت هكذا في الغابة ثم استلقيت ـ والقى تيخون بنفسه فجأة على الأرض على بطنه بحركة مرنة ليشرح كيف تصرف ـ ثم ، ها ان واحداً يقترب . ها انني أضع له الكلاب هكذا ـ وقفز برشاقة على قدميه

وهو يقول هذه الكلمات - وقلت له : الى الامام ، الى الزعيم . وهـــا هو ذا يزمجر ، فيأتي اربعة آخرون . ارتموا علي بسيوفهم ، وانا ، هذا ما عملته بفأس - وصرخ تيخون : الى الوراء ! اذهبوا الى الشيطان ! ، وراح يحرك ذراعيه حركات دائرية ثم قطب حاجبيه متخذاً مسحة متوعدة واتخذ وقفة مريحة .

قال رئيس القوقازيين وهو يرمش بعينيه اللامعتين :

- نعم ، نعم ، لقد شاهدنا من الاعلى كيف كنت تلعب باساطين الخشب عبر الردغات .

وعلى الرغم من رغبة بيتيا العنيفة في الضحك ، فانه لاحظ ان كل واحـد من زميليه يحتفظ بامارات الجد على وجهه . فراحت عيناه تتنقلان بين وجه تيخون ووجهي رئيس القوقازيين ودينيسوف دون ان يفقه ما معنى كل هذا .

هتف دينيسوف وهو يهز رأسه ويسعل سعالاً خفيفاً :

- لاتتصنع الغباء . لماذا لم تأتني بالأول ؟

أخذ تيخون يحك ظهره باجدى يديه بينما انتقلت يده الاخرى الى رأسه لنفس الغرض ، وفجأة اشرق وجهه العريض بابتسامة بلهاء كشفت عن جذور اسنانه التي منها حمل اسمه شتشرباتي ، أي فاقـــد أسنانه الأمامية ، انبسطت الغضون عن وجه دينيسوف وانفجر بيتيا بضحكة شديدة المرح حتى ان تيخون نفسه انطلق مقهقهاً .

أكد تيخون :

- لكن صحيح ،انه ما كان يصلح لشيء .أية فائدة كانت تجنى من الاتيان به وهو في اطماره تلك ؟ يا لها من قحة باصاحب النبالة ! اخذ يقول : « انا ، انا ابن « جناز ! » انا لا أمشي »

صرخ دينيسوف :

ـ ايها الحيوان ! وانا الذي كانت بي حاجه الى استجوابه . .

فقال تيخون :

ـ اوه لقد جعلته يتحدث انا قال لي : اننا لانعرف شيئاً كثيراً قال انهم كثرة ولكن لاقيمة لهم ، لا لهؤلاء ولا لهؤلاء .

ثم اعقب وهو يركز على دينيسوف نظرته المرحة الحازمة :

ـ اشرعوا بضربة طيبة وستنالونهم جميعاً .

هتف دينيسوف بصرامة :

ـ انتظر ، سوف آمر بجلدك ، ذلك يعلمك كيف تتغابى .

فقال تيخون :

ـ ولماذا الغضب . الست اعرفهم اعرفهم انا ، فرنسييك ? لينسدل الليل ، وحينئذ آتيك باثنين بل وبثلاثة اذا اقتضى الحال .

صاح دينيسوف :

ـ هيا ، الى الأمام !

ومشى في طريق مركز الحرس صامتاً مقطب الحاجبين .

تبعهم تيخون ، فسمع بيتيا القوقازيين يمزحونه بصدد الحذاء الذي القى به بين الاشواك .

ولقد حلّ محل رغبة الضحك التي كانت تعذب بيتيا بسماع تيخون ولرؤيته يبتسم ويمثل في غمرة أجوبته ، شعور بالانزعاج مفاجىء . أدرك بيتيا فجأة ان القروي قد قتل رجلاً منذ حين . فألقى نظرة على الطبال الصغير وشعر بقلبه ينقبض . لكن ذلك الشعور بالانزعاج لم يدم الا لحظة . وجد ان من الضرورة ان يرفع الرأس وان يتخذ امارات اكثر تغطرساً ، فراح يستجوب الرئيس

القوقازي بلهجة خطيرة عن مشروع الغد رغبة في ان يكون على مثل سوية زميليه

جاء الضابط الموفد بمهمة يلاقي دينيسوف على الطريق ليعلمه بان دولوخوف سيصل بعد حين وان كل شيء على ما يرام من هذه الناحية .

وللحال انبسطت اسارير دينيسوف فنادى بيتيا اليه وقال له .

— هيا ، حدثني عنك .

الفصل السابع

بيتيا والسجين

التحق بيتيا لدى رحيله من موسكو حيث ترك ذويه ، بفرقته . وهناك ، لم يلبث ان رآى نفسه يرقى الى رتبة ضابط ارتباط لدى جنرال قائد كتيبة قوية . ومنذ ترقيته الى رتبة ضابط ، وعلى الاخص منـذ ان بات يساهم في الجيش العامل الذي اشترك معه في معركة فيازما ، راح بيتيا يشعر بمرح مثير يدفعه الى ان يحس بأنه رجل ،فكان يبذل هوساً محموساً لانتهاز أية فرصة يستطيع أن يظهر فيها بطولة حقيقية . كان مفتوناً بكل ما رآه وعلمه في الجيش . لكنه كان يخيل اليه دائماً ان البطولة الاكثر نقاء تعرض عادة في المكان الذي لا يكون فيه .

ولما أعرب جنراله يوم ٢١ تشرين الاول عن رغبته في ايفاد احدهم الى كتيبة دينيسوف ، سأله بيتيا هذه المهمة بلهجة شديدة التوسل حتى ان الجنرال لم يرفض طلبه ، ولكن ، عندما عزم على ارساله ، تذكر الجنرال سلوك بيتيا المتهور خلال معركة فيازما : لقد اندفع بيتيا مباشرة الى الخطوط الاولى تحت نيران الفرنسيين حيث اطلق رصاصتين من مسدسيه ، بدلاً من ان يتوجه الى حيث أمره ان يذهب . لذلك فقد حرّم عليه تحريماً قاطعاً ان يشترك في تلك

العملية ما دام مع دينيسوف . ولهذا السبب ، تضرج وجه بيتيا احمراراً عندما
سأله دينيسوف عما اذا كان يستطيع البقاء . ظل بيتيا حتى ساعة ان بلغ تخم
الغابة ، يفكر في أنه سيقوم بمهمته بكل دقة ويعود من فوره . لكنه عندما
رآى الفرنسيين ، عندما رآى تيخون ، وعندما علم انهم سيهاجمون بالتأكيد
عند هبوط الظلام ، قرر ، بذبذبة الشبان الذين ينتقلون من فكرة الى اخرى
ان جنراله ، رغم كل التقدير الذي ظل يكنه له حتى تلك اللحظة ، ليس اكثر
من ألماني، في حين ان دينيسوف كان بطلاً وكذلك رئيس القوقازيين وتيخون
أيضاً ، وانه سيكون مخجلاً من جـــانبه ان يغادرهم في دقيقة عسيرة مثل
تلك الدقيقة .

كان الغسق يهبط عندما وصل دينيسوف وبيتيا والرئيس مركز الحرس .
شاهدوا في العتمة الشاحبة ، الجياد مسروجة والقوقازيين والفرسان يقيمون
اكواخاً خشبية في الارض الخالية ولقد ركزوا مكان نيرانهم في وادٍ مشجر
كيلا يفضحهم الدخان .

وعند مدخل كوخ خشبي صغير ، وقف قوقازي مشمراً عن اكمامه، يقطع
خروفاً ، وفي الكوخ نفسه ، كان ثلاثة من ضباط كتيبة دينيسوف ، صنعوا
لأنفسهم طاولة من باب . نزع بيتيا ثيابه المبللة ليعطيها لتجفيفها وراح لفوره
يساعد الضابط في اعداد مائدة الطعام .

وفي غضون عشر دقائق ، اعدت المائدة بعدان بسطت عليها منشفة وضعوا
عليها العرق وزجاجة من الروم وخبزاً ابيض وشواء الخروف وملحاً .

ولقد جلس بيتيا مع الضباط وراح يجزىء بيديه اللتين سال منهما الدهن .
لحم الخروف الشهي وهو طافح بحنان الطفل المهووس حيال الضباط كلهم ،
ويلاحظ بالتالي انهم جميعاً يعاملونه بالمثل .

سأل دينيسوف :

ـ ما قولك يافاسيلي فيدور وفيتش ، استطيع ان ابقى يوماً صغيراً آخر هنا اليس كذلك ؟

وبدلا من ان يأتيه الجواب ، اجاب نفسه بنفسه :

ـ طالما انهم ارسلوني للاستعلام ، حسنا ، انني استعلم ... بيد انه يجب ان تضعوني في المكان الأكثر ... الأكثر اهمية .. انني لا ابحث عن مكافأة... لست اريد الا ...

صرف على أسنانه ونظر حوله ثم رفع رأسه باعتداد واشار اشارة معبرة .

كرر دينيسوف بابتسامة :

ـ في المكان الأكثر اهمية ...

استرسل بيتيا :

ـ ارجوك فقط ان تعهد الي بفصيلة صغيرة حتى استطيع اصدار الاوامر . هيا ، ماذا يكلفك هذا ؟

وهتف وهو يستدير نحو ضابط كان يستعد لتقطيع شريحته :

ـ اوه ! هل تريد سكيني ؟

واخرج له سكينة من جيبه فجزاه الضابط شكرا .

قال بيتيا ووجهه يتضرج :

. احتفظ به ارجوك ، ابقه معك . لدى الكثير من مثله .

وفجأة هتف :

ـ آه ! وحق كل القديسين ! لقد نسيت تماما ! لدي زبيب رائع ، لو تعلمون خال من البزر لدينا ممون جديد لديه اشياء ممتازة ولقد اشتريت عشر ليبرات لأنني معتاد على الحلويات . هل ترغبون بتذوق الزبيب ؟

وعلى الأثر ، هرع بيتيا الى الباب حيث ينتظر تابعه القرقازي وعاد يحمل قفة فيها اكثر من خمس ليبرات من الزبيب :

-- كلو ما تشتهون ايها الساده . كلوا ماتشتهون .

ثم سأل رئيس القوقازيين :

- وبالمناسبة ، الست بحاجة الى ابريق للقهوة ؟ لقد اشتريت واحداً ممتازاً من مموننا ! ان لديه بضاعة جميلة . ثم انه شريف تماماً ، وهذا الأهم . سوف اقدمه لك دون توان ولعل احجار النار لديك مهترئة ؟ انها اشياء تحدث غالباً . لقد حملت معي عدداً منها ، انها هنا -- واشار الى قفته -- لدى مايقرب المائة منها لقد اشتريتها بمبلغ تافه . خذ منها ارجوك دون حرج ، خذها كلها اذا شئت .

وفجأة ذعر بيتيا خشية ان يكون قدمضى في حديثه بعيداً فصمت وتصعدت الحمرة الى وجهه .

اخذ يحاول ان يتذكر ما اذا كان قد ارتكب هفوة ما وبينما هو يستعرض ذكريات النهار ، عادت ذكرى الطبال الفرنسي الصغير الى مخيلته . فكر : «اننا هنا نتفكه ونتلذذ ، وهو كيف حاله ؟ أين وضعوه ؟ هل قدموا له طعاماً ؟ ألم يسيئوا اليه ؟ لكنه خاف بعد تبجحاته حول احجار النار ان يستعلم عن حاله .

« هل استطيع سؤالهم ؟ سوف يقولون : ها هو ذا طفل يستعلم عن طفل مثله . لكنني سأريهم غداً ما اذا كنت مجرد طفل . لماذا اخجل من السؤال ؟ آه ليكن ! » ولم يلبث ان حدق بالضباط ووجهه يتضرج وفي نفسه خشية من ان يرى على وجوههم طيف ابتسامة هازئة وسألهم :

-- الا نستطيع استدعاء ذلك الفتى الذي اسروه ؟ وان نعطيه ما يأ كل . . . لعله . . .

فقال دينيسوف الذي لم يظهر عليه مايدل على انه يجد شعور بيتيا مخجلا:

دنیسوف

ـ نعم ، الصغير المسكين . ليستدعوه . ان اسمه فنسان بوس، ليستدعوه

قال بيتيا :

ـ انني ذاهب بنفسي .

فكر دينيسوف :

ـ اذهب ، اذهب ، ياللصغير المسكين .

ولقد تسلل بيتيا الذي كان قرب الباب لما نطق دينيسوف بهذه الكلمات ، بين الضباط حتى وصل الى جانبه وقال :

ـ اسمح لي ان اقبلك ياصديقي العزيز آه ! كم هذا حسن ، كم هو حسن !

وصاح بيتيا عندما اصبح على العتبه :

ـ بوس ! فنسان !

استعلم صوت في الظلام :

ـ من تريد ياسيدي ؟

فأجاب بيتيا انه يريد الفرنسي الصغير الذي أسر خلال النهار، فردالقوقازي

ـ آه ! فيسيوني ؟

اقد حل اسم فيسيوني محل اسم فنسان عند القوقازيين خلال ذلك الوقت القصير ، اما عند الفلاحين الروسيين والجنود فقد اصبح فيسينيا . وفي كلتا الحالتين ،كان الاسم تنويهاً بالربيع الذي ترادفه بالروسيه كلمة فيسنا،وهي تسمية تناسب تماماً الطبال النضير .

ـ انه يتدفأ هناك ، امام النار . ايه ! فيسينيا ! فيسينيا ! فيسيوني !

راحت الاصوات الضاحكة تصيح في الظلام . وقال فارس كان الى جانب بيتيا :

ـ انه شاطر ، هذا الفتى ! لقد اعطوه مايأكله منذ حين . لايمكن تصديق الجوع الذي كان به !

سمعت خطوات في الظل وراحت اقدام حافية تخوض في الطين ثم بدا الطبال الصغير امام الباب . هتف بيتيا :

ــ آه ! هذا انت ! هل تريد ان تأكل ؟

واضاف وهو يضع يداً ودية خجلى على ذراعه :

ــ لا تخف ، لن نسيء اليك . ادخل ، ادخل .

اجاب الطبال بصوت شديد التهدج ، طفولي تقريبا :

شكراً ياسيدي .

وراح يحك قدميه الموحلتين على عتبة الباب .

كان بيتيا يود لو يقول اشياء كثيرة لذلك الطفل لكنه لم يجرأ . ظل واقفاً الى جانبه عند المدخل مترددا . اخيراً ، أخذ يده في الظلام وضغط عليها وقال ولكن في وشوشة حانية :

ــ ادخل ، ادخل !

ردد بيتيا في سره وهو يفتح الباب ويدع الفتى يمر امامه : « آه ! كم اتوق الى عمل أي شيء من اجله ! »

ولما دخل الطبال الى الحجرة ، ذهب بيتيا يجلس بعيداً متأثراً بفكرة جرح كرامته اذا اهتم كثيراً بشأنه بشكل واضح لكنه راح يتحسس في جيبه النقود التي كان يتساءل عما اذا لم يكن مخجلا تقديمها اليه .

الفصل الثامن

دولوخوف

امر دينيسوف ان يعطى الطبال الصغير عرقاً وشريحة من لحم الخروف ثم معطفاً روسيا كيلا يصرف بين الاسرى الاخرين بل يبقى في كتيبة. لكن اهتمام بيتيا لم يلبث ان تحول عن الغلام بوصول دولوخوف. لقد سمع بيتيا في الجيش كثيراً عن بسالة دولوخوف الخارقة وعن قسوته حيال الفرنسيين ، لذلك فانه ما ان دخل الى الكوخ حتى انحطت نظراته عليه لاتفارقه . وكلما امعن النظر اليه ، ازداد رأسه انتصابا وسعى ان يظهر اكثر بسالة حتى يكون جديراً بمثل هذه الصحبة .

ولقد ادهش دولوخوف بيتيا أيما دهشة ببساطة ثيابه .

كان دينيسوف يرتدي التشكمين ـ معطف قصير يستعملونه في القوقاز ـ ويحتفظ بلحية كاملة ويضع على صدره صورة القديس نيكولا صانع المعجزات ، يظهر من طريقة كلامه وفي كل حركاته طبيعية مركزه الخاصة . اما دولوخوف الذي كان من قبل في موسكو يلفت اليه الانظار بزيه الفارسي ، فكان الآن على العكس ، يظهر في مظهر ضابط حرس شديد التأنق . كان حليق اللحية بعناية يرتدي بزة الحرس الموشاة وقد تدلى من عروته صليب سان جورج وعلى رأسه

حمرة رتبته . نزع معطفه المبلل في احد الاركان واقترب من دينيسوف دون ان يحي احداً ثم لم يلبث ان راح يتحدث عن العملية المزمع القيام بها . ابلغه دينيسوف النوايا التي تضمرها الكتائب الكبرى نحو القافلة والعروض التي قدمت عن طريق بيتيا والاجوبة التي وجهها الى الجنرالين . ثم اطلعه على ماكان يعرفه عن مركز القوات الفرنسية

قال دولوخوف :

— حسناً جداً ، لم يبق الا معرفة نوع الفرق وعددها لذلك يجب الذهاب لرؤيتها اذ لا يمكن الاندفاع في مثل هذا العمل دون التزود بهذه التفصيلات الدقيقة انني احب ان اعمل عملا نظيفاً هيا ، الا يوجد بين هؤلاء السادة واحد يرغب في مرافقتي الى معسكرهم ؟ ان لدي بزة رسمية ..

هتف بيتيا :

— انا ،انا ... انا سأذهب معك !

قال دينيسوف لدولوخوف :

— لست في حاجة قط الى الذهاب الى هناك . اما هو ،فانني لن ادعه يذهب لأي سبب في الوجود .

فاعترض بيتيا :

— ولماذا اذن ! ولماذا لايجب ان اذهب

— لأن هذا عديم النفع .

— ارجو ان تتفضل بمعذرتي ، لكنني ... لكنني ... سأذهب رغم ذلك هذا كل شيء .

ثم سأل دولوخوف :

— هل ترغب في اصطحابي ؟

فاجاب هذا ساهماً وهو يمعن النظر في وجه الطبال الصغير :

ـ لم لا ؟...

ثم سأل دينيسوف :

ـ هل اسرت هذا الغلام منذ وقت طويل ؟

ـ منذ اليوم ، لكنه لايعرف شيئاً . انني أحتفظ به الى جانبي :

فسأل دولوخوف :

ـ آه ! والآخرون ، اين تضعهم ؟

هتف دينيسوف فجأة وقد تضرج وجهه :

ـ اين اضعهم ؟ انني ابعث بهم لقاء وصل بالاستلام . واستطيع ان اقول بجرأة ان وجداني غير مثقل بقتل رجل واحد . اقول لك بصراحة ان من الافضل ارسال ثلاثين رجلا بل حتى ثلاثمائة تحت حراسة قوية الى المدينة على تلويث الشرف العسكري .

رد دولوخوف بابتسامة جامدة :

ـ ان مثل هذه الاقوال اللطيفة جديرة بهذا الكونت الشاب ذي الستة عشر عاماً . اما أنت ، فكان يجب ان تلقي بها جانباً منذ وقت طويل .

فقال بيتيا في ذعر وخجل :

ـ كيف ! انني لم أقل شيئاً مطلقاً ، انا . اؤكد فقط انني على استعداد لاتباعك .

واسترسل دولوخوف وكأنه يجد متعة في العودة الى هذا الحديث الذي كان يسخط دينيسوف :

ـ اما نحن ، كلانا ايها الأخ ، فكفانا سخافات . هيا ، لماذا احتفظت بهذا الغلام الى جانبك ؟ ـ وأخذ يهز رأسه ـ ألأنه اثار شفقتك ؟ على أية حال ، ان

قيمة ايصالات الاستلام معروفة . انك توصل ما يقارب من مائه ، فيصل منهم قرابة ثلاثين انهم يموتون من الجوع ويقتلون في الطريق . ألا تصبح النتيجة واحدة اذا لم يأسروا قط ؟

ايد قوله الرئيس القوقازي بطرفة عينيه الصافيتين وبايماءة من رأسه .

ــ هذا لا يعنيني اذا كانت النتيجة تصبح واحدة . انني لا اريد تحميل ضميري هذا الوزر . تقول انهم سيموتون رغم ذلك ، لنفرض جدلاً صحة هذا القول ، لكنه لن يكون موتاً بيدي .

انفجر دولوخوف ضاحكاً .

ــ هل تظن انهم لم يصدروا اليهم الاوامر بالقاء القبض عليّ عشرين مرة ؟ انهم اذا وفقوا ، فسيشنقونك مثلي الى شجرة حور واحدة رغم عواطفك الفروسية

وصمت لحظة ثم استأنف :

ــ وبالانتظار ، يجب ان نعمل . ليرسل تابعي القوقازي لأخذ أمتعتي . لدي بزتان فرنسيتان .

وسأل بيتيا معقباً :

ــ اذن ، اتفقنا ، ستأتي معي ؟

هتف بيتيا وقد تضرج وجهه حتى كادت الدموع تتساقط من عينيه :

ــ انا ؟ نعم ، نعم ، دون ريب

ومن جديد ، شعر بيتيا بالانزعاج والاضطراب خلال المناقشة التي دارت بين دولوخوف ودينيسوف حول ما يجب صنعه بالأسرى . لكن المعنى الحقيقي لكلماتهم استغلق عليه من جديد . فكر : « اذ كان الرؤساء المشهورون يفكرون على هذا النحو فلا ريب ان الأمر يجب ان يكون كذلك . المهم هو ان لا يتصور دينيسوف انني ساطيعه وانه يستطيع ان يصدر الي أمراً . لقــد

قررت دون نكول ، سأذهب مع دولوخوف الى المعسكر الفرنسي. اذا كان يستطيع صنع ذلك ، فانني كذلك مستطيعة ! »

ولقد رد بيتيا على كل ما قاله دينيسوف ليثنيه عن عزمه ، بأنه هو الآن يفضل تنفيذ عمله بعناية ودقة لا ان يتركه للحظ ، وأنه على أية حال لا يفكر من جانبه بالخطر مطلقاً .

— على أية حال ، محص الأمر بنفسك ، اذا كنا لا نعرف على الضبط عددهم هناك . . ان حياة المئات من رجالنا قد تكون متوقفة على ذلك ، بينما نحن ، لسنا أكثر من اثنين نعرض أنفسنا للخطر .

وأضاف :

— ثم أن بي رغبة كبيرة في الذهاب الى هناك ، كبيرة جداً ، وأريد الذهاب مهما كلف الامر ، فلا تستوقفني اكثر مما فعلت لأنه لن ينجم عن ذلك الا الأسوأ . .

* * *

الفصل التاسع

في معسكر الاعداء

بعد ان تدثرا بالمعاطف الفرنسية ،ووضعا العمرات على رأسيهما ، اجتاز دولوخوف وبيتيا الأرض الخالية التي عاين منها دينيسوف معسكر الاعداء وخرجا من الغابة في الظلام الحالك ثم هبطا نحو الاعماق . ولما اوغلا في بطن الغور ، أمر دولوخوف القوقازيين المرافقين ان ينتظروه في ذلك المكان ثم مضى يخب على جواده على الطريق باتجاه الجسروبيتيا يتقدم بمحاذاته تماماً وقلبه يتفطر من الانفعال .

همس بيتيا :

ـ إذا أخذنا فلن ينالوني حياً ، لدي مسدسي .

رد دولوخوف بشدة وبصوت خافت :

ـ لاتتكلم بالروسية .

وبنفس الوقت ، دوت في الظلام صرخة « من هناك ؟ » وخشخشة زناد.

اندفع الدم الى وجه بيتيا الذي وضع يده على مسدسه .

اجاب دولوخوف دون ان يبطيء من جري جواده او يضاعفه :

ـ رماحة الفرقة السادسة .

انتصب شبح حارس داكن على الجسر :

– كلمة المرور ؟

اوقف دولوخوف جواده وتقدم خطواً وسأل :

– قل لي ، هل الزعيم جيرار هنا ؟

كرر الحارس وهو يسد الطريق دون ان يجيب :

– كلمة السر ؟

صاح دولوخوف وقداستبد به غضب مفاجيء جعله يدفع حصانه على الحارس

– عندما يقوم ضابط بجولته لا يسأله الحراس عن كلمة السر . . اسألك عما اذا كان الزعيم هنا ؟

ودون ان ينتظر الجواب من الحارس الذي تنحى جانباً ، استمر دولوخوف يرتقي التل في خطى عادية .

وفي العتمة ، شاهد رجلاً يجتاز الطريق ، فاستوقفه دولوخوف وسأله أين أين القائد والضباط . فاقترب الرجل الذي كان يحمل كيساً على كتفه ، وكان جندياً بسيطاً ، من جواد دولوخوف وربت عليه بيده وقال ببساطة ورد ان القائد والضباط في الاعلى ، على التل ، الى اليمين ، في فناء المزرعة (وهكذا كان يسمي بيت السيد) .

وبعد ان تبع الطريق الذي تحفه من الجانبين نيران المعسكرات والذي تتصاعد على جانبيه أصوات الحديث بالفرنسية ، انعطف دولوخوف الى فناء بيت الاقطاعي . وعندما اجتاز العتبة ، ترجل واقترب نحو نار مشبوبة جلس حولها عدد من الرجال كانوا يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع . والى جانب الموقد ، ركع جندي على رأسه قلنسوة الشرطة ، يرتدي معطفا أزرق ، تضيء النيران وجهه اضاءة قوية ، يشوي شيئاً كان يحركه في قصعة مستعملاً قضيب البندقية .

كان أحد الضباط يقول من الجانب الآخر من النار وهو في الظل :

ــ اوه ! انه شديد القسوة .

فرد الآخر ضاحكاً :

ــ سيجعلهم طيعين ، الارانب .

وصمت كلاهما واخذا ينظران الى الظلمات حيث ارتفعت خطوات دولوخوف وبيتيا اللذين كانا يقتربان ممسكين بأعنة جواديهما .

قال دولوخوف بصوت قوي وهو يفصل مقاطع الكلام :

ــ مرحباً ياسادة !

اضطرب الضباط في الظلام ودار احدهم ، وهو فتى عملاق ، ذو عنق طويل حول الموقد واقترب من دولوخوف وسأل :

ــ اهذا انت ، كليمان ؟ من أي . .

لكنه لم يكمل مظهراً بذلك احتقاره . حيادولوخوف وهو مقطب حاجبيه تقطيبة خفيفة كما يحيي مجهولاً وسأله عما يستطيع ان يكون ذا نفع له فيه .

روى دولوخوف أنه وزميله في طريقهما للحاق بفرقتهما وسأل دائرياً ما اذا كان احد يعرف اين أصبح الفوج السادس للرماحة . لم يظهر على أحد من الضباط انه عارف شيئاً عن مكان هذا الفوج ولكن ، خيل الى بيتيا ، ان الضباط كانوا يفحصونهما ، هو ودولوخوف بحذر عدائي . ولقد صمت الضباط جميعاً طيلة ثوان .

قال أحدهم من الجانب الآخر من النار في ضحكة مكتومة :

ــ اذا كنتما تعتمدان على طعام المساء فانكما متأخران جداً .

اجاب دولوخوف بانهما تناولا طعامهما وانهما مضطران لمتابعة سيرهما الليلة بالذات .

سلم زمام حصانه الى الجندي الذي كان يحرك محتويات القصعة وجلس

القرفصاء امام النار بالقرب من الضابط ذي العنق الطويل. فراح ذلك الضابط يحدق في دولوخوف بأبصار شاخصة وسأله مرة اخرى عن الفرقة التي ينتمي اليها . لكن دولوخوف تظاهر بأنه لم يسمع السؤال بل سأل بدوره وهو يدخن غليوناً فرنسياً أخرجه من جيبه عن الحد الذي تخلو الطريق عنده من القوقازيين .

— ان المجرمين في كل مكان .

فأكد دولوخوف ان القوقازيين لايشكلون خطراً الا على المتسكعين مثله ومثل رفيقه لكنهم لا يجرأون قط على مهاجمة فرقة كبيرة فلم يجبه احد .

كان بيتيا يفكر وهو واقف امام النار يصغي الى الحديث : « سوف يذهب الآن »

لكن دولوخوف استأنف اسئلته المتواصلة .سأل دون مواربة عن عدد الرجال في اللواء وعدد الألوية والأسرى وقال وهو يستعلم عن الاسرى الروسيين الذين كانوا في تلك الفرقة :

— يالها من عملية قذرة ان يجر المرء وراءه تلك الجثث . من الافضل قتل اولئك السفلة .

ثم انفجر ضاحكا ضحكة شديدة الغرابة حتى ان بيتيا ظن ان الفرنسيين سينتبهون فوراً الى الخدعة ، فخطا رغم انفه خطوة الى الوراء .

لم يرجع صدى لضحكة دولوخوف . لكن ضابطاً فرنسياً لم يكن في نطاق الرؤية — اذ كان متمددا متدثراً بمعطفة — نهض وهمس شيئاً في اذن رفيقه .

ونهض دولوخوف ونادى الجندي الذي يمسك بقود الجوادين .

حدث بيتيا نفسه وهو يقترب من دولوخوف لا اراديا : « هل سيعيدون الجوادين الينا ام لا ؟ »

اعادوا الجوادين اليهما فهتف دولوخوف :

– اسعدتم مساء ياسادة .

.اراد بيتيا ان ينطق بمثل تلك الجملة لكن لسانه عجز عن النطق .

اخذ الضباط يتحدثون فيما بينهم همساً . ولقد لبث دولوخوف وقتاً طويلا قبل ان يستطيع امتطاء صهوة الجواد لشدة ما كان جواده ينخفجفلا ثم اجتاز البوابة بخطى وئيدة وتبعه بيتيا وهو لايجرأ على الالتفات رغم رغبته الملحة ، ليرى ما اذا كان الفرنسيون سيتبعونهم ام لا .

ولما بلغا الطريق ، سار دولوخوف بمحاذاة القرية بدلا من ان يعود ادراجه عبر الحقول وفي موقف ما ، توقف ليصيخ السمع ، قال : « هل تسمع ؟»وسمع بيتيا اصواتاً تتكلم الروسية وشاهد حول النيران اشباح الأسرى الداكنه . وبعد ان نزلا حتى بلغا الجسر ، مر بيتيا ودولوخوف بالحارس الذي كان يذرع الجسر بخطى كئيبة دون ان ينطق بكلمة ، ثم بلغا الغور حيث كان القوقازيون ينتظرونهما .

قال دولوخوف لبيتيا وهو على وشك الابتعاد :

– والآن الى اللقاء قل لدينيسوف اننا سنبدأ عند الفجر ، بعد اول طلقة مسدس .

لكن بيتيا استوقفه من ذراعه وهتف :

– كلا ! انك بطل لامثيل لك ! آه ! كم هذا رائع ! آه كم هذا بديع ! آه كم احبك !

فقال دولوخوف :

– مفهوم ، مفهوم .

لكن بيتيا لم يدعه ولقد رآه دولوخوف في العتمة ينحني عليه كان يريد ان يقبله . قبلهدولوخوف وهو يضحك واستدار على جواده ثم اختفى في الظلام .

الفصل العاشر

ليلة الهجوم

التقى بيتيا لدى عودته الى مركز الحرس بدينيسوف عند المدخل . لقد كان دينيسوف مضطرباً قلقاً برماً من نفسه لأنه سمح له بالذهاب ، ينتظره ردد وهو يصغي الى رواية بيتيا الحماسية :

– حمداً لله !آه ! حمداً لله !

واسترسل دينيسوف :

– ولكن ليأخذك الشيطان ! لم استطع ان انام بسببك ! آه حمداً لله ! والآن اذهب ونم ، فلدينا الوقت للاغفاء قليلاً قبل ان ينبلج الصبح .

فرد بيتيا :

– نعم ... كلا ، لست نعساً بعد ثم انني اعرف نفسي ، اذا نمت ، انتهى كل شيء على اي حال ، ليس من عادتي ان انام عشية معركة .

ظل بيتيا بعض الوقت جالساً في الكوخ الخشبي يتذكر بفرحة كافة تفاصيل مغامرته ويتصور بشدة كل ما سيقع صباح غد ثم لاحظ ان دينيسوف قد اغفى فنهض وخرج الى الفناء

كان الفناء غارقاً في ليل بهيم والمطر قد كف عن الهطول لكن الاشجار

ظلت تسقط القطرات عن اغصانها . وحول مركز الحرس كانت اكواخ القوقازيين وخيولهم المربوطة معاً ترى اشبه بكتل داكنة . والى الوراء قريباً . كانت عربتا نقل تشكلان بقعة سوداء وقد انتصب الجياد بقربها وفي الوادي ، راحت بقايا النيران تحترق ملقية حولها اشعاعاً احمر لم يكن القوقازيون والفرسان كلهم نائمين . فمن هنا وهناك ، بين اصوات قطرات المياه المتساقطه وحركة اجترار الجياد ، كانت جلبة اصوات خافتة تتناهى الى الآذان كالهمس .

سبر بيتيا عندما اصبح في العراء ، الظلام بنظره ثم اتجه نحو العربتين . كان بعضهم يغط في النوم تحت العربات وحولها جياد مسرجة تأكل علفها . وعلى الرغم من الظلام ، عرف بيتيا جواده الذي اطلق عليه اسم كاراباخ — وهو اسم جواد قوقازي — رغم انه كان من نوع الرومي الصغير ، واقترب منه .

قال له وهو يعانقه ويشم منخريه

— حسناً ياكاراباخ ، غداً سنعمل عملا طيبا كلانا معاً معاً .

هتف قوقازي كان جالساً تحت احدى العربتين :

— كيف ، الاتنام ياسيدي ؟

— كلا ولكن يخيل الي انك ليخاتشيف ؟ لقد وصلت لتوي اذ كنا في زيارة الفرنسيين .

وقص بيتيا على القوقازي ليس تفصيل رحلته فحسب ، بل وكذلك السبب الذي ذهب من اجله ولماذا وجد ان تعريض حياته للخطر افضل من تعريض الرجال كلهم .

قال القوقازي :

— والآن يجدر بك ياسيدي ان تنام قليلا .

فاجاب بيتيا :

— كلا ، وهذه عادتي . آه ! هل حجارة مسدسك غير مهترئة ؟ لقد جئت معي بعدد منها . ألست بحاجة الى بعضها ؟ خذ .

وقرب القوقازي رأسه من تحت العربة ليتسنى له رؤية افضل. استأنف بيتيا

— ذلك ان من عادتي ان اعد كل شيء افضل اعداد. ان الكثيرين يتصرفون تصرفاً ارتجالياً ثم يعضون بنانهم ندماً . اما انا ، فلست احب ذلك .

قال القوقازي :

— انك محق .

— هه ، اليك رجاء آخر ياعزيزي ، اشحذ حسامي ارجوك ، انه كليل . .

وتوقف بيتيا خوفاً من كذبته لأن حسامه لم يشحذ قط — هل تستطيع اداء هذه الخدمة لي ؟

— لم لا ؟ يمكن صنع ذلك .

نهض ليخاتشيف وفتش بين قطع الحديد التي معه فلم يلبث بيتيا ان سمع صليل الحديد الحربي على حجر الشحذ فتسلق العربة وجلس على حافتها بينما راح القوقازي يشحذ السيف تحت المكان الذي جلس فيه

سأل بيتيا :

— قل لي ، هل الرجال كلهم نيام ؟

— بعضهم نائم والبعض الآخر يقظان .

— والطفل ماذا فعلوا به ؟

— فيسيوني ؟ انه هناك نائم عند المدخل . لقد نام لشدة الخوف ولكن كان مسروراً !

بعد ذلك ، ظل بيتيا وقتاً طويلاً صامتاً يصغي الى كل الاصوات وتعالت خطوات في الظل ثم بدأ شبح أسود .

سأل رجل وهو يقترب من العربة :

ــ ماذا تشحذ ؟

ــ انني ارهف سيف السيد .

قال الرجل الذي ظنه بيتيا من الفرسان :

ــ عمل ممتاز . هل حولك هنا قدح ما ؟

ــ نعم ، هناك ، قرب العجلة .

اخذ الفارس القدح وقال وهو يتثاءب :

ــ اظن ان الفجر ليس ببعيد .

وابتعد .

كان على بيتيا ان يذكر انه في الغابة بين رجال دينيسوف على بعد فرسخ من الطريق وانه جالس على عربة نقل سلبت من الفرنسيين كانت الجياد مربوطة حولها ، وان القوقازي ليكاتشيف من تحته يشحذ سيفه وان البقعة السوداء الكبيرة الى اليمين هي مركز الحرس والحمراء في الاسفل هي النار الباهتة على وشك الخمود وان الرجل الذي سأل عن القدح ، فارس استبد به العطش . لكنه لم يعد يعرف ذلك او يريد معرفته . وجد بيتيا نفسه في عالم مسحور لم يكن فيه شيء يشبه الحقيقة . فالبقعة السوداء الكبيرة يمكن ان تكون مركز الحرس لكنها كذلك يمكن ان تكون مغارة تقود المرء الى احشاء الأرض والبقعة الحمراء قد تكون ناراً خابية ، لكنها قد تكون كذلك عين وحش هائل . وقد يكون جالساً فوق عربة كما يمكن ان يكون في اعلى برج دوراي اذ اسقط من اعلاه استمر يوماً كاملا ، بل شهراً كاملا بل دهراً كاملا قبل ان يبلغ الارض ، ولعل القوقازي ليكاتشيف كان تحت العربة فحسب ولكن يمكن كذلك ان يكون تحتها الرجل الأكثر روعة وكمالا وبسالة ، افضل رجل ، ذلك الذي لا يعرفه احد

ولعل الذي لايعرفه احد . ولعل الذي مر باحثاً عن الماء كان فارساً حقيقيا ، ولكن لعل ذلك الفارس قد اختفى فعلاً ولم يكن موجوداً . الا في خياله

لم يعد شيء مما بات بيتيا يراه الآن يدهشه . كان في عالم مسحور كل شيء فيه ممكن الوقوع .

راح يتأمل السماء فبدت له السماء مسحورة كالأرض . كانت السماء تنجلي فوق ذرى الاشجار والغيوم تهرب وكأنها تريد ان تفضح النجوم . وكان كل شيء احياناً يبدو منقشعاً لتظهر مكانه في ذلك الفراغ سماء سوداء نقية . وأحياناً كان يمكن الظن بان تلك البقع ان هي الا غيوم . وأحياناً تبدو السماء شديدة الارتفاع فوق الرؤوس لتخفض أحياناً حتى لتكاد اليد ان تلمسها .

شرع بيتيا يغمض عينيه ويتأرجح .

كانت القطرات تسقط وأصوات وشوشة خفيفه تطرق الاسماع . والجياد تصهل وتتدافع وبعضهم يغط في نومه .

« زيك . . زيك ، زيك . . » كذلك كان الفولاذ الذي يُشحذ يصفر . وفجأة ، خيل الى بيتيا انه يسمع فرقة موسيقية رائعة تعزف نشيداً جليلاً ذا طلاوة غير معروفة . كان بيتيا يحب الموسيقي مثل ناتاشا واكثر من أخيه نيكولا . لكنه لم يدرسها قط أو يفكر فيها ، لذلك فان القطع التي صافحت عقله غريزياً بدت له جديدة كل الجدة بقدر ما كانت جذابة . وكانت أنغام الموسيقى تزداد وضوحاً ، والتوزيع يزداد اتساعاً فينتقل من آلة الى اخرى وكان يحدث مما يُدعى تسلل ، رغم انه لم يكن لدى بيتيا اية فكرة عما يمكن ان يكون تسللاً في الموسيقى . وكل آلة موسيقيه ، تارة شبيهة بالكمان واخرى بالطبل ، رغم امتيازها الأكثر ندرة وصوتها الاكثر نقاء ، كل آلة موسيقية كانت تعزف مقطوعتها الخاصة وقبل انتتمها ، تختلط بأنغام آلة اخرى كانت

تبدأ المقطوعة نفسها تقريباً ، ثم آلة ثالثة فرابعة ثم تختلط الأنغام كلها في نغم واحد وتنفصل من جديد لتندمج مرة اخرى في غناء كنائسي جليل تارة، وتارة في غناء نصر على وضوح باهر .

حدث بيتيا نفسه وهو يكاد يفقد توازنه : « آه ! لكأنني احلم . ان اذني ممتلئتان بالنغم ولعلها موسيقاي نفسها ، هه ، ها هي ذي من جديد . هيا ، يا موسيقاي ، وبنشاط . . . »

اغمض عينيه . ومن كل صوب ، وكأنها آتية من بعيد ، اخذت الانغام ترتفع وتتحد وتتفرق ثم تندمج من جديد في النشيد ذاته ، الرخيم المهيب . وبيتيا يحدث نفسه : « آه ! كم هذا بديع ! على قدر ما أستطيع وبحسب ما أريد » ثم اخذ يحاول ادارة مجموعة ضخمة .

« هيا ، بهدوء ، بهدوء ، بيانو الآن . » فكانت الانغام تطيعه . « والآن هيا ، أقوى ، بأكثر نشاط ، أيضاً ، أيضاً ، بأكثر مرح ! » ومن عمق مجهول اخذت الأنغام ترتفع وتنتشر جليلة . « هيا ، الأصوات الآن ! » ومن بعيد تناهت بادىء الامر اصوات رجال ثم أصوات نساء وأخذت هذه الأصوات تدريجياً تأخذ سعه منتصرة . فشعر بيتيا بأنه مروع ومفتون معاً من جمالها الأخاذ .

ذاب الغناء في « مارش » ظفري ، وظلت تتساقط والسيف يستمر في لحنه « زيك ، زيك ، زيك » والجياد تتدافع وتضرب بحوافرها الارض دون ان تعكر صفو المجموعة بل تنسجم معها .

ما كان يعرف بيتيا منذ كم من الوقت دام ذلك ، فقد ظل يشعر بفتنة اللحن وهو مدهوش آسف لأنه لايستطيع مشاطرة أحد ذلك الطرب . وايقظه صوت ليخاتشيف الودود :

ـ يا صاحب النبالة ، لقد انتهى .سوف تستطيع الآن ان تشطر بهفرنسيا الى شطرين .

وخرج بيتيا من ذهوله فهتف :

ـ ها هو ذا النهار ، حقاً ، لقد طلع الضوء !

أصبحت الجياد التي ظلت حتي ذلك الحين غيرواضحة للعين ،ترى من الرأس حتى الذيل . وخلال الاغصان العارية ، كان يرى ضوء مبلل بالماء . تمطى بيتيا وقفز من فوق العربة واخذ من جيبهروبلاً من الفضة اعطاه لليخاتشيف وامسك بسيفه فرسم به دائرة حولهثم اختبر مضاءه واعاده الى غمده . وكان القوقازيون يفكون الجياد ويشدون محازمها من جديد .

قال ليخاتشيف :

ـ ها هو ذا القائد .

ولقد استدعى دينيسوف الذي خرج من حينه من مركز الحرس بيتيا وأمره ان يتخذ اهبته .

الفصل الحادي عشر

الهجوم

اعدوا الخيول بسرعة في نصف العتمة المنتشرة واحكموا محازمها من جديد ثم اخذ كل واحد مكانه في الكوكبة . وكان دينيسوف واقفاً أمام مركز الحرس يعطي تعلياته الاخيرة . اخذ المشاة امكنتهم في المقدمة فارتفعت جلبة حوالي مائة قدم تجوس خلال الطين ولم تلبث ان اختفت بين الاشجار في ضباب الصباح . وعاد رئيس القوقازيين يكرر أمره الى رجاله بينما امسك بيتيا جواده من مقوده وراح ينتظر بصبر نافذ أمر اعتلاء صهوات الجياد . وكان وجهه الذي غمسه في الماء البارد ، وخصوصاً عيناه ، تتلظى بالحمى والقشعريرات تسري في ظهره وجسمه ينتفض برعدة سريعة منتظمة .

هتف دينيسوف :

ـ اذن ، هل أنتم على استعداد ، الى السرج !

قدمت الجياد فسخط دينيسوف على قوقازي لأن محازم مطيته كانت رخوة ثم امتطى جواده بعد ان اطلق بضع سباب . ووضع بيتيا قدمه في الركاب فاراد حصانه كعادته ان يعضه في ساقه، لكنه رفع نفسه كريشة واعتلى السرج في لمح البصر واقترب من دينيسوف ونظرته شاخصة الى الفرسان الذين بدأوا يتماوجون وراءه في الظلام . قال :

— فاسيلي فيدوروفيتش، سوف تعهد الي بمهمة ما أليس كذلك ؟ . . ارجوك

وبدا على دينيسوف انه نسي وجود بيتيا فشمله بنظرة وقال له بصرامة :

— لا أطلب منك الاشيئاً واحداً : ان تصغي الي وان لاتحشر انفك حيث لايعنيك .

ظل دينيسوف يجبل بصمت خلال الرحلة كلها دون ان يوجه كلمة واحدة اخرى الى بيتيا . . وعندما بلغوا تخم الغابة ، كان السهل قد اخذ من الضياء حاجته . قال دينيسوف بضع كلمات في اذن رئيس القوقازيين بصوت خافت فلم يلبث هؤلاء ان عرضوا امامه وامام بيتيا . ولما مروا جميعاً ، اعاد دينيسوف جواده الى الحركة فانحدر به على حافة الوادي فراحت الافراس الاخرى تنزلق على أثاره حتى بلغوا بطن الغور . وكان بيتيا يخيل الى جانب دينيسوف والرعدة التي تنفض جسمه آخذة في العنف والضياء يزداد انتشاراً فلم يعد الضباب يغطي غير الاشياء البعيدة . وعندما بلغوا الاسفل، ادار دينيسوف رأسه الى القوقازي الآتي وراءه وقال :

— الاشارة !

فرفع القوقازي يده ودوى طلق ناري . فلم يلبث جري الجياد ان ارتفع وهي تندفع الى الامام وشقت الصيحات عنان السماء مختلطة بطلقات نارية .

في المحظة التي ارتفع فيها جري أول حصان وعلت الصيحات الاولى ، ساط بيتيا جواده وارخى له العنان ثم اندفع الى الامام لايصغي الى دينيسوف الذي كان يصيح به شيئاً ما . خيل اليه ان نور النهار الغامر قد حل في الدقيقة نفسها التي اعطيت فيها الاشارة فجرى بحصانه مباشرة نحو الجسر . وامامه ، على طول الطريق ، كان القوقازيون يركضون على الجياد . وعلى الجسر ، قلب قوقازياً متخلفاً دون ان يخفف من سرعة جواده، وامامه، كان بعض الرجال، فرنسيون

ولا ريب ، يركضون من الجانب الايمن الى الجانب الايسر من الطريق فسقط أحدهم في الوحل تحت قوائم حصان بيتيا .

كان عدد من القوقازيين مجتمعين امام كوخ خشبي مشغولين في عمل ما . ومن مركز جماعتهم ، دوت صرخة مريعة . جرى بيتيا اليهم فكان أول ماوقع بصره عليه وجه فرنسي منقلب الاسارير يرتعد فكه الاسفل ، كان يمسك بخشبة رمح موجه اليه .

صرخ بيتيا :

— هورا ! ايها الفتيان . . انهم رجالنا .

وأرخى لجواده العنان وقد أثاره العـــدو ، فمضى كالسهم على طول الشارع أمامه .

والى الامام انطلقت بعض الرصاصات وراح الفرسان والقوقازيون والاسرى في اسمالهم ، يجرون من جانب الشارع الى جانبه الآخر ويطلقون صيحات صاخبة مكتومة . واخذ فرنسي شاب عاري الرأس احمر الوجه متقلصه ، في معطف أزرق ، يدافع عن نفسه بحربته ضد الفرسان ، فلما وصل بيتيا الى جانبه كان قد سقط . حدث بيتيا نفسه في مثل لمح البرق : « تأخرت هذه المرة أيضاً » ثم اندفع نحو المكان الذي انطلقت منه لعلعة الرصاص . كان الرصاص يلعلع في فناء بيت الاقطاعي حيث كان العشية مع دولوخوف . لقد تمركز الفرنسيون هناك وراء حاجز في البستان تغطيه أعشاب كثيفة وراحوا يطلقون النار على القوقازيين المتجمهرين امام الباب الكبير . ولما اقترب من الباب ، شاهد بيتيا خلال الدخان وجه دولوخوف شاحباً شحوباً ضارباً الى الزرقة يصرخ بكلام الى رجاله . وفي اللحظة التي بلغ بيتيا مقربة منه سمعه يزمجر : « خذوهم من الخلف ! انتظروا المشاة ! »

هتف بيتيا الذي اندفع دون أن يتأخر ثانية اخرى نحو المكان الذي يلمع منه الرصاص في غمار الدخان الكثيف :

ـ الانتظار ؟ . . . هورّا !

وانطلقت مجموعة من الرصاص وراحت التائهة منها تصفر وتفرقع . واندفع القوقازنون ودولوخوف على أعقاب بيتيا خلال البوابة المفتوحة . وفي الدخان الكثيف المتحرك ، راح بعض الفرنسيين يلقون أسلحتهم ويجرون خارجين من وراء الدغل للقاء القوقاريين بينما فرّ البعض الآخر نحو أسفل التل باتجـــاه المستنقع . استمر بيتيا يجـري بجواده في الفناء ولكن ، بدلاً من أن يمسك بالأعنة ، كان يلوح بزراعيه بشكل مضحك سريع ويزداد انحناء على سرج جواده ولما وطأ جواده بقائمته جذى نار كانت خابية غير مرئية في ضوء الصباح ، رفس بخلفيتيه فانهار بيتيا بتثاقل على الأرض الندية . ورأى القوقازيون ذراعيــــه وساقيه تتحرك دون أن تشمل الحركة رأسه . لقد اخترقت رصاصة رأسه .

وبعد أن تفاوض دولوخوف مع قائد الكتيبة الذى خرج من البيت وعلى ذؤابة سيفه منديل أبيض يعلن استسلام رجاله ، ترجل عن جواده واقترب من بيتيا الذي كان مسجى على الأرض لا حراك به ممدد الزراعين ،

قال وهو يقطب حاجبه :

ـ لقد نال نصيبه .

ثم مضى الى البوابة للقاء دينيسوف الذي كان قادماً .

صرخ دينيسوف الذي فهم من بعيد معنى الوضع الذي كان عليه بيتيا على الأرض :

ـ لقد قتل ؟

فردد دلوخوف وكأنه يجد متعة في استعمال هذه الكلمات :

– لقد نال نصيبه .

واندفع نحو الاسرى الذين أحاط بهم القوقازيون المارعون في تلك الآونة وصاح يخاطب دينيسوف :

– لا اسرى !

لم يجب دينيسوف . اقترب من بيتيا وترجل من على جواده وأدار نحوه وجه الفتى بيدين مرتعشتين ، ذلك الوجه المغطي بالدم والوحل الذي كان على وشك الامتقاع .

وقرعت اذنيه عبارات بيتيا : « انني معتاد على الحلويات . زبيب ممتاز ، خـذوه كله ! » وعادت الى ذاكرته . وراح القوقازيون ينظرون وراءهم بدهشة وقد سمعوا ما يشبه العواء يطلقه دينيسوف الذي أخـذ يبتعد مسرعاً ليقترب من الحاجز ويتشبث به .

كان في عداد الاسرى الروسيين المحررين من قبل دينيسوف ودولوخوف بيير وبيزخوف .

القوزاق تفاجىء جيش مورات

الفصل الثاني عشر

حالة الاسير بيير

لم تتخذ القيادة الفرنسية منذ ارتحالها عن موسكو أي تدبير جديد يتعلق بقافلة الاسرى التي كان بيير في عدادها . ومنذ الثاني والعشرين من تشرين الاول ، لم تعد هذه الكتيبة مع القطعات والقوافل التي كانت معها عندما غادرت موسكو . وقد نهبت نصف العربات التي كانت تتبعها محملة بالمؤن من قبل القوقازيين خلال المرحلة الأولى من الطريق أما النصف الآخر فقد ارسل الى الطليعة . ولم يبق واحد من الفرسان الذين فقدوا جيادهم والذين كانوا يسبقونهم . لقد اختفوا جميعاً والمدفعية التي كانت تشاهد طيلة الايام الاولى في المقدمة ، استبدلت بالمتاع الكثير التابع الماريشال جونو[1] يواكبه الوستفاليون . وفي أعقاب السجناء ، سارت قافلة محملة بتجهيزات الفرسان .

وابتداء من فيازما ، لم يعد الجيش الفرنسي الذي كان يمشي على ثلاثة

---

(١) اندوس جونو ، دوق دابرانتيس ، جنرال فرنسي ولد في بوسي لوجران (شاطىء الذهب) عام ١٧٧١ وكان مساعداً عسكرياً لنابليون الاول خلال حملة ايطاليا . ساهم في حملة مصر واستولى على ليشبونة عام ١٨٠٧ . انتحر بسبب نوبة جنون اصيب بها عام ١٨١٣ .

صفوف ، الا قطيعاً من السائمة . ولقد بلغت الفوضى التي سجلها بيير منذ المرحلة الاولى بعد موسكو ، اقصى درجاتها .

تناثر على الطريق التي يتبعونها جياد نافقة ورجال في اطمار ، متخلفون تابعون لأسلحه مختلفة ، يتبدلون في كل حين ، فتارة ينضمون الى الفرقة السائرة وطوراً يدعونها تتقدمهم .

ولقد حدث مرات خلال الطريق ان قُرع نذير الخطر دون ان يكون له مايبرره ، فكان جنود الفرقة يسددون بنادقهم ويطلقون النار ويفرون باقصى سرعة ، يتدافعون ثم يلتئمون من جديد ويتبادلون اللون على ذعرهم القاتل العقيم .

كانت هذه العوامل الثلاثة تمشي معاً ، مستودع تجهيزات الفرسان والاسرى ومتاع جونو ، وتشكل معاً وحدة . ذلك فقد كانت هذه العوامل تذوب بسرعة متعادلة .

لم يبق من مستودع التجهيزات الذي كان يعد بادىء الأمر مائة وعشرين عربة اكثر من ستين عربة ، اما القسم الآخر فقد نهب او هجر . ولقد لاقت عربات كثيرة تابعة لجونو مثل هذا المصير ونهب متخلفون من جيش دافو ثلاثاً معها . ولقد علم بيير من اصغائه الى احاديث الألمان أن هذه القافلة تلقت فرقة للحراسة اقوى من حراسة الاسرى وان واحداً من مواطنيهم قد اعدم رمياً بالرصاص بأمر الماريشال نفسه لأنهم وجدوا معه ملعقة فضية تخصه .

بيد ان الجزء الذي كان اكثر ذوباناً من الآخرين هو جزء الأسرى . لم يبق من الثلاثمائة اسير الذين غادروا موسكوا اكثر من مائة كانوا يضايقون المواكبين اكثر مما كان يضايقهم متاع جونو ومستودع التجهيزات . فالتجهيزات وملاعق جونو كانت قابلة للاستعمال والاستفادة منها عند الضرورة . ولكن مافائدة ارغام جنود مجوعين يرتعدون برداً على حراسة روسيين يماثلونهم في الجوع والتأثر من

البرد ، روسيين كانوا يتجمدون من البرد وكانت الاوامر تحتم عليهم اطلاق النار على من يبقى منهم في مكانه ؟ لم يكن ذلك مستعصياً على الفهم فحسب بل وكريهاً كذلك . وكأنهم كانوا يخشون انفسهم في موقفهم الدقيق ذاك ان يأخذهم شعور بالشفقة على الاسرى فيزيدون بذلك مركزهم الحرج خطورة ، لذلك كانوا يجرونهم بقسوة انعدمت فيها الرحمة اطرادا .

وفي دوروجوبوجيه ، بينما راح الجنود يسلبون مستودعاتهم نفسها ، سجن الاسرى في اصطبل . فحفر بعضهم ثغرة تحت الجدار فروا خلالها لكنهم أخذوا من جديد واعدموا .

ولقد اغفل النظام الذي اقيم لدى الخروج من موسكو ، والذي وجب على الضباط تبعاً له ان يسيروا منفردين عن الجنود ، وبات كل من يستطيع التقدم يمشي مع السائرين . وبذلك لم يلبث بيير ان وجد نفسه الى جانب كاراتاييف والكلب ذي القوائم الملتوية والشعر المائل الى البنفسجي الذي اعتبر كاراتاييف سيداً له .

بعد يومين على مغادرة موسكو ، عادت الحمى الى كاراتائييف ، وكانوا قد اودعوه المستشفى بسببها ، وكلما ازداد ضعفه ، ازداد ابتعاد بيير عنه . لم يدرك بيير السبب الذي بات يدفعه منذ ان بلغ سوء حالة كاراتاييف مداه ، الى بذل مجهود على نفسه للدنو منه . بات بيير الآن كلما سمع أنين كاراتاييف الخافت الذي اعتاد عليه كلما استراحوا عقب مرحلة ، وصافحت خياشيمه الرائحة شديدة النفاذ التي تفوح من جسمه ، يبتعد عنه حتى كف عن التفكير فيه .

فهم بيير في مبنى السجن ، عندما احتك مع الاسرى ليس بعقله بل بكل كيانه ، ان الانسان خلق للسعادة وانه يحمل سعادته في نفسه ، في ارضاء نزعاته الطبيعية وان كل شقاء يصيبه ، سببه نقص او زيادة في ذلك الارضاء . اما الآن

بعد هذه الاسابيع الثلاثة من المشي ، فقد حصل على حقيقة جديدة معزية . اكتشف انه لايوجد في العالم شيء مريع حقاً . واكتشف بنفس الوقت انه اذا لم يكن هناك موضع يكون فيه الانسان سعيداً وحراً سعادة وحرية كاملتين فانه كذلك لايوجد مكان يكون فيه شقياً واسيراً شقاء وعبودية كاملين . فهم ان هناك حداً للألم وحداً للحرية وان هذه الحدود تتلاقى ، وان الرجل الذي يتألم وهو على سرير من الورد لأن احدى البتلات قد انثنت تحته ، يتألم مثل ما يتألم هو الآن ، وهو الذي ينام على الارض الرطبة العارية ، وجسدة متجمد من جانب ودافىء من الجانب الآخر ، وانه يتألم الآن لانه دون أحذية اذ استبعدت احذيته من الاستعمال منذ أمدطويل ـ على قدمين حافيتين تغطيها القروح بقدر ما كان يتألم من خفية الضيقين اللذين كان ينتعلها عند ذهابه الى الحفلات الراقصة . فهم انه عندما تزوج بملء اختياره كما كان يظن ، لم يكن اكثر حرية مما هو عليه الآن وهو الذي يحبسونه ليلا في زريبة ، وانه كل ما بات فيما بعد يعتبره آلاما ، رغم انه لم يشغل نفسه بها في حينه ، فان اسوأها مرده قدميه الحافيتين اللتين تغطيها الجروح والقروح . فلحم الحصان بات في نظره لذيذاً يفتح الشهية والحلقة التي يتركها ملح البارود المستعمل بدلاً من ملح الطعام في الفم ، مقبولة طيبة . ولم يكن البرد قارساً . ففي النهار ، اثناء السير ، ينبعث الدفء في الاوصال . وفي الليل ، توقد النيران والقمل الذي ينهش الجلود يدفئها) فالشيء الاليم الوحيد الذي كان عسيراً عليه في البداية كان قدميه .

وفي المرحلة الثانية ، بينما وهو يتأمل قروحه على وميض النار ، فكر بيير انه لن يستطيع المسير . ولكن عندما شرع الجميع في السير ، مشىدون الم رغم ان جروحه باتت مساء اشد اذى وأبشع للنظر وحينئذ كف عن تأملها واجتهد في ان يكف عن التفكير فيها .

في تلك الآونة ، درك بيير مدى الاحتمال البشري والقوة المخلصة الـــتي تحول الانتباه وتعمل في خدمتنا عمل صمامات الأمان التي تطرح الفائض من البخار في المراجل كلما تخطى الضغط الحد الطبيعي .

مـا كان يرى أو يسمع اعدام الاسرى المتخلفين رغم ان اكثر من مائة منهم قضوا على هذا النحو . وما كان يفكر في كاراتاييف الذي كان ينهار يوماً اكثر من يوم والذي وجب ان ينتهي يوماً ما على ذلك النحو . بل انه اصبح أقل تفكيراً في نفسه . وكلما ازدادت حاله سوءاً ، ازداد انفصالاً عن كل ماحوله ليجد اكثر عذوبة وعزاء في أفكاره وذكرياته واحلامه .

الفصل الثالث عشر

حكاية بائع عجوز

في الثاني والعشرين من تشرين الاول ، كان بيير يرتقي هضبة على طريق موحل زلق وهو يتأمل قدميه وخشونة الطريق . ومن حين الى آخر ، كان يلقي نظرة حوله على جمهرة رفاقه ثم يحدق في قدميه من جديد . لقد كان كل شيء مطابقاً لنفسه وأليفاً . وكان سيري ، الكليب ذو الشعر البنفسجي ، يجري على جانب الطريق ويرفع احدى خلفيتيه احياناً ليظهر براعته ، ثم يقفز على الثلاث ثم على أربع ويهجم على الغربان نابحاً وهي على الجيف . لقد كان سيري اكثر مرحاً وأوفر صحة مما كان عليه في موسكو . فاللحم ملقى في كل مكان جثث الرجال والجياد – متفاوت التفسخ ومرور الجنود كان ينفر الذئاب لدرجة تجعل سيري قادراً على ان يتناول منها مشتهاه .

كان المطر يهطل منذ الصباح ، يخيل الى الناظر في كل لحظة انه على وشك التوقف . وان السماء ستصفو ، لكنه لاتلبث حتى ينهمر أقوى من ذي قبل بعد هدأة قصيرة . ولم يعد الطريق المشبع ، يبتلع أمواها جديدة ، فكانت السواقي تسيل في اثار العجلات .

كان بيير يمشي وهو ينظر حوله ، يحصي خطواته ثلاثاً فثلاث وهو يثني اصابعه بعد كل مرة ويقول في سره مخاطباً المطر : «هيا ، هيا ، أيضاً ، أيضاً .»

كان يظن انه لايفكر في شيء لكن روحه كانت غارقة بعيداً بتعمق في مكان ما من أفكاره الخطيرة المهدئة . لقد كان ذلك نتيجة فكرية لمحادثة دارت امس بينه وبين كاراتاييف .

ذلك ان امس مساء ، عند نهاية المرحلة ، بينما هو يرتعد بالقرب من نار على وشك الخمود ، نهض بيير للاصطلاء قرب النار المجاورة الاكثر شبوباً . وكان بلاتون جالساً هناك متدثراً من رأسه الى قدميه بمعطفه وكأنه في حلة القداس ، يروي للجنود بصوته المريض الضعيف ولكن العذب ، قصة معروفة من بيير وكان الوقت بعد منتصف الليل ، وهي الساعة التي كان من عادة كاراتاييف ان يصاب خلالها بنوبة من الحمى فتنبعث الحيوية في اوصاله ويبلغ حالة من الانفعال خاصة ولما سمع بيير صوت المسكين وشاهد وجهه المثير للرأفة يضيئه اللهب بشدة ، أحس بانقباض في قلبه كريه خشي من شفقته واراد ان يبتعد . ولكن لم يكن هناك غير هذه النار ، فأقعى وهو يجتهد ان لاينظر الى بلاتون .

سأله :

ـ حسناً ، كيف حال صحتك ؟

قال كاراتاييف الذي استأنف قصته فور الاجابة :

ـ الصحة ؟ ان البكاء على المرض ، يؤدي الى منع الله من ارسال الموت .

واسترسل وعلى وجهه الهزيل الشاحب ابتسامة وفي نظرته ومضة فرح خاصة :

ـ وها انه ياعزيزي ، ها انه ياعزيزي . .

كان بيير يعرف تلك الحكاية منذ زمن طويل اذ قصها عليه كاراتاييف خمس مرات او اكثر وبسرور دائم لم يتبدل . لكنه على الرغم من معرفته لها عن ظهر قلب ، فقد شعر نحوها بجاذبية الاشياء الجديدة اذ انتقل الحماس القريب الذي بدا جلياً على كاراتاييف الى روحه . انها حكاية بائع عجوز يعيش مع امرته

في النزاهة وخشية الله ، مضى ذات يوم مع احد رفاقه الاغنياء ، وهو بائع مثله ، الى معرض ماكاريبه – اسم معرض نيجني – نوفجورود الشعبي – .

نزل البائعان في خان وناما . ولكن الغني وجد صباح اليوم التالي مقتولاً مسلوباً واكتشفت السكين الملوثة بالدم تحت وسادة البائع العجوز ، فحاكموه وساموه عذاب الضرب وانتزعوا له انفه كما يقتضيه النظام القائم حينذاك – على حد تعبير كاراتاييف وأرسلوه الى سجن الاشغال الشاقة .

وها انه ياعزيزي . . (ووصل بيير عند هذا الجزء من الحكاية) يقضي هناك اكثر من عشر سنين والعجوز لايزال في سجنه الأليم ، يخضع كما يجب له ان يخضع دون ان يسيء الى أحد . لكنه يطلب الى الله فقط ان يدعه يموت . حسناً . . وذات ليلة ، هاان المحكومين يجتمعون ، مثلنا هنا ، ومعهم العجوز ويشرع كل منهم في رواية السبب الذي حكم عليه من اجله للآخرين ولماذا هو مذنب امام الله . كان كل يروي قصته : فهذا قتل نفساً وذاك اثنين وثالث اشعل النـــار في مكان ورابع مملوك هارب حكم عليه دون جريرة . ثم سئل : « وانت ياجداه ، لماذا انت هنا ؟ » فقال : « آه ! يااخواني الاعزاء ، انني أتألم لخطاياي ولخطايا الآخرين ، لانني لااحمل وزر نفسي على ضميري ولم آخـذ مال الغير بل انني تقاسمت ما معي دائماً مع اخواني التعساء . انني بائع يااخواني الاعزاء واقد كنت واسع الغنى . » واذا به يروى لهم القصة كلها . قال لهحكايته من طرف الى طرفها الآخر وقال : « انني لاأشكو من أجل نفسي . انني أنا الذي اختاره الله لأكفر عن خطيئات الناس . لكن شيئاً واحداً يؤلمني ، هو زوجتي العجوز واولادي . » وها هو ذا ينخرط في البكاء . وها انه في عـداد الجماعة ، الرجل اياه الذي قتل البائع . سأل : « جداه ، اين وقع الحادث ؟ متى وفي أى شهر ؟ » سأل كل التفاصيل وآلمه قلبه . اقترب هكذا من العجوز

دنیس دافیدوف

وسقط على قدميه وقال : « بسببي انا ، ايها العجوز الطيب ، تتألم انت . ايها الرفاق ، انها الحقيقة الحقة ، هـذا الرجل يتألم دون سبب . انني انا مرتكب الحادث وانا الذي وضعت تحت رأسه السكين الملوثة بالدماء . سامحني يا جداه ، سامحني محبة بالمسيح . »

وصمت كاراتاييف وراح يرتب الحطب في النار وهو يحدق في اللهب وعلى وجهه ابتسامة سعيدة .

استأنف كاراتاييف الكلام وقد أشرق وجهه اكثر من ذي قبل بابتسامة ظافرة وكأن ما بقي عليه ان يرويه من القصة كان الجزء الأكثر أهميـة وتعبيراً فيها :

ـ وقال العجوز : « انه الله الذي سيغفر لك . اما نحن جميعنا ، فاننا خاطئون امامه . وانا ، انني اتألم من اجل خطاياي . »وهاهو ذا يبكي بدموع حارة . وماذا تظن ياصقري الصغير ؟ ماذا تظن ياصقري الصغير ؟ لقد ذهب القاتل يشي بنفسه الى السلطات بنفسه . قال : «لقد قتلت ستة اشخاص ـ وكان قاتل كبير ـ لكن مايدخل الأسف الى قلبي اكثر من سواه ، هوهذاالعجوز المسكين . لايجب ان يبكي بسببي . » لقد وشى بنفسه اذنفكتبوا ورقـة وارسلوها كما يقتضي الحال وكان لمكان بعيداً فاستغرقت وقتاً طويلا قبل ان يلتئم شمل المحكمة وتصدر الحكم وتكتب الاوراق اللازمة من سلطات الى سلطات . وبلغ الامر اعتاب القصر ، واخيراً وأخيراً وصل امرالقيصر : ليطلق سراح البائع وليصرف له التعويض حسب القرار . وأرسلت الورقة فبحثوا عن العجوز . « اين العجوز الذي حكم عليه ظلماً ؟ ان ورقة القيصر هنا ! »بحثوا عنه وهنا ارتعدت ذقن كاراتاييف ـ لكن الله كان قد غفر له قبل ذلك اذ كان قد مات . واعقب كاراتاييف مستنتجاً :

— وهذا ياصقري العزيز هو ختام القصة .

وراح يحدق طويلا في الفضاء امامه وعلى شفتيه ابتسامة صامتة

ولم تكن القصة نفسها ، بل معناها الخفي ،التمجيد المشرق الذي ينير وجه كاراتاييف وهو يرويها ، ذلك المعنى الخفي لتلك البهجة هو الذي كان الآن يملأ بيير ارتياحاً غامضاً حلوا .

* * *

الفصل الرابع عشر

مقتل كاراتاييف

وفجأة صاح صوت: «الى اماكنكم!» وسرت بين الاسرى وجنود الموكب بلبلة بهيجة وراحوا جميعاً ينتظرون شيئاً ما سعيداً جليلا . تناهت الاوامر من كل مكان ، والى يسار الفصيلة ، ظهر فرسان على جياد مطهمة مجهزة افضل تجهيز تخطوا الأسرى . واتخذت الوجوه كلها ذلك التعبير الملزم الذي يفيض على وجوه الناس لدى دنو شخصيات رفيعة المقام . وجمع السجناء ودفعوا بعيداً عن الطريق واصطف الحرس المواكب :

– الامبراطور ! الامبراطور ! الماريشال ! الدوق !

وما ان عرض الرجال الذين ينعمون بافضل تغذية ، والذين كانوا يشكلون الحاشية ، حتى وصلت عربة « تجرها ستة جياد شهباء مثنى مثنى ، محدثة قعقعة مرتفعة . وشاهد بيير في طرفة عين وجهاً ضخماً شاحباً منتفخاً لرجل على رأسه قبعة ثلاثية الزوايا . كان واحداً من الماريشالات ولقد حطت نظرة ذلك الرجل العظيم على هيكل بيير الضخم فخيل لهذا انه رآى في طريقة تغطية حاجبيه واشاحته برأسه عنه ، تعبيراً بالاشفاق عليه اراد اخفاءه .

وكان الجنرال الذي يقود القافلة ، احمر الوجه مذعور التقاطيع ، يدفع حصانه

المهرول خبباً وراء العربة . واجتمع بعض الضباط واحتشد حولهم الجنود ووجوههم جميعاً تنطق بالقلق والتوتر .

سمع بيير :

ــ ماذا قال ؟ ماذا قال؟

وعند مرور الماريشال ، جمع الاسرى ، فشاهدبيير كاراتاييف الذي لم يكن قد رآه بعد ذلك الصباح . كان كاراتاييف جالساً في معطفه القذر مستنداً الى شجرة سندر ووجهه الذي ظل محتفظاً بتحنان العشية العذب ، عندما كان يروي قصة آلام البائع البريء ، يشع بالهدوء والاشراق اكثر من ذي قبل .

كان كاراتاييف يتأمل بيير بعينيه الطيبتين المستديرتين المخضلتين بالدموع ويحاول بشكل ملموس ان يستقدمه اليه ليقول له شيئاً ما، لكن بيير كان شديد الخوف على نفسه لذلك فقد تصرف وكأنه لم ير تلك النظرة وبادر الى الابتعاد.

وعندمااستأنف الأسرى المسير،القى بيير نظرة الى الوراء.كان كاراتاييف جالساً حيث كان الى جانب الطريق مستنداً الى شجرة السندر ذاتهاوالى جانبه فرنسيان يتحدثان وهما يشيران اليه فلم يستزد بيير من النظر وراح يرتقي المرتفع وهو يعرج في مشيته .

وفي المؤخرة ، في المكان الذي كان كاراتاييف جالساً فيه ، دوى طلق ناري ولقد سمع بيير الانفجار بوضوح . لكنه تذكر في اللحظة نفسها انه لم يفرغ بعد من حساب المراحل الى سمولنسك ، ذلك الحساب الذي بدأ فيه قبل مرور الموكب . فعاد الى الاحصاء من جديد . ومر جنديان فرنسيان من امامه وهما يجريان وفي يد احدهما بندقية لازال الدخان ينبعث منها . كانا شاحبين كلاهما وفي قسمات وجهيهما ــ عندما القى احدهما عليه نظرة مذعورة ــ وجد بيير لوناً مما شاهده على وجه الجندي الشاب عند اعدام مشعلي الحرائق.نظر بيير الى ذلك

مقتل قائد الفصيل كاراتييف

الجندي فعرف فيه ذاك الذي أمس الاول ، احرق قميصه وهو يجففه امام النار وتذكر انه سخر منه .

فظل كاب يزمجر في المكان الذي ظل فيه كاراتاييف .

ففكر بيير : « ياللغبي ، لماذا يعوي هكذا ؟ »

اما الجنود والرفاق الذين كانوا يسيرون الى جانبه،فانهم لم يلتفتوا اهم كذلك الى المكان الذي دون فيه الطلقة النارية ثم ارتفع منه عواء الكلب. لكن الوجوه كلها اتسمت بميسم صارم .
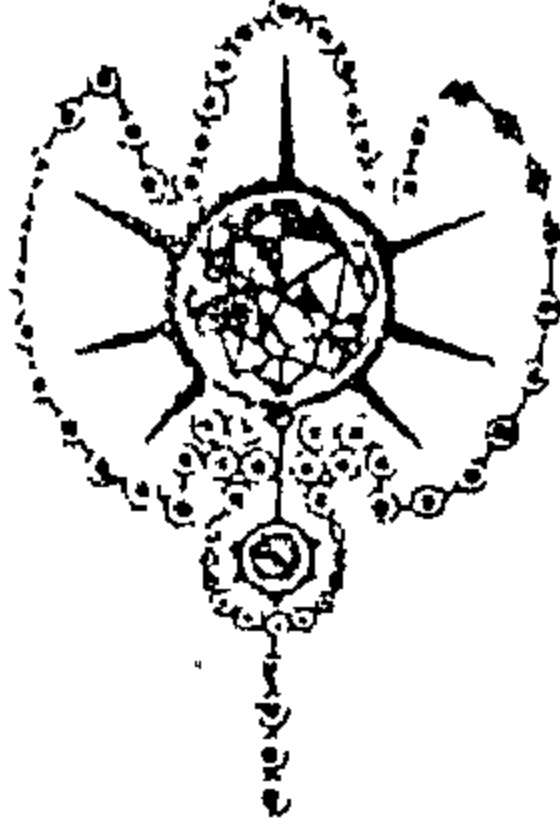
الفصل الخامس عشر

الخلاص

توقفت قافلة التجهيزات والأسرى وأمتعة الماريشال في قرية شامشيفو واجتمع الاشخاص كلهم حول المعسكرات . اقترب بيير من احدى النيران وأكل قطعة من لحم الحصان ثم اضطجع وظهره الى النار ولم يلبث ان اغفى . لقد نام بمثل تلك السنة التي استولت عليه في موجائيسك ، بعد بورودينو .

ومن جديد اختلطت الوقائع الحقيقية بحلمه ومن جديد ، اخذ صوت ، صوته او صوت آخر ، يشرح له الآراء ، تلك الآراء نفسها التي واتته في موجائيسك .

ــ ان الحياة هي كل شيء ، الحياة هي الله . كل شيء يتحرك ويتحول وهذه الحركة هي الله . وطالما بقيت الحياة ، تبقى سعادة حمل الشعور بالله في أعماق النفس . وحب الحياة هو حب الله . والأكثر صعوبة ، الأكثر جزاء وثوابا هو حب الحياة بآلامها ، بألمها الظالم .

وتذكر بيير كاراتاييف .

وفجأة ، وكأنه لازال على قيد الحياة ، عاد يرى الكهل اللطيف الصغير لم يعد يفكر فيه منذ أمد طويل ، والذي كان يعلمه الجغرافيا في سويسرا . قال له الكهل الصغير : « انتظر وأراه كرة ارضية . كانت تلك الكرة حية تتذبذب

دون ان يكون لها محيط دقيق . لقد تشكلت مساحتها كلها من قطرات من الماء شديدة الالتصاق بعضها ببعض. وهذه القطرات كانت تتحرك وتبدل مكانها فتارة يختلط عدد منها في قطرة واحدة ، وطوراً كانت واحدة تنقسم الى ملايين اخرى . وكانت كل قطرة تحاول ان تنتشر وان تشغل اكبر حيز ممكن لكن القطرات الاخرى كانت تعمل مثل ذلك فتضغطها تارة وتحذفها تارة اخرى وتختلط معها .

قال المدرس العجوز :

ـ هذه هي الحياة .

فكر بيير : « كم هي بسيطة وواضحة . كيف لم ادركها من قبل ؟ »

ان الله في الوسط ، وكل قطرة تحاول ان تتمدد كي تعكسه على اوسع مدى ممكن . وهي تكبر وتنبسط ثم تنقبض وتختفي عن السطح وتنزل الى الاعماق ثم تصعد من جديد . انها مثل كاراتاييف . لقد انبسط ثم اختفى . هل فهمت ياولدي ؟ هكذا كان يقول المدرس العجوز .

وصاح صوت ايقظ بيير :

ـ هل فهمت يا . . . !

نهض وجلس امام النار ، كان جندي فرنسي مشمر عن اكمامه قد دفع لتوه جنديا روسياً وجلس القرفصاء ليشوي قطعة من اللحم على طرف قضيب بندقية وكانت يداه الحمراوان الشعرانيتان ، بعروقهما المنتفخة واصابعهما القصيرة المتينة تديران القضيب وتبرمانه بمهارة على النار ووجهه البرونزي الداكن ذو الحاجبين المذويين كان مضاء بشدة امام الجمر المحترق .

غمغم وهو يخاطب بحماس جندياً واقفاً وراءه :

ـ ذلك سيان عنده ، باللص اهه !

وراح الجندي الذي يدير القضيب على النار يلقي على بيير نظرة قائمة، فأشاح بيير وحدّق في الظلام . وكان احد الاسرى ، ذاك الذي دفعه الجندي الفرنسي ليجلس مكانه ، جالساً امام النار يربت على شيء بيده فلما امعن بيير النظر ، شاهد الكلب ذا الشعر البنفسجي يبصبص بذنبه وهو جالس قرب الجندي .

قال بيير :

– آه ! هل عاد ؟

وشرع يقول :

– وبلا ... لكنه لم يعقب .

وفجأة تمثل في خياله بآن واحد النظرة التي القاها بلاتون عليه وهو جالس تحت شجرته والطلقة النارية التي سمعها تنبعث في ذلك المكان وعواء الكلب ووجهي الفرنسيين المجرمين اللذين تجاوزاه راكضين ، والبندقية ذات الدخان ، وغياب كاراتاييف خلال تلك المرحلة ، فاستعد لاستيعاب الحقيقة ، حقيقة ان التعس قد قتل . ولكن بنفس الوقت ، ومن مكان لا يعرفه الا الله ، انبعثت في نفسه ذكرى السهرة التي قضاها مع بولونية حسناء ذات صيف في شرفة داره في كييف مع ذلك ، فقد أغمض بيير عينيه دون ان يربط بين هذه الذكرى وذكريات ذلك النهار ودون ان يستخلص منها شيئاً ، ولم تلبث لوحة من الطبيعة الصائفة ان استلهمت في ذهنه متعة الاستحمام والمحيط السائل الرجراج ، وعندئذ انزلق في مكان ما من الماء وانغمر فيه لدرجة ان الماء غمره واطبق على رأسه .

اوقظ قبل انبثاق الفجر بلعلعة الرصاص والاصوات الصاخبة . وكان الفرنسيون يجرون امام بيير .

صاح احدهم :

– القوقازيون !

ولم يلبث بيير ان احيط بعدد من الوجوه الروسية .

ولقد ظل طويلا قبل ان يدرك ما وقع. كان رفاقه من كل صوب يطلقون صرخات البهجة .

كان جنود كهول يصيحون وهم يبكون ويعانقون بين اذرعهم الفرسان والقوقازيين :

ــ اخواني ! اصدقائي الاعزاء ! الرفاق !

احاط الفرسان والقوقازيون بالأسرى وراحوا يمنحونهم الثياب والأحذية والخبز . وكان بيير الجالس بينهم ، ينتحب عاجزاً عن النطق بكلمة . ضم اليه اول جندي قابله وقبله وهو يبكي .

جعل دولوخوف الواقف قرب بوابة الدار المتهدمة يسير امامه جماعة الفرنسيين الذين انتزعت اسلحتهم . وكان هؤلاء ، وقد اضطربوا لما وقع لهم فجأة ، يتحدثون فيما بينهم بصوت عال . لكنهم اذا ما بلغوا مكان دولوخوف الذي كان يسوط ساق حذائه بضربات خفيفة من سوطه ويتأملهم بنظرة زجاجية باردة لاتمني بشيء طيب ، كانت أصواتهم تخبو . وكان قوقازي دولوخوف واقفاً الى الجانب الآخر من البوابة يحصي الاسرى ويشير الى المئات بخط بالحكك يرسمه على ضلفتي الباب . سأله دولوخوف :

ــ كم ؟

أجاب القوقازي :

ــ اننا في المائة الثانية .

ردد دولوخوف وقد تعلم هذه العبارة من الفرنسيين :

ــ سيروا ، سيروا !

وكانت نظرته اذا ما صافحت الاسرى المارين امامه، تلتمع بوميض وحشي .

اما دينيسوف ، فكان يمشي عاري الرأس وراء القوقازيين الذين يحملون جثمان بيتيا روستوف ليوروه حفرة نبشوها في حديقة البيت ، ووجهه كئيب .

الفصل السادس عشر

تقرير برتييه

اعتباراً من الثامن والعشرين من تشرين الاول ، اتخذ تقهقر الفرنسيين في موسم الرياح والطقس الباردة طابعاً اكثر افجاعاً . فبعضهم أخذ يتجمــــد او يصطلي النار حتى يموت حول النيران والبعض الآخر يتابع الطريق في معاطف الفراء وفي العربات الخفيفة حاملاً اسلاب الامبراطور والملوك والدوقات . لكن انحلال الجيش الفرنسي وانهزامه ظلا يتبعان سيرهما الطبيعي دون ان يتغير طابعهما .

بين موسكو –فيازما ، لم يبق من هذه الالوف الثلاثة والسبعين من رجال الجيش باستثناء رجال فرق الحرس ، وهؤلاء لم يعملوا شيئاً طيلة الحرب غير النهب ، لم يبق من هذه الالوف من الجنود اكثر من ستة وثلاثين الفاً ومن هؤلاء المفقودين ، لم يزد عدد الذي سقطوا في المعارك على الخمسة آلاف رجل بحال . هذه هي المعادلة الاولى من المسألة الطردية ، ولقــــد حدد حسابياً المعادلات التالية . لقد ذاب الجيش الفرنسي وباد بمثل تلك النسبة من موسكو الى فيازما ومن فيازما الى سمولنسك ومن سمولنسك الى بيريزينا ومن بيريزينا الي فيلنا ، كل ذلك دون ان يكون للبرد الشديد القارس او الخفيف او لمطاردة الروسيين

أو للعقبات في الطريق وكل الظروف الطارئة الخاصة اي دخل في الأمر . لم يعد الجيش الفرنسي بعد فيازما والصفوف الثلاثة المنظمة ، يشكل غير قطيع ولقد ظل كذلك حتى النهاية . ولقد كتب بير تييه الى مولاه ما يلي (واننا نعرف مبلغ ما يسمح به لانفسهم الرؤساء الذين يكتبون عن حالة جيش من تحوير للحقائق) :

« أظن ان من واجبي اطلاع جلالتكم على حالة قطعاتكم في مختلف وحدات الجيش ، تلك الحالة التي اطلعت عليها بنفسي منذ يومين أو ثلاثة أيام في مختلف المراحل . انها تكاد ان تكون مشتتة . وعدد الجنود الذي يتبعون العلم في القطعات لا يكاد يبلغ ربع مرتبات القطعة . اما الباقون ، فيسيرون منفصلين في وجهات مختلفة وبحسب رأيهم آملين العثور على أرزاق له ساعين الى التخلص من الطاعة للنظام . انهم على العموم يجدون ان سمولنسك هي النقطة التي يجب ان يعيدوا تنظيمهم فيها . ولقد لوحظ خلال الأيام الأخيرة هذه ان كثيراً من الجنود يلقون بأسلحتهم وذخيرتهم . وفي مثل هذه الحال ، تتطلب مصلحة خدمة جلالتكم مهما كانت وجهات نظركم الاخرى ، ان يعاد تنظيم الجيش في سمولنسك باستبعاد غير المقاتلين من الرجال بادىء الأمر ، كالذين فقدوا أجيادهم وتجهيزاتهم ، والاستغناء عن الامتعة غير المجدية واعتدة المدفعية التي لم تعد متناسبة مع القوى الحالية أضف الى ذلك ان من الضرورة تأمين الأرزاق أيام الاستراحة للجنود الذين انهكهم الجوع والتعب ، إذ أن كثيراً منهم ماتوا خلال الأيام الأخيرة في الطريق أو في المعسكرات . ان حالة الامور هذه آخذة بالازدياد وتجعلنا نخشى ، في حالة عدم ايجاد دواء سريع حازم ، ان لا نسيطر على القطعات بعد الآن في القتال . في التاسع من تشرين الثاني ، على بعد ثلاثين ميلا من سمولنسك . »

وبينما الفرنسيون يندفعون في سمولنسك التي كانت بالنسبة اليهم الارض

الموعودة ، أخذوا يتذابحون للحصول على الأرزاق وراحوا ينهبون مستودعاتهم الشخصية . ولما أتلفوا ونهبوا كل شيء ، انطلقوا فارين الى أبعد منها .

كانوا جميعهم يسيرون دون أن يعرفوا لماذا والى أين يذهبون . ونابوليون نفسه ، بكل عبقريته ، لم يكن يعرف ذلك افضل منهم طالما انه لم يكن يتلقى الاوامر من أحد . مع ذلك ، فانه والمحيطين به ، ظلوا مستمرين في اصدار التعليمات والرسائل والتقارير والاوامر اليومية ، ويعامل بعضهم بعضاً بقولهم : « مولاي ، ابن عمي ، الامير ديكموهل ، « ملك نابولي » وهلمجرا . لكن التعليمات والتقارير لم يكن لها من وجود الا على الورق ، فلم يكن أحد يفكر في تنفيذها لأنها كانت ممتنعة التنفيذ . وعلى الرغم من الألقاب الضخمة التي كانوا يتبادلونها : عظمتكم ، سموكم ، اخي ، كانوا جميعاً يشعرون بأنهم صعاليك يستحقون الشفقة وإنهم كثيراً ما أساؤوا وإنهم سيرغمون على تقديم حساب عما فعلوا . وبذلك ، فان ما من أحد منهم ، رغم تظاهره بالاهتمام بشؤون الجيش كان يهتم بغير نفسه وبالوسائل الممكنة لانقاذ جلده بأسرع ما يمكن .

الفصل السابع عشر

في النزع

كانت تحركات القطعات الروسية والفرنسية خلال التراجع عن موسكو حتى النيمن تشبه لعبة «التغماية»، عندما يكون لاعبان معصوبي العيون فيحرك أحدهما من حين الى آخر جرسه لينبه الذي يريد أن يمسك به. ففي بادىء الأمر يخطر اللاعب الذي يجب أن يُمسك به دون وجل خصمه. لكنه عندما يشعر بأنه أصبح في مركز حرج، يحاول جاهداً ان لايثير أية ضجة كي يتمكن من الافلات، وهو غالباً في هذه الحالة، يندفع مباشرة بين ذراعي العدو وفي ظنه انه يتحاشاه.

ففي البداية، كانت جيوش نابوليون لاتزال تعلن عن وجودها — وكانوا حينذاك في مرحلة التقهقر الاولى على طريق كالوجا — ولكن، فيما بعد، عندما بلغت الجيوش طريق سمولنسك، راحت تجري منهزمة وهي تمسك بيدها مطرقة الجرس كيلا يدق وتمضي غالباً الى الاصطدام بالروسيين وهي تعتقد انها افلتت منهم.

وكانت سرعة تقهقر الفرنسيين ومطاردة الروسيين تنهك الجياد لدرجة ان الوسيلة الرئيسية للاستعلام تقريباً عن وضعية العدو — دوريات الفرسان

الاستكشافية ـ لم يعد لها وجود . على أية حال ، كانت المعلومات ، أياً كانت لاتصل في حينها ، بسبب التغييرات الكثيرة السريعة في مواقع الجيشين . فاذا علم مثلا في اليوم الثاني من الشهر ان جيش العدو كان في اليوم الأول منه في مكان كذا ، فان ذلك الجيش في اليوم الثالث من الشهر ، في حين يمكن عرفاً القيام بنشاط ما ، يكون قد أصبح على بعد مرحلتين وفي موقع آخر مختلف كل الاختلاف .

كان جيش يجري وآخر يتبعه . وابتداء من سمولنسك ، كان الفرنسيون قادرين على الاختيار بين طرق عديدة . وكان يُظن انهم بعد أن مكثوا في تلك المدينة أربعة أيام ، يعرفون مكان العدو ، فيعدون خطة لصالحهم ويشرعون في حملة جديـــدة . ولكن ، بعد هـــذه الأيام الأربعة من التوقف ، عاد قطيعهم الى الفرار ، ليس الى اليمين ولا الى اليسار ، ولكن دون أي خطة للتحركات ، عبر الطريق الذي شقوه من قبل ، طريق كراسنوايبه وأورشا القديم وأسوأ كل الطرق .

ولما كانوا يتوقعون ان يكون العدو وراءهم وليس أمامهم ، فان الفرنسيين كانوا يفرون مسرعين تاركين بين مختلف وحدات جيشهم مسافات تقطع في أربع وعشرين ساعة مشي . وعلى رأسهم جميعاً ، كان الامبراطور يفر ثم الملوك ثم الدوقات . ولما كان الجيش الروسي يعتقد ان نابوليون سيتجه يميناً ليجتاز الدنيبر ، وهو التصرف المعقول الوحيد ، فقد اتجـــه نحو ذلك الاتجاه وبلغ طريق كراسنوايبه الكبير . وهناك كما في لعبة « التغماية » جاء الفرنسيون فاصطدموا بطلائعنا . ولما كشفوا العدو بغتة ، تجزأ الفرنسيون وتوقفوا ثم فروا وقد استبد بهم ذعر قاتل ، تاركين وراءهم الجيش الذي يتبعهم . وخلال ثلاثة أيام ، ظلت قطعات الجيش الفرنسي تمرّ بين وحدات الجيش الروسي كما تمر

محكوم بالجلد بين صفوف الجلادين : مرت أولاً جمهرة نائب الملك ثم جمهرة دافو فجمهرة « ني » . وكانت جميعها تهجر احداها الاخرى ، تاركة وراءها المدفعية والامتعة الثقيلة ونصف رجالها ، وتحاول في فرارها ليلا ان تتجنب الروسيين باجراء انصاف دوائر الى اليمنين .

ولقد كان ني آخر السائرين (لأنه ، على الرغم من ذلك الموقف الميؤوس منه ، ام لعله بسببه ، أراد الفرنسيون ان يعاقب تلك الارض التي سببت لهم كل ذلك الألم ، فجاء ني ينسف جدران سمولنسك التي لم تكن تعيق احداً) . واذن ، كان ني آخر السائرين بجمهرته التي يبلغ عدد رجالها عشرة آلاف مقاتل ولقد لحق بنابوليون في اورشا وليس معه أكثر من الف رجل ، بعد ان بعثر قطعاته ومدافعه في مشي ليلي عبر الغابات ليجتاز الدنيبير سراً .

ومن اورشا ، ظلوا يفرون باتجاه فيلنا ، وهم يلعبون أبداً لعبة « التغماية » مع الجيش الذي كان يطاردهم . ومن جديد ، عاد التشوش في بيريزينا . لقد غرق منهم كثيرون واستسلم كثيرون ، ثم استأنف الذين استطاعوا اجتياز النهر عدوهم الى الأمام . ولقد ارتدى رئيسهم الكبير فراءه واستقل الزحافة ثم مضى بأقصى سرعة تاركاً رفاقه . ولقد فر من استطاع الفرار ، اما الباقون ، فقد استسلموا أو ماتوا .

الفصل الثامن عشر

اراء المؤرخين

ازاء هذا الجري السريع من جانب الفرنسيين المستعدين للشروع في كل شيء ثمين بضياعهم ، وفي الوقت الذي لم تكن أية حركة من حركات هذا الحشد ابتداء من طريق كالوجا وحتى فرار رئيسه ، تدل على بادرة من بوادر التعقل ، كان يعتقد انه يستحيل على المؤرخين الذين يعزون حركة الجماعة الى مشيئة شخص واحد ، في هذه الحقبة من الحملة على الأقل ، ان يقيموا الدليل على نظريتهم في مثل هـــذا الانحدار . ولكن أبداً . لقد كتبت جبال من الكتب عن هذه الحملة وفي كل منها ، يصرون على التدابير التي اتخذها نابوليون وعلى عمق خططه و « المناورات » التي كانت تسير حركات قطعاته واستعـدادات ماريشالاته العباقرة وتدابيرهم .

وتقهقر نابوليون ابتداء من مالوايارو سلافيتز ، حيث كان يستطيع بلوغ بقاع غنية بالارزاق الوافرة ، سالكاً ذلك الطريق الآخر الموازي للذي كان يسهل عليه سلوكه ، والذي طارده كوتوزوف فيما بعد فيه ، ذلك التقهقر العقيم على طول طريق مخرب واقليم منهوب ، يفسر لنا بسعة علم مختلفة عميقة . وباسم المعرفة الواسعة المماثلة في العمق أيضاً ، يصفون لنا تقهقره من سمولنسك الى

اورشا . . وبعد ذلك ، يصفون لنا كذلك بطولة نابوليون في كراسنوايبه حيث ، كما يزعمون ، كما هو على أهبة خوض المعركة ، يروح ويجيء وفي يده عصاه من خشب السندر ويقول :

ــ كفاني ما كنت امبراطوراً ، لقد أزف الوقت لأعمل جنرالاً : الأمر الذي لم يمنعه بعد ذلك بقليل على الفرار تاركاً حطام جيشه المبعثر الذي ظل في المؤخرة لرحمة المصير .

وهم يصفون لنا كذلك ببسالة الماريشالات ، وبصورة خاصة بسالة الماريشال ني ، وهي البسالة التي تقوم على أساس القيام بحركة دائرية واسعة خلال الليل في الغابة لاجتياز الدنيبر والفرار نحو اورشا دون أعلامه ، دون مدفعيته ، خاسراً تسعة أعشار جنوده .

حتى فرار الامبراطور العظيم النهائي ، تاركاً جيشه الباسل ، صُور لنا من قبل المؤرخين بوصفه بادرة من بوادر العظمة والعبقرية . حتى تلك البادرة ، ذلك الفرار الذي يسمى في كل اللغات البشرية منتهى النذالة ، هذه البادرة التي نعلم الصغار ان يخجلوا منها ، تجد في لغة المؤرخين ما يبررها .

وعندما يستحيل عليهم ان يزيدوا في مد خيط مناقشاتهم المرن ، عندما يكون الفعل شديد المناقضة لما تعتبره الانسانية جيداً بل وعادلاً ، يجنح المؤرخون الى تعبير العظمة الذي ينقذ كل شيء . والعظمة تبدو في نظرهم نافية لأمكانية قياس الخير والشر . والشر لا وجود له بالنسبة الى من هو عظيم . ولا يمكن قط لأية بشاعة ما ان تعزى كجرم الى ذلك الذي يكون عظيماً .

يكرر المؤرخون « هذا عظيم ! » ومنذ ذلك الحين ، بدلاً من الخير والشر يقوم ما هو عظيم وما هو غير عظيم . فما هو عظيم ، جيد ؛ وما هو غير عظيم سيء . وان يكون عظيماً في نظرهم ، هو ما هو خاص بأولئك الاشخاص

الاستثنائيين الذين يسمونهم ابطالا . ونابوليون المتدثر بفرائه الدافىء ، يعود الى بيته تاركاً لمصيرهم المحتوم ، ليس رفاقه في السلاح فحسب ، بل – حسب اعترافه نفسه – اشخاصاً جرهم هو الى هناك ، وهو يشعر ان هذا عظيم وضميره بالتالي مطمئن .

كان يقول : « ليس بين الاعجاز (وكان يرى في نفسه شيئاً من الاعجاز) ومحط السخرية الا خطوة واحدة . » فردد العالم خلال خمسين عاماً : « اعجاز عظيم ! نابوليون العظيم ! ليس بين الاعجاز ومحط السخرية الا خطوة واحدة . »

ولم يخطر على بال أحد ان وضع العظمة خارج قواعد الخير والشر انما هو اعتراف بصغارها الذي لا يقدر ، بعدمها ليس الا .

بالنسبة الينا ، نحن الذين تلقينا عن المسيح مقياس الخير والشر ، لا يوجد مقياس غيره لها . ليس هناك عظمة حيث لا محل للبساطة والخير والعدالة .

الفَصْلُ التّاسِعُ عَشَرْ

اسئلة وأجوبة

أي روسي قرأ وصف الحقبة الأخيرة من حمله عـام ١٨١٢ ، ولم يشعر بالحزن المصحوب بالغضب وبالتبرم والخزي ؟ من الذي لم يطرح هذه الاسئلة : كيف لم يطبقوا على هؤلاء الفرنسيين كلهم ولم يبيدوهم ، وثلاثة جيوش تفوقهم بالعدد تفوقاً كبيراً كانت تحيط بهم ؟ كيف ، والفرنسيون المشتتون الجوعون النافقون من البرد ، كانوا يستسلمون كتلاً ، وهدف الروسيين – كما يروي لنا التاريخ – كان يقوم على ايقافهم وعزلهم وأسرهم جميعاً ؟

كيف جرى وخاض الجيش الروسي عندما كان اضعف عدداً من الجيش الفرنسي، معركة بورودينو ، في حين ان هذا الجيش بالذات ، عندما أصبح يطوق الفرنسيين من ثلاث جهات سعياً وراء قصد واحد ، لم يبلغ هـذا القصد ؟ هل يعقل ان يكون الفرنسيون حينذاك على تفوق هائل حتى انهم بعد ان طوقناهم بقوات ساحقة لم نستطع القضاء عليهم ؟ كيف أمكن لشيء من هـــذا القبيل ان يقع ؟

التاريخ (او على الاقل ما يطلقون عليه هذا الاسم) يجيب على هذه الاسئلة قائلاً ان ذلك وقع لان كوتوزوف وتورماسوف وتشيتشاجوف وهذا أو ذاك لم يعملوا هذه او تلك من « المناورات » .

ولكن لماذا لم يجروا هذه « المناورات»؟ لماذا لم يحاكموهم ويحكموا عليهم اذا كانوا مذنبين لعدم بلوغهم الهدف المقصود ؟ واذا تقبلنا ان هذا « الاخفاق» من جانب الروسيين معزو الى كوتوزوف وتشيتشاجوف الخ . . ، فاننا مع ذلك لاندرك لماذا لم يؤسر الجيش الفرنسي كله بماريشالاته وملوكه وامبراطوره في كراسنوايه وبيريزينا ، والجيش الروسي كان هناك على ما نعرفه من تفوق ساحق في كلتا الحالتين ، طالماً ان ذاك كان هو الهدف المنشود .

ان تفسير هذه الواقعة الغريبة ، كما يقدمه المؤرخون العسكريون الروسيون هو ان كوتوزوف كان يعارض في الهجوم . لكن هذا التفسير لاتقوم له قائمة طالما اننا نعلم ان ارادة كوتوزوف لم تستطع منع الجيش من الهجوم في فيازما وتاروتينو .

فلماذا اذن ، هُزم ذلك الجيش الروسي الذي ربح معركة بورودينو رغم قواته الضعيفة على أعداء في أوج قوتهم ، هزم في كراسنوايه وبيريزينا رغم تفوقه العددي الساحق ، امام قطيع من الفرنسيين المشردين المشتتين ؟

اذا كانت غاية الروسيين قطع خط التقهقر على الفرنسيين وأسر نابوليون وماريشالاته ، يجب ان نتقبل اذن ان هـذا الهدف لم يظل ممتنعاً عن المنال فحسب بل وان المجهودات التي بذلت في كل مرة لبلوغه تحطمت على أكثر ما يدعو الى الخجل من الصور ، وحينئذ يجب القول ان الحقبة الأخيرة من الحملة كانت بالنسبة الى الفرنسيين سلسلة انتصارات ، ويكون المؤرخون الروسيون والحالة هذه مخطئين تماماً اذا اعتبروها نصراً لنا .

ان الكتاب العسكريين الروسيين ، في النواحي التي يتقيدون فيها بالمنطق يبلغون رغماً عنهم الى هذه النتيجة . فهم رغم كل ما يغدقونه من الاطراء الشاعري على بسالة الروسيين وتفانيهم ، الخ . . ، لايمكن الا وان يعترفوا بان تقهقر

الفرنسيين اعتباراً من موسكو ليس الا سلسلة من الانتصارات لنابوليون ومن الهزائم لكوتوزوف .

لكننا اذا وضعنا الكرامة القومية جانباً ، نشعر بتناقض رغم ذلك في هذه النتيجة ، طالما ان هذه السلسلة من الانتصارات بالنسبة الى الفرنسيين قادتهم الى فناء كامل وان سلسلة هزائم الروسيين قادتهم على العكس الى سحق أعدائهم وانقاذ وطنهم .

ومبعث هذا التناقض ناشيء عن ان المؤرخين الذين يحللون الاحداث في مراسلة الاباطرة والجنرالات وفي العلاقات والتقارير والخطط ، يفرضون هدفاً كاذباً لم يكن قط موجوداً في الحقبة الاخيرة من حرب عام ١٨١٢ . وهذا الهدف الكاذب هو التطويق وأسر نابوليون وماريشالاته وجيشه .

لم يكن هذا الهدف قط موجوداً وما كان يمكن ان يوجد لأنه لم يكن ذا معنى ولم يكن ممكنا بلوغه قط .

لم يكن ذا معنى في الدرجة الاولى لانجيش نابوليون المنهزم كان يفر من روسيا بكل السرعة الممكنة ، اي أنه كان يعمل تماماً كل ما كان يتمناه كل روسي . فما فائدة القيام بعمليات ما ضد وحدات تنطلق هاربة بأقصى سرعة ؟

وفي الدرجة الثانية كان يستحيل قطع الطريق على رجال ركزوا كل حيوتهم في رغبتهم في الفرار .

وفي الدرجة الثالثة ، كان من المنافي للعقل كذلك ان يُساق الجيش الروسي الى الخطر لابادة الجيوش الفرنسية التي كانت في طريقها الى الفناء من تلقاء نفسها دون اسباب خارجية ، وبسرعة عظيمة ، حتى انها دون اي عائق في الطريق ما كانت تستطيع ان تحمل الى ما وراء الحدود من الوحدات ، اكثر مما حملت في شهر كانون الأول ، أي ، واحداً من مائة من المرتب العام .

وفي المرتبة الرابعة ، كان من المنافي للعقل السعي الى أسر الامبراطور والملوك والدوقات ، وهم الشخصيات التي كان أسرها سيسبب للسياسة الروسية اقصى المتاعب ، كما اعترف بذلك افضل دبلوماسيي العصر (جوزيف دوميستر[1] وآخرون) ، واكثر تنافيا للعقل كذلك ، الرغبة في اسر قطعات فرنسية كاملة ، في الوقت الذي ذاب اكثر من نصف جيشنا امام كراسنوايه ، والذي كان يجب فيه ان يُطرح من النصف الباقي افواجاً كاملة لمواكبة الاسرى ، هذا اضافة الى ان جنودنا ما كانوا ينالون دائماً جرايتهم كاملة وان الجنود الذين كانوا في الاسر قبل ذلك ، كانوا يموتون من الجوع .

ان كل هذه الخطة التي وجب ان تقوم على اساس قطع خط الرجعة على نابليون والاستيلاء على جيشه ، تشبه تماماً خطة بستاني ما ، رغب في طرد الماشية التي تعيث في بستانه ، فهرع الى الباب وراح يضرب الحيوانات على رؤوسها . ان التفسير الوحيد لتصرف هذا البستاني هو غضبه . ولكن لا يمكن ان نعزوا مثل هذا الفرض الى واضعي هذه الخطة لأنهم لم يتألموا من العبث في بستانهم واتلافه .

ثم ان قطع خط الرجعة على نابوليون وجيشه ليس منافياً للعقل فحسب بل ومستحيلاً .

انه مستحيل اولاً للسبب التالى : كما ان التجربة تبرهن على ان حركة القطعات على مساحة خمسة فراسخ في معركة ما لا تتفق مع الخطط الموضوعة سلفاً ، كذلك احتمال لقاء بين تشيتشاجوف وويتجنستين في مكان واحد ، كان من الضعف لدرجة قريبة من الاستحالة . انه تماماً رأي كوتوروف الذي

---

(١) جوزيف دوميستر فيلسوف ديني من شيعة روما ، ولد في شامبيرى عام ١٧٥٣ وتوفي عام ١٨٢١ ، له مؤلفات كثيرة أشهرها : الباب ، وليالي بيترسبورج .

اعلن منذ تلقيه الخطة ، ان اشغالات بقصد تحويل الانتباه على مسافات كبيرة لا يمكن ابداً ان تؤدي الى النتائج المرجوة .

وهو مستحيل في المرحلة التالية لأنه لكي تشل قوة المقاومة السلبية التي كانت تدفع جيش نابوليون الى الوراء ، كان يجب ان يكون لدى الروسيين قوات لا تضاهي بالتي كانت لديهم .

وكان مستحيلا في الدرجة الثالثة لأن التعبير العسكري : « قطع جيش » ليس له معنى . يمكن ان يقطع المرء قطعة خبز وليس جيشاً . لا يمكن قطع جيش ، واعني قطع الطريق عليه ، لانه يوجد دائماً في الاماكن المجاورة من الفسحة ما يكفي للالتفاف حول العائق ، ولأن هناك الليل الذي تتعذر الرؤية خلاله ، وهو الأمر الذي كان يمكن للدكاترة في الفن العسكري ان يقنعوا انفسهم به ، ولو اقتصر ذلك على أمثلة كراسنواييه او بيريزينا . اضف الى ذلك انه يستحيل أسر شخص ما دون موافقته ، استحالة مسك السنونو ، رغم انه يمكن مسكه اذا حط على يدك . يمكن أسر من يستسلمون ، كالألمان ، وفقاً لقواعد « الستراتيجيه » و « التاكتيك . لكن الجيش الفرنسي في حقيقته ، ما كان يجد الاستسلام مفيداً لأن موتاً مشابهاً كان ينتظره من الجوع والبرد في حالتي الأسر والفرار .

وفي المرحلة الرابعة ، وهذه الاكثر اهمية ، كان ذلك مستحيلاً لأنه لم يحدث قط ، منذ ان خلق العالم ، ان نشبت حرب في مثل الظروف المريعة التي كانت في شتاء عام ١٨١٢ ولأن الجيش الروسي كان يستنفز كل قواه لمطاردة الفرنسيين حتى انه ما كان يستطيع ان يعمل افضل مما عمل دون ان يفني نفسه بالمثل .

لقد فقد الجيش الروسي خلال سيره من تاروتينو الى كراسنواييه ، خمسين الف مريض ومتخلف ، اي عدداً مماثلا لسكان مركز اقليم مهم . لقد اختفى نصف العدد دون قتال .

وبخصوص هذه الآونـــة من الحملة ، عندما كان الرجال حفاة لا معاطف لديهم ، يعانون نقص الغذاء ، وينامون على الثلج طيلة اشهر في برودة تبلغ ١٥ درجـة في ميزان ريثومور ، عندمـا لم يكن النهار اطول من سبع او ثـماني ساعات بينما يخيم الليل طيلة الوقت الباقي ، وحيث الانضباط لا أثر له ، عندما لا يعود الرجال فيجو معركة ويدخلون لبضع ساعات في سلطان الموت ، عندما لايصبح للنظام أثر في حين يناضل الرجال خلال اشهر ، دقيقة فدقيقة ضد الموت من الجوع او البرد ، وعندما يموت نصف جنود الجيش في شهر واحد ، بخصوص هذه الاونة من الحملة ، يحدثنا المؤرخون كيف تصرف ميلوراد وفيتش لينقذ « مشية الجناح » تلك نحو مكان كذا ، وتورماسوف نحو المكان كذا الآخر وكيف انتقل تشيتشاجوف وهو يغرز في الثلج الى اعلى من ركبتيه، وكيف قطع فلان آخر الطريق على العدو ومزقه اربا ، الخ ، الخ . . .

ان القطعات الروسيـــه التي انقصها الموت الى نصف عددهـا ، عملت كل مـا كان ممكناً عمله لبلوغ الغاية الجديرة بشعبنا . وليس الذنب ذنبهم اذا وضع روسيون آخرون ، ناعمون بالدفء في غرف مريحـة ،خططاً لايمكن تنفيذها .

ان هذا التناقض الغريب ،غير المفهوم اليوم، بين الواقعة والعلاقة التاريخية ، ناجم فقط عن ان المؤرخين لم يعطونا الا تاريخ المشاعر الرائعة والخطابات البليغة لمختلف الجنرالات وليس تاريخ الوقائع .

ان مابدا لهم اكثر اهمية كان كلمات ميلورادوفيتش والمكافآت التي نالها هـذا او ذاك من الجنرالات والخطط التي اقترحوها ، اما مسألة الخمسين الف تعيس الذين ظلوا سواء أكان في المشافي أم في القبر ، فانها لا تهمهم لأنها خارجة عن حدود ابحاثهم .

في حين انه يكفي ان يلتفت المرء من دراسة التقارير والخطط الموضوعـة

من قبل الجنرالات ومعاينة حركات هذه المئات من الوف الرجال الذين ساهموا مساهمة مباشرة فورية بكل ما وقع لتتلقى كل المسائل التي كانت تبدو لأول وهلة ممتنعة عن الحل، حلاً لا يقبل الجدل ، فجأة وبسهولة وبساطة خارقتين .

ان الخطة التي وجب ان تهدف الى قطع خط الرجعة على نابليون وجنوده لم تكن موجودة قط الا في مخيلة حوالي عشرة اشخاص . ما كان يمكن ان تكون موجودة لانها منافية للعقل ولأنها كانت مستحيلة .

لم يكن للشعب الروسي غير هدف واحد : تطهير ارضه من الغزاة . ولقد بلغ هذا الهدف اولاً بصورة آلية لأن الفرنسيين كانوا يفرون فكان يكفي عدم وضع العقبات في طريق فرارهم ، وفي المرتبة الثانية ، بلغ بفضل عمليات الحرب الشعبية التي ابادت الفرنسيين وفي المرحلة الثالثة ، لأن جيشاً روسياً قوياً كان يطارد الفرنسيين ويتبع اثارهم وهو على استعداد لاستعمال قوته اذاهم اوقفوا حركتهم .

ما كان على الجيش الروسي ان يتصرف الاعلى طريقة السوط المشرع فوق رأس الحيوان الهارب . وسائق قطيع مجرب ، يعرف ان افضل وسيلة هي ابقاء السوط مشرعاً وتهديد الحيوان الهارب به وليس جلده به على رأسه .

* * *

الجزء الرابع

الفصل الأوّل

ماري وناتاشا

يستولي الروع على الانسان امام حيوان نافق ، ذلك لأنه هو نفسه – مايكونه – على وشك الموت والكف عن الحياة تحت عينيه . ولكن عندما يكون المحتضر رجلاً ، رجلا محبوباً ، فان شعوراً بالألم الممزق أو جرحاً في الفؤاد يشبه جرح الجسد ، يقتل احيانا واحيانا يلتئم ، ولكن يبقى اليما يُخشى دائماً أن يثيره مسّ خارجي ، يضاف الى الروع الذي يشعر به امام فناء الحياة .

ولقد احس كل من ناتاشا والاميرة ماري هذا الاحساس بعد وفاة الامير آندريه . كانتا منهارتين معنوياً ، تغمضان عيونهما امام غمامة الموت المعلقة فوق رأسيهما ولا تجرآن على النظر الى الحياة نظرة صريحة . ما كانتا تفكران الا في صيانة جرحهما من مساس مهين او اليم . كان كل شيء ، مرور عربة مسرعة في الشارع ، اعلان العشاء ، سؤال وصيفة عن ثوب يجب اعداده ، بل واكثر من ذلك : كلمة عطف مصطنع أو دون حرارة ، كل شيء كان ينكأ الجرح المحروق ويسيء اليها كالاهانة ، فيهدم ذلك الصمت الذي لابد منه والذي كانتا كلتاهما تتحريانه للاصغاء الى المجموعة الرهيبة الخطيرة التي لا تني تدوي في مخيلتيهما فتمنعهما من النظر الى الابعاد الغامضة اللانهائية التي انكشفت لحظة امامهما .

ماكانتا تشعران باهانـة أو ألم في خلوتهما . وما كانتا تتبادلان شيئاً مـن الحديث خلالها تقريبا واذا تحدثتا ، دار الحديث حول اتفه الاشياء ، لأن كلتيهما كانتاتتحاشيان أي تلميح الى المستقبل .

كان الاعتراف بأمل في المستقبل يبدو لهما في الواقع سبة لذكرى الامير آندريه . لذلك كانتا كلتاهما تحاولان وسعهما ان تتحاشيا كل ماله علاقة به وكان يخيل اليهما ان ماعانتاه لايمكن ان يعبر عنه بالكلام فتفكران ان المساس بأتفه تفصيل لحياة الامير آندريه ، مهدم لعظمة السر الذي نفذ نعد تحت ابصارهما وقدسيته .

وكان تحفظهما المستمر في احاديثهما وجهدهما الدائم لتحاشي كل ماءيمكن ان يؤدي الى الحديث عنه ، هذا الاسلوب في اقامـة الحراسة على كل مناحي حدود مالا يجب قوله بأي ثمن ، كان يعرض بوضوح ونقاء اعظم ، ماكانتا تشعران به امام مخيلتيهما .

لكن الحزن الكلي يشبه في استحالته الفرح الكلي ولقد كانت الاميرة ماري التي باتت بحكم مركزها السيدة الوحيدة لمصيرهـا والوصية المسؤولة عن ابن اخيها ، اول من استدعتها الحياة خارج الحداد الذى انطوت فيه منذ اسبوعين . تلقت من أقربائها مراسلات وجب ان ترد عليها . وكانت الغرفة التي يعيش فيها نيكولا الصغير رطبة فراح الطفل يسعل ، وجاء الباتيتش الى ايارو سلافل يحمل حساباته ونصح الاميرة ان تعود الى موسكو لتقطن مسكنها في فوزدفيجانكا الذي ظل سليما والذي كان في حاجة الى بعض الاصلاحات . فالحياة لم تكن قـد توقفت وكان يجب الحياة . ومهما بلغ من ايلام الخروج من عالم الوحدة والتأمل ذاك على نفس الأميرة ماري التي استسلمت له حتى ذلك الحين والمتاعب المادية التي كانت تطالب بحضورها ، فانها اضطرت الى الخضوع رغم الاشفاق الذي كانت تحسه نحو ناتاشا والتبكيت النفسي الذي اعتلج في نفسها لفراقها . اخذت تدقق

في حسابات الباتيتش وتتناقش مع ديـال حول موضوع ابن اخيها وتتخذ التدابير اللازمة لعودتها الى موسكو .

ولبثت ناتاشا وحيدة . فمنذ اللحظة التي شرعت ماري فيها في اتخاذ اهبتها ، راحت تتحاشاها .

خلال ذلك ، عرضت الأميرة ماري على الكونتيس ان تسمح لناتاشا بمرافقتها الى موسكو فقبلت الأم مثلما قبل الأب ، هذا العرض بفرح لأنهما باتا يريان قوى ابنتهما تنهار يوماً بعد يوم ويعتقدان ان تبديل الهواء مضافة اليه عناية طبيب في موسكو ، سيكونان ناجعين لحالتها .

ولما قدم هذا العرض لناتاشا أجابت :

— لن أذهب الى اي مكان . لا أسألكم أن تدعوني بهدوء .

ونفرت الى غرفتها وهي لا تكاد تضبط الدموع التي انبعثت من عينيها بدافع السخط والانفعال اكثر من دافع الالم .

منذ ان أخذت ناتاشا تشعر بتخلي الأميرة ماري عنها وبقائها وحدهـا مع ألمها ، راحت تقضي معظم الوقت محتبسة في غرفتها ، منطوية على نفسها في ركن من الاريكة ، تحل وتعقد عملاً من أعمال الابرة باصابعها الدقيقة الرشيقة وابصارها شاخصة الى الأمام . وكانت هذه الوحدة تنهكها وتنخر فيها . لكنها كانت في حاجة اليها . فما ان يدخل بعضهم الى حجرتها ، حتى تعتدل بقوة فتبدل من وضعيتها وتعابير وجهها وتتظاهر بالقراءة او الحياكة دون ان تخفي نفاذ صبرها لرؤية الذي عكر صفو وحدتها .

كان يخيل اليها باستمرار انها على وشك ادراك المخيف والتعمق فيه ، تلك المعضلة المضنية التي كانت نظرتها الداخليه شاخصة اليها .

وفي نهاية كانون الاول ، كانت ناتاشا مرتدية ثوباً اسود من الصوف ، وضفيرتها ملفوفة باهمال على مؤخرة رأسها ، شاحبة ومهزولة ، تجلس قابعة في

ركن من الاريكة ، منصرفة تماماً الى لف طرف نطاقها وحله ، شاخصة ببصرها الى زاوية الباب .

كانت تنظر الى الموضع الذي ذهب منه الى الجانب الآخر من الحياة ، وذلك الجانب ، الذي لم تفكر فيه قط من قبل ، والذي كان يبدو لها من قبل بعيداً كل البعد لا يمكن ادراكه ، بات الآن أكثر قرباً والفة وأكثر فهماً من هـــذا الجانب ، حيث كل شيء ليس الا خواء ودماراً ان لم يكن ألماً واذلالاً .

كانت تنظر هناك ، حيث تعرف انه موجود ، لكنها ما كانت تستطيع ان تراه على غير الشكل الذي عرفته به في هذا العالم . كانت تراه في ميتيشتشي وترونيتسا وإياروسلافل .

كانت ترى وجهه وتسمع صوته وتردد كلماته والكلمات التي قالتها له واحياناً تتصور موضوعات اخرى كانا يستطيعان تبادلها بينهما .

ها هو ذا ممدد على مقعد وثير في معطفه المنزلي المصنوع من الفراء المغطى بالقطيفة ورأسه مسند الى يده البيضاء النحيلة ، وصدره مقعر بشكل مخيف وكتفاه مرفوعتان وشفتاه متقلصتان بقوة وعيناه تلتمعان وعلى جبهته الشاحبه يظهر غضن تارة وتارة يدرس ، واحدى ساقيه ترتعش ارتعاشة سريعة لا تكاد تميز . ان ناتاشا تعرف انه يناضل ضد ألم معذب . ما هو هـذا الالم ؟ لماذا جاء ؟ ماذا يشعر ؟ أين يتألم ؟ بذلك كانت ناتاشا تفكر . لكنه يلمس قلقها فيرفع عينيه ويبدأ في الكلام دون ابتسام .

قال : « ان ما يخيف هو ان يرتبط الانسان مدى الحياة برجل يتألم . انه عذاب لا نهاية له » ونظر اليها بعينيه المتفحصتين . فأجابته ناتاشا كعادتها دون ان تترك لنفسها وقتاً للتفكير فيما هي بسبيل النطق به . هتف : « ان هـــذا

لايمكن ان يدوم على هذا النحو ، انه مستحيل . سوف تستعيد صحتك تماماً »

انها تراه الآن من جديد ، وهي تعيش من جديد في كل ما اعتلج في نفسها حينذاك . انها تتذكر النظرة الطويلة الحزينة المهيبة التي القاها عليها بعد هذه الكلمات وتفهم معنى اللوم واليأس في هذه النظرة الملحة .

فكرت : لقد اعترفت انه سيكون امراً مريعاً لو انه استمر يتألم . ولقد قلت له ذلك لأنه كان سيكون مريعاً حقاً بالنسبة اليه لو انه دام . لكنه فهم الجملة على نحو آخر . لقد فكر ان ذلك سيكون مريعاً بالنسبة الي . لقد كان حينذاك لايزال متعلقاً بالحياة وكان يخاف الموت ، وانا ، تكلمت بقسوة وغباء ما كنت اقصد ذلك ، كنت افكر في شيء آخر مختلف كل الاختلاف . لو انني قلت ما كنت افكر فيه لقلت له انه ولو كان محتضراً ، بل ولو ظل محتضراً امام عيني لكنت سعيدة بالقياس الى ما انا عليه الآن ، لم يعد لي شيء ، لم يعد لي احد . هل كان يعرف ذلك ؟ كلا ، ما كان يعرفه ولن يعرفه ابداً . والآن لا اقدر قط ، قط ، ان اصلح ذلك . » لكنه من جديد عاد يقول لها الكلمات نفسها ، فراحت ناتاشا هذه المرة تجيبه في خيالها جواباً مختلفاً . استوقفته وقالت : « انه مخيف بالنسبة اليك وليس بالنسبة الي . انك تعرف ان الحياة بدونك بالنسبة الي ليست شيئاً مذكوراً وان التألم معك اكبر سعادة لي . » فأمسك بيدها وضغط عليها كما ضغط عليها خلال تلك الامسية الرهيبة ، قبل موته بأربعة ايام . فراحت تردد على مسمعه بالخيال ايضاً كلمات الحنان والحب التي كانت على ان تقولها له حينذاك والتي لاتنطق بها الا الآن . هتفت : « احبك !.. نعم ، احبك ، احبك .. » وضمت يديها بحركة تشنجية وصرفت على اسنانها بقسوة وحشية .

وحينئذ استولى عليها ألم أكثر عذوبة وانبعثت الدموع من عينيها . وفجأة

تساءلت : لمن تحدثت على هذا النحو ؟ أين هو و كيف هو الآن ؟ ومن جديد نظرت في كآبة مضنية قاسية وهي مكفهرة الوجه مزوية حاجبيها من جديد نحو ذلك الهناك حيث هو ، ومن جديد ، خيل اليها انها ستكشف السر الغامض . . ولكن ، في الدقيقة التي كاد كل شيء ان ينكشف ، في الدقيقة التي كاد كل المجهول ان يصبح معلوماً لديها ، صك اذنها صوت رتاج البـــاب ودخلت دونياشا ، الوصيفة ، مروعة الوجه منقلبة الاسارير ، دخلت دون أي احتراس وقالت وعلى وجهها المنفعل تعبير غريب :

- اذا امرت ، ، إذهبي بسرعة الى أبيك ، بسرعة . لقد وقعت مصيبة . . بيوتر ايلليتش . . رسالة . .

وشهقت منتحبة .

* * *

الفصل الثاني

نعي بيتيا

باتت ناتاشا الآن الى جانب النفور العام الذي كانت تشعر به نحو الأحياء تشعر في تلك اللحظه بكره خاص نحو اسرتها . لقد كان ذووها كلهم ، أبوها ، أمها ، سونيا ، قريبين جداً منها ، مألوفين جداً لديها ، حتى أن كل كلمة منهم وكل واحد من مشاعرهم كان ينقلب الى اهانة لذلك العالم الذي تعيش فيه منذ بعض الوقت . لذلك لم تكن تنظر اليهم بلا مبالاة فحسب ، بل وبعداء . سمعت دونياشا تتكلم عن بيوتر ايليتش وعن المصيبة . لكنها لم تفهم شيئاً .

أخذت ناتاشا تحدث نفسها : مصيبة لهم ؟ كيف يمكن ان تصيبهم المصيبة ؟ ان حياتهم تسير دائماً وتيرية في سلامها المألوف »

وعندما دخلت الى البهو ، شاهدت أباها يخرج بسرعة من غرفة الكونتيس وامارات وجهه متقلصة ووجهه مبلل بالدموع . كان يرى انه اندفع خارجاً من تلك الغرفة ليترك للنشيج الذي كان يخنقه حرية الانطلاق . ولما وقع بصره على ناتاشا ، صدرت عنه حركة يائسة وأطلق زمجرات تشنجية شوهت وجهه المستدير الطيب .

– هيه . . بيتيا . . اذهبي بسرعة ، انها . . تدعوك . .

واقترب من كرسي بخطى صغيرة مترنحة وهو يبكي كالطفل ، واسقط نفسه عليه اسقاطاً وغطى وجهه بيديه .

وفجأة طافت بجسد ناتاشا كله شبه انتفاضة كهربائية وأحست بضربة فظيعة تصيب قلبها . أحست بألم مريع وخيل اليها ان شيئاً ما يتمزق في فؤادها وانها على وشك ان تموت . لكنها لم تلبث ان شعرت بالخلاص من حجر الحياة الذي كان يحوم فوق كيانها ولما رأت أباها منهاراً وسمعت الصيحات المريعة ، الصيحات الوحشية المنطلقة من امها في الجانب الآخر من الباب ، نسيت نفسها ونسيت ألمها الشخصي .

اندفعت نحو ابيها . لكنه اشار الى حجرة امها بحركة عاجزة كلية . وظهرت الأميرة ماري شاحبة كل الشحوب تسري في فكها الاسفل ارتعادة ، وجاءت الى ناتاشا فأخذتها من يدها وهي تقول لها شيئاً . لكن ناتاشا ما كانت تراها ولا تسمعها . اقتربت بخطى سريعة ثم توقفت فترة قصيرة امام الباب وكأنها تستجمع شتاتها ثم اندفعت نحو امها .

وكانت الكونتيس ممددة على مقعد تتلوى فريسة لحركات عصبية غريبة وتضرب رأسها بالجدار بينما كانت سونيا وبعض الخادمات يمسكن بذراعيها .

صاحت وهي تدفع المحيطات بها :

ــ ناتاشا ، ناتاشا ! ... هذا غير صحيح . غير صحيح .. انه يكذب ناتاشا ، اذهبن كلكن عني هذا غير صحيح ! لقد قتلوه ! ... آه ! آه ! آه ! ... هذا غير صحيح !

فوضعت ناتاشا احدى ركبتيها على المقعد وانحنت على امها فأحاطتها بذراعيها وادارت نحوها وجهها الذي ادنت منه وجهها بقوة غير منتظرة .

.. . . اماه العزيزة ! . . . انني هنا يا اماه . . .

وراحت تتمتم بكلمات دون ان تصمت لحظة واحدة .

ودون ان تفلت امها وهي تظهر حيالها مقاومة حانية ، اخذت تطلب استحضار وسائد وماء ثم نزعت عنها ذراعيها ووضعتها بشكل مريح في ثيابها .

استمرت تقول وهي تغمر رأسها بالقبلات ويديها ووجهها وتشعر بدموعها الشخصية التي لم تستطع مسكها ، تسيل فتدغدغ انفها ووجنتيها :

— صديقتي ، امي العزيزه .

ضغطت الكونتيس على يد ابنتها واغمضت عينيها ثم هدأت بعض الشيء .

وفجأة نهضت بحيوية غير منتظرة والقت حولها نظرة مجنونة ، فلما شاهدت ناتاشا ، ضمت رأسها بكل قواها بين يديها . ثم ادارت نحوها وجه ابنتها المتقلص بفعل الألم وتأملته طويلاً .

قالت بصوت خافت وبلهجة مستسلمة :

— ناتاشا ، انك تحبينني ، ناتاشا ، انك لا تخدعينني ؟ ستقولين لي الحقيقة كلها؟

نظرت اليها ناتاشا بعينيها الطافحتين بالدموع فلم يعد وجهها الا توسل وحب .

كررت وهي توتر كل قوى مودتها وكأنها تريد ان تحمل نفسها هذه الموجة من الألم التي كانت تسحق أمها :

— امي الصغيرة !

وفي صراعها الكليل ضد الحقيقة ، وبرفضها الاعتقاد بأنها يمكن ان تعيش بينما قتل منذ حين ولدها العزيز في زهرة شبابه ، انقذت هذه الام نفسها بدخولها عالم الهذيان .

لم تستطع ناتاشا ان تتذكر كيف انقضى ذلك النهار والليل الذي تلاه ثم النهار والليل التاليين . لم تنم ولم تترك امها . كان حبها الثابت الصبور الذي ما

كان يحاول ايجاد التفسير او ازجاء العزاء ولكن كان أشبه بنداء الى الحياة ، يحيط بالكونتيس من كل ناحية وفي أية لحظة .

وفي الليلة الثالثة ، هدأت الكونتيس بضع دقائق فأغمضت ناتاشا عينيها مسندة رأسها الى ذراع الأريكة . وقعقع السرير ففتحتها . كانت الكونتيس جالسة تتحدث بصوت خافت :

– كم أنا سعيدة لعودتك ! انك متعب ، هل تتناول شاياً؟(واقتربت ناتاشا منها بينما استرسلت الكونتيس تقول وهي تمسك يد ابنتها :) كم أصبحت فتى جميلا ، انك الآن رجل !

– اماه ما هذا الذي تقولين ! . .

– ناتاشا ، انه قضى ، لم يعد له وجود !

وطوقت ابنتها وراحت الكونتيس تبكي للمرة الاولى .
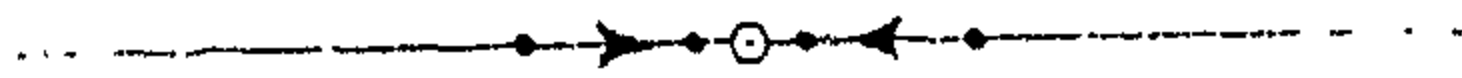
الفصل الثالث

رحيل ماري وناتاشا

ارجأت الأميرة ماري سفرها . وحاول الكونت وسونيا عبثاً ان يحلا محل ناتاشا قرب الكونتيس . كانا يشعران بأنها وحدها القادرة على انتزاع امها من جنون اليأس . لم تغادرها لحظة واحدة طيلة ثلاثة اسابيع . كانت تنام الى جانب الكونتيس على المقعد وتقدم لها الطعام والشراب ، تحدثها باستمرار لأن صوتها المهدهد الحاني وحده كان قادراً على تهدئتها .

ما كان الجرح المعنوي الذي اصيبت به الام المسكينة يقبل الشفاء . لقد انتزع موت بيتنا منها نصف حياتها .

وعندما خرجت من غرفتها بعد شهر من تلقيها نبأ موت ابنها لم تعد الكونتيس التي حملت برشاقة ودون عناء سنيها الخمسين ، الا امرأة كهلة ، نصف ميتة ، فقدت لذة الحياة . لكن ذلك الجرح نفسه الذي قتل الكونتيس نصف قتل ، دعا ناتاشا الى الحياة .

ان جرح الروح الذي ينجم عن انقلاب الكيان الداخلي يشبه ، مهما بلغ التشابه من غرابة ، جرحاً عميقاً في الجسد : لا يلتئم داخلياً بعد شفائه الظاهر الا نتيجة لا ندفاع القوة الحيوية .

وهذا ماحصل بالنسبة الى جرح ناتاشا . كانت تظن ان حياتها قد انتهت .

وفجأة ، اظهر لها حبها لامها ان سبب حياتها الموجب ، أي الحب ، لايزال حياً في نفسها . ولقد أظهر الحب نفسه ومعه الحياة .

ولقد ربطت ايام الأمير اندريه الأخيرة ناتاشا بالأميرة ماري . وقربت هذه المصيبة الجديدة بينهما اكثر من ذي قبل . ولما ارجأت الاميرة ماري سفرها ، اخذت تعنى بناتاشا وكأنها تعالج طفلا مريضاً طيلة الاسابيع الثلاثة التي تلت ذلك . ان الاسابيع الاخيرة التي امضتهـا ناتاشا في حجرة امهـا ، حطمتها تحطيما .

وذات يوم ، في فترة بعد الظهر ، شاهدت الاميرة ماري ناتاشا ترتعد من الحمة فأخذتها الى غرفتها وارقدتها في فراشها . تمددت ناتاشا ، ولكن عندما ارادت الاميرة ماري ان تخرج بعد ان اسدلت الستر ، نادتهاناتاشاالبها :

— ليست بي حاجة الى النوم ياماري ، اجلسي بجانبي .

— انت متعبة ، حاولي ان تنامي قليلا .

— كلا ، كلا ، لماذا اتيت بي الى هنا ، سوف تدعوني الآن .

— انك تعلمين تماماً انها افضل كثيراً من ذي قبل . لقد تحدثت اليوم بتعقل كبير !

راحت ناتاشا المتمددة على السرير تتأمل وجه الاميرة في عتمة الغرفة . حدثت نفسها ، ترى هل تشبهه ؟ نعم ولا . لكن فيها كل شيء خاص ، واضح ، جديد كل الجدة ، مجهول . ثم انها تحبني . ماذا في اعماق نفسها ؟ لا شيء غير طيب . ولكن ماذا ؟ ماذا تفكر ؟ ماذا ترى فيّ ؟ نعم ، انها روح طاهرة طيبة .

قالت باستحياء وهي تمسك يدها :

— ماشا ، ماشا ، لاتفكري في انني رديئة . اليس كذلك ؟ ياعزيزتي ماشا الصغيرة كم احبك ! لنكن صديقتين ، صديقتين حقيقيتين .

واحاطتها ناتاشا بذراعيها وراحت تغمر وجه الاميرة ماري ويديها بالقبلات في خجل وسعادة معاً .

ومنذ ذلك اليوم ، قامت بينهما تلك الصداقة المدنفة الحانية التي لا يمكن ان تكون الا بين النساء . ما كانتا تكفان عن تبادل القبل والكلمات الودودة وتقضيان الوقت كله معاً تقريباً . فاذا كانت واحدة منهما تبتعد ، كانت الاخرى تحس بالقلق فتهرع للحاق بها . كانتا تشعران بانسجام كبير كلما كانتا معاً اكثر من شعورهما به وهما منفصلتان ، وكل واحدة حيال نفسها . وكان الشعور الذي يجمع بينهما اقوى من الصداقة ، كان ذلك الشعور قائماً على اساس اعتقادهما الراسخ بعدم استطاعة احداهما الحياة بدون الاخرى .

كان يقع لهما ان تظلا ساعات طويلة دون ان تتحدثا ويقع لهما ان تبدآ الحديث بعد ان تستلقيا للنوم وان تتحدثا حتى الصباح . كانتا ترويان لبعضهما في الغالب ماضيهما البعيد جداً ، فتصف الاميرة ماري طفولتها وامها وأباها وأحلامها اما ناتاشا التي كانت تشيح من قبل ، بعدم فهم هادىء ، عن فكرة الزهد المسيحي ، ناتاشا التي باتت مرتبطة بحبها الى الأميرة ماري ، فانها أصبحت تحب ماضي صديقتها نفسه وتدرك هذا الجانب من الحياة الذي ظل مستغلقاً عليها . ما كانت تفكر في ان تطبق على حياتها الشخصية ، الاذلال والتضحية لانها كانت متعودة على البحث عن مختلف المسرات . لكنها أخذت تدرك الفضائل التي كانت ممتنعة الفهم عليها من قبل وتعجب بها في شخص آخر . بينما راحت الاميرة ماري نفسها تكتشف عالماً مجهولاً منها حتى ذلك الحين ، الايمان بالحياة ، الايمان بمباهج الحياة ، وهي تصغي الى اقاصيص ناتاشا عن طفولتها ويفعتها .

كانتا تتدبران امرهما بحيث لا تتكلمان أبداً «عنه» حتى لا تدركان بالكلمات . — او على الاقل هذا ما كانتا تظنانه — سمو الشعور الذي تكنانه في نفسيهما ،

فكان هذا الصمت يعمل بشكل جعلها تدريجياً تنهبان الأمير آندريه .

هزلت ناتاشا وشحبت وأصبحت على درجة من الضعف حتى بات كل الناس يسألون عن صحتها ، فكان ذلك يلذ لها . لكنها كانت أحياناً عرضة للخوف ليس من ان تموت فحسب بل من ان تقع مريضة وان تضعف وتفقد جمالها ، وأحياناً برغمها ، كانت تتأمل بانتباه ذراعها النحيل وتدهش لهزالها ، او تلقي صباحاً نظرة على وجهها المتقاص في المرآة فيبدو لها مثيراً للشفقة . كان يخيل اليها انه لا بد وان يكون الحال على هذا النحو ، لكنها رغم ذلك كانت تجده أمراً محزناً ومخيفاً .

وذات يوم صعدت مسرعة جداً فبهرت انفاسها تماماً . فلم تلبث ان ابتدعت لاشعورياً سبباً آخر للهبوط لتعود الى الصعود بسرعة كاية مرة اخرى قصد اختبار جلدها وقوتها وادراك مداها .

ومرة اخرى استدعت دونياشا فخانها صوتها فنادتها مرة اخرى رغم سماعها صوت خطاها — بصوتها الثاقب الذي كانت تغني به وراحت تصغي الى صوتها بدورها .

ما كانت تشعر بذلك ، بل وما كانت تريد أن تصدقه . ولكن تحت الطبقة الكثيفة التي خيل اليها انها تغطي روحها ، أخـــذت بعض الحشائش النضيرة الدقيقة تطل برأسها مبشرة بالنمو المطرد ودفع الغم الذي يخنقها بشدة ، لدرجة لن يلبث معه ان تدرس اثارة فيتعذر رؤيتها . لقد كان جرحها يلتئم من الداخل .

وفي نهاية كانون الثاني ، ذهبت الاميرة ماري الى موسكو فالح الكونت على ناتاشا ان تذهب معها كي تستشير الاطباء هناك .

الفَصْلُ الرابعُ

بلبلة القيادة الروسيه

بعد اصطدام الجيوش في فيازما حيث لم يتمكن كوتوزوف من منع قطعاته الراغبه في قلب العدو وقطعه . استمر تقهقر الجيش الفرنسي الفار ومطاردة الجيش الروسي له دون قتال حتى كراسنوايبه . وكان الجيش الفرنسي سريعاً في فراره حتى ان الجيش الروسي الذي كان يطارده ، لم يكن يتمكن من اللحاق به وان الجياد باتت تنهار تحت فرسانها وتعجز عن اداء عملها في سلاح المدفعية وان المعلومات المستقاة عن تحركات الفرنسيين كانت دائماً خاطئة .

وبلغ الاعياء بالجنود الروسيين من هذا الانتقال اليومي المستمر الذي كانوا يقطعون خلاله اربعين فرسخاً في اليوم مبلغاً جعلهم عاجزين عن زيادة سرعتهم .

ولأدراك درجة انهاك الجيش الروسي ، يكفي معرفة حقيقة ان هذا الجيش منذ تاروتينو ، لم يخسر الا خمسة الآف رجل بين قتيل وجريح وبالكاد مائة اسير ، وانه عندما خرج من تاروتينو بمائه الف رجل ،بات عدده الآن لا يتجاوز الاربعين الفاً في كراسنوايبه .

فسرعة المطاردة اذن كانت ذات أثر مذيب على الجيش الروسي بمثل ما كان الفرار على الجيش الفرنسي ، مع فارق واحد،هو ان الجيش الروسي كان يتقدم

دون الخوف من الفناء المعلق فوق الجيش الفرنسي ، الأمر الذي ينجم عنه ان المتخلفين الفرنسيين كانوا يقعون بين أيدي الروسيين ، اما المتخلفون من هؤلاء فيمكثون في بلادهم . والسبب الرئيسي اذن لانحلال جيش نابليون كان ناجماً عن سرعة جري هذا الجيش ، ولدينا على ذلك الدليل الذي لايقبل النقض في انحلال الجيش الروسي المماثل .

كان نشاط كوتوزوف كله يهدف فقط ، كما في تاروتينو وفي فيازما ، الى عدم اعاقة التقهقر الفرنسي بقدر ما يقع ذلك في نطاق طاقته ، خلافاً لما كانوا يريدون في بيترسبورج ولما كان يريده جنرالات الجيش الروسي ، بل مساعدة تقدم قطعات العدو وتسهيل سيره .

ولكن ، عدا عن الانهاك الذي كان الجيش الروسي يظهره والخسائر الفادحة التي سببها له سيره السريع ، فان سبباً آخر كان يدعو كوتوزوف الى ابطاء حركة قطعاته وتلطيف حدتها . كانت غاية الروسيين مطاردة الفرنسيين ، في حين ان الطريق التي سيسلكها الفرنسيون كانت مجهولة منهم ، لذلك ، كلما تقدم رجالنا على اثار الفرنسيين ، حث هؤلاء خطاهم ليباعدوا المسافة بينهم . فلم يكن ممكنا قطع الخطوط المتعرجة التي كان الفرنسيون يرسمونها في سيرهم ، باللجوء الى الطرق المختصرة ، الا عن طريق مرافقتهم طيلة مسافة كبيرة . وكانت التحركات العاقلة كلها التي كان الجنرالات يعرضونها ، تتلخص في حركات تقدم طردية وعكسية عديدة وزيادة في طول المراحل ، في حين ان الهدف المعقول الوحيد كان على العكس في تقصيرها . ونحو هذا الهدف ، تركزت حيوية كوتوزوف خلال كل الحملة من موسكو الى فيلنا ، ليس بمحض الصدفة او تبعاً لعرض مفاجيء ، بل بذكاء متسلسل محكم حتى انه لم يحد مرة واحدة عن الطريق .

كان كوتوزوف يعرف ، ليس بفضل استنتاجاته الفكرية او بمعرفته العسكرية . بل بطبيعته الروسية ، يعرف ويشعر بما يشعر به كل جندي روسي وهو ان الفرنسيين قد هزموا ، ان الاعداء يفرون وانه يجب مطاردتهم ، لكنه كان يحس بنفس الوقت ، مثل جنوده ، بثقل هذه الحملة كلها ، الفريدة بسرعتها وبالفصل الذي وقعت فيه من السنة .

اثناء ذلك ، كان الجنرالات ، وبصورة خاصة غير الروسيين منهم ، الراغبون في اظهار تفوقهم واحداث الدهشة وأسر دوق او ملك ليجروا من ورائه بعض الغنم ، كانوا يفكرون على العكس ، بان اللحظة قـــد ازفت لخوض المعركة والانتصار على عدو ما ، ويريدون ارتكاب هذه الخطيئة المروعة المنافية . لكن كوتوزوف كان يكتفي بهز كتفيه عندما كانوا يفدون ، واحداً أثر آخر ، يقومون مشاريع تحركات جديدة ، لتنفيذها برجال شبه حفاة ، محرومين من الألبسة الدافئة ، نصف مجوعين ، ذابوا خلال شهر واحد دون اي قتال حتى بلغوا النصف ، كان يجب ان يقطعوا حتى الحـدود ، مسافة اطول كثيراً من التي قطعوها حتى الآن ، هذا اذا استمرت مطاردة الهاربين ضمن افضل الشروط .

وكانت هذه الرغبة العنيفة بالظهور والتحرك وصد العـدو وقطعه ، تظهر بصورة خاصة عندما كان الجيش الروسي يصطدم بالجيش الفرنسي .

وهذا ماحصل في كراسنوايبه ، حيث ظن انهم لن يجدوا الا جمهرة واحدة من جمهرات الفرنسيين الثلاث ، فوقعوا على نابوليون بالذات ، على رأس جيش قوامه ستة عشر الف رجل . وعلى الرغم من كل الوسائل التي لجأ اليها كوتوزوف ليتحاشى ذلك الاصطدام السيء المغبة وتوفير قطعاته ، فان الجيش الروسي المنهوك انهمك طيلة ثلاثة ايام في كراسنوايبه لتحطيم زمر الفرنسيين .

ولقد وضع تول الخطة : القطعة الاولى تتحرك . . وهلمجرا . وكالعـادة

دائماً ، لم يقع شيء وفقاً للخطة . فالأمير اوجين دو وورتمبرج الذي كان يطلق النار من على مرتفع على التجمهرات الفرنسية طلب امدادات لم تصل . والفرنسيون انتهزوا فرصة الظلام ليلفوا ويخدعوا الروسيين ، فتبعثروا واختفوا في الغابات وتوصلوا على شكل ما الى شق طريق لانفسهم .

وميلورادوفيتش الذي كان يزعم انه لا يأبه لشيء من احتياجات فرقته المادية والذي ما كان يمكن ايجاده عند الحاجه الماسه اليه ، ميلورادوفيتش ، الفارس الذي لا يهاب ولا يلام ، كما كان يدعو نفسه بنفسه ، ذلك الهادي للمفاوضات أرسل رسلاً يطالب باستسلام الفرنسيين فأضاع وقته وعمل عكس ما أمر به تماماً .

قال لفرسانه وهو يتقدم امام قطعانه ويشير الى الفرنسيين امامه :

ـــ يا اولادي ! اعطيكم هذه الفرقة .

وراح فرسانه على جيادهم التي كانت تتحرك بشق النفس والتي كانوا يدفعونها الى الامام ضرباً بها ميزهم وسيوفهم ، يجرون خببا خفيفاً بكثير من الجهد . ويلقون بانفسهم على الفرقة الفرنسية التي قدمها لهم هدية ، أي على رجال بائسين خدرهم البرد كلهم فباتوا نصف متجمدين . ولم تلبث الفرقة ان القت سلاحها واستسلمت وهو الأمر الذي كانت تتوق اليه منذ امد كبير .

اسروا في كراسنوابية ستة وعشرين الف أسير وغنموا حوالي مائة مدفع وعصا زعموا انها عصا ماريشال . وبعد ان تناقشوا لمعرفـــة المبرزين بينهم ، ارتضى كل منهم بحقه لكنهم اسفوا اشد الأسف لأنهم لم يأسروا نابوليون أو على الاقل واحداً من الابطال ، ماريشالاً ما ، وراحوا يتبادلون اللوم ، ملقين الذنب كله على كاهل كوتوزوف فوق كل ذلك .

هؤلاء الناس الـذين تدفعهم اهـواؤهم ، ما كانوا الا ادوات عمياء لأسوأ الضرورات واكثرها حزناً لكنهم كانوا يعتقدون بانهم ابطال ويتصورون انهم

ماقوا بأكثر المـآثر نبلا واستحقاقاً للثواب . كانوا يتهمون كوتوزوف ويزعمون بأنه منعهم منذ بدء الحملة عن هزم نابوليون وانه لايفكر الا في ارضاء اهوائه وعدم مغادرة اقليم « فيلاتور » – وهو اقليم واقع على طريق كالوجا في مقاطعة ميلاين ، يملكه حينذاك كما يملك مصانع النسيج فيه التي استمد منها اسمـه ، آل جوتشاروف ، اسرة زوج بوشكين ، وقد توقف كرتوزوف في ذلك الاقليم بعض الوقت عام ١٨١٢ – لأنه يعيش فيه بسلام وانه في كراسنوايبه ، اوقف الحركة لأنه اضاع صوابه تماماً حينما علم بوجود نابوليون بالذات ، وانـه يمكن الافتراض بأنه على اتفاق مع نابوليون وانه باع نفسه اليه وهلمجرا (مذكرات ويلسن)

ولم يكن المعاصرون وحدهم الذين أعماهم الهوى هم الذين تخرصوا على هـذا الشكل ، بل ان الجيل الصاعد والتاريخ ناديا بعظمة نابوليون وقال الأجانب عن كوتوزوف انه ثعلب عجوز فاجر رجل بلاط غير جريء . اماالروسيون ، فقد وصفوهم على اعتبارهم مخلوقاً لايمكن تحديد وصفه اشبه بصورة من الورق المقوى ، نافعة فقط لأنها تحمل اسماً روسيا . . .

★ ★ ★

الفَصْلُ الخَامِسُ

انصافاً لكوتوزوف

اتهموا كوتوزوف بصراحة خلال سنتي ١٨١٢ -١٨١٣ وكان الامبراطور شديد الاستياء منه . ولقد جاء في تاريخ حرر بناء على رغبة سامية ان كوتوزوف كان رجل بطانة ماكر وكذاب يروعه مجرد ذكر اسم نابليون ، حرم الجيش الروسي في كراسنوايية وفي بيريزينا ، بفضل اخطائه ، من مجد هزيمة الفرنسيين هزيمة كاملة .

ذلك هو مصير ليس الرجل القيم ، الرجل العظيم الذي ترفض العقلية الروسية الاعتراف به ، بل الرجال النادرين دائمي الانفراد يخضعون مشيئتهم الشخصية لمشيئة القدر التي يتفهمونها . ان حقد الجمهور واحتقاره يعاقب هؤلاء الرجال على تفهمهم النظم العليا .

ان نابليون ، اداة التاريخ التافهة تلك ، الذي لم يُظهر في أي مكان حتى ولا في المنفى ، مايدل على الكرامة الانسانية ،نابليون هذا ، في نظر المؤرخين الروسيين (وهو غريب وبشع ان يقال) موضع اعجاب وحماس وهو رجل عظيم . اما كوتوزوف ، هذا الرجل الذي لم يناقض نفسه مرة واحدة من البداية حتى النهاية طيلة نشاطه عام ١٨١٢ ، من بورودينو وحتى فيلنا ، في كل تصرفاته

کوتوزوف

ولا في اقواله ، هذا الرجل الذي يبدو في التاريخ كمثال خارق للتضحية بالذات والتعمق في معرفه المستقبل ، فأنه يبدو لهم على العكس ، مخلوقاً متردداً يستحق الرثاء يشعر المرء بلون من الخجل كلما تحدث عنه في عام ١٨١٢ .

مع ذلك ، فان من العسير تصور شخصية تاريخية تبعت نهائياً هدفاً واحداً بكل ذلك الدأب والثبات . من العسير تصور غاية اكثر نبلاً واكثر انسجاماً مع ارادة شعب بأكمله . وكذلك انه عسير اكثر ، ايجاد مثال في التاريخ ، بُلغ الهدف المنشود سلفاً من جانب شخصية تاريخية ما يمثل ذلك الكمال الذي بذل كوتوزوف قواه فيه كلها خلال مجرى عام ١٨١٢ لبلوغه .

لم يتحدث كوتوزوف قط عن القرون الاربعين التي تطل علينا من أعالي الهرم ولا عن التضحيات التي كان يبذلها في سبيل وطنه ولا عما عمله او ما كان ينوي عمله ، ما كان يتحدث عن نفسه قط بصورة عامة ، ولا يبحث عن ان يلعب أي دور ، يظهر نفسه دائماً اكثر الرجال بساطة وسلامةنية . كان يكتب لبناته ولمدام دوستايل ويقرأ الروايات ويحب عشرة النساء الجميلات ، يمزح مع جنرالاته وضباطه وجنوده ، لايناقض قط اشخاصاً يتحدثون اليه بشيء ما . ولما جاء الامير روستوبتشين راكضاً على ظهر جواده عند جسر اياووزا ، يكيل له اللوم الشخصي ويتهمه بأنه كان سبب ضياع موسكو ويقول له : « كيف لقد وعدت ان لاتهجر المدينة دون قتال ؟ » اجابه كوتوزوف : « لست انوي هجر موسكو دون قتال » رغم ان موسكو كانت حينذاك في ايدي الاعداء . ولما جاء اراكتشييف يقابله من لدن الامبراطور ليقول له بأنه يجب ان ينيط قيادة المدفعية بـ : ايرمولوف ، اجابه : « نعم ، هذا تماماً ما كنت اقوله شخصياً منذ حين » رغم انـه كان قبل دقيقـة واحدة يقول عكس ذلك . وأية اهميـــة كان لذلك في نظره ، هو الذي كان وحـــده يـدرك

المعنى الرائع للاحداث وسط الحشد الابله الذي كان فيه ، أية اهمية لأن يعزو روستوبتشين لنفسه المصائب التي حلت بالعاصمة او ان يعزوها اليه ؟ فكم بالأجدر أن لا يأبه لمعرفة من سيُعين قائداً للمدفعية .

لقد كان ذلك العجوز ليس في هذه المناسبات فحسب ، بل بصورة مستمرة ، يتفوه بالكلمات العارية عن اي معنى ، اول مايتبادر الى ذهنه من كلمات ، وهو الذي اكتسب من الخبرة في الحياة ، الايمان بأن الآراء وكلمات التي تعبر عنها ، ليست هي التي توجه البشر .

لكن هذا الرجل نفسه الذي كان قليلا ما يأبه لما يقول ، لم يدع خلال حياته العملية كلها ، كلمة تفلت منه دون ان تكون متفقة مع الهدف الأوحد الذي كان ينشده طيلة مدة الحرب . ولقد كشف في مناسبات عديدة عن حقيقة فكرته حيث تسلط عليه التأكد الاليم بأن ما من احد يفهمه . واعتباراً من معركة، بورودينو ، التي هي السبب الرئيسي لاختلافاته مع المحيطين بـه ، كان وحـده الذي قـال : « ان معركـة بورودينو نصر » وكرر ذلـك بالحاح وبصوت مرتفع في تقاريره وفي اتصالاته حتى ساعة موته . وهو وحده الذي قال : « ان ضياع موسكو ليس ضياع روسيا » . وفي جوابه على عروض الصلح التي قدمها لوريستون اعلن : « ان السلم غير ممكن ، لأن تلك هي مشيئة الشعب . » وهو وحده الذي اعلن عند تقهقر الفرنسيين : « ان كل تحركاتنا عقيمة وان كل شيء سيُسوّى من تلقاء نفسه على نحو افضل مما نتمناه وانه يجب ان نصنع للاعداء جسراً من ذهب وان معارك تاروتينو وفيازما وكراسنوييه ليست ضرورية وان الامر يتطلب الوصول الى الحدود بقوات كافية وانه لا يعطي جندياً روسياً واحداً لقاء عشرة جنود فرنسيين » .

وهذا الرجل وحده ، الذي يصورونه لنا على شكل ملاق مذنب لأنه

كذب على آرا كتشييف ليرضي الامبراطور ، هو وحده الذي تجرأ في فيلنا على التعرض لغضبة مليكه حين قال : « ان حرباً تدفع الى ماوراء الحدود ستكون حرباً ضارة ولا غاية لها . »

لكن كلماته ليس وحدها التي يمكن ان تكون برهاناً على تفهمه لمعنى الاحداث ان تصرفاته كلها دون اي استثناء، تهدف نحو الهدف الثلاثي نفسه : ١ً – تركيز كل قواته بانتظار اشتباك منتظر مع الفرنسيين ، ٢ً – هزيمتهم و٣ً – طردهم من روسيا والاقلال بقدر المستطاع من آلام الشعب والجيش .

انه هو ، كوتوزوف المتمهل ، الذي كان شعاره : الصبر وطول الوقت ، كوتوزوف عدو كل نشاط حاسم الذي يشتبك في معركة بورودينو وهو يضفي على استعداداته جلالاً لا مثيل له ، انه هو ، كوتوزوف هذا نفسه الذي اعلن في اوسترليتز قبل خوض المعركة انها ستكون هزيمة والذي أكد في بورودينو ، رغم ماأكده جنرالاته كلهم من ان المعركة قد خسرت ، ورغم المثل الأوحد في التاريخ الذي شوهد فيه جيش ظافر يغادر ساحة المعركة مرغماً ، انه هو ، وحده ضد الجمع ، الذي أكد حتى الموت ان معركة بورودينو كانت نصرا . انه وحده الذي ألح طيلة تقهقر الفرنسيين على وجوب تحاشي القتال الذي اصبح عقيماً منذ ان بدأ التقهقر ، كيلا تبدأ حرب جديدة وكيلا يوغل في ما وراء الحدود الروسية .

ان من السهل اليوم فهم معنى الحدث اذا اردنا ان نترك جانباً تلك الكتلة من الاهداف التي كانت تملأ رأس حفنة من الرجال لأن الحدث في كليته وبكل نتائجه ،ينبسط تحت اعيننا .

ولكن كيف استطاع ذلك العجوز ، الوحيد ضد الجميع ، ان يفرق منذ البداية وبمثل هذه الدقة المتناهية غاية الشعور الشعبي في ذلك الحدث، تلك الغاية التي لم يتنح عنها مرة واحدة طيلة فترة نشاطه كلها ؟

لكن كان مصدر ذلك التفهم الخارق لمعاني الوقائع الجارية ، هو ذلك الشعور الشعبي الذي كان يحمله في نفسه على غاية النقاء وفي كل قوته .

ولمعرفة الشعب بهذا الاحساس في نفسه ، انتخبه الشعب بوسائله الغريبة ، هذا العجوز المغضوب عليه ، ضد رغبة القيصر . ليجعل منه ممثلا للحرب الشعبية . ان هذا الاحساس وحده هو الذي سما به الى الدرجة القصوى من الرفعة الانسانية التي كان القائد الأعلى يدير من اعلاها كل قواه ، لا ليقتل الرجال ويبيدهم ، بل لينقذهم ويوفر حيواتهم .

وهذه الصورة البسيطة المتواضعة ، وبالتالي العظيمة عظمة حقيقة ، ما كان يمكن ان تنطبع في قالب البطل الاوربي الكاذب ، الذي زُعم انه مسيّر الشعوب كما تصوره التاريخ .

ذلك انه لايمكن ان يكون هناك رجل عظيم بالنسبة الى الوصيف لأن للوصيف طريقته الخاصة به في تفهم العظمة .

★ ★ ★

الفَصلُ السَّادِسُ

خطاب القائد الاعلى

كان اليوم الخامس من تشرين الثاني هو اليوم الاول للمعركة المسماة بمعركة كراسنوابيه . حوالي المساء ، بعد عدد من المناقشات ، وبعد تحركات خاطئة من جانب الجنرالات الذين لم يقودوا الجيوش الى حيث كان يجب ان تكون ، وبعد ارسال المساعدين العسكريين الى مختلف الجهات وهم يحملون الاوامر المناقضة ، وبعد ان بات واضحاً ان العدو يفر من كل الجهات وان اية معركة لن تقع كما لايمكن ان تقع ، غادر كوتوزوف كراسنوابيه ومضى الى دوبروابيه حيث نقل مركز القيادة العامة خلال النهار .

كان النهار صاحياً مقرساً و كوتوزوف ، ترافقه حاشية ضخمة من الجنرالات النافرين منه المتهامسين وراء ظهره ، يتجه نحو دوبروانيه على متن جواده الابيض وعلى طول الطريق ، كانت الفرق الفرنسية التي أسرت خلال النهار ، محتشدة متراصة وعددها يناهز السبعة آلاف رجل تقريباً ، تصطلي الدفء حول نيران مشبوبة . وبالقرب من دوبروابيه ، كان حشد كبير من الأسرى في ثياب خلقة ، النفوا واتشحوا بأول ماوقعت عليه أيديهم من الاسمال البالية ، يتناقشون بلفظ ، واقفين على الطريق ، الى جانب رتل طويل من المدافع الفرنسية المحلولة

فلما اقترب الجنرال القائد الاعلى ، هدأت الأصوات وشخصت الابصار كلها الى كوتوزوف في قلنسوته البيضاء ذات الحافة الحمراء ، المتدثر بمعطفه الضخم المبطن المرفوع بأحديداب فوق كتفيه المقوستين ، وهو يتقدم ببطء على جواده وقد راح أحد الجنرالات يشرح له مصدر المدافع والاسرى .

وكان كوتوزوف بادي الاستغراق حتى لكأنه لايسمع أقوال الجنرال . كان يرف بعينيه بامتعاض وينظر الى أشباح الاسرى بثبات متيقظ وهم في مظهرهم المتفرد في الايلام . كان معظمهم مشوهون بوجناتهم وانوفهم المتجمدة وعيونهم جميعاً تقريباً كانت حمراء منتفخة ومتقيحة .

وفي زمرة من الفرنسيين الواقفين الى جانب الطريق ، وعلى مقربة ، كان جنديان ، احدهما تغطي البثور وجهه ، يمزقان بأيديهما قطعه من اللحم النيىء . وكان في النظرة المختلسة التي القياها على الجنرالات وفي التعبير الحقود الذي دل عليه الجندي ذو البثور حينما أشاح برأسه عن كوتوزوف بعد ان عاينه ملياً واستمر في عمله ، شيئا من الهول والحيوانية .

تأمل كوتوزوف طويلا وبانتباه هذين الجنديين فتقعر وجه المتغضن اكثر من ذي قبل وطرفت عيناه وهز رأسه ساهماً . وفي مكان آخر ، لاحظ جندياً روسياً كان يضحك وهو يضرب على كتف أحد الفرنسيين ، ويقول له شيئاً ما بمودة ، فبدت تلك الامارات الساهمة على وجه كوتوزوف من جديد وهز رأسه أيضاً .

سأل الجنرال الذي كان لايزال يدلي بتقريره محاولاً ان يجتذب انتباه القائد الأعلى على الرايات الفرنسية التي أسرت كذلك والتي نصبوها على مقدمة فيلق بريوبراجنسكي :

– ماذا تقول ؟ آه ! الاعلام .

ولقد نطق بهذه الكلمة وهو ينتزع نفسه بجهد ظاهر من موضوع انشغاله الداخلي

ألقى حوله نظرة ساهمة . كانت الوف العيون من حوله شاخصة اليه بانتظار ما سيقوله .

توقف امام فيلق بريوبراجنسكي ثم أطلق زفرة عميقة واغمض عينيه . وقام احد مرافقيه بحركة يستقدم بها حملة الاعلام حول الجنرال القائد الأعلى . وبعد بضع ثوان ، رفع كوتوزوف رأسه وراح يتكلم ، مغتصباً أقواله بشكل ملحوظ تمشياً مع متطلبات الموقف . فأحاط به حشد من الضباط اخذ يجول بابصارهم في دائرتهم وتعرف على بعضهم .

صاح وهو يخاطب الجنود أولاً ثم الضباط :

ـ أشكركم جميعاً ! ـ ولقد برزت كل كلمة من كلماته بوضوح كامل في ذلك الصمت الذي ران ـ أشكركم جميعاً على خدمتكم الشاقة المخلصة . ان النصر تام وروسيا لن تنساكم . المجد لكم الى الأبد !

وصمت وهو ينظر حوله ثم قال لجندي كان يحمل نسراً فرنسياً خفضه دون قصد أمام راية فيلق بريوبراجنسكي :

ـ اخفض رأسه ، أكثر انخفاضاً ، أكثر ، هكذا ! هكذا !

وصاح يوجه صيحته الى الجنود وقد ارتجت ذقنه بحركة مفاجئة :

ـ هورا ، ايها الاولاد !

فزمجرت الوف الاصوات :

ـ هرر ـ را ـ ا ـ ا . !

ولقد أطرق كوتوزوف طيلة الوقت الذي ظل الجنود خلاله يزمجرون ، وهو منحن فوق سرجه ، وفي عينه الوحيدة وميض لذيذ يقارب المكر . ولما هدأت الأصوات قال :

ـ وهذا كل ما هناك أيها الاخوان !

وفجأة غير تعابير وجهه وطبقة صوته : لقد تكلم القائد الأعلى والآن ، ازف دور عجوز بسيط جداً يريد ان ينهي الى رفاقه شيئاً ما مهماً .

ارتفعت في الصفوف بين الجنود وبين الضباط حركة تدل على رغبة هؤلاء في الاصغاء الى ما سيقوله بشكل أفضل :

— وهذا كل ما هناك ايها الاخوان ! انني اعرف ان هـذا قاس عليكم . ولكن ما العمل ! إصبروا ، سنبلغ الغاية قريباً . سوف نستريح بعد ان نشيع ضيوفنا . اما ثمن خدماتكم . فان القيصر لن ينساكم . هذا قاس . لكنكم رغم ذلك في وطنكم ، اما هم ، - وأشار الى الاسرى - انكم ترون الى أي حال وصلوا . لقد باتوا أسوأ من أسوأ المتسولين ! ما كنا نشفق حتى على أنفسنا ما زالوا أقوياء . أما الآن ، فيجب ان نشفق عليهم أيضا . انهم بشر كذلك ، اليس كذلك يا أولاد ؟

ونظر حوله مرة اخرى ، فقرأ في العيون المتيقظة الخاشعة المتسائلة الشاخصة اليه الانفعال الذي أيقظته كلماته في النفوس . فازداد وجهه اشراقا بابتسامته العجوز الطيبة التي رسمت نجوما من التغضنات عند ركن شفتيه وعينيه . صمت ثم أطرق برأسه وكأنه حيران .

وفجأة صرخ وهو يرفع رأسه :

— ولكن ، من الذي دعاهم الى المجيء الينا ؟ انهم يستحقون ما نالهم ، يا للألف لعنة !

ثم هز جواده ومضى جارياً لأول مرة خلال الحملة ، وسط عاصفة مـن الضحك البهيج والهتافات المدوية المنطلقة من حناجر الجنود الذين تفرقت صفوفهم .

لم يفهم الجنود الكلمات التي نطق بها كوتوزوف كلها . وما من أحد كان يستطيع ترديد فحوى خطاب الفيلدمارشال هذا الذي بدأ جليلا ثم أضحى عند نهايته

كوتوزوف يخطب في الجيش

بسيطاً وأبوياً . لكنهم أدركوا معناه العميق ، ذلك الشعور من العظمة الجليلة المتحدة مع الشفقة على العدو ومع تفهم الحق الصريح الذي أبرزته البسة الأليفة المقبولة التي فاه بها هذا العجوز .ذلك الشعور المقيم في قلب كل جندى ، والذي عبرت عنه الهتافات التي دامت طويلاً قبل ان تصمت. ولما جاء احد الجنرالات بعد ذلك يسأل كوتوزوف عما اذا كان يجب استقدام عربته ، صعدت الى حنجرة هذا شهقة وهو يجيبه ، شهقة مفاجئة دلت على تأثره العنيف .

الفَصلُ السَّابعُ

اليوم الاخير

في الثامن من تشرين الثاني ، اليوم الأخير لمعركة كراسنوايية ، كان الليل قد هبط عندما عاد الجنود الى معسكراتهم . ولقد كان النهار كله هادئاً ، مجمداً ، تخلله تساقط الثلوج من حين الى آخر . لكنه حوالى المساء صحا الجو ، فكانت السماء السوداء المائلة الى اللون البنفسجي ، تُرى خلال جوانح الثلج بنجومها المتوهجة وازداد البرد شدة .

وصل فيلق من الرماة كان يعد ثلاثة الاف رجل لدى خروجه من معركة بورودينو فبلغ عدده الآن تسعمائة رجل فحسب ، الى المكان المعين لقضاء الليل ، في عداد الفرق التي وصلت الى اماكنها قبل سواها ، الى قرية تقوم على جانب الطريق العام . فجاء بعض رواد الجيش للقائد وشرحوا للرماة ان الاكواخ الخشبية مشغولة كلها بالمرضى والميتين من الفرنسيين ، والجنود الفرسان والقيادة العسكرية وانه لم يبق الاكوخ واحد لقائد الفيلق .

مضى القائد الى كوخه . اما الفيلق ، فقد اخترق القرية . ولما بلغ نهاية البيوت ، اقام جماعات حول الطريق .

لم يلبث الفيلق ان انصرف الى العمل اشبه بحيوان هائل ذي اطراف عديدة ، بدأ يبني حجرة ويعد معاشه اليومي : فهرع عدد من الجنود والثلج يغمرهم

الى ما فوق ركبهم ، يتبعثرون في غابة سندر كانت الى يمين القرية ، فلم تلبث جلبة الفؤوس ان ارتفعت واصوات الزناد والاغصان المهشمة والأصوات البهيجة. ومضى قسم آخر يعمل حول عربات النقل التابعة للفرقة والجياد المجمعة كالقطيع فأعدوا القدور والبسكويت وقدموا العلف للجياد . وآخرون انتشروا في القرية لينظموا اسكان قيادة الفرقـــة ، فأجلوا جثث الفرنسيين عن الاكواخ واستولوا على الالواح الخشبية والحطب الجاف والقش الذي يغطي السقوف لا يقاد النيران ، وعلى الحواجز الخشبية لبناء الملاجىء .

وراح حوالي خمسة عشر منهم وراء الأكواخ عند طرف القرية يزعزعون ، وهم يطلقون صرخات مرحة ، حاجز رواق كبير انتزع سقفه من قبل كانوا يهتفون :

– هيا ، هيا ، معاً ، لندفع دفعة قوية !

وفي عتمة الليل ، شوهد جانب كبير من الحاجز المكلل بالثلج يترنح في جلبه الجليد الذي يتحطم . وفرقعت الاوتاد السفلية واخذت تميل ولم يلبث الحاجز كله ان انهار والجنود فوقه . وافلتت سباب لاذعة من الافواه وارتفعت قهقهات .

– انتظموا اثنين اثنين ! عتلة من هنا ! هكذا ! اين تحشر نفسك ؟

– هيا ، معاً ، كلنا ! . . . انتبهوا ! . . . بانسجام !

وران الصمت وراح صوت دقيق لطيف رخيم يغني وفي نهاية المقطع الثالث ، عندما راح آخر نغم يخبو ، هتفت اصوات عشرين رجلاً مجتمعة : « هو ــ و ــ و ! لقد لان ! معاً ! ميلوا عليه يا اولاد ! » وعلى الرغم من تلك الدفعة المركزة ، لم يتزحزح الحاجز وارتفع في الصمت الذي اعقب ذلك لهث الرجال الثقيل .

– هية ، انتم ، ياجنود السادسة ! يالشياطين المقدسة ! ساعدونا . . . سوف نرد المساعدة لكم ! .

وكان عشرون رجلا تقريباً من السريه السادسة يمرون حينذاك في طريقهم الى القرية ، فانضموا اليهم وراحوا يدفعون معهم ، فراح الحاجز ، وطوله يزيد على العشرة امتار وعرضه على المترين ، وقد ارتكز ملتويا على اكتاف الجنود اللاهثين الذين كان يسحقهم بثقله ويقطع انفاسهم ، يترنح على طول شارع القريه.

ـ هيا ، تقدم يا . . . انك تتعثر ايها الحيوان ... لماذا تتوقف . . . هيا ، اصمد !

واستمرت السباب اللاذعة المرحة لا تنقطع . وفجأة زمجر صوت صف ضابط آمر هرع صاحبه نحو الحمالين :

ـ ماذا تفعلون ؟ ان الرؤساء هنا وفي الكوخ «جننار» بالطغمه الصعاليك ياهؤلاء ! سوف اساعدكم !

وأحكم على ظهر اول جندي وصلت اليه يده دفعة قوة واستأنف :

ـ اما كنتم تستطيعون اثارة اقل من هذه الضجة ؟

صمت الجنود بينما راح الذي تلقى الضربة من صف الضابط يمسح وجهه المغطى بالدم الذي جرح اذ اصطدم بالحاجر ، وهو يزمجر مغمغما وقال بلهجة وجلة عندما ابتعد صف الضابط :

ـ آه ! الحيوان. بالضربه التي اصابني بها ! آه ! ان «بوزي» كله ملطخ بالدم .

فقال صوت ساخر :

ـ انك لا تحب ذلك ، .هه.؟

لكن الجنود استمروا في طريقهم بعد ان خفضوا من هتافاتهم .

وعندما خرجوا من القرية ، عادوا يتحدثون بصخب ويطلقون السباب بكل مناسبة ودون سبب .

وفي الكوخ الذي مر الجنود امامه ، كانت القيادة العليا مجتمعة ، يشرب

اعضاؤها الشاي ويتناقشون بحمية حول احداث النهار والتحركات المقررة لليوم التالي . لقد عُرض القيـــام بمشية جناح على الجانب الايسر لقطع فرقة نائب الملك واسره .

ولما جاء الجنود بالحـاجز المحطم ، كانت نيران المطاهي المتنقلة مستعرة في كل مكان والخشب يفرقع والثلج يذوب واطياف الجنود السوداء تروح وتجيء على طول المساحة التي يشغلونها ، المغطاة بالثلج الذي وطئته الاقدام .

كانت الفؤوس والأزند تعمل بنشاط . وراح كلٌ يعمل دون ان ينتظر صدور الأمر اليه . جاؤوا بالحطب لاذكاء نار الليل واخذوا يعدون الأكواخ للرؤساء ويطهون الطعام في القدور وينظفون الأسلحة والتجهيزات .

اقيم الحاجز الذي جاء به رجال السرية الثامنة ، على شكل نصف دائرة من ناحية الشمال ودُعم بالأسناد ثم اوقدت نار المعسكر امامـه . ثم نفخ في البوق ايذانا بالاستراحة واجري التفقد وأكل الجميع ثم اتخذوا اماكنهم امام النار لقضاء الليل ، هـــذا يرفع حذاءه وذاك يـدخن غليونه وثالث يخلع ملابسـه بحثـاً عن « قمـلاته » .

الفصل الثامن

لغط الجنود

كان يمكن الظن بان الجيش الروسي ، في الشروط الفظيعة التي لا يمكن تصور قسوتها تقريباً ، التي كان الجندي الروسي يعاني منها وهو محروم من الأحذية المبطنة وجلود الخراف ، مفتقر الى سقف فوق رأسه في درجة حرارة بلغت ١٨ تحت الصفر ، بل ودون جرايته الكاملة ، لأن الارزاق ما كانت دائماً تتبع الفرق في تنقلاتها ، كان يمكن الظن بان الجيش الروسي يبرز مظهراً من اكثر المظاهر مدعاة للاشفاق والأسى .

على العكس : ان الجيش ، حتى في الظروف المادية الاكثر مواتاة ، لم يعط مشهداً اكثر وداعة وبهجة وحمية . ذلك انه مع الوقت ، كان من يفقد شجاعته او تخور عزائمه ، ينسق من الجيش . أي ان العناصر الضعيفة مادياً ومعنوياً ، باتت منذ امد طويل في المؤخرة : فلم يبق الا زهرة الجيش ، القوة الروحية والجسدية .

كانت السرية الثامنه التي يحميها الحاجز ، تضم عدداً كبيراً من الجنود ، انضم اليهم رقيبان لأن النيران في السرية كانت اشد استعاراً من النيران الاخرى . كان اولئك الجنود يشترطون للجلوس حول النار ، الاتيان بالحطب ليحق لمن يأتي به الاصطلاء .

صاح جندي اصغر متورد الوجه كانت عيناه تطرفان بفعل الدخان دون ان يبتعد عن النار :

ــ هيه ، ياما كيييف ، اين انت ؟ . . . هل ضعت ام هل افترستك الذئاب ؟ جيء بحطب .

وصاح آمراً جندياً آخر :

ــ هيا ، تحرك ، يامصير الخنزير جيء بحطب .

لم يكن الأمغر رقيباً حتى ولا عريفا . لقد كان جندياً قوياً يستغل قوته ليتحكم بمن هم اضعف منه . نهض الجندي الصغير النحيل ذو الأنف المدبب الذي وصف بمصير الخنزير ، واستعد بدعة للخضوع للأمر الصادر . ولكن في تلك اللحظة بالذات ، ظهر على ضوء اللهب ، شبح ضامر لجندي شاب محمل بالحطب .

ــ هاته الى هنا ، عال !

وكسر الحطب وحُول الى قطع صغيرة ، ثم اضرمت النـــار وهم ينفخونها ويحركون ذيول المعاطف ولم يلبث اللهب ان صعد مفرقعاً . اقترب الجنود واشعلوا غلايينهم وراح الجندي الشاب الجميل الذي جاء بالحطب ، يقرع الارض بنعليه بشدة وحذق وقد وضع قبضتيه على وسطه ، بغية بعث الدفء في قدميه المتجمدتين . ثم شرع يغني وهو يفوق لدى كل كلمة . (والمعروف ان ان قرع الاقدام على طريقة الرقص الشعبي يشفع دائماً باغنية) :

ــ آه ! يا امي الصغيره ، الندى بارد وجميل وحامل البندقية . .

صرخ الأمغر وقد لاحظ ان نعلي الراقص تالفان :

ــ هيه ، ان نعليك « طائران » ! ياله من سم ، هذا الرقص !

توقف الراقص وانتزع قطعة الجلد السائبة والقاها في النار وقال وهو يجلس :

ــ ايه نعم ، يا شيخ !

واخرج من حقيبته قطعة من القماش الازرق الفرنسي لف قدمه بها وأضاف وهو يمد ساقيه نحو النار :

— ان الحرارة تخدرهما .

— سوف يسلموننا احذية جديدة بعد حين . يقولون انه عندما تنتهي الامور ستدفع لنا أجورنا مضاعفة .

قال واحد من الرقيبين :

— قل لي ، هذا الكلب بيتروف ، لقد تخلف في الطريق .

فرد الآخر :

كنت اشك في ذلك منذ وقت طويل .

— ماذا تريد « شفقة » جندي كهذا . .

— يقولون ان تسعة جنود تخلفوا عن تفقد الأمس في السرية التاسعة .

— ولكن تعقل قليلا . كيف يمكن متابعة المسير عندما تتجلد الاقدام ؟

فهتف صف الضابط :

— ايه ! يا للخرافة !

فقال جندي عجوز بلهجة عتاب مخاطباً ذاك الذي تحدث عن الاقدام المتجمدة .

— هل بك رغبة الى تذوق ذلك ؟

سأل وهو ينهض من الجانب الآخر من النار ، الجندي ذي الانف المدبب الذي وصف بأنه مصير خنزير :

— ماذا تريد ان تقول ؟

ثم أضاف بصوت حاد مرتعد :

— مهما كان المرء سميناً ، فانه ينحل . والهزال معناه الموت .

وأكد فجأة بلهجة حازمة مخاطباً واحداً من الرقيبين :

– خذ مثلاً انا ، انني فقدت قواي ، فاعمل على ادخالي المستشفى لأنني أشعر باوصالي كلها منعقدة . والا فانني لن أستطيع المثابرة على اتباع الصفوف .

فرد صف الضابط بهدوء :

– هيا ، لاتنطق بهذه الغباوات .

فصمت الجندي الصغير وعاد الحديث ، فقال جندي راغب في اثارة موضوع جديد للنقاش :

– اننا اليوم لم نأخذ شيئاً قليلاً من اولئك الفرنسيين . أمـــا فيما يتعلق بالأحذية ، فان ما من واحد منهم كان يملك زوجاً حقيقياً منها . يمكن القول انها ليست احذية الا بالاسم .

– ان القوقازيين هم الذين يأخذونها منهم دائماً . لقد نظفوا المسكن من اجل الزعيم وحملوا الجثث الى الخارج . ولقد فتشوها وقلبوها حتى ان ذلك كان يدعو الى الشفقة .

واضاف المتكلم ، وهو الجندي الذي كان يرقص :

– كان بينهم واحد لايزال على قيد الحياة ، لو تصدق ، وكان يغمغم شيئا ما بلغته .

فاستأنف الأول :

– ثم انهم اشخاص نظيفون ايها الأولاد . انهم بيض ، بيض كالسندر ، ثم ان بينهم باسلين ونبلاء أيضاً ! لو علمت !

– ماذا كنت تظن اذن ؟ انهم يجندون في بلدهم من كل الفئات .

فقال الراقص بابتسامة دهشة :

– ثم انهم لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة الروسية . سألت احدهم : « الى أي تاج تنتمي ؟ » فدمدم بما لست أدري ماذا . يا للشعب المضحك !

واسترسل الذى أظهر دهشته للون الفرنسيين الابيض :

ـ ثم ان فيهم شيئاً غريباً ايها الاخوان . هل تعرفون ماذا قال القرويون الذين جمعوا جثث الاموات في موجانيسك ؟ لاحظوا ان جثثهم كانت هناك منذ شهر . حسناً ، لقد قالوا انهم كانوا ممددين ولونهم أبيض كالورق ، نظيف تماماً دون أدنى رائحة .

فرد جندي :

ـ لاريب ان ذلك مبعثه البرد . اليس كذلك ؟

ـ يا الماكر ! بسبب البرد ! لكن الطقس كان دافئاً . فلوا أنهم تجمدوا لوجب ان لا تتفسخ جثث رجالنا أيضاً . مع ذلك ، فقد بدا انهم ما ان يجمعوا واحداً حتى يرو انه كتلة من الديدان . فكان يجب لف الفم بمنديل والاشاحة بالوجه وهم يحملونهم : مع ذلك ما كانوا يحتملون . بينما هم ، لاشيء كالورق الابيض دون أية رائحة .

صمتوا جميعاً برهة . فقال واحد من الرقيبين :

ـ لاريب ان ذلك ناشيء عن الطعام . انهم يأكلون كالسادة .

فلم يعترض احد .

ـ لقد روى ذلك القروي من موجانيسك حيث دارت المعركة ، انهم حملوا الجثث من عشر قرى طيلة عشرين يوماً دون ان يستطيعوا نقلها كلها . وقال انه كانت هناك جموع من الذئاب . .

فأكد جندي عجوز :

ـ كانت هذه معركة حقيقية ، فيها ما يحمل المرء ذكراه . اما ما دار منذ ذلك الحين . . انه عبارة عن ألم العالم الفقير .

ـ قل لي يا جداه ، لقد تبعوهم امس الأول ، لكن لم يتسن لهم الوقت للاقتراب

منهم . كانوا قد القوا بأسلحتهم . وها هم اولاء على ركبهم ينشدون المغفرة . انهم جيش في المظهر فحسب . يقولون ان بلاتوف قد أمسك مرتين بـ :«بوليون» نفسه ، لكنه ما كان يعرف كلمة السر . لقد أمسك به هكذا في يده ، فتحول « بوليون » الى عصفور ثم طار وطار . ثم انه لايمكن قتله كذلك .

ـ انت ، كيسليف ،أراك تقصد امراً . انك لاتصلح الا لرواية الاكاذيب .

ـ كيف أكاذيب ؟ انها الحقيقة الحقة .

ـ وانا ، لو أنني امسكت به ، عندما أمسكه بيدي ، سأدفنه حياً . ثم سأضربه بعصا من الحور ، ذلك لأنه سبب قتل كثير من الناس . (الوتد من الحور يستعمل في ضرب الارواح الشريرة أو السحرة لمنعهم عن ايذاء الناس . وقد جرت العادة على دفنهم مع وتد من الحور لمنعهم من العودة بعد الموت الى هذا العالم .)

فأكد الجندي العجوز وهو يتثاءب :

ـ لابأس ، انه لن يفلت دائماً . سوف نبلغ النهاية .

وهدأ النقاش واستعد الجنود للنوم . هتف جندي كان يتأمل المجرة :

ـ انظر « لي » الى هذه النجوم ، انها رائعة لاريب في ذلك ! اهه هذه النساء اللواتي نشرن غسيلهن !

ـ هذا ايها الفتيان ، دليل عام خير .

ـ لابد من اضافة كمية اخرى من الحطب .

ـ ان ظهرنا يحترق وبطننا متجلد ، وهذا هو المزعج .

ـ اوه ! ياربي !

ـ ما بك ايضاً تدفع ، يا أنت ؟ . . هل النار لك وحدك ؟ انظر كيف يتمدد هذا !

وفي الصمت الذي خيم ، سمع شخير بعض النائمين بينما استمر الآخرون يتقلبون ويتقلبون طلباً للدفء ويتبادلون من حين الى آخر كلمة . ومن معسكر قائم على بعد حوالي مائة خطوة ، كانت ضحكه مرحة تبلغ الاسماع على دفعات فقال أحد الجنود :

— هيه ، انهم يمزحون في الخامسة . ثم يا لكثرة الناس ، هذا يثير الفضول !

ونهض ومضى يستطلع ما في السرية الخامسه وقال بعد ان عاد :

— ليس هناك مايضحك . هناك فرنسيان جاءا ، احدهم متجمد كلياً بينما الآخر غير متأثر ، الرجل ! انه ينشد الاناشيد .

— غير ممكن ! هيا بنا اليها ؟

ومضى بعض الجنود بدورهم نحو معسكر السرية الخامسة .

* * *

الفصل التاسع

رامبال وتابعه

كانت السرية الخامسة قد عسكرت عند تخم الغابة نفسه. وعلى الثلج ، شبت نار كبيرة اخذت تضيء اغصان الشجر المثقلة كلها بالجليد .

وفي أعماق الليل ، سمع جنود السرية الخامسة في صميم الغابة وقع خطى على الثلج وتحطم اغصان جافة . هتف أحد الجنود :

ــ اوه ! ايها الفتيان ، دب !

رفعوا جميعهم رؤوسهم ليصغوا ، فشاهدوا على ضوء النار النير ، شكلين آدميين خارجين من الغابة ، في لباس غريب ، يسند احدهما الآخر .

كان فرنسيين اختبآ في الغابة . اقتربا من النار وهما يلفظان بصوت أجش كلمات بلغة غير مفهومة من الجنود . كان أحدهما طويل القامة يضع على رأسه عمرة ضابط ويبدو شديد الضعف . فلما بلغ قرب النار ، أراد ان يجلس ، لكنه هوى على الارض تماماً . اما الآخر ، فكان جندي قصير القامة وبعة ، يبدو اكثر قوة من زميله ، يغطي رأسه بمنديل . انهض رفيقه وقال شيئاً وهو يدل على فمه . احاط الجنود بالفرنسيين ومددوا المريض على معطف وجاؤوا لهما بحساء الحنطة السوداء والفودكا .

كان الضابط المريض هو رامبال أما الرجل ذو المنديل المعقود، فموريل .

بعد ان شرب موريل قدح الفودكا ، وابتلع ملء قصعة من الحساء ، استبد به مرح محموم وراح يتحدث دون توقف الى الجنود الذين ما كانوا يفهمونه . اما رامبال ، فقد رفض ان يأكل وظل ممدداً قرب النار مستنداً الى مرفقه ، يتأمل الجنود الروسيين بعينيه المحمرتين الخاليتين من النظر . ومن حين الى آخر كان يطلق زفرة حرى ثم ينطوي في صمته . ولقد اشار موريل الى شارات كتفي رامبال محاولاً افهام الجنود بأنه ضابط يجب تدفئته . ولقد ارسل ضابط روسي اقترب من النار ، الى الزعيم يسأله ما اذا كان يوافق على قبول ضابط فرنسي لديه . ولما عاد الرسول يعلن عن سماح الزعيم بحمل الضابط اليه ، اشاروا الى رامبال بالذهاب الى هناك . فنهض وأراد ان يسير . لكنه كاد ان يسقط لو لم يبادر الجندي الذي كان الى جانبه الى اسناده .

قال الجندي لرامبال وهو يطرف بعينه ساخراً :

ــ هه ، ماذا ؟ لن تعود الى مثلها ؟

فهتف الجنود من كل صوب وقد احنقتهم هذه الدعابة :

ــ هه ، ايها الأحمق ! ماذا تنهق ! ايها المنحط ، نعم منحط !

احاطوا برامبال فحمله جنديان على اذرعهما المعقودة ومضوا به الى داخل الكوخ . وكان رامبال وذراعه حول عنق حامليه يقول بصوت شاك :

ـ اوه ! ايها البواسل ، ايها الطيبون ، يا أصدقائي الطيبين ! هاهم اولاء رجال ! اوه ! ايها البواسل ، يا أصدقائي الطيبين !

واسلم رأسه كالطفل على كتف احدهما .

خلال ذلك ، كان موريل قد جلس في افضل مكان وحوله الجنود .

كان موريل ، فرنسياً قصيراً ربعة ، احمر العينين دامعهما ، يعقد منديله

كالقرويات العجائز فوق عمرته ويرتدي « فروة » نسائية قبيحة الشكل . كان موريل ثملا بشكل واضح ، يحيط عنق الجندي الجالس الى جانبه بذراعه ويغني بصوت متهدج اغنية من بلده . امـــا الجنود ، فكانوا يمسكون باضلاعهم وهم يتأملونه .

هتف الذي كان موريل يحيط عنقه بذراعه ، وهو محب للمزاح والغناء :

— هيا ، هيا ، علمنا هذه الأغنية ، هه سوف احفظ اللحن بسرعة .

— كيف هو ؟ . . .

اخذ موريل يغني وهو يخزر عينيه :

— يحيا هنري الرابع ، يحيا هذا الملك المقدام ، هذا الشيطان على اربع . . .

راح الجندي يردد وهو يلوح بيديه :

— فيفارنكا ! فيف سيروفارو ! سيد يابلا كا . . .

والواقع انه حفظ اللحن بشكل لا بأس به . فراح رفاقه يهتفون من حوله ويشفعون هتافهم بقهقهات مدوية :

— يالابراعه ، هو ، هو ، هو ، هو !

فكان موريل يقهقه بدوره وهو يصعر وجهه .

— هيا ، استمر ياشيخ !

الذي له الموهبة المثلثة .

موهبة الشرب والقتال .

وان يكون مغاز لا كيساً . . .

— آه ! ان لهذا وقع جميل ! هيا ، دورك يازا ليتاييف ! . . .

فراح زاليتاييف يردد بجد ومجهود وقد ابرز شفتيه :

— كيو ، كيو ، كيو . . . ليبتر بيتالا ديي بو ديي باديبترا فاجالا .

– مرحى ! رائع ! مثل الافرنسي تماما ! حسنا ! ها ! ها !ها ! قل ياهذا، الازلت جائعاً ؟

– اعطوه حساء القمح الاسود ، انه لايشبع بمثل هذه السرعة .

قدموا له الحساء من جديد. فراح موريل يلتهم ملء انائه الثالث وهو يضحك كانت وجوه الجنود الشبان كلهم مشرقة لرؤية هذا الفرنسي . اما المسنون الذين كانوا يجدون ان الاهتمام بمثل هذه الترهات غير جدير بهم، فقد لبثوا ممددين الى الجانب الآخر من النار ، يتناحرون بين الحين والآخر بالمرافق ليتأملوا موريل وهم يبتسمون .

قال احدهم وهو يتدثر بردائه :

– انهم بشر مثلنا . ان نبات الافسنتين ينبت هو الآخر على جذوره .
(بنات الافسنتين يعتبر في نظر القرويين الروسيين نبتة سيئة)

– اوه ! مولاي الرب ! يالكثرة النجوم ! سوف يعقب ذلك الجمد !...

وصمت كل شيء وكأن النجوم كانت تعرف انه لم يبق هناك من ينظر اليها ، فراحت تستعيد مرحها وحركتها في السماء القاتمة . كانت تارة براقة واخرى منطفئة وتارة ملتمعة ، تبدو كأنها تتهامس فيما بينها بشيء بهيج غامض .

★ ★ ★

الجيش الكبير يعسكر في الليل

الفصل العاشر

نهاية المهمة

استمرت القطعات الفرنسية في ذوبانها المنتظم بحسب توال حسابي صارم . حتى ذلك المرور في بيريزينا ، الذي كتبوا حوله اقوالاً كثيرة ، فانه بدلاً من ان يكون حادثاً لاحقاً حاسماً في الحملة ، لم يكن الا خطوة اخرى في عملية تهديم الجيش الفرنسي . واذا كانوا كثيراً ما كتبوا ولا زالوا يكتبون عن بيريزينا من جانب الفرنسيين ، فان مبعث ذلك ان المصائب التي اصابت الجيش الفرنسي والتي كانت من قبل متشابهة كلها ، احتشدت فجأة هنا ، حول ذلك الجسر المنهار ، في مشهد « تراجيدي » ، اعد باتقان ليبقى عالقاً في الاذهان . ومن الجانب الروسي ، اذا كتبوا كثيراً ولازالو يكتبون حول بيريزينا ، فان سبب ذلك انهم في بيتر سبورج ، بعيداً عن ساحة المعركة ، كانوا اعدوا خطة هي خطة «بفوهل» كانت ترى في ذلك النهر ، نافورة « ستراتيجية » سيغرق فيها نابوليون . وكان كل شخص هناك واثقاً من ان كل شيء سيجري في الواقع تبعاً لتلك الخطة . لذلك فقد راحوا يتهافتون على التأكيد بان عبور بيريزينا سبب ضياع الجيش الفرنسي على وجه الدقة . وفي الحقيقة ، ان نتائج هذا العبور كانت اقل تخريباً لهم من خسائرهم بالرجال والمدافع في كراسنوايه ، والارقام تدل على صحة ذلك .

ليس للعبور في بيريزينا غير معنى واحد. لقد اعطى الدليل الواضح الذي لا يقبل الشك على خطأ كل الخطط الرامية الى قطع العدو وعلى صحة السلوك الوحيد الممكن ، ذلك الذي كان كوتوزوف يطالب به قطعاته كلها (السواد الاعظم) والذي يقوم على اساس تعقب العدو فحسب . كان فرار الفرنسيين يجري بسرعة متزايدة تنشطه حيويتهم الرامية الى هذا الهدف وحده . كانت حشودهم تفر كالحيوان الجريح ، فكان يستحيل عليها الوقوف في الطريق . واقد دلل على ذلك عبور بيريز ينا نفسه فوق الجسور اكثر مما دلل عليه تنظيم العبر . فعندما تحطمت الجسور ، استمروا جميعهم : الجنود المجردون من الاسلحة ، سكان موسكو ، النساء والاطفال الذين كانوا في رحال الفرنسيين ، استمروا كلهم ، وقد استولت عليهم قوة المقاومة السلبية ، بدلاً من الاستسلام ، في الفرار الى الأمام ، في زوارق او في المياه المتجمدة .

وهذا التهافت معقول لأن مركز الفارين ومطارديهم كان سيئاً على السواء . ففي البقاء مع بني قومه ، كان كل واحد يعتمد على مساعدة زملائه في حالة البؤس ، في النطاق المحدود للمركز الذي يشغله بينهم . بينما الاستسلام للروسيين معناه البقاء في تلك المصيبة اياها ، يزيد فيها واقع كونهم آخر من توزّع عليهم الارزاق . ولم يكن من حاجة بالفرنسيين الى معرفة ان نصف الاسرى الذي يحتفظ بهم الروسيون دون ان يعرفوا ماهم صانعون بهم ، يموتون برداً وجوعاً رغم رغبة الروسيين في انقاذهم ويشعرون بان الأمور لا يمكن ان تدور على نهج آخر . ما كان اكثر الرؤساء الروسيين اشفاقاً على الفرنسيين ولا اولئك الذين بهم استعداد خاص للعطف عليهم ولا الفرنسيون العاملون في خدمة الروسيين ، قادرين على مديد المساعدة للأسرى . فكان ضياع الفرنسيين مرده الخاتمة التي وجد الجيش الروسي نفسه فيها . وما كان يمكن حرمان الجنود

الجوعين الذين هم في حاجة اليهم ، من الخبز والكساء ليقدموه هدية الى الفرنسيين العزل الذين ما كانوا يحقدون عليهم ، والذين ما كانوا مذنبين ، بل كانوا أفواهاً عديمة النفع فحسب . ولقد نهج بعضهم هـــذا النهج رغم ذلك ، لكنه كان عملاً استثنائياً .

في المؤخرة ، كان الخسران المؤكد وفي المقدمه ، الأمل . ولقد احرقوا مراكبهم ، فلم يبق من وسيلة للخلاص الا الفرار المشترك ، الجماعي ، فكانت قوى الفرنسيين كلها تجنح الى ذلك الفرار .

وكلما طال امد التقهقر ، اصبح حطامهم اكثر بعثاً للرثاء ، وخصوصاً اعتباراً من بيريزينا ، ذلك ان بيريزينا ، تبعاً للخطة الروسية الموضوعة في بيترسبورج ، خلقت كذلك في نفوس الروسيين آمالاً خاصة ، الأمر الذي نشطت له اهواء القادة الروسيين الذين كانوا يتبادلون الاتهامات ويتهمون على الأخص كوتوزوف . كانوا يزعمون ان عدم نجاح خطة بيتر سبورج على بيريزينا يجب ان يعزي اليه فكانت السخريات التي وجهت اليه ، والتبرم الذي كان يوحي به والاحتقار الذي يكنونه له ، تزداد شدة اكثر فأكثر . ولقد كانت السخريات والاحتقار وهذا واضح جلي . يعبر عنها بشكل مفعم بالاحترام حتى ان كوتوزوف نفسه ما كان يستطيع ان يتساءل بأي شيء ولا لأي شيء يتهمونه . وعندما كانوا يرفعون اليه تقريراً ما ويسألونه اوامره ، كانوا يتظاهرون بالقيام بحفل مأتمي ، فيخزرون عيونهم وراء ظهره ويحاولون في كل لحظة جاهدين ان يخدعوه .

كان هؤلاء الناس كلهم ، بسبب عجزهم عن فهمه فحسب ، قانعين بعقم مناقشة هذا العجوز الفاني ، ويقولون فيما بينهم انه لا يستطيع قط ان يدرك خططهم ادراكاً عميقاً وانه سوف يجيبهم بجملته المألوفة (وكانت هذه في نظرهم جملاً ليس الا) عن الجسر الذهبي واستحالة تخطي الحدود بجيش من الحفاوة وهلمجرا . ولقد

سمعوا هذه النغمة من قبل حتى حلوها . فمثلا ، كان كل مايقوله كوتوزوف عن ضرورة انتظار الارزاق وافتقار الرجال للأحذية ، كان كل هذا على بساطة طفولية ازاء عروضهم المعقدة العليمة ، فهو اذن ولا ريب رجل عجوز لايصلح لشيء وهم ، رجال حرب عباقرة ولكن للأسف عاجزون .

وبعد ان التحق بالجيش الاميرال اللامع ويتجنستن ، بطل بيتر سبورج ، بلغت هذه الاستعدادات العدائية وضجيج اركان الحرب وجعجعتهم الذروة ، فكان كوتوزوف يشعر بذلك ويكتفي بهز كتفيه وهو يتنهد . ولقد سخط مرة واحدة بعد بيريزينا ، فكتب الرسالة التالية الى بينجسن الذي كان يبعث الى الامبراطور بتقارير خاصة .

« نظراً الى حالتكم الصحية المؤقته ، ارجوا سعادتكم الذهاب الى كالوجا فور تلقيكم هذه الكلمة والانتظار هناك ، القرار الذي سيتخذ بشأنكم من قبل جلالته الامبراطوريه . »

وبنتيجة طرد بينيجسن ، شاهد الجيش عودة الجراندوق كونستانتان بافلوفيتش ، الذي بعد ان نشط في بداية الحملة ، ابعد من قبل كوتوزوف . ومنذ ان وصل الجراندوق ، ابلغ كوتوزوف استياء الامبراطور ، لان انتصارات جيوشنا كانت تافهة جداً وحركاتنا بطيئة جداً ، وأنهى اليه ان الامبراطور شخصياً عازم على اللحاق بالجيش .

فأدرك هذا الرجل العجوز الذي كانت به خبرة في شؤون البلاط بقدر خبرته بشؤون الحرب ، كوتوزوف هذ الذي عين في شهر آب من العام نفسه قائداً على رغم ارادة ملكية ، ذلك الرجل نفسه الذي ابعد عن الجيش وريث العرش والذي اتخذ من عندياته وضد رغبة الامبراطور قرار اخلاء موسكو ، ادرك هذا الرجل ان زمنه قد انصرم وان دوره قد انتهى وان السلطة الشكلية التي

في يده لم يعد لها وجود . ثم انه لم يكن يفهم ذلك كرجل بلاط فحسب . لقد كان يشعر من جهة ان النشاط العسكري الذي لعب فيه دوره قد اوفى على نهايته وان مهمته قد انجزت. ومن جهة اخرى اخذ يحس بنفس الوقت في جسمه الذي حطمه السن بتعب يرغمه على انتجاع سبل الراحة .

الفصل الحادي عشر

وصول الامبراطور

دخل كوتوزوف الى فيلنا في التاسع والعشرين من تشرين الثاني ، الى مدينته الطيبه فيلنا كما كان يقول . لقد تولى مرتين في حياته العملية ولاية هذه المدينة . كان يستعد في هذه المدينة الغنيـة التي ظلت سليمـة من كل اذى ، الى جانب الرفاهية التي حرم منها زمنا طويلا ،اصدقاءهالقدماء وذكريات قديمة ، استغرق فجأة ، وقد تخلص من كل شاغل عسكري أو سياسي ، في حياة منتظمة هادئة ، بقدرما كانت الاهواء التى تستعر في اعماقه تسمح له ، وتظاهر وكأن كل ما كان يدور حينذاك وما كان سيجري في تاريخ العالم ، لايمسه مطلقاً .

استقبله تشيتشـاجوف ، وهو الأكثر حماساً بين اولئك الراغبين في قطع العدو وصده ، تشيتشاجوف هذا الذي كان بادىء الامر يريد القيام بحركةلألهاء العدو في اليونان ثم في فارسوفيا ولكنه يرفض دائماً الذهاب الى حيث يرسلونه ، لتشيتشاجوف هذا الشهير باجوبته الجريئة للامبراطور، تشيتشاجوف هذا الذى كان يعتبر كوتوزوف مديناً له لأنه عام ١٨١١ ، عندما ارسل الى تركيا لعقد الصلح ، وجد ان الصلح قد عقد فعلًا فاعترف امام الامبراطور بان موهبـة كوتوزوف هي التي ادت الى هذه النتيجة ، تشيتشاجوف هذا ، هو الذي كان

أول من استقبله في قصر فيلنا ، حيث كان يجب ان يحل . سلم تشيتشاجوف وهو في ثوب اميرال ، والسيف القصير عريض الفصل الى جنبه، والعمرة تحت ذراعه، الى جانب مفاتيح المدينة ، تقريراً عن حالة الحامية الى كوتوزوف وكان الاعتبار المحتقر الذي كان الشباب يظهرونه لهذا العجوز الذي بات يجنح في نظرهم الى الطفولة ، يظهر في اجلى معانيـه في تصرفات تشيتشاجوف الذي كان على علم بالاتهامات الموجهة حتى ذلك الحين الى كوتوزوف .

قال كوتوزوف لتشيتشاجوف ، خلال محادثة معه ، في جملة ماقال : ان الجياد والعربات التي سُلبت منه في بوريسوف والتي كانت تحوي على آنيته ، لم يمسها الأذى وانها ستعاد اليه .

فرد تشيتشاجوف بانفعال :

ـ انك تريد بذلك ان تقول انني لا املك ما اقدم الطعام فيه . . . مع انني استطيع على العكس ان اقدم من كل شيء حتى في الحالات التي ترغب فيها ان تقيم الولائم .

وكان يريد بكل كلمة من كلماته ان يثبت بأنه غير مسؤول للاخفاق الحاصل على بيريزينا ، وانه بالتالي يعتقد ان كوتوزوف يحمل في نفسه هذا الشاغل بالذات .

فرد كوتوزوف وقد طافت على شفتيه ابتسامتـه الدقيقـة المؤثرة وهو يهز كتفيه :

ـ لم اقل لك ذلك الا لأقول ما قلت .

اوقف كوتوزوف في فيلنا ، ضد رغبة الامبراطور ، سير معظم قطعات جيوشـه . ولـقد ضعف وخار بشكل خارق ـ على زعم المحيطين به ـ خلال مكوثه في تلك المدينة . كان يهتم مرغماً بشؤون الجيش ويحيل الاعمال كلها الى جنرالاته ، يحيا حياة مفرجة بانتظار وصول الامبراطور .

ولقد وصل الامبراطور الى فيلنا في الحادي عشر من كانون الاول بعد ان غادر بيتر سبورج في السابع منه مع حاشيته والكونت تولستوي والامير فولكونسكي واراكتشييف وآخرين ، ومضى مباشرة الى القصر في زحافة السفر . وامام القصر ، رغم البرد الشديد ، كان حوالي مائة جنرال وضابط اركان حرب ينتظرون في ثياب العرض مع حرس شرف من فيلق سيميونوفسكي .

ولقد وصل الرسول الذي يسبق الامبراطور بسرعة هائلة على زحافة يجرها ثلاثة جياد يغطيها الزبد وصاح : « انه يصل ! » فاندفع كونوفنيستلين الى الدهاليز لاخطار كوتوزوف الذي كان ينتظر في غرفة البواب الصغيرة .

وبعد دقيقة ، بدا شبح العجوز الضخم في ثوب العرض تزين الاوسمة صدره ويقطع بطنه وشاح ، وتقدم نحو المرقاة بخطى غير ثابتة . وضع كوتوزوف العمرة الملائمة لثوبه وامسك بقفازين بيده ، ونزل الدرجات بصعوبة وهو يمشي متمايلاً فبلغ اسفل السلم حاملاً في يده الطليقة التقرير المعد للملك .

ثار لغط وهمس ومن جديد مرت زحافة كبيرة بأقصى سرعة وانتقلت الانظار كلها الى زحافة كانت تقترب ، كان شبح الامبراطور ظاهراً فيها ومعه فولكونسكي .

وعلى الرغم من اعتياده تلك المظاهر طيلة خمسين عاماً ، فان ذلك احدث اضطراباً حسياً على الجنرال العجوز ، فراح يتحسس نفسه بحركة محمومة واصلح قبعته ثم رفع عينيه الى الامبراطور في اللحظة التي كان ينزل فيها من الزحافة واستعاد ثقته فاتخذ وضعية الاستعداد ومد يده بالتقرير وراح يتكلم بصوت متزن مفرط في المجاملة .

شمل الامبراطور كوتوزوف بنظرة سريعة من رأسه الى اخمص قدميه وقطب حاجبيه ثانية لكنه لم يلبث ان تمالك نفسه ، ففتح ذراعيه وطوق الجنرال

العجوز . ومرة اخرى ، احدثت هذه الضمة في نفس كوتوزوف اثرها المألوف اذ انفجر منتحباً تحت تأثير عادة قديمة مدفوعاً بفكرته الشخصيه .

حيا الامبراطور الضباط والحرس من فيلق سيميو نوفسكي ثم ، بعد ان شد مرة اخرى على يد العجوز ، دخل معه الى القصر .

ولما انفرد بكوتوزوف ، راح العاهل يعرب له عن استيائه لبطء مطاردته وللأخطاء التي ارتكبت في كراسنوايه وبيريزينا واطلعه على آرائه حول حملة مقبلة في الخارج . فلم يعترض كوتوزوف ولم يقدم أية ملاحظة . كان وجهه يعكس مثل ذلك الخضوع السلبي الذي ظهر عليه قبل سبع سنين ، عندما كان يصغي الى اوامر مولاه على ساحة القتال في اوسترليتز .

وعندما خرج كوتوزوف بخطاه الثقيلة المترنحـة من الحجرة واجتاز البهو مطرق الرأس ، استوقفه صوت قال احدهم :

– ياصاحب السمو !

رفع كوتوزوف رأسه وحدق طويلاً في وجه الكونت تولستوي الذي كان واقفاً امامه ، يقدم له شيئاً على طبق فضي . بدا على كوتوزوف انه لم يدرك مايطلبونه اليه .

وفجأة ، وكأنه استعاد حواسه ، طافت على وجهه المنتفخ ابتسامة لاتكاد ترى ، وغالى في الانحناء ثم اخذ ذلك الشيء بمزيد من الاحترام من فوق الطبق الفضي . وكان ذلك الشيء صليب القديس جورج من الدرجة الاولى .

* * *

الفصل الثاني عشر

نهاية كوتوزوف

وفي اليوم التالي ، اقام الماريشال حفلة عشاء تبعتها حفلة راقصة شرفها الامبراطور بحضوره . لقد تلقى كوتوزوف وسام القديس جورج من الدرجة الاولى وكان الامبراطور يظهر حياله منتهى الرعاية والالتفات . لكن ما من احد كان يجهل ان الامبراطور مستاء من كوتوزوف . وعلى ذلك فان اللياقة كانت مرعية والامبراطور نفسه اعطى المثال عليها ، لكنهم كانوا يعرفون جميعاً ان العجوز مذنب وانه لم يعد صالحاً لشيء . خلال الحفلة الراقصه ، وتبعاً لتقليد قديم يرجع الى عهد كاتيرين ، عندما ولج الامبراطور قاعة الرقص ، امر كوتوزوف على ان تلقى عند اقدامه ، الاعلام التي غُنمت من العدو ، فنطق الامبراطور ببضع كلمات وهو مقطب حاجبيه تقطيبة عدائية خيل الى بعضهم انه جاء فيها « ايها المهرج العجوز ! »

ازداد استياء العاهل من كوتوزوف في فيلنا ايضاً : لا ريب ان العجوز ما كان يريد ولا يستطيع فهم معنى الحملة المزمع القيام بها .

وفي صبيحة اليوم التالي ، قال الامبراطور للضباط المجتمعين حوله : « انكم لم تنقذوا روسيا فحسب بل انقذتم كذلك اوربا » ففهموا جميعهم حينذاك ان الحرب لم تنته .

بيد ان كوتوزوف وحده ما كان يريد فهم ذلك بل كان يدلي برأيه بصراحة حول هذه الحملة الجديدة التي لا يمكن ان تحسن وضع روسيا ولا ان تزيد مجدها بل على العكس ، لا تصلح الا لزيادة الحالة سوءاً وتقليل درجة المجد الرفيعة التي بلغتها روسيا الآن كما كان يقول . كان يحاول جاهداً ان يبرهن للامبراطور على استحالة تجنيد قطعات جديدة ويتحدث عن موقف الشعب العسير وعن امكانية السقوط في اخفاق وهلمجرا .

فكان واضحاً ان كوتوزوف بات يمثل هذه الافكار ، شيئاً مزعجاً موقفاً لعجلة الحرب المقدرة .

ولتحاشي كل اصطدام مع العجوز ، وجدوا بشكل طبيعي المخرج المناسب المخرج نفسه الذي وجدوه في اوسترليتز وفي بدء الحملة مع باركلي : لقد سحبوا من القائد الاعلى ادوات سلطته دون جلبة ودون مزيد من التفسير ، ليسلموها الى الامبراطور بالذات .

ولهذه الغاية ، شُرع في تحقيقها على مراحل باعادة تشكيل هيئة الأركان . وبالتدريج ، احيلت كل السلطة التي كانت لهيئة اركان كوتوزوف الى لاشيء واصبح للامبراطور اليد العليا على العمليات وتلقى تول وكونوفنيستين وايرمولوف مناصب جديدة فكان كل منهم يعلن جهاراً ان الماريشال بات شديد الضعف شديد المرض .

والواقع ان صحته كان يجب ان تكون معتلة تماماً حتى سلم مناصبه الى خلفه بهذا الشكل . وكان ذلك صحيحاً اذ كان مصاباً في صحته .

وبمثل البساطة التي شرع فيها كوتوزوف من قبل في ممارسة اعماله تدريجياً في الوزارة وتأسيس فرق المتطوعين ليعود الى الجيش في اللحظة التي لم يكن هناك بد من وجوده فيه ، وكان ذلك اثر عودته من تركيا الى بيتر سبورج ، بمثل تلك البساطه وبذلك الشكل الطبيعي ، اقاموا بدلاً عنه سيد الابداع الجديد

الذي كانت الظروف تطالب به ، الآن وقد انتهى هو من دوره .

ولقد وجب ان تأخذ حرب عام ١٨١٢ ، اضافة الى معناها الشعبي العزيز على النفس الروسية ، معنى اوربياً كذلك .

كان يجب ان يعقب سير شعوب الغرب الى الشرق ، سير شعوب الشرق نحو الغرب . وكان يجب لهذه الحملة الجديدة ، رجل جديد ، يتحلى بصفات اخرى بوجهات نظر اخرى ، بدوافع اخرى غير صفات ودوافع كوتوزوف .

وكان الكسندر الاول بالنسبة الى سير شعوب الشرق على شعوب الغرب وبالنسبة الى اعادة تنظيم الحدود ، الشخص الذي لابد منه كما كان كوتوزوف لا بد منه من قبل في سبيل خلاص روسيا ومجدها .

ما كان كوتوزوف يعقل معنى الكلمات : اوربا ، توازن ، نابوليون ، وما كان يستطيع فهمها . الآن وقد هزم العدو وتحررت روسيا ، لم يعد لخالق المجد ، لممثل الشعب الروسي ، بوصفه روسياً ، مايعمله . لم يبق لذلك الذي تجسدت فيه الحرب الشعبية الا ان يموت ، ولقد مات .

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

بعد الأسر

كما يحدث دائماً تقريباً ، لم يحس بيير بكل عبء الحرمان والتعب الجسديين والآلام التي قاساها خلال فترة اسره الا عندما انتهت تلك الآلام والحرمان والتعب . مضى الى اوريل بعد ان استعاد حريته لكنه بعد ثلاثة ايام ، عندما كان يستعد لمغادرة اوريل الى كييف ، سقط مريضاً واضطر الى ملازمة الفراش في اوريل طيلة ثلاثة اشهر لأنه اصيب ، على زعم الاطباء ، بحمى مرارية وعلى الرغم من العناية التي لقيها منهم وعلى الرغم من الادوية وتكرار الفصاد ، فقد استعاد صحته .

لم يخلف كل ما وقع له منذ تحريره وحتى مرضه ، اثر في ذاكرته . كان يتذكر فقط وقتاً كالحاً كئيباً ، ممطراً تارة ومثلجاً تارة اخرى وبخدر جسدي وآلام في الأضلاع والساقين ويذكر الأثر الذي كان البؤساء المتألمون من الناس يخلفونه في نفسه بصورة عامة والاسئلة المزعجة التي كان الضباط الجنرالات الفضوليون يطرحونها عليه وكل تدابيره ليجد لنفسه عربات وجياداً لها وعلى الاخص عجزة عن التفكير او الاحساس بالمكان الذي كان فيه حينذاك . شاهد يوم تحرره جثة بيتياروستوف . وفي اليوم نفسه علم ان الأمير آندرية ظل حياً شهراً كاملاً بعد

معركة بورودينو وانه مات اخيراً في اياروسلافل ، في بيت آل روستوف وفي اليوم ذاته ايضاً ، الح دينيسوف الذي جاء يحمل اليه هذا النبأ ، الى موت هيلين خلال الحديث مفترضاً انبيير لا بد وان يكون على علم بالأمر من قبل . ولقدبدا له كل ذلك في حينه غريباً فحسب ، لقد كان بيير يشعر بعجزه عن فهم معنى هذه الانباء . لم يكن يتعجل الا امراً واحداً ، ان يبتعد قدر المستطاع عن هذه الامكنه ، حيث يقتل الرجال بعضهم بعضاً والذهاب الى مكان هادىء يلجأ اليه ، وهناك يجمع افكاره ويستريح ويفكر في كل هذه الاشياء الغريبة الجديدةالتي عرفها خلال هذه الحقبه . لكنه لم يكد يصل الى اوريل حتى مرض فلما استيقظ من مرضه ، شاهد بيير نفسه محاطاًباثنين من خدمة جاءا من موسكو ، هما تيرانتي وفاسكا ، ثم بكبرى الاميرات من بنات عمه التي كانت تقطن في مسكنه ، في اقطاعيته في ايليتز ، التي ما كان بلغها نبأ تحرره ومرضه حتى هرعت للعناية به .

لم يتخلص بيير طيلة فترة نقاهته ، من المشاعر التي باتت اليفة لديه خلال الأشهر الأخيرةالا بشكل لا شعوري . ما كان يألف الا تدريجياً ، فكرة ان ما من احد غداً سيطرده طرد السائة وان ما من احد غداً سينتزع منه فراشه الدافىء وانه سيحصل حتما على غدائه وعشائه . ولقد ظل فترة طويلة يرى نفسه في الحلم كما كان في الأسر . كما ان بيير لم يدرك معنى الانباء التي عرفها يوم ان تحرر : موت زوجته ، ابادة الفرنسيين ، الا مع الزمن .

ملأت نفس بيير فرحة عودته حراً وامتلاك تلك الحرية الكاملةغير المنقوصه الملازمة للطبيعة البشرية . تلك الحرية التي شعر بها للمرة الاولى عند اول مرحلة بعد مغادرة موسكو طيلة مدة نقاهته . وما كان يدهشه على الأخص هوالشعور بان هذه الحريه المعنوية المستقلة عن كل ظرف خارجي ، تأتلف الآن مع اريحية

مع بذخ من الحرية الخارجية . كان وحيداً في مدينة غريبة لايعرف فيها احداً وما كان احد يطالبه بشيء ولا احد يرسله الى اي مكان . وهو يحصل على كل ما يمكن ان يشتهيه ، حتى ان عذابه الفكري الخالد قد اختفى طالما ان زوجته لم تعد على قيد الحياة .

كان يقول عندما كانوا يقربون منه مائدة بديعة التنسيق وعليها آنية من مرق عطر أو عندما كان يتمدد لقضاء الليل على سرير نظيف لين او يتذكر ان كل شيء قد انتهى او يذكر زوجته والفرنسيين :

ـ آه ! كم هذا جيد! كم هذا رائع ! آه ! كم هذا جيد كم هذا حسن !

كان يطرح على نفسه حسب عادته القديمة هذا السؤال: « والآن؟ماذاسأعمل ثم لايلبث ان يجيب نفسه بنفسه : « لاشيء . سأعيش . آه ! كم هذا جيد !»

وذاك نفسه الذي طالما عذبه من قبل والذي طالما بحث عنه باستمرار ، هدف حياته ، لم يعد يؤثر عليه . لم يكف هدف الحياة ذاك الذي كان يبحث عنه عن ان الكون في نظره في تلك الدقيقة فحسب ، بل بات يشعر انه لم يكن هناك هدف قط وانه ما كان يمكن ان يكون . فكان غياب الهدف ذاك هو الذي يخلق فيه ذلك الاحساس المفعم المرح بحريته الذي كان حينذاك مبعث سعادته .

ما كان يمكن ان يكون هناك هدف لأنه بات الآن يملك الايمان ، ليس الايمان ببعض القواعد الخاصة او بعض الافكار ،بل الايمان بإله حي دائم الشعور به كان سابقاً يبحث عن الله في الغاية التي يعرضها على نفسه ، فكان ذلك البحث عن الغاية هو البحث عن الله وفجأة ، طيلة اسره ، اكتشف ليس بالكلام ، وليس بالمناقشات الفكرية ، ولكن بلون من الوحي الخاص ، ما كانت مربيته العجوز تقوله له من قبل : ان الله هنا ، هناك ، في كل مكان . لقد تعلم خلال

اسره ان إله كاراتاييف اكبر وأجل من أن يدرك وأكثر امتداداً وامتناعاً عن التحديد من الله الذي يسميه الماسونيون مهندس الكون الأعظم. كان يعتلج في نفسه شعور الرجل الذي يجد عند قدميه ما كان يبحث عنه جاهداً في الابعاد . لقد امضى حياته كلها ينظر الى البعد ، الى نقطة ما فوق الرؤوس التي تحيط به في حين انه لم يكن عليه الا ان ينظر ما هو امامه دون ان تجحظ عيناه .

من قبل ، لم يعرف كيف يرى في اي مكان هذه العظمة التي لا تدرك والتي لا يحاط بها كان يحس بها فحسب انها ولا ريب موجودة في مكان ما ، لذلك كان يبحث عنها . وكان كل ما هو قريب منه مفهوم ، منه ، يبدو له محدوداً سخيفاً مبتذلا ومنافيا . كان يتسلح بنوع من المنظار المقرب الفكري لينقب في الابعاد حيث كانت اشياء عقيمة ساخرة ، يحجبها الضباب . تبدو له عظيمة غير محدودة لمجرد انها لم تكن مرئية بوضوح . ولقد تمثل حياة اوربا على هذا النحو والسياسة والماسونية والفلسفه ومحبة البشر ولكن ، ابتداء من هذه الآونة ، في اللحظة نفسها التي كان يتيبس فيها ضعفه والتي كانت روحه فيها تتغلغل في ذلك البعيد ، كان يرى ذلك الغرور اياه وتلك الحقارة وذلك السخف نفسه . لقد تعلم الآن رؤية العظمة ، الخلود ، المحيط بكل شيء ولكي يتأمل هذا الكل وينعم بتأمله ، ترك منظاره المقرب الذي ظل حتى تلك اللحظة يستعمله للنظر فوق رؤوس الرجال ، راح بمرح يتأمل حوله ، مشهد الحياة المتبدلة ازلياً ، الكبيرة ازلياً ، الممتنعة التي لا حدود لها . ولم يعد السؤال الرهيب « لماذا ؟ » الذي كان من قبل يهدم كل ما نشيده افكاره ، يطرح عليه لقد اصبحت نفسه الآن متمسكة بجواب معد على « لماذا ؟ » تلك : لماذا ؟ لأن الله موجود ، هذا الله الذي لا تسقط شعرة من رأس انسان دون ارادته .

الجيش الكبير يبدأ بالتقهقر

الفصل الرابع عشر

بعث جديد

لم يبدل بيير شيئاً تقريباً من طرق الظاهرية بل ظل يقدم المظهر اياه . كان ساهماً كحاله من قبل ، يبدو منشغل البال ليس بما يقع تحت عينه بل بشيء ما خاص ، شخصي . فكان الفارق بين حاله القديم وحاله الحاضر يرتكز على انه من قبل ، عندما كان يفقد عن ابصاره ماهو امامه او ما كان يقال ، له كانت تغضنات اليمة تقلص جبينه وكأن يبذل مجهوداً عقيماً لمشاهدة شيء ما بعيد جداً . اما الآن فانه لازال ينسى ما يقال له وما هو امامه ، لكنه بات يملك ابتسامة دقيقة ساخرة للنظر الى ماهو امامه وللاصغاء الى مايقال له على الرغم من انه كان ، بكل تأكيد ، يرى ويسمع شيئاً مختلفاً تماما . كان من قبل يبدو تعيساً رغم مظهر الطيبة الذي يكسو وجهه لذلك فان الناس كانوا يبتعدون عنه لا اراديا . اما الآن ، فان ابتسامة تعبر عن الفرحة بالحياة كانت تتلاعب على شفتيه وتشع عيناه بجاذبية وكأنهما تسألان : هل لازالوا مسرورين مني ؟ فكان الناس في حضرته يشعرون بالارتياح .

كان من قبل يكثر الكلام وينفعل اثناء الحديث ولا يكاد يصغي ابداً . اما الآن فان المحادثة قليلا ما باتت تجتذبه وبات يحسن الاصغاء حتى ان الناس اصبحوا يقصون عليه بيسر اعمق اسرارهم الشخصية .

والأميرة ابنة عمه ، التي لم تحبه قط والتي كانت تغذي كراهية خاصة منذ اليوم الذي شعرت فيه بعد موت الكونت العجوز بأنها مدينة له . والتي جاءت الى اوريل بقصد واحد ، هو أن تبرهن له على انها رغم عقوقه ، تعتبر العناية به كواجب لها ، هذه الأميرة ، شعرت بسرعة بعد مكوثها القليل بأنها تحبه وذلك لفرط سخطها ولمزيد دهشتها ، في حين ان بيير ما كان يعمل شيئاً لكسب مودتها . كان يكتفي بان يتأملها بفضول . وكانت الأميرة من قبل ، تشعر في النظرة التي يوجهها اليها ، بلا مبالاة وسخرية ، لذلك فقد كانت في حضرته كما في حضرة الآخرين ، تنطوي على نفسها فلا تظهر الا مزاجها الباسر . اما الآن فعلى العكس ، اخذت تشعر بأنه تغلغل الى اعمق حنايا نفسها مجازاً فراحت تكشف له في حذر بادىء الامر ثم بعرفان ، عن النواحي الخيرة في عقليتها .

ما كان لأكثر الرجال مكراً ان يتعمق بأكثر مهارة في ثقة الأميرة ، حتى ولو استعرض معها افضل ذكريات شبابها وأظهر اهتمامه بذلك . مع ذلك ، فان براعة بيير كلها كانت ناجمة عن شعوره الشخصي بالمتعة في ايقاظ المشاعر البشرية في نفس هذه المرأة المتغطرسة الجافة الساخطة .

كانت الأميرة تحدث نفسها :

ــ نعم ، انه فتى باسل عندما يكون تحت تأثير اشخاص مثلي بدلاً من ان يكون تحت اشخاص سيئين .

ولقد لوحظ التبديل الذي وقع لبيير من جانب خادمية تيرانتي وفاسكا كذلك اللذين شعرا على طريقتهما بذلك الفارق وجدا انه اصبح اكثر بساطة من ذي قبل . كان تيرانتي غالبا ، بعد ان يخلع عن سيده الثياب ويتمنى له ليلة سيدة ينسحب ببطء حاملاً حذائيه وثيابه بين يديه ، أملاً أن يحدث بيير عن شيء ما . وكان بيير غالباً ما يلاحظ هذه الرغبة فيستوقف تيرانتي ويسأله :

ـ قل لي لحظة . . . كيف عملت حتى تدبرت لنفسك ماتأكله ؟

فيبسط تيرانتي قصة عن دمار موسكو او عن الكونت المرحوم ويمكث طويلاً وثياب بيير فوق ذراعه ، يتحدث تارة، ويصغي تارة اخرى ، فلا يمضي الى الردهة الا وبنفسه اعتقاد بانه بات اكثر قرباً الى مولاه وانه ينعم بتعلقه به .

وكان الطبيب الذي يعالجه والذي يحضر لزيارته كل يوم ، يعتقد ان من واجبه ، ككل طبيب يحترم نفسه ،ان يظهر بمظهر الرجل الذي تعتبر كل دقيقة من وقته ثمينة في حساب الانسانية المعذبة . مع كل ذلك فانه كان يمكث ساعات طويلة عند بيير يروي له افضل اقاصيصه ويحيطه علماً بملاحظاته عن عادات مرضاه بصورة عامه والسيدات منهم بصورة خاصة . كان يقول :

ـ هذا شخص يجد المرء متعة في التحدث معه ، خلافاً لما هو عندنا في الاقليم

وكان في اوريل عدد من ضباط الجيش الفرنسي وقعوا في الأسر ، فجاء الطبيب ذات يوم بأحدهم معه وكان ايطاليا .

ولقد الف هذا الضابط زيارة بيير حتى ان الاميرة ابنة عمه مافتئت تسخر من الشعور الحاني الذي يظهره ذلك الايطالي حيال ابن عمها .

ما كان يبدو سعيداً الا عندما كان يستطيع المجيء لزيارة بيير والتحدث معه عن ماضيه وعن حياته العائلية وغرامياته ويسهب في اظهار سخطه على الفرنسيين وخصوصاً على نابوليون .

كان يقول لبيير :

ـ لو ان الروسيين كانوا يشبهونك ولو قليلا فانه من الخزي محاربة شعب كشعبكم . انت الذي اشدة ماتألمت بسبب الفرنسيين ، لاتكاد تحمل في نفسك ضغينة عليهم .

ولقد كسب بيير هذه المحبة القوية من الايطالي بكل بساطة لأنه ايقظ في نفسه افضل جوانب روحه وراح يتأمل تلك الجوانب .

خلال المدة الأخيرة من اقامته في اوريل ، تلقى بيير زيارة احد معارفه القدماء من العالم الماسوني ، الكونت فيلارسكي ، الذي استقبله في المحفل عام ١٨٠٧ . ولقد تزوج فيلارسكي روسية غنية جداً تملك عقارات كبيرة في ولاية اوريل واصبح يشغل مركزاً مؤقتاً في تموين المدينة :

عندما علم بوجود بيز وخوف في اوريل ، جاء فيلارسكي لزيارته رغم عدم وجود روابط صداقة وثيقة بينهما من قبل ، مظهراً بوادر الصداقة والالفة التي يظهرها عادة الاشخاص الذين يتقابلون في صحراء . كان فيلارسكي دائم السأم في اوريل ، فشعر بسعادة لوقوعه على رجل لابد وان يكون بحسب - ظنه - منصرفاً الى مثل المشاغل التي انصرف هو اليها .

لكن فيلارسكي ، لعظيم دهشته ، لم يلبث ان رآى ان بيير لم يكن قط في المكانة التي وضعه فيها وانه وقع - كما اخذ يحدث نفسه - في الجمود والانانية . فرغ الى القول اخيراً :

- لقد تطبعت ياعزيزي .

وعلى الرغم من ذلك ، باتت عشرة بيير تبدو له مستطابة اكثر من ذي قبل فكان يأتي كل يوم لزيارته . اما بيير ، فانه باصغائه الى فيلارسكي وبالنظر اليه ، كان يفكر بذهول غير مصدق بأنه كان قبل وقت قريب جداً مثله تماماً .

كان فيلارسكي متزوجاً ورب اسرة ، منشغلا بأملاك زوجته وبوظيفته واولاده معاً . وكان ينظر الى هذه المشاغل المختلفة نظرته الى عقبة في الحياة ، فيحتقرها لأن هدفه الاوحد كان سعادته الشخصية وسعادة ذويه . وكانت المشاغل العسكريه والادارية والسياسية والماسونية تحتكره كليا . وكان بيير يهتم بهذه الحالة الغريبة ، المعروفة منه تماما دون ان يحاول التأثير عليه لابدال وجهة نظره او يحكم عليه ، بسخرية مرحة هادئة لاتتزعزع .

كان بيير في علاقاته مع فيلارسكي والاميرة والطبيب ومع كل الاشخاص الذين بات يقابلهم الآن ، يظهر بادرة جديدة عادت عليه بميل الجميع اليه ، اخذ يعترف بحق كل فرد في التفكير والشعور والنظر الى الاشياء على طريقته ويعترف كذلك باستحالة اقناع انسان ما بالكلام. وهذه الشخصية الشرعية لكل انسان التي كانت تقلق بيير من قبل وتسخطه ، باتت اليوم بالنسبة اليه سبب الاهتمام والانجذاب الى الناس اللذين يشعر بهما الآن. وطرق النظر الى الامور التي يتمتع بها الاشخاص مختلفة . والتي كانت احياناً متعارضة تماماً مع وجهات نظره ، كانت تبهجه وتخلق على شفتيه ابتسامة وديعة ساخرة.

وفي الامور ذات الطابع العملي، بات بيير الآن يشعر بدهشة انه يملك مركز الثقل الذي كان يفتقده بالأمس. فقديماً كانت كل المسائل المادية، وبصورة خاصة طلبات الاخراج التي كانت غالباً مايتعرض لها بوصفه رجلا واسع الثراء. تحدث في نفسه اضطرابا وتردداً ماكان يجد لهما حلا . كان يتساءل : « هل يجب العطاء ام لا يجب ؟ ان لدي مالا وهو في حاجة اليه . لكن هذا الآخر اشد حاجة اليه منه فأيهما اساعد ؟ لعل الاثنين محتالين معاً ؟ » ولما لم يكن يصل الى التحلل من افتراضاته، فقد كان يعطي الجميع بقدر ما يستطيع العطاء ، ويعود دائما الى ذلك التردد اياه، كلما عرضت له مسألة تمس بمصالحه، واشار عليه احدهم ان ينهج هذا النهج بينما يشير آخر عليه بذلك.

اما الآن، لدهشته الكبيرة، اخذ يجد ان الشكوك والتردد في هذه المسائل لم يعد لها مكان . بات الآن يحمل في نفسه حكما يحكم تبعا لقوانين مجهولة منه ، ويقرر مايجب عمله وما لايجب صنعه.

ظل لامبالياً كسابق عهده فيما يتعلق بالمسائل المادية . لكنه لم يعد الآن يأوي أي شك حول مايجب ومالا يجب عمله . ولقد اصدر ذلك القاضي الجديد

حكمه الأول خلال زيارة زعيم فرنسي اسير جاء يعوده وأخذ يسهب في التحدث عن مآثره وفي النهاية طالبه في شبه الحاح باعطائه اربعة الاف فرنك يرسلها الى اسرته في فرنسا ، فرفض بيير طلبه هذا دون اي تردد او ارتباك وقد دهش من نفسه فيما بعد اذ استطاع ان يعمل بمثل هذه السهولة ما كان من قبل يبدو على صعوبة لاتذلل . لكنه ، بينما رفض للزعيم ذلك الطلب ، قرر ان يتصرف قبل مغادرته اوريل باسلوب لبق حتى يجعل الايطالي يقبل منه مبلغاً من المال كان في حاجة ظاهرة اليه. ولقد كان الدليل الجديد على ثباته في الشؤون العمليه هو القرار الذي اتخذه بشأن ديون زوجته واعادة ترميم بيوته في موسكو وفي الريف .

ولقد جاء وكيله الرئيسي يزوره في اوريل فأقام بيير معه بياناً تماماً بريوعه المخفضة . وبحسب تقدير وكيله . سبب حريق موسكو لبيير ، خسارة تبلغ حوالي مليوني روبل .

لقاء هذه الخسارة ،قدم له الوكيل بياناً مشفوعاًبالارقام،يثبت ان عائداته ستزداد بدلا من ان تنقص اذا رفض بيير سداد الديون التي تركتها الكونتيس والتي لايمكن لأحد ان يرغمه على دفعها واذا عدل عن تجديد منزلي موسكو والضاحية اللذين يقتضيان مصروفاً يبلغ ثمانين الف روبل في العام دون ان يعودا عليه بأي نفع .

فقال بيير بابتسامته الفكهة :

— نعم ، ، نعم ، هذا صحيح . لست في حاجة الى كل هذا . لقد اغناني دماري كثيرا .

لكن سافليتش هو الذي جاء من موسكو في شهر كانون الثاني . تحدث عن حالة المدينة وعن التصميم الذي وضعه المهندس لاعادة بناء بيت في المدينة

وآخر في الضاحية وراح يتكلم عن هذه الامور وكأنها قضية منهية . وفي تلك البرهة ، تلقى بيير رسالة من الامير فاسيلي ورسائل اخرى ارسلها اصدقاؤه من بيترسبورج . كان موضوع هذه الرسائل يدور حول الديون التي تركتها زوجته وحينئذ قرر بيير ان المشروع المهم جدا الذي قدمه وكيله له خطأ وان عليه ان يذهب الى بيترسبورج لتسوية شؤون زوجته وعليه كذلك ان يعيد بناء بيت موسكو . لماذا كان كل هذا ضروريا ؟ لم يكن يعرف ، لكنه كان يدرك ان عليه أن يتصرف على هذا النحو دون اي شك . ولقدنقصت موارده من جراء ذلك بمعدل ثلاثة ارباعها لكن الامر كان الزاميا ،ذلك كان شعوره.

كان فيلارسكي ينوي الذهاب الى موسكو فعملا على ان يترافقا خلال الطريق .

شعر بيير خلال نقاهته في اوريل كلها،باحساس بالفرج والاستقلال والتجدد فلما سار في الطريق ، ووجد نفسه في الهواء الطلق وشاهد مئات الوجوه المعروفة ازداد هذا الشعور امتدادا . كان خلال كل الوقت الذي استغرقه الطريق ، اشبه بطالب في عطلته : كل الأشخاص الذين قابلهم ، سائق المركبة ، مدير بريد ، القرويون على الطريق او في القرى ، كل شيء اتخذ سمة جديدة في نظره وما كان وجود فيلارسكي وملاحظاته وشكاواه المستمرة عن الفقر ومن تأخر الزحف على اوربا وجهل روسيا الا لتزيد من سرور بيير . كان بيير يرى قوة حيوية خارقة حيث لايرى فيلارسكي الا مظهر الموت هذه القوة المتسلطة التي تدعم في ذلك الثلج الذي يغطي المساحات ، وجود هذا الشعب الذي لم يمس الخاص الوحيد . ماكان يتأمل صديقه ، ولكنه ، وكأنه يؤيده في رأيه – لأن التظاهر بالموافقة اقصر سبيل الى تحاشي محاولات عقيمة – ، كان يصغي اليه بابتسامة مرحة .

الفصل الخامس عشر

العودة الى موسكو

كما انه يصعب بيان أين يذهب النمل ولماذا يدب فيه النشاط عندما تنهار مدينته ، فيبتعد بعضه جاراً معه البيوض والجثث والقش والدقيق ويعود البعض الآخر الى المدينة ، ولماذا يتدافع ويتقاتل ويطارد بعضه ، كذلك يصعب تفسير الاسباب التي دفعت الروسيين بعد ذهاب الفرنسيين الى التجمع في ذلك المكان الذي كان يدعى من قبل موسكو : وكما يلمس المرء عند ملاحظته النمل المنتشر حول مدينته المخربة وجلد هذه الحشرات التي لا تحصى ونشاطها وحيويتها رغم انهيار مدينتها الكامل ، ان كل شيء قد دمر باستثناء شيء يمتنع عن الدمار ، شيء غير مادي هو اساس كل قوة مدينة النمل ، كذلك موسكو في شهر تشرين الاول ، فقد ظلت موسكو نفسها رغم عدم وجود سلطات ولا كنائس ولا اشياء مقدسة ولا ثروات ولا بيوت ، ظلت كما كانت في شهر آب . كان كل شيء متهدم فيها باستثناء شيء قوي وغير قابل الهدم .

كانت دوافع الاشخاص المنتقلين نحو موسكو بعد جلاء العدو عنها من اكثر الدوافع اختلافاً ، دوافع شخصية وذات طابع بدائي حيواني في الاونة الاولى . وكان الشعور الوحيد المشترك بين الجموع هو رغبتهم في العودة الى ذلك المكان

الذي كان يدعى من قبل موسكو وممارسة نشاطهم فيه .

في غضون اسبوع ، اصبحت موسكو تضم خمسة عشر الف ساكن وبعد اسبوعين قفز العدد الى خمسة وعشرين الفاً وهلمجرا . ومضى الرقم في تزايد مستمر حتى ان عدد السكان في خريف عام ١٨١٣ فاق عددهم في عام ١٨١٢.

كان الروسيون الأول الذين دخلوا موسكو هم قوقازيو فيلق وينتزنجيرود وقرويون من القرى المجاورة والسكان الهاربين الذي اختبأوا في الريف المتاخم. وعندما دخلوا موسكو الخربة ووجدوا انها منهوبة ، شرعوا هم كذلك بالسلب . لقد اتموا مابدأه الفرنسيون . كان القرويون يقدمون بعرباتهم ليحملوا الى مساكنهم كل مابقي في المنازل المتهدمة وفي الشوارع . وحمل القوقازيون كذلك الى معسكرهم كل مااستطاعوا حمله ووضع ملاك البيوت ايديهم على كل ما وجدوه لدى الآخرين ونقلوه الى مساكنهم بحجة ان هذه الاشياء تخصهم .

وبعد هؤلاء النهابين الاولين ، جاء آخرون ثم آخرون كذلك وبات السلب اخذاً في الصعوبة كلما ازداد عدد السلابين حتى بدأ يأخذ اشكالاً منهاجية .

لقد وجد الفرنسيون موسكو فارغة ولكن حية ، باعضاء منتظمة وبكل ماينفع لممارسة التجارة والمهن والترف والادارة والدين . كانت اعضاء جامدة ولكن صالحة للعمل بعد . كانت هناك اسواق ودكاكين وحوانيت ومستودعات واماكن لبيع الخضار وجلها مليىء بالسلع . وكانت هناك مصانع ومعامل وقصور ومساكن غنية مليئه بالاشياء الثمينة . وكانت هناك مستشفيات وسجون ومكاتب وكنائس وكاتدرائيات . وكلما طال امد مكوث الفرنسيين ، راحت اطارات حياة المدينة هذه تختفي حتى ان موسكو غدت في النهاية ساحة كبيرة متسعة للموت والنهب .

وكلما طال امد نهب الفرنسيين نضبت ثروات موسكو وطاقة السلابين . اما سلب

الروسيين الذي اتصفت به ايام عودتهم الاولى الى العاصمة فكان على العكس : كما طال امده ، و كثر عدد المساهمين فيه ، كلما اقام ثروة المدينة وحياتها الطبيعية بسرعة اكثر . .

والى جانب السلابين ، جاءاناس من مختلف الالوان بعضهم بدافع الفضول وبعضهم بدافع واجبات عمله وبعضهم بدافع المصلحة : بين ملاكين وطلبة دينيين وموظفين كبار وصغار وباعة وصناع وقرويين ، توافدوا من كل حدب الى موسكو كما يندفع الدم الى القلب .

ولم يكد يمضي اسبوع حتى صودرت عربات القرويين الذين جاؤا بها فارغة لينقلوا عليها مايستطيعون حمله الى منازلهم . واستعملت من جانب السلطة في نقل الجثث خارج المدينة . وآخرون علموا باخفاق رفاقهم ، كانوا يفدون الى المدينه حاملين على عرباتهم الحنطة والعلف والخرطال ويخفضون الاسعار بشكل مناسب حتى باتت اكثر انخفاضاً من سابق العهد وراحت فرق من النجارين تعد باستمرار ، يجذبها ارتفاع الأجر ، وشرعت هذه الفرق تعيد البناء او تصلح البيوت المحترقة . واخذ الباعة يقيمون لانفسهم الدكاكين في مبان من الخشب وفتحت الخانات والفنادق في الدور المحترقة . وراح رجال الدين يقيمون الاحتفالات الدينية في عدد كبير من الكنائس ظلت سليمة . وشرع بعض الواهبين يعيدون الى الكنائس الاشياء ذات الطابع الديني المسروقة وراح الموظفون يقيمون في حجرات صغيرة مكاتبهم المغطاة بالقماش وخزائن وراحت سلطات البوليس توزع الأمتعة والاشياء التي تركها الفرنسيون . وراح اصحاب البيوت الذين وُجدت لديهم امتعة كثيرة مصدرها بيوت اخرى يحتجون مشتكين بمغدوريتهم في نقل كل الاشياء المنقولة الى قصر فاسيت (في الكرملن) وآخرون اخذوا يحتجون بان

الفرنسيين جميعاً وضعوا كثيراً من اثاث البيوت في بيت واحد وانه ليس من العدل تقديم ذلك المتاع المجموع هدية الى صاحب البيت الذي وجد فيه . وكانوا يشتمون رجال الشرطة ويقدمون اليهم الرشوات ويغالون في تقدير قيمة الممتلكات المحترقة حتى يصلوا الى عشرة اضعافها ويطالبون بمساعدات ماديـــة . اما الكونت روستوبتشين ، فكان يدبج بلاغاته .

* * *

الفصل السادس عشر

زيارة ماري للأميرة

وصل بيير الى موسكو حوالي نهاية كانون الثاني واقام في جناح من مسكنه ظل قائماً . قام بزيارة لروستوبتيشين والى آخرين من معارفه الذين عادوا الى المدينة واستعد منذ غداة اليوم التالي لوصوله ، لمتابعة السفر الى بيترسبورج . وكان الناس كلهم يتباهون بالنصر وكل شيء يجيش بالحياة في العاصمة المنبعثة . وكان كل واحد سعيداً برؤية بيير من جديد ، يستقبله كل واحد ويستجوبه عما رآه . فكان يشعر في نفسه بأكثر الميول صداقة نحو كل الذين يقابلهم لكنه اصبح رغماً عنه ، يحتفظ الآن ببعض التحفظ الذي كان يسمح له بعدم الدخول في التزام ما . كان يجيب على كل سؤال يوجه اليه ، سواء اكان السؤال مهما او تافهاً ، عندما يُسأل اين سيقطن ، هل سيعيد بناء مساكنه ، هل يقبل حمل صندوق صغير معه الى بيترسبورج ، كان يجيب : نعم ، يمكن ان يكون ، آمل ذلك او جواباً آخر من هذا القبيل .

علم ان آل روستوف موجودون في كوستروما ، لذلك فان التفكير في ناتاشا راح يراوده بين حين وآخر وعندما كانت الفكرة تراوده ، لم تكن اشبه بذكرى فاتنة لماضٍ يطل منذ زمان طويل . كان يظن انه تحرر ليس من فروض الحياة كلها فحسب ، بل كذلك من ذلك الاحساس الذي يصور له انه تقبل موضوعاً متعمداً .

علم غداة اليوم التالي لوصوله الى موسكو من آل دروبتسكوي ان الأميرة ماري موجودة في موسكو . فراحت آلام وموت وأيام الأمير آندريه الاخيرة تغزو مخيلة بيير الآن بشكل اقوى من اي وقت مضى فلما علم خلال الغداء ان الأميرة ماري في المدينة ، وانها تقطن بيتها في فوزدفيجنكا الذي ظل سليما ، مضى لزيارتها ذلك المساء بالذات.

لم يكف خلال الطريق عن تمثل الأمير آندريه وتصور صداقتهما ولقاءاتهما العديدة وبصورة خاصة لقاءهما الاخير في بورودينو .

راح يحدث نفسه : « هل يمكن ان يكون قدمات وهو في حالة الانفعال والثورة التي كان عليها حينذاك ؟ هل يمكن ان لا تكون الحياة قد تكشفت له قبل موته ؟ » وفكر في موت كاراتاييف ، فراح رغما عنه ، يقارن بين كليهما ، رغم الود شديد الاختلاف شديد التقارب مع ذلك ، الذي كان يكنه لهما ويقارن بين الطريقة التي عاش فيها كل منهما ومات .

ولقد وصل بيير الى مسكن الأمير العجوز وهو على تلك الحالة الفكرية الخطيرة . ولقد ظل ذلك المسكن سليما ، يحمل اثار التلف ، لكنه ظل محتفظاً بطابعه . وكان للوصيف العجوز الذي استقبل بيير وجه صارم وكأنه كان يريد بذلك ان يشعر الزائر بان غياب الأمير لم يغير شيئاً من عادات الدار قال له ان الأميرة أوت الى مخادعها منذ حين لاستقبال يوم الأحد .

قال بيير :

— اذهب واخطرها بوجودي لعلها تستقبلني .

فاجاب الوصيف :

— حسب اوامركم . تفضلوا بالدخول الى قاعة اللوحات .

عاد الوصيف بعد حين يتبعه ديسال . لقد جاء ديسال يخطر بيير على لسان الأميرة

ماري بانها سعيدة جداً لرؤيته وانها ترجوه ، اذا لم يجد مانعاً لهذه الطريقة غير المتكلفة ، ان يصعد اليها .

كانت الأميرة جالسة في حجرة صغيرة منخفضة السقف تنيرها شمعة واحدة في صحبة انسان متشح بالسواد . تذكر بيير انها تحتفظ دائماً الى جانبها بسيدات مرافقات . اما فيما يتعلق بمن كن اولئك السيدات وكيف كن ، فانه لم يكن يذكر ابداً . فكر وهو يلقي نظرة على السيدة المتشحة بالسواد : « انها احدى مرافقاتها . »

نهضت الأميرة بنشاط وجاءت تستقبله وتمد له يدها وتقول وهي تتأمل التغيير الذي طرأ عليه بعد ان فرغ من تقبيل يدها :

ــ نعم ، هذا هو الشكل الذي نلتقي عليه .

ثم اضافت وهي تنقل بصرها على السيدة المرافقة في شيء من الارتباك جعل بيير يدهش لحظة :

ــ لقد تحدث عنك كثيراً في الاويقات الاخيرة . كم كنت مسرورة اذ علمت انك انقذت ! انها الخبر الطيب الوحيد الذي تلقيناه منذ أمد طويل .

ومن جديد ، القت نظرة اكثر قلقاً على السيدة المرافقه وارادت ان تضيف شيئاً ما . لكن بيير قاطعها ليقول :

ــ تصوري انني ما كنت اعرف عنه شيئاً . كنت اظن انه قتل وكل ما عرفته نقل الي من قبل آخرين ، اشخاص ثالثين . لقد رووا لي انه وجد نفسه لدى آل روستوف ... باللقدر الغريب !

كان بيير يتحدث بحماس وحميا . نظر بدوره الى السيدة المرافقة فشاهد النظرة المحبة التي ترمقه بها . وكما يحدث غالبا في بحر الحديث ، شعر دون ان يدري السبب ، ان هذه المخلوقة ذات الرداء الأسود ، لطيفة طيبة ، وانها مخلوقة ممتازة لا تزعج في شيء سياق حديثه مع الأميرة ماري .

لكنه عندما نطق باسم آل روستوف ،ازداد دهشة للارتباك الذي بدا على الاميرة ماري . لقد انتقلت نظرتها من جديد من وجه بيير الى السيدة ذات الثوب الاسود وقالت :

ــ كيف ؟ الا تعرفها ؟

القى بيير من جديد نظرة على ذلك الوجه الهزيل الشاحب ذي العينين السوداوين والفم الغريب الذي للسيدة المرافقة. كان هناك شيء ما اليف ، شيء منسي منذ زمن طويل ، شيء عزيز جداً ينظر اليه بتينك العينين اليقظتين .

فكر : «كلا هذا لايمكن ان يكون. هذا الوجه الشاحب الهزيل الصارم الضعيف ! لايمكن ان يكون هي بمجرد شبه .» لكن الأميرة ماري قالت في تلك اللحظة : «ناتاشا» وبدا الوجه ذو العينين المتيقظتين كأنه يتفتح بعناء وبجهد كما يفتح باب علاه الصدأ ، واضاء بابتسامة . ومن خلال ذلك الباب المفتوح ، لفحت بيير فجأة نفحة عطرة من تلك السعادة المنسية منذ وقت طويل التي كان في تلك اللحظه بالذات ابعد مايكون عن التفكير فيها. شمله ذلك العطر وتسلل الى كليته . ولما ابتسمت . لم يعد للشك مجال . انها ناتاشا دون ريب وأنه ليحبها .

منذ الدقيقة الاولى كشف بيير رغما عنه لناتاشا والأميرة ماري وخصوصاً لنفسه ، عن السر الذي كان يجهله . تضرج وجهه من الفرح والألم واراد اخفاء انفعاله . لكنه كلما جاهد لاخفائه ،كان يكشف عن حبه لنفسه و لناتاشا وللأميرة ماري ، بشكل اوضح من التعبير عنه بدقيق الكلام .

حدث بيير نفسه : «لابد وان ذلك ناجم عن المفاجأة .» لكنه عندما اراد ان يستأنف الحديث مع الأميرة ماري ،نظر مرة اخرى الى ناتاشا فغطت وجهه حمرة قانية واكتسحه تأثر أقوى مبعثه القلق والفرح وراح يتخبط في اقواله ثم توقف في منتصف جملة .

لم يلاحظ بيير وجود ناتاشا بادىء الأمر لأنه ما كان يتوقع ان يراها هناك . ثم انه لم يعرفها بسبب التغيير الكبير الذي طرأ عليها منذ آخرة مرة رآها فيها . لقد هزلت وشحبت . ولكن لم يكن كل هذا هو الذي يجعلها غير معروفة له : كان يستحيل عليه ان يعرفها للوهلة الاولى لأن على ذلك الوجه، في تينك العينين اللتين كانت بهجة الحياة تشع منهما فتلتمع بها ابتسامة غامضة ، لم يكن على ذلك الوجه حتى ولا شبح ابتسامة . لم يبق الا العينان المتيقظتان الطيبتان الحزينتان المستفسرتان .

لم ينتقل اضطراب بيير منه الى ناتاشا ، لكن ابتهاجاً لا يكاد يُلحظ اضاء وجهها .

* * *

الفصل السابع عشر

مفاجأة

قالت الاميرة انها جاءت تقضي بعض الوقت معي ولسوف يصل الكونت والكونتيس في حالة مريعة بعد حين ان الكونتيس ، بيد ان ناتاشا نفسها في حاجة الى معالجة طبيب وقد ارغموها على مرافقتي .

فقال بيير مخاطبا ناتاشا :

— نعم ، هل هناك اسرة لا ألم لها ؟ انك تعرفين ان ذلك وقع يوم تحريرنا بالذات . لقد رأيته ، يالفتى الفتان !

اخذت ناتاشا تتطلع اليه وكجواب على كلماته ، اتسعت عيناها واضاءتا بوميض اقوى . استأنف بيير :

— ماذا يمكن ان يقال او ان يُتصور مما يبعث العزاء ؟ لاشيء . لماذا كان يجب ان يموت فتى على مثل لطفه ، مثله طافح بالحياة ؟

فقالت الأميرة ماري :

— نعم ، في العصر الذي نعيش فيه ، يصعب العيش بدون الايمان .

فبادر بيير يجيب :

— نعم ، نعم ، هذه هي الحقيقة الحقة .

سألت ناتاشا وهي تحدق بانتباه في عيني بيير :

- لماذا ؟

استأنفت الأميرة :

- كيف لماذا ؟ لمجرد التفكير فيما ينتظر . . .

بيد ان ناتاشا لم تصغ الى النهاية بل راحت من جديد تحدق في عيني بيير بنظرة مستفسرة . استرسل بيير يقول :

- لأن الانسان الذي يؤمن بان هناك إلهاً يسيرنا ، يستطيع وحده ان يحتمل خسارة مثل خسارتها و . . . خسارتكم .

. فتحت ناتاشا فمها لتجيب ، لكنها صمتت فجأة . وأسرع بيير يشيح بوجهه وراح يخاطب الأميرة ماري مستفسراً منها عن ايام صديقه الأخيرة .

ولقد تبدد اضطراب بيير تقريباً . لكنه كان يشعر بـذات الوقت ان حريته السابقة كلها قد اختفت بالمثل . شعر الآن ان لكل كلماته وتصرفاته حكماً يعتبر حكمه اغلى واثمن من حكم العالم اجمع ، فراح وهو يتكلم ، يجزع للأثر الذي تحدثه كلماته على ناتاشا . ما كان يبحث عن الكلمات التي يمكن ان تروق لها . لكنه كان يحكم على كل مايقوله من وجهة نظرها هي .

وكعادتها دائماً ، راحت الأميرة ماري تتكلم دون حماس عن الحالة التي وجدت الأمير اندريه عليها . لكن اسئلة بيير ونظرته المتقده الجزعة ووجهه المضطرب من التأثر ، دفعتها تدريجياً الى الدخول في تفاصيل كانت تخاف على نفسها من ان تجدد ذكراها .

كرر بيير وهو منحن بكل جسده الى الأمام نحو الأميرة ماري يصغي بفهم الى روايتها :

- نعم ، نعم ، هوذلك ، هوذلك ... نعم، نعم، اذن ، لقدهدأ؟ لقد رق؟ ذلك انه ما كان يبحث الا عن أمر واحد بكل قوة روحه ، كان يريد ان يكون

جيداً بكمال وما كان ولا ريب يخاف الموت . والاخطاء التي كانت فيه ـ اذا كانت لديه اخطاء ـ لم تكن صادرة عنه . اذن لقد رق ؟

وقال فجأة مخاطباً ناتاشا والدموع ملء عينيه :

ـ بالسعادته اذ شاهدك !

طافت على وجه ناتاشا انتفاضة وقطبت حاجبيها وخفضت عينيها فترة . وترددت ثانية في الكلام ثم قالت بصوتها الحلو الخطير :

ـ نعم ، كان ذلك ولا ريب سعادة لي .

ثم بعد صمت اردفت :

ـ وهو . . . هو . . . لقد قال لي انه كان يرغب في رؤيتي في اللحظة التي جئت فيها اليه . . .

وتحطم صوت ناتاشا . تضرج وجهها وتقلصت يداها على ركبتيها وفجأة بذلت مجهوداً ظاهراً على نفسها فرفعت رأسها وراحت تتحدث بسرعة :

ـ ما كنا نعرف شيئاً عندما غادرنا موسكو . وما كنت اجرأ على الاستعلام عنه . ان سونيا هي التي اخطرتني فجأة بأنه معنا . ما كنت افكر في شيء ولا اقدر على تمثل الحالة التي هو عليها .

واضافت وهي تتغضن وتتنفس بصعوبة :

ـ كنت اريد فقط ان اراه وان اكون معه .

ودون ان تسمح بمقاطعتها ، روت ما لم تتحدث به بعد الى احد ، روت كل ماعانته طيلة اسابيع سفرهم الثلاثة وفي مكوثهم في ايارو سلافل .

وكان بيير يصغي اليها فاغر الفم وعيناه الممتلئتان بالدموع شاخصتان اليها . لم يكن وهو يصغي اليها يفكر في الامير اندريه ولا في الموت ولا في ماتقول . كان يشفق عليها فقط للألم الذي تسببه الرواية لنفسها .

اما الأميرة التي كان وجهها متقلصاً كله لرغبتها في كبت دموعها ، فقد كانت

جالسة الى جانب ناتاشا ، تصغي للمرة الاولى الى قصة ايام الغرام الأخيرة بين اخيها وناتاشا .

وكانت روايةهذهالآلام المشفوعةبالفرح،ضرورةلناتاشا كما كانذلك واضحا .

كانت تتحدث ، خالطة اتفه التفاصيل باعمق الاسرار الشخصية ، تبدو كأنها لم تعد تستطيع التوقف . ولقد كررت مراراً الاشياء ذاتها :

وارتفع صوت ديسال من وراء الباب يسأل عما اذا كان نيكولا الصغير يستطيع الدخول لألقاء تحية المساء . فاعقبت ناتاشا :

— وهذا كل شيء ، كل شيء . . .

ونهضت بشدة في اللحظة التي دخل فيها نيكولا . ولقد اصطدم رأسها وهي تسارع الى الخروج بالباب الذي يحجبه ستر ، فاندفعت خارجة وهي تزمجر من الألم بقدر ما يطفح في نفسها من الحزن .

نظر بيير الى الباب الذي خرجت منه دون ان يدرك لماذا ظل فجأة وحيداً في العالم .

اخرجته الأمير ماري من تأملاته جاذبه انتباهه الى ابن اخيها الذي دخل لتوه .

ولقد احدث وجه نيكولا الشديد الشبه بوجه ابيه ، في نفسه وهو على تلك الحالة من التحنان ، اثراً كبيراً حتى انه بعد ان عانق الفتى ، نهض بشدة واخرج منديله ثم ابتعد نحو النافذة ، اراد ان يستأذن الأميرة ماري منصرفاً لكنها استبقته .

— كلا ، لا تذهب . ان ناتاشا وانا نسهر احيانا حتى قرابة الساعة الثالثة صباحا . عد الى الجلوس ارجوك . سوف آمر باعداد العشاء . انزل ، لن نتأخر عن اللحاق بك .

وفي اللحظة التي هم بيير فيها بالخروج ، قالت له الأميرة :

— هذه هي المرة الاولى التي تحدثت فيها عنه بهذا الشكل .

الفصل الثامن عشر

لقاء مع ناتاشا

اقتيد بيير الى غرفة طعام كبيرة جيدة الاضاءة ولم يلبث بعد بضع دقائق ان تناهى اليه وقع خطى ودخلت الاميرة ماري الى الحجرة مع ناتاشا . كانت ناتاشا هادئة وان كان وجهها قد اتخذ طابعه الصارم الخالي من الابتسام . ولقد شعر ثلاثتهم ، الأميرة ماري وناتاشا وبيير ، بذلك الانزعاج الذي يعقب عادة حديثا ، شخصياً جديا ، اذ تتعذر العودة الى الحديث السابق ويخجل المرء ان يتحدث عن التفاهات ، كما انه يحس بالانزعاج اذ يصمت لأن به حاجة الى الكلام ولأن الصمت المطبق الذي يلزمه صمت ملزم . جلسوا الى المائدة صامتين وابعد الخدم الكراسي ليسمحوا لهم بالجلوس ثم عادوا فقربوها . ونشر بيير منشفته الباردة ونظر الى ناتاشا ثم إلى الأميرة ماري وبه رغبة في قطع حبل الصمت . كانتا دون ريب تحسان بمثل تلك الرغبة : لقد كانت عينا كليهما تشع بالرغبة في الحياة وتبدوا شاهدة على ان هناك مكاناً للفرح رغم الحزن .

سألت الأميرة ماري :

— هل ترغب في شرب الفودكا يا كونت ؟

فطردت هذه الكلمات فجأة اطياف الماضي . اضافت :

– حدثنا عنك . انهم يروون عنك اشياء لا تصدق .

اجاب بيير وعلى شفتيه تلك الابتسامة الطافحة بسخرية حلوة التي اصبحت مألوفة لديه :

– نعم . لقد رووا اليّ شخصياً اشياء مدهشة حقاً لم ارها بنفسي قط. لقد دعتني ماري ابراموفنا الى منزلها وقصت عليّ حكاية ما وقع لي او بالاحرى ما وجب ان يقع لي . ثم ان ستيبان ستيبانيتش علمني هو الآخر ما يجب ان ارويه عن نفسي . لقد لاحظت ، بصورة عامة ، ان كون المرء شخصاً مهماً ، عمل يحوي كل عناصر الراحة ولما كنت الآن احد المهمين ، فانهم يستدعونني ويسردون حكايتي .

ابتسمت ناتاشا وكادت ان تفتح فاهها لتقول شيئاً ، غير ان الأميرة ماري قالت تستوقفها :

– لقد اكدوا لنا انك تعرضت لخسارة مليوني روبل في موسكو . هل هذا صحيح ؟

فهتف بيير :

– لكنني الآن اغنى ثلاث مرات مما كنت قبلا .

لقد ظل بيير يؤكد رغم ديون زوجته وضرورة اعادة البناء التي تبدل وجه اعماله انه اغنى ثلاث مرات من ذي قبل .

اضاف بيير بصوت خطير :

– على اية حال ، فان ماربحته بشكل لا يتطرق اليه الجدل هو حريتي .
لكنه امتنع عن الاستمرار في الحديث واجداً ان من الانانية الاقتصار في الحديث على نفسه من جانبه .

– وتريد اعادة البناء ؟

– نعم ، ان سافيليتيش يرغب في ذلك .

قالت الأميرة ماري :

– قل لي ، ما كنت تعرف بموت الكونتيس بعد عندما كنت في موسكو اليس كذلك ؟

واحمر وجهها اثر ذلك عندما شعرت بانها طرحت عليه هذا السؤال فور اعلانه نبأ استرداده حريته وان ذلك يمكن ان يعطي لكلماته معنى قد لا يكون عناه بها .

اجاب بيير الذي لم يظهر عليه انه يعتبر الطريقة التي فسرت فيها الأميرة توريته الى حريته مربكة :

– كلا . لقد عرفت الأمر في اوريل ولا يمكنك ان تتصوري الأثر الذي احدثه ذلك في نفسي .

واردف بحمية وهو يختلس نظره الى ناتاشا ويلاحظ على وجهها الفضول الذي ارتسم عليه بانتظار ان يتحدث عن زوجته .

– لم نكن زوجين مثاليين . لكن موتها هذا احدث في نفسي اثراً مريعاً . عندما يتخاصم شخصان ، يكون كلاهما على خطأ والمرء يشعر بخطأه أوقع على نفسه حيال شخص لم يعد على قيد الحياة . ثم ان موتاً بهذا الشكل . . . دون اصدقاء ولا اعزاء .

واعقب وهو يلاحظ مسحة من التأييد المرح على وجه ناتاشا :

– انني اشفق عليها كل الاشفاق ، كل الاشفاق .

فقالت الأميرة ماري ملاحظة :

– وعلى هذا ، ها انك عذب من جديد ، وصالح للزواج .

فتضرج وجه بيير فجأة وبذل جهده كيلا ينظر ناحية ناتاشا لفترة طويلة . ولما قرر النظر اليها ، كانت قد اتخذت وجهاً جامداً صارماً بل ومحتقراً على ما بدا له .

سألت الأميرة ماري :

– اذن ، هل صحيح انك رأيت نابوليون وتحدثت اليه كما قالوا لنا ؟

فراح بيير يضحك :

ـ ولا مرة واحدة ، ابداً يبدو للناس جميعاً ان الوقوع في الأسر معناه المكوث في ضيافة نابوليون . انني لم اره ابداً فحسب بل كذلك لم اسمع احداً يتحدث عنه . لقد كنت في صحبة اسوأ مما تظنين .

كادوا ان يفرغوا من الطعام ووجد بيير نفسه مساقا الى التحدث عن اسره وهو الذي تحاشى بادىء الأمر الخوض في هذا الموضوع .

سألته ناتاشا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ هل صحيح انك مكثت في موسكو لتقتل نابوليون ؟ لقد خمنت ذلك عندما التقينا قرب برج سوخاريف ، هل تذكر؟

اعترف بيير بأن ذلك صحيح . واستسلم اخيراً ،تدفعه تدريجياً اسئلة الأميرة ماري وخصوصاً اسئلة ناتاشا ، الى رواية مغامراته بالتفصيل .

تحدث اولا بتلك المسحة الساخرة اللطيفة التي باتت الآن ترافق احكامه على الآخرين وعلى نفسه بصورة خاصة لكنه عندما بلغ في حديثه الى الاهوال والآلام التي شهدها ، احتد دون ان يشعر بذلك وراح يعبر عن مشاعره بالانفعال الكامن الذي يعتلج في نفس انسان عاش فترات اليمة مؤثرة .

كانت الأميرة ماري تنظر تارة الى بيير واخرى الى ناتاشا وعلى شفتيها ابتسامة انيسة . كانت ترى في كل ماتسمعه ، بيير وطيبته فحسب . اما ناتاشا ، فكانت متكئة بمرفقيها الى المائدة تتبدل امارات وجهها باستمرار ، تتابع مايقوله بيير دون ان تغادره بعينيها دقيقة واحدة وكأنها تحيا معه في كل مايرويه . ولم تكن نظرتها وحدها تبرهن لبيير على انها فاهمة كل مايريد التنويه عنه ، بل كذلك هتافات الدهشة التي كانت تطلقها والاسئلة المختصرة التي كانت تطرحها عليه . وكان يستنتج انها لم تكن تستوعب القصة التي يرويها فحسب ، بل كذلك ما لم تكن

الكلمات قادرة على التعبير عنه . وفيما يلي الاسلوب الذي روى فيه بيير قصة المرأة والطفل الذين انقذهما واللذين كانا سبب توقيفه : « كان مشهداً مريعاً ، اطفال مهجورون ، وبعضهم في احضان اللهب ... ولقد أخرجوا واحداً امامي من النار ... نساء كانوا يسلبونهن ما معهن وينتزعون الاقراط من آذانهن ...
وتضرج وجه بيير فجأة وتمتم :

— وحينئذ برزت دورية من العسس فاقتادت كل الرجال ، كل الذين ما كانوا يسلبون ، وانا بينهم .

قالت ناتاشا :

— انك لاتذكر كل شيء . لابد وانك عملت شيئاً .

ثم اردفت بعد توقف :

— شيئاً ما جميلا .

تابع بيير حديثه . ولما بلغ مرحلة اعدام مشعلي النار ، اراد ان يكتم تفاصيلا مريعة جداً لكن ناتاشا ارغمته على عدم اسقاط شيء .

وكان بيير الذي نهض عن المائدة وشرع يذرع الحجرة وعينا ناتاشا شاخصة اليه يريد ان يتحدث عن كاراتاييف . لكنه توقف ؟

— كلا ، لايمكنكما ان تفهما كل ما علمنيه ذلك الأمي ، البسيط الفكر .

فقالت ناتاشا :

— ولكن بلى ، ولكن بلى . استمر . ماذا وقع له ؟

— لقد قتلوه تحت بصري تقريباً .

وروى بيير ايام تقهقرهم الأخيرة مع الجيش الفرنسي ومرض كاراتاييف وموته وصوته دائم التهدج .

كان يروي مغامراته وكأنه لم يستعرضها قط في ذاكرته من قبل . لقد

اتخذ كل ماقاساه معنى جديداً الآن في نظره . وبينما هو يتحدث الى ناتاشا ، كان يتذوق تلك المتعة النادرة التي تسبغها على الرجال ، النساء اللاتي يصغين اليهم ، ليس النساء الحاذقات اللاتي يبذلن جهدهن وهن يصغين الى استيعاب مايقال لهن الأغناء فكرتهن ، ولكي يعدن الرواية عند حلول المناسبة مرتبة وفق هواهن ، ويروجنها بوضعها انتاجاً أعد في مطبخهن الفكري الصغير بل ان المتعة التي كان يشعر بها ، كانت تلك التي تسبغها النساء الحقيقيات ، اولئك اللاتي يعرفن كيف ينتقين افضل مايقال لهن ولا يشبهنه الا بالافضل . كانت ناتاشا دون ان تدري كلها آذان صاغية . ما كانت تضيع كلمة ولا نبرة صوتية ولا نظرة ولا حركة من حركات بيير ولا ارتعاشة عضلة من عضلات وجهه . كانت تلتقط الكلمة قبل ان يكاد يفوه بها وتنقلها مباشرة الى قلبها وهو على اتم استعداد لتلقيها . ولقد خمنت المعنى المستتر لكل مايعتلج في نفس بيير .

وكانت الاميرة ماري تفهم القصة وتساهم فيها لكنها كانت ترى بنفس الوقت شيئاً آخر احتكر كل انتباهها . كانت ترى امكانية قيام حب وسعادة بين ناتاشا وبيير . ولقد ملأتها هذه الفكرة التي واتتها للمرة الاولى ، بالفرح .

بلغت الساعة الثالثة صباحاً . وجاء الخدم بوجوههم الصارمة يبدلون الشموع ولكن لم يلق اليهم احد بالا .

انهى بيير حديثه وظلت ناتاشا تتأمله شاخصة الابصار وعيناها تلتمعان بحيوية وكأنها ترغب في ان تعرف ماتبقى له ان يقول مما يمكن ان يكون قد اخفاه وراح هو ، يختلس النظر اليها مضطربا سعيداً ، ويتساءل عن الموضوع الذي يجب ان يثيره لاذكاء الحديث ، بينما كانت الأميرة ماري صامتة . ولم يكن احد من الثلاثة يشعر بان الساعة بلغت الثالثة وان وقت النوم قد ازف .

هتف بيير :

- انهم يتحدثون عن الشقاء والألم . لكنهم لوقالوا لي الآن في هذه الدقيقة . هل تفضل ان تعود الى ما كنت عليه قبل الأسر ام ان تحيا من جديد كل هذه المغامرة من بدايتها ؟ لأجبتهم : بحق الله ، اعيدوا الي الأسر ولحم الحصان . ان المرء يعتقد بأنه ضائع منذ ان يلقى خارج الطريق المألوف ، في حين ان هنا يبدأ شيء جديد ، طيب ان السعادة موجودة ماوجدت الحياة ولدينا امامنا سعادة ، كثيراً من السعادة .

واضاف مخاطبا ناتاشا :

- انني اوجه هذا القول اليك بصورة خاصة .

فأجابت وافكارها تائهة :

- نعم ، نعم . اما انا ، فانني لا ارغب في اكثر من ان احيا الحياة التي عشتها من قبل .

تأملها بيير بانتباه فقالت مؤيدة :

- نعم ولا شيء اكثر !

صاح بيير :

- هذا خطأ ، كل الخطأ ! انني لست مسؤولا ان اعيش وان ارغب في العيش ولا انت كذلك .

وفجأة اسقطت ناتاشا رأسها بين يديها وانخرطت في البكاء سألت الأميرة ماري

- ناتاشا ، ما بك ؟

- لاشيء ، لاشيء . (وابتسمت لبيير خلال دموعها) الى اللقاء ، لقد حان وقت النوم .

فنهض بيير واستأذن منصرفا .

تقابلت الأميرة مارى وناتاشا كعادتها في غرفة نومها وتحدثتا عما رواه بيير .

لكن الأميرة ماري لم تقل رأيها في بيير وكذلك ناتاشا ، فانها لم تتحدث عنه .

قالت ناتاشا :

ـ هيا ، عمي مساء ياماري إنني غالباً ماأخاف كما تعلمين من كثرة عدم تحدثنا عنه (عن الأمير آندريه) وكأننا نخشى أن ندنس عاطفتنا فننساه .

زفرت الأميرة ماري زفرة عميقة وكان معنى تلك الزفرة أنها تجد أن ناتاشا قد صدقت القول لكنها مع ذلك لم تعرب لها عن تأييدها . قالت :

ـ وهل يمكن النسيان ؟

فقالت ناتاشا :

ـ لقد أفادني جداً أن تحدثنا على هذا الشكل اليوم . كان ذلك اليا صعبا، لكنه افادني . إنني واثقة من أنه كان يحبه حقاً ولهذا السبب قصصت عليه ...

وفجأة سألت وقد تضرج وجهها :

ـ هل كنت مخطئة ؟

فهتفت الأميرة ماري :

ـ بتحدثك الى بيير ؟ أوه ! كلا ! انه شديد الطيبة .

إستأنفت ناتاشا فجأة وعلى شفتيها الابتسامة الكيسة التي لم تعد الأميرة ماري تراها على وجهها منذ امد طويل :

ـ هل تعلمين أنه اضحى شديد النظافة شديد الوضوح منتعشاً جداً وكأنه خارج لتوه من الحمام ، هل تفهميني ؟ حمام معنوي أليس كذلك صحيحاً ؟

فردت الأميرة ماري :

ـ نعم ، لقد كسب كسباً كبيراً .

ـ ومعطفه الرسمي القصير ، وشعره المعنى به ، نعم ، تماماً مثل الخارج من الحمام ... مثل أبي سابقاً ...

قالت الأميرة ماري :

— أفهم « أنه » (الأمير آندريه) لم يحبب قط إنسا بقدر ما أحبه .

— نعم . مع أنه ليس بينهما شيء مشترك يزعمون أن الصداقات بين الرجال تقوم بين أفراد مختلفين كل الاختلاف . ويجب الاعتقاد بصحة ذلك إذهل يشبهه في شيء حقاً ؟

— على أية حال ، إنه فتى رائع !

ردت ناتاشا :

— هيا ، عمي مساء .

وظلت الابتسامة الكيسة على وجهها فترة طويلة وكأنها نسيت عليه .

* * *

الفَصلُ التّاسِعُ عَشَرْ

الحب

مكث بيير طويلا قبل أن استطاع النوم ذاك اليوم . كان يمشي في طول غرفته وعرضها يقطب حاجبيه تارة وهو مستغرق في أفكار خطيرة ويهز كتفيه تارة أخرى وكأن الرعشة تسري فيه وتارة يبتسم باغتباط سعيد .

كان يفكر في الأمير آندريه وناتاشا وفي غرامها فيشعر تارة بالغيرة من ناتاشا وماضيها ويأخذ على نفسه غيرته تلك تارة أخرى ويعتذر عن نفسه تارة ثالثة وكانت الساعة السادسة صباحاً وهو لا يزال في نزهته عبر غرفته .

حدث نفسه وهو يخلع ثيابه بعجلة ويتمدد في سريره متأثراً ولكن دون أن يشعر بشك ولا بتردد :

— ولكن ما العمل في ذلك طالما لا يمكن معالجته في شيء ؟ ما العمل في ذلك لاريب أن الأمور يجب أن تكون على هذا النحو .

وحدث نفسه : مهما بلغت غرابة هذه السعادة واستحالتها يجب علي أن أعمل كل شيء لنصبح زوجاً وزوجة .»

لقد حدد قبل أيام سفره إلى بيتر سبورج . فلما استيقظ وكان يوم خميس ، جاء سافيليتش يسأله أوامره بصدد إستعدادات السفر .

تساءل بيير رغماً عنه : « لماذا السفر إلى بيترسبورج؟ولما أذهب ، وما عملي هناك ؟ ماذا يوجد هناك ؟ ثم تذكر : «آه ! نعم ، كنت مزمعاً الذهاب إلى هناك قبل أن يحدث ذلك . لم لا ؟ سأذهب فيما بعد . » وفكر وهو ينظر إلى سافيليتش العجوز : « ياله من رجل باسل ، ويالحسن عنايته ، إنه يفكر في كل شيء ! ثم يا لابتسامته اللطيفه .

سأل بيير :

ـ إذن لازلت ياسافيليتش لاترغب في أن تصبح حراً ؟

ـ ماذا أعمل بالحرية ياصاحب السعادة ؟ لقد عشنا أفضل حياة تحت اوامر المرحوم سيدي الكونت ـ ليتعمد الله روحه ! ـ وتحت أوامرك أيضاً دون ان يكون لنا قط مانشكو منه .

ـ ولكن أطفالك ؟

ـ ان الاطفال سيعملون مثلنا ياصاحب السعادة . يستطيعون ان يعيشوا مع اسياد مثلك .

سأل بيير :

ـ وورثتي ؟

وأضاف وعلى شفتية إبتسامة لا إرادية :

قد أتزوج ذات يوم ...وهذا ممكن الوقوع .

ـ وإنني أسمح لنفسي أن أقول ياصاحب السعادة أن ذلك سيكون جيداً جداً .

ففكر بيير : « ها انه يعتقد ذلك بسيطاً كل البساطة . انه لايدرك مبلغ ماهو مريع وخطير . وهو واقع إن آجلاً او عاجلاً ... إنه شيء مريع ! »

سأل سافيليتش :

ـ ماهي أوامر سيدي ؟ ألا يسافر سيدي غداً ؟

فقال بيير :

– كلا لقد أرجأت السفر قليلا إلى مابعد . وسوف أخطرك . اعذرني إذ سببت لك كل هذه المصاعب .

ولما رأى سافيليتش يبتسم فكر : « كم هذا يثير الفضول ، انه لايشك قط في ان المسألة لم تعد مسألة سفر الى بيترسبورج وانه قبل ذلك يجب الفراغ من أمر ما . على أية حال ، انه يرتاب وان كان يتظاهر بأنه لايدري شيئاً . » ثم تسأل « هل يجب ان احدثه بالموضوع ؟ ان اسأله رأيه فيه ؟ كلا ، سيكون ذلك مرة أخرى . »

حدث بيير ابنة عمه خلال الطعام بانه كان بالأمس عند الأميرة ماري وانه شاهد هناك « هل تستطيعين ان تتصوري من ؟ ناتاشاروستوف »

تظاهرت بأنها لاتجد ذلك خارقاً اكثر مالوقال لهابيير انه شاهد هناك مثلاذات آنا سيميو نوفنا .

سأل بيير :

– هل تعرفينها ؟

فأجابت :

– لقد رأيت الأميرة وسمعت بأنها مخطوبة الى روستوف الشاب سيكون ذلك ذا نفع كبير لآل روستوف . انهم يشيعون بأنهم في دمار كامل .

– كلا ، الآنسة روستوف ، هل تعرفينها ؟

– لقد سمعتهم يروون قصتها . وانها لقصة محزنة .

حدث بيير نفسه : « انها بالتأكيد لاتفقه شيئاً ام لعلها تتظاهر بأنها لاتفقه شيئاً ، يجدر بي ان لا احدثها هي الاخرى بشيء . »

ولقد اعدت ابنة العم هي الاخرى بعض الزاد لسفر بيير . فكر هذا : « كم هم طيبون . انهم يفكرون في كل هذا في حين ان لافائدة لهم منه . وكل ذلك من اجلي ، كم يدهشني ذلك . »

وفي ذلك اليوم بالذات ، جاء رئيس الشرطة يعلم بيير بوجوب ارسال رجل أهل للثقة الى قصر فاسيت (في الكريملن) ليشرف على توزيع الأمتعة التي ستمنح لأصحاب الأملاك .

فكر بيير وهو يتأمل وجه رئيس الشرطة : « وهذا ايضاً . ياله من رجل باسل ،ياله من ضابط جميل وياله من انسان طيب ! الاهتمام « الآن » بمثل هذه التفاهات ! في حين انهم يزعمون بأنه غير شريف وانه يقبل الرشوات . كم هـذا غباء ! ثم لماذا لا يتقبل المال ؟ لقد عودوه على ذلك . انهم جميعاً يعملون هـذا العمل ولكن ياله من وجه طيب انيس وياله من ابتسامة حلوة عندما ينظر الي !»

ذهب بيير يتناول طعام الغداء لدى الاميرة ماري .

وبينما هو يجتاز الشوارع بين انقاض الخرائب ،ادهشه جمال تلك الدور المتهدمة كانت هناك انابيب مدافىء واجزاء من جدران خربة تذكره بقوة بضياع الرين والكوليزيه [1] ،تمتد مختبئة بعضها وراء بعض في الاحياء المحترقة . وكل الاشخاص الذين كان يقابلهم ، سائقوا العربات ، النجارون وهم ينظمون الالواح ، الباعة ، البقالون ، كلهم كانوا ينظرون اليه ببهجة وكأن وجوههم المشرقة تقول : « آه ! هذا هو ! لنر ماذا سينتج من كل ذلك ! »

ولما دخل الى منزل الأميرة ، تساءل بيير عما اذا كان حقاً قد جاء الى هنا امس واذ كان حقاً رأى ناتاشا وتحـدث معها . « لعلني حلمت بذلك . لعلني سأدخل فلا اجـد احداً . » لكنه ماكاد يجتاز عتبة البهو حتى اشعره اختفاء حريته الكامل ؛ بوجود ناتاشا شعوراً أحسه بكل كيانه . كانت ترتدي ذلك الثوب الاسود اياه ذا الثنيات الرخوة وتسريحـــة الشعر تلك التي بدت فيها

(١) كوليزيه : مسرح رائع في روما ، شرع في بنائه على عهد فيسبازيان وانتهى على عهد تيتوس عام ٨٠ ق.م ، يضم ثمانين صفاً يمكن ان تجلس ٨٠٠٠٠ متفرج . وفيه قدم الشهداء المسيحيون للوحوش الضارية وهو اليوم اطلال هائلة.

مساء امس . مع ذلك ، فقد كانت مختلفة كل الاختلاف ولو ان شكلها هـذا كان هو شكلها بالأمس لما دخل ، لما كان يمكن ان لا يعرفها للوهلة الاولى .

كانت مثلمـا عرفها عندمـا كانت طفلة تقريباً ثم مخطوبة الأمير آندريه . وكانت ومضة سرور تشع في عينيها المستفسرتين ووجهها يحمل تعبيراً حانياً وكيساً كياسة غريبة في آن واحد .

وكان بيير بعد الغداء يود لو مكث طيلة السهرة هناك لكن الأميرة ماري كانت تريد حضور قداس المساء ، فاضطر بيير الى الانصراف عندما انصرفت الصديقتان .

وفي اليوم التالي عاد مبكراً فتناول الطعام وامضى السهرة كلها . ولكن على الرغم من اللذة الواضحة التي اظهرتها كل من الاميرة ماري وناتاشا لرؤيته ، وعلى الرغم من ان كل ما في حياته من غرض قد تركز الآن في ذلك البيت فان الحديث ظل كثير التقطع ، ينتقل من موضوع تافه الى آخر مثله وينقطع غالب الاحيان . ولقد تأخر بيير كثيراً حتى ان الأميرة ماري وناتاشا تبادلتا النظرات وتساءلتا عما اذا كان سينصرف بعد حين . وكان يرى ذلك لكنه لا يستطيع الذهاب . لقد شعر كثيراً بالانزعاج والارتباك لكنه ظل مع ذلك جالساً لأنه «ما كان يستطيع» النهوض والانصراف .

ولما لم تجد الأميرة ماري نهاية للموقف ، نهضت واقفـة متذرعة بصراع واستأذنت منه منصرفة .

قالت :

ـ اذن . سيكون غداً موعد سفرك الى بيترسبورج ؟

فرد بيير بدهشة وكأن السؤال يهينه ويأخذه على حين غره :

ـ كلا لست مسافراً . نعم . . . كلا . . . الى بيترسبورج ؟ غداً .

واضاف وهو واقف امام الأميرة ماري متضرج الوجه ولكن دون ان يبدي رغبته في الذهاب :

ـ لكنني لا اقول لكما الوداع . سأحضر لأسألكما ماتويدان ان اقوم به لكما من خدمات .

مدت ناتاشا له يدها وانصرفت وبدلا من ان تنحو الأميرة ماري نحوها ، عادت الى اريكتها تغرق فيها وتشمل بيير بنظرة مشعة عميقة خطيرة ويقظة . ولقد اختفى التعب الذي تظاهرت به منذ حين . اطلقت زفرة عميقة وكأنها تتأهب لحديث طويل .

ولقد تبدد فجأة كل تشوش بيير وارتباكه بذهاب ناتاشا وحل محلها حيوية متأججة . اسرع يقرب مقعده من اريكة الأميرة ماري وشرع يقول جواباعلى نظرتها وكأنها سؤال :

ـ نعم ، كنت اريد ان اقول لك يا اميرة ، ساعديني : ماذا يجب ان اعمل ؟ هل يمكنني ان اطمح ؟ ايتها الأميرة ، ياصديقتي العزيزة ، اصغي الي . انني اعرف كل شيء . اعرف انني لااستحقها واعرف انه لايمكن التطرق الى هذا الموضوع في الوقت الحاضر . لكنني اريد ان اكون اخاً لها . كلا ، ليس هذا ، لست اريد ، لا استطيع ...

توقف ومر بيده على عينيه ووجهه واستأنف :

ـ حسناً ، اليك الموضوع .

وبذل مجهوداً ظاهراً على نفسه كي يتحدث باطراد متماسك :

ـ لست ادري منذ متى احبها . لكنها هي ، هي وحدها ، التي احببتها طيلة حياتي والتي احبها لدرجة يتعذر معي ان اتصور الحياة بدونها انني لا أسعى الى طلب يدها على الفور ، لكن التفكير في انها يمكن ان تكونلي وانني قد افوت

على نفسي هذه الفرصة ... هذه الامكانية ... ! منها مخيفة قولي لي هل لي ان آمل ؟ قولي لي ، ماذا يجب ان اعمل ؟ يا اميرتي العزيزه !

وبعد فترة صمت لمس يدها حين رآى انها لاتجيب .

قالت الأميرة ماري :

ـ انني افكر فيما فرغت من قوله . لي وهذا ما افكر فيه انك على حق ان تحدثها الآن عن الحب ...

وتوقفت الأميرة. ارادت ان تقول: ان تحدثها الآن عن الحب امر مستحيل لكنها لم تستطع النطق بهذا الرأي حتى النهاية وهي التي لاحظت منذ امس الاول تبديلا مفاجئاً طرأ على ناتاشا ورأت انها الى جانب عدم اعتبار حديث بيير اليها عن الحب اهانة لها ، لاترغب الا في ذلك الحديث .

رغم ذلك ، اتمت الأميرة ماري جملتها :

ـ ان تحدثها عن الحب الآن ... مستحيل.

ـ اذن ماذا يجب ان اعمل ؟

فقالت الأميرة ماري :

ـ دعني اعمل . انني اعرف ...

فنظر بيير الى عينيها وقال :

ـ قولي ، قولي ...

صححت جملتها :

ـ انني اعرف انها تحبك ... وانها ستحبك .

ولم تكد تنطق بهذه الكلمة حتى انتفض بيير وامسك بيدها وعلى وجهه امارات الهلع .

ـ لماذا تظنين ذلك ؟ هل تظنين ان بوسعي التمسك بالأمل؟ هل تظنين ؟

فأكدت الأميره ماري باسمة :

ـ نعم اظن ، ذلك . اكتب الى ذويها واعتمد علي. سوف احدثها عندما يحين الوقت . انني ارغب في ذلك . وقلبي يحدثني بان ذلك سيتم .

ـ كلا ، كلا ، هذا لايمكن ان يكون ! كم انا سعيد ! ... كلا هذا غير ممكن ... كم انا سعيد ؟

واخذ بيير يردد : كلا ، هذا غير ممكن ، وهو يقبل يدي الأميرة ماري . قالت له :

ـ ولكن اذهب الى بيتر سبورج ، ذلك افضل وسوف اكتب لك .

ـ الى بيترسبورج ؟ السفر ؟ نعم ، حسناً جداً ، سأذهب . ولكن هل استطيع الحضور لرؤيتك غداً ؟

وفي اليوم التالي جاء بيير يودعها . كانت ناتاشا أقل حيوية من الايام السابقه لكنه ذلك اليوم ، عندما كان ينظر في عينيها ، كان بيير يشعر بأنه يختفي وبأنه ليس هناك بيير ولا ناتاشا ، بل الشعور بالسعادة وحده قائماً . كان يكرر تساؤله لنفسه : «هل هذا ممكن ؟ كلا ، ذلك لايمكن ان يكون !» ويردد ذلك بعد كل نظرة وكل حركة وبعد كل كلمة من كلمات ناتاشا وكلها اشياء تطفح لها روحه من البهجة .

وفي لحظة الفراق ، اخذ يدها الدقيقة المهزولة واستبقاها في يده فترة ما بالرغم منه .

« هل يمكن ان تكون هذه اليد وهذا الوجه وهاتان العينان ، كل هذا الكنز من الجمال النسائي الغريب عني ، هل يمكن ان يصبح كل هذا ملكي الى الأبد ، ان يصبح لي مثل نفسي ؟ كلا هذا لايمكن ان يكون ! ... »

قالت له بصوت مرتفع :

ـ الى اللقاء يا كونت .

ثم اضافت بصوت خافت :

ـ سوف انتظرك بفارغ صبر .

ولقد كانت هذه الكلمات البسيطة والنظرة والتعبير اللذين رافقاها ، منبع ذكريات لاينضب بالنسبة الى بيير طوال شهرين ومبعث افتراضات واحلام سعيدة . « سوف انتظرك بفارغ صبر . . . » نعم ، نعم ، كيف قالت ذلك ؟ نعم « سأنتظرك بفارغ صبر » . آه كم انا سعيد ! ، كيف يمكن ان يكون ذلك ؟ كم انا سعيد ! »

ولم يفتأ بيير يردد ذلك .

* * *

الفَصْلُ العُشْرون

نفسية بيير

لم يكن يعتلج في نفس بيير في تلك الآونة شيء مماثل لما كان يحس به في مناسبات مماثله ، اثناء فترة خطوبته لهيلين .

لم يكن يكرر على نفسه كذلك العهد الكلمات التي فاه بها ، بخجل مرضي ولا يحدث نفسه قائلا: « آه ! لمَ لم اقل هذا ، لماذا ، لماذا قلت : احبك ? » اما الآن فعلى العكس ،كان يكرر في ذاكرته كل كلمة من كلماتها ، وكل كلمة من كلماته . وهو يرى بعين الخيال الامارات نفسها والابتسامة ذاتها ، دون ان يرغب في ابدال شيء واضافة شيء مهما كان نوعه . كان كل مايرغب فيه هو ترديدتلك الاقوال ايضاً . وايضاً لم يتساءل لحظة واحدةعما اذا كان مايشرع به سيئاً ام جيداً مع ذلك ، فان نوعاً من الرهبة كانيتسلطعليهاحياناً :«ولكن، اليس كل هذا اضغاث احلام ألم تخطىء الأميرة ماري ? الست شديد التيه بنفسي مفرط الثقة بها ? انني مطمئن . وفجأة يقع ما يجب ان يقع سوف تكلمها الأميرة ماري وعندئذ سوف تبتسم وتجيب : كم هذا غريب ! انه مخدوع بلا شك الا يعرف بأنه مجرد رجل ، لا اكثر من رجل ، في حين اني انا . . . شيء آخر مختلف كل الاختلاف ، انني مخلوق متفوق كل التفوق . »

كانت تلك الخشية وحدها تعذب بيير . ماكان يضع اي مشروع المستقبل اذ أن السعادة التي تنتظره كانت تبـدو بعيدة التصديق لدرجة كان يكفيه ان يراها تتحقق . وبعد ذلك ، لايمكن لأي شيء ان يكون موجوداً . سوف يتم كل شيء .

استحوذ على بيير خبل مفاجيء كان يعتقد انه عاجزاً عن مثله . كان كل معنى الحياة ، ليس بالنسبة اليه فقط بل بالنسبة الى العالم اجمع ، يتلخص في حبه وفي امكان ان يكون محبوباً منها. كان يخيل اليه احياناً ان الناس كلهم منشغلون بشيء واحد ، بسعادته المقبلة ، ويخيل اليه انهم جميعاً مبتهجون بقدر ما هو مبتهج ، لكنهم يتظاهرون باخفاء تلك الفرحه متظاهرين بأنهم منصرفون الى مصالحهم الاخرى . كان يرى في كل كلمة وفي كل حركة تلميحاً الى سعادته . وكان غالباً ما يفاجيء الذين يقابلونه بنظراته وابتساماته المعبرة طافحة بمشاركة سرية ومشعة بالسعادة لكنه عندما كان يلاحظ ان الاشخاص يمكن ان يكونوا جاهلين بسعادته ، كان يرثي لهم من كل نفسه ويشعر بالرغبة في افهامهم بان كل ما يشغلهم ليس الا تفاهة وبلادة لايستأهل عناء الالتفات اليه .

وعندما كانوا ينصحونه بالاضطلاع باعباء خدمة ما أو يصدرون في حضرته الحكم على مسألة ذات طابع عام تتعلق بالدولة او بالحرب ، ويزعمون ان هـذا الحل او ذاك هو الذي تتوقف عليه سعادة الجميع ، كان يصغي الى المحاضر وعلى شفتيه ابتسامة لطيفه مشفقة ويدهش الذين يتحدثون معه بغرابة ملاحظاته . لكن كل الذين كانوا يبدون له انهم فاهمون معنى الحياة الحقيقي أي شعوره هو ، مثل التعساء الذين بلا ريب ما كانوا يفهمونه ، كل هؤلاء كانوا يبدون له في هذه الحقبة من حياته تحت الضوء الساطع المنبعث من الشعور الذي يضيء روحه ، لذلك فانه يرى كأنه يري دون أي عناء في اول من يقع بصره عليه ، كل ما هو جيد وجدير بالحب .

فحص اوراق زوجته المتوفاة فلم يشعر لذكراها بأية عاطفة . كان يرثي لها فقط لأنها لم تتعرف على السعادة التي بات يتذوقها الآن . وبدا الأمير فاسيلي شديد الفخار بوسامه الجديد وبالمركز الجديد الذي حصل عليه ،بدا لعيني بيير عجوزاً يثير الشفقه والرثاء ، طيباً .

تذكر بيير غالباً فيما بعد هذه الفترة من الجنون السعيد . لقد ظلت الاحكام كلها التي اصدرها حينذاك على الناس والاشخاص عادلة في نظره لايتطرق اليها الشك . ولم يكتف بعدم التنكر فيما بعد لأية وجهة نظر ارتآها حينذاك ، بل كان على العكس،يهرع دائماً الى الفكرة التي تبناها خلال فترة جنونه كلما تطرق الى نفسه الشك العميق او التردد . وكانت تلك الفكرة تبدو دائما صحيحة .

كان يفكر : «لعلني بدوت حينذاك غريباً ومثيراً للضحك . لكنني مـــا كنت حينذاك مجنوناً بقدر مايظنون . لقد كنت على العكس،اكثر احساسا ونفاذ بصيرة مما لم اكنه قط . وكنت افهم كل مايجدر ان يفهم في الحياة لأنني كنت سعيداً .»

وكان بيير يقوم على اساس انه لم يعد،كسابق عهده ينتظر ان تكون لديه اسباب شخصية ليحب الناس على اساسها ، اسباب كان يدعوها ميزان اولئك الناس ، بل ان الحب كان يطفح من قلبه فكان يحب الناس دون سبب ويجـد اسباباً لاتقبل الجدال تدفعه الى محبتهم .

الفَصل الحادي وَالعشرُون

اعتراف ناتاشا

منذ ذلك المساء الذي قالت فيه ناتاشا بعد ذهاب بيير ، للأميرة ماري بابتسامتها المرحة الفكهة انه كان « تاماً ، حقاً تاماً كأنه خارج من الحمام ، بسترته الرسمية القصيرة وشعره المعنى به » ، منذ تلك اللحظة ، استيقظ في اعماق نفس ناتاشا شيء سري مجهول منها ولكن لا يمكن مقاومته . ولقد تبدل وجهها واختلفت اماراتها ونظرتها . انبعثت في نفسها قوة حيوية ما كانت تشتبه بوجودها وآمال في السعادة واخذت تطالب بنصيبها . ومنذ الليلة الاولى ، بدت ناتاشا وكأنها نسيت كل ما اجتازته منذ حين . لم تعد تشكو مرة واحدة في الأيام التالية من وضعها ولا تنوه ولو مرة واحدة بماضيها ولا تخشى ان تبيت المشاريع البهيجة للمستقبل . كانت قليلة الكلام عن بيير . ولكن عندما كانت الأميرة ماري تشير اليه ، كانت نار خمدت في نفسها منذ امد طويل تعود الى الاتقاد في عينيها وتنفرج شفتاها عن ابتسامة غريبة .

ولقد ادهش التبدل الذي طرأ على ناتاشا الأميرة ماري بادىء الأمر . ولما ادركت السبب ، احست بالكآبة . فكرت الأميرة ماري عندما لبثت وحدها تمعن النظر بذلك التحول : « اتراها كانت تحب اخي محبة سطحية حتى يتيسر لها

الآن ان تنساه بمثل هذه السهولة؟» لكنها عندمـا كانت تجتمع بناتاشا ، لم تكن تحقد عليها ولا توجه اليها أي لوم . كانت القوة الحيوية المستيقظة في نفس ناتاشا مستولية عليها بشكل لايقبل المقاومة حقاً ، شكل لم يكن متوقعاً من جانبها نفسها ، حتى أن الأميرة ماري اخذت تشعر في حضرتها بأنها لاتملك حق اتهامها حتى ولا سراً في اعماق نفسها .

اما ناتاشا ، فكانت مستسلمة الى انفعام كلي وإخلاص تام لشعورها الجديد حتى انها ماكانت تحاول اخفاء حلول المرح والابتهاج محل الكآبة والحزن .

وعندما مضت الأميرة ماري الى حجرتها بعد تفاهمها مع بيير، جاءت ناتاشا تستقبلها على العتبة .

سألتها بالحاح :

— هل تعلم ؟ نعم ؟ هل تعلم ؟

وارتسم على وجه ناتاشا تعبير مرح وألـــيم بنفس الوقت يسأل الصفح عن فرحتها .

— كنت اريد ان اصغي وراء الباب. لكنني كنت اعرف انك ستحدثينني بكل شيء .

ومهما بلغت النظرة التي شملت بها ناتاشا الاميرة ماري من امتناع عن الادراك عند هذه واثارة للعطف ، ومهما بلغ اشفاقها عليها لانفعالها وقلقها ، فان اقوال ناتاشا آلمتها بادىء الأمر . تذكرت اخاها وغرامه .

فكرت : « ولكن ماذا اعمل ؟ لايمكنها ان تكون غير ماهي عليه . »

وكررت على ناتاشا بلهجة حزنية فيها بعض الصرامة ، كل ماقاله بيير منذ حين . ولقد دهشت ناتاشا عندما علمت بأنه سيسافر الى بيترسبورج . رددت وكأنها لاتفهم المعنى :

ـ الى بيتر سبورج !

لكنها عندما لمحت تعبير الحزن الذي انطبع على وجه الأميرة ماري، خمنت السبب وفجأة انخرطت في البكاء .

قالت :

ـ ماري، قولي لي ماذا يجب ان اعمل: انني اخشى ان اكون رديئة سوف اعمل ماتشيرين عليّ بعمله ، أعلميني ...

ـ هل تحبينه ؟

فهمست ناتاشا :

ـ نعم .

قالت الأميرة ماري التي غفرت لناتاشا ابتهاجها بالنظر الى دموعها :

ـ واذن لماذا تبكين ؟ انني سعيدة من اجلك .

ـ لن يكون الأمر فوريا ، بل ، فيما بعد... فكري بالسعادة التي ستغمرنا عندما اصبح انا زوجته وتصبحين انت زوجة نيكولا .

ـ ناتاشا ، لقد سألتك من قبل ان لاتتحدثي عن هذا الأمر ان المسألة تتعلق بك الآن .

وصمتتا كلتاهما .

وفجأة استأنفت ناتاشا :

ولكن ، لماذا يسافر الى بيتر سبورج ؟

بيد انها سارعت تجيب نفسها على سؤالها قائلة :

ـ كلا ، كلا ، يجب ذلك . اليس كذلك ياماري ؟ يجب أن يسافر ...

الخاتمة

الجزء الأول

الفصل الأوّل

القادحون والمادحون

بعد سبع سنين عاد محيط التاريخ الصاخب الى شطآنه فبدا هادئاً . لكن القوى الخفية التي تحرك الانسانية ، خفية لاننا نجهل قوانين حركتها ، ظلت على حركتها .

وعلى الرغم من ان كل شيء بدا ساكناً على سطح هذا المحيط من التاريخ ، فان الانسانية ظلت مثابرة على حركتها الدائمة كسابق العهد ، فاتحدت جمهرات بشرية كثيرة او انفرط عقدها ونضجت اسباب جديدة لتشكيل حكومات وتجزئتها واعدت هجرات شعوب .

لم يعد محيط التاريخ يندفع كسابق عهده فجأة من شاطىء الى الشاطىء الآخر : لقد اخذ يغلي في الأعماق . ولم تعد الشخصيات التاريخية تجرف بالامواج من شاطىء الى آخر بل بدت الآن تدور في مكانها . فالشخصيات التاريخية التي كانت من قبل على رأس القطعات تعبر عن حركة الجماهير بأوامر حربية وحملات ومعارك ، باتت يبحث الآن عن التعبير عن تلك الحركة بترتيبات سياسية ودبلوماسية وقوانين ومعاهدات .

والمؤرخون يطلقون على هذا النشاط من جانب الشخصيات التاريخية اسم رد الفعل .

والمورخون بوصفهم نشاط الشخصيات التاريخية الذي هو سبب مايسمونه (رد فعل) على حدزعمهم ، انما يحكمون على تلك الشخصيات . وكل الاشخاص المعروفين في ذلك العصر من الكسندر ونابوليون ومدام دوستال وفوسيوس[1] وشيلنج[2] وفيخته[3] وشاتوبريان[4] ، وآخرين ، كانوا يمثلون امام محكمتهم الصارمة ، فيبرأون او يحكم عليهم تبعاً لمساهمتهم في التطور او في رد الفعل .

وتبعاً للمؤرخين ، كان هناك رد فعل يتبدى في روسيا نفسها في ذلك العهد وكان المسؤول الاول عن ذلك هو الكسندر الاول ما هذا نفسه الذي كان دائماً ، تبعاً لهم ، المحرض الرئيسي للمبادهات المتحررة المتعلقة ببدء حكمه وبخلاص روسيا .

واليوم، في الادب الروسي، ابتداء من الطالب العادي وحتي اوسع المؤرخين

---

(١) فوسيوس ، بطريرك القسطنطينية عام ٨٥٨ وكاتب بيزانتي وسياسي طموح جريء اثار عام ٨٦٣ انفصال الروم الأكبر عن الكنيسة . ولد عام ٨٢٠ وتوفي في المنفى عام ٨٩١ .

(٢) فردريك غليوم جوزيف شيلنج ، فيلسوف الماني ولد في ليونبيرج عام ١٧٧٥ وتوفي عام ١٨٥٤ ، مؤلف طريقة للمثالية الباطنية .

(٣) جان جوتايب فيختية ، فيلسوف الماني ولد في رامونو عام ١٧٦٢ وتوفي عام ١٨١٤ ، كان تلميذاً للفيلسوف « كانت » واستاذاً لشيلنج . سبق البحث عن فلسفته .

(٤) الفيكونت فرانسوا رونيه دوشاتوبريان ، كاتب فرنسي ولد في سان مالو عام ١٧٦٨ وتوفي عام ١٨٤٨ ، سافر الى امريكا وعاد الى وطنه ابان الثورة ثم هاجر عام ١٧٩٢ ليعيش في انجلترا فلم يعد منها الا عام ١٨٠٠ سبق التحدث عنه .

علماً ، ليس هناك رجل لا يلقي اللوم على الكسندر الاول بسبب الاخطاء التي ارتكبت في تلك الفترة من عهده .

« كان عليه ان يتصرف على هـذا النحو او ذاك . في هـذه المناسبة احسن التصرف وفي تلك اساء . لقد تصرف تصرفاً رائعاً في بدء عهده وفي عام ١٨١٢ لكنه اساء اذ منح بولونيا دستوراً واقام الحلف المقدس وأعطى لأراكتشييف ملء السلطان وأيد جوليتسين ومذهب التصرف ثم بتشجيعه شيشكوف وفوسيوس . لقد اساء صنعاً اذ اهتم بالتدريبات العسكرية وحل فيلق سيميونوفسكي » الخ ...

ويقتضي لتعداد المظالم التي احاطه المؤرخون بها باسم علم سعادة البشرية هذا الذين يزعمون امتلاك ناصيته ، صفحات وصفحات .

مامعنى تلك المظالم ؟

ألم تنجم التصرفات التي يؤيد المؤرخون الكسندر الاول فيها،واعني مذهب التحرر عند بـدء حكمه ونضاله ضـد نابوليون والثبات الذي اظهره طيلة عام ١٨١٢ ثم حمله ١٨١٣ عن المصادر اياها الذي صدرت عنها التصرفات التي يذمونها مثل الحلف المقدس واعادة الملكية الى بولونيا ورد فعل عام ١٨٢٠ ؟ وهـذه المصادرة هي التركة ،الثقافه ،شروط الكينونة،التي جعلت من شخصية الكسندر الاول على ما كانت عليه .

وعلى أي اساس تقوم تلك المظالم على وجه الدقة ؟

على الاساس التالي : شخصية تاريخيه من وزن الكسندر الاول،موضوعة على رأس السلطة البشرية ،وبمعنى آخر ، في المركز الباهر الضوئي الذي تتركز فيه كل الاشعاعات التاريخية ، شخصية خاضعة لأقوى تأثيرات العالم ، تلك التأثيرات التي لاتنفصل عن سلطة الحكم :دسائس كذب،اطراء ، اعماء عن الذات شخصية يشعر صاحبها في كل لحظة بمسؤوليته عن كل مايدور في اوربا، شخصية

غير خيالية ولكن حقيقة حية تشبه اي انسان آخر بعاداته الخاصة واهوائه وميوله نحو الخير والجمال والصدق ، هذه الشخصية اخطأت منذ خمسين عاماً ، ليس لأنها كانت محرومة من الفضيلة .

وذم المؤرخين لاينصب على هذه الناحية - ، بل لأنه كان لها رأي آخر حول سعادة الانسانية ، يختلف عن رأي استاذ اليوم الذي نصرف الى العلم منذ حداثته والذي يستودع في دفتر ما قراءات ومحاضرات .

ولكن اذا فرضنا جدلاً أن الكسندر الأول قد اخطأ منذ خمسين عاماً في وجهات نظره حول سعادة الشعوب ، فاننا بالتالي نستطيع ان نفرض كذلك ان المؤرخ الذي يحكم عليه سيبدو ، خلال زمن مـا ، مخطئاً في وجهات نظره حول سعادة الانسانية هذه بالذات. وهذا الفرض طبيعي لامراء منه بقدر ما اذا تتبعنا تطور التاريخ ، نجد ان وجهة النظر حول السعادة البشرية تختلف عاماً بعد عام ومن مؤرخ الى آخر لدرجة ان ما بدا لأول وهلة خيراً يصبح بعد عشرة اعوام شرا ، والعكس بالعكس. بل اننا نجد اكثر من ذلك ، ارآء في التاريخ نشرت في آن واحد ، متناقضة كل التناقض حول مدلول الخير والشر. فبعضهم يطرون الكسندر الأول بسبب الدستور الـذي منحه لبولونيا ولعقده الحلف المقدس وآخرون يعتبرون هذه التدابير جريمة .

لايمكن القول عن نشاط الكسندر الاول ولا عن نشاط نابوليون انه كان ضاراً او نافعاً اذا تعذر بيان كيف كان ، فاذا كان ، ذلك النشاط لايروق لهذا او ذاك ، فلأنه لايتفق فقط والمعرفة المحدودة التي اتخذها عن طبيعة الخير . واذا كان الخير بالنسبة الى بقاء بيت ابي في موسكو سليما عام ١٨١٢ ، او ظفر الجيوش الروسية او ازدهار جامعة بيترسبورج أو اي مركز علمي آخر ، او حرية بولونيا او قوة روسيا او ذلك الشكل من الحضارة الاوربية المعروف تحت اسم تطور

فانني بنفس الوقت مرغم على الاعتراف بان نشاط كل شخصية تاريخية استهدف باستثناء هذه الاهداف ، غايات اخري ذات طابع أعم يفوق حد مفاهيمي .

ولكن لنفترض ان مايسمونه العلم حاصل على قدرة تحويل كل المتناقضات مالك لوسيلة لاتخطىء لقياس الخير والشر سواء بالنسبة الى الشخصيات التاريخية او الى الاحداث .

لنفترض ان الكسندر كان قادراً على التصرف في كل ظرف خلافاً لما عمل لنفترض انه كان قادراً ، تبعاً لارشادات اولئك الذين يتهمونه والذين يزعمون معرفتهم بالهدف النهائي الذي تتوق الانسانية اليه ، لنفترض انه كان قادراً على اتباع منهاج المصلحة القومية والحرية والمساواة والتطور (وليس هناك شيء اكثر جدة من هذا على ما يبدو) الذي يضعه له مشنعوه اليوم . ولنفترض ان هذا البرنامج كان ممكن التطبيق ، جيد الاعداد وان الكسندر الاول سار عليه ، ماذا كان يحدث لنشاط الاشخاص كلهم الذين كانوا يعارضون حينذاك التوجيه المتخذ من قبل الحكومه وهو النشاط الذي ، تبعاً لاراء المؤرخين ، كان نافعاً وخيراً؟ ما كان ذلك النشاط ليكون وما كانت الحياة لتكون وما كان ليحدث اي شيء .

فافتراض ان حياة الانسانية يمكن ان تسير بواسطة العقل انما هو نكران كل امكانية للحياة .

الفصل الثاني

عاملا الصدفة والعبقرية

الافتراض، كما ينهج المؤرخون ، ان الرجال العظام يقودون الانسانية نحو تحقيق الاهداف المعروفة ،سواء اكانت عظمة روسيا او عظمة فرنسا اوالتوازن الاوربي او التطور العالمي أو اي هـدف آخر ، يجعل تفسير احداث التاريخ مستحيلا دون اللجوء الى مدارك « الصدفة »و «العبقرية» .

واذا كانت غاية الحروب الاوربية في غرة قرننا عظمة روسيا ، فان هذا الهدف كان قابل البلوغ دون اية من الحروب التى سبقت الغزو ودون الغزو نفسه .ولو كانت الغاية هي عظمة فرنسا،فانها كان يمكن ادراكها بدون الثورة والملكية . ولو كان الهدف نشر بعض الافكار ، فان المطبعة كانت قادرة على القيام به افضل بكثير مما قدر الجنود . ولو كانت الغاية تطور المدنية ، فان بالامكان التقبل دون اي صعوبة بان هناك من الوسائل الناجعة لنشر المدنية افضل بكثير من افناء الرجال وثرواتهم .

فلماذا اذن وقعت الامور على هـــذا النحو وليس على نهج آخر ؟ لأنها وقعت كذلك .

« فالصدفة » خلقت الموقف الفلاني : فاستخدمته « العبقرية ».هذا مايقوله التاريخ . ولكن ماهي الصدفة ؟ ماهي العبقرية ؟

ان كلمتي : صدفه وعبقرية ، لاتعنيان شيئاً ما موجوداً ، لذلك لايمكن تحديدهما؟ان هاتين الكلمتين لاتعنيان الا درجة محدودة في مضمار فهم المظاهرات فانا لا ادري لماذا حدثت هذه الظاهرة اوتلك وأفكر بأنني لاأستطيع دراية السبب وبالتالي لا استطيع ادراكه فأقول : صدفه واري قوة تحدث اثراً فوق النسبة المتفقة مع امكانيات الانسان الشائعة فلا ادرك سبب هـذا الحدث واقول : عبقرية .

وبالنسبة الى قطيع ، يجب ان يكون الخروف الذي يقوده الراعي كل مساء الى مزرب خاص ليعلف على حده ، والذي يصبح بالتالي ضعف حجم الآخرين ، يجب ان يكون هـذا الخروف عبقريا . إما واقع ان هذا الخروف نفسه الذي بـدلا من ان يمضي كل مساء الى الحظيرة ، يقاد الى زريبة خاصة ليتلقى علفه خاصة وواقع ان هذا الخروف بالذات عندما يصبح سميناً شحماً يذبح من اجل لحمه ، هذه الواقعة يجب ان تبدو على صورة مقارنة مدهشة للعبقرية واسلسلة من الصدف الخارقة .

ولكن يكفي للخراف ان تكف عن التفكير في ان ما يقع لهـا ناجم عن واقع وجوب بلوغهم اهدافاً مختارة لفصيلة الخراف ،يكفيها ان تتقبل ان لكل ذلك غاية مجهولة منها وحينئذ ستري وحدة وتسلسلاً منطقياً في مايقع لأحدهما بعد تسمينه . واذا ما كانت تعرف السبب الذي من اجـله علف الخروف على حده ، فانها ستعرف على الاقل ان كل ماوقع لم يحدث دون سبب وحينئذلن يعود بها حاجة الى اللجوء الى الصدفه والعبقرية .

ولن نرى تسلسلاً منطقياً في حياة الشخصيات التاريخية الا اذا تخلينا عن محاولة معرفة الهدف القريب المفهوم واعترفنا بان الغاية النهائية مجهولة منا حينئذ فقط نكتشف سبب التفاوت الكائن بين تصرفاتها واستعداد النشاط الشائع عند

كل البشر ، ولن تعود بنا حاجة الى كلمتي : صدفه وعبقرية .

يكفي ان نفترض بأن غاية هياج شعوب اوربا مجهولة منا واننا لانعرف الا الوقائع القائمة على شكل مجازر في فرنسا اولاً ثم في ايطاليا وافريقيا وبروسيا والنمسا واسبانيا وروسيا ، وان حركة الغرب نحو الشرق والشرق نحو الغرب تشكل جوهر الاحداث وغايتها ، وحينئذ لاتعود بنا حاجة الى رؤية شيء ما على لون من العبقرية او الاستثناء فحسب في طبيعة نابوليون والكسندر ، بل اننا لن نعود في حاجة كذلك الى تصور هذين الرجلين على شكل يختلف عن بقية الرجال . ولا تعود بنا حاجة الى اللجوء الى الصدفة لتفسير انفه الاحداث التي جعلت من هذين الرجلين ما كانا عليه فحسب ، بل نرى كذلك بوضوح ان كل تلك الحوادث التافهة كانت ضرورة لازمة .

فاذا عزفنا عن الاعتراف بالهدف النهائي ، فهمنا بجلاء انه كما لايمكن ان نتصور لنبتة ما لوناً او بذاراً افضل لطبيعتها من اللون والبذار اللذين تنتجهما ، كذلك يستحيل علينا ان نتصور رجلين آخرين بماض كامل ، يستطيعان ان يجيبا بكل هذه الدقة وحتى في ادق التفاصيل على المهمة التي كان عليها الاضطلاع بها .

* * *

الفصل الثالث

نابوليون بايجاز

ان المعنى العميق للأحداث الاوربية في بداية القرن التاسع عشر يكمن في حركة الجماهير الشعبية الاوربية الحربية، جماهير الغرب نحو الشرق ثم الشرق نحو الغرب. ان حركة الغرب نحو الشرق كانت الاولى. ولكي يصبح ممكناً للشعوب الغربية ان تدفع تقدمها الحربي حتى موسكو، كان لزاماً: ١ً - ان تتحد في كتلة حربية على امتداد كبير حتى تصبح قادرة على تحمل صدمة الكتلة الشرقية المحاربة؛ ٢ً - ان تتنكر لكل تقاليدها ولكل عاداتها؛ ٣ً - انه لكي يبلغ هجومها الغاية، وجب ان يكون على رأسها رجل يستطيع ان يبرر لنفسه ولها المداجاة والسلب والمذابح التي لابد من وقوعها والتي رافقت الحركة.

اولا، التجمهر القديم للقوات قليل الاهمية انحل في فرنسا بفعل الثورة وابيدت التقاليد والعادات القديمة وقام تجمهر جديد تدريجياً على نطاق اوسع وبعادات جديدة وتقاليد جديده وعندئذ تجهز الرجل الذي يجب ان يقوم على رأس الحركة المقبلة ويحمل كل مسؤولية الاحداث التي يجب ان تتم.

وهذا الرجل، عديم البراهين عديم الماضي والتقاليد، المحروم من الاسم بل وغير الفرنسي ايضاً، يتسلل بمساعدة اكثر الظروف غرابة على مايبدو بين كل

احزاب فرنسا وهي في حالة العليان وحمل نفسه الى الصف الأول دون ان يرتبط بحزب منها .

وجهالة مرافقيه وضعف اخصامه وتفاهتهم ، وقلة الحياء وضيق فكر هـذا الرجــل اللامع المغرور وصنعته كلها على رأس الجيش . وقيمة جنود الجيش الايطالي ونفور خصومه من القتال واستهتاره وزهوه الصبيانيين عادت عليه بالمجد العسكري . ان عدداً لايحصى من « الصدف » تواكبه دائماً . ففقد الحظوة التي نزلت به من جانب المديرين الفرنسيين خدمته والمحاولات التي شرع فيها لتبديل اتجاهه لا تنجح اذ يرفض عرضه الخدمة في روسيا ولا يتوصل الى الاستقرار في تركيا . واثناء الحرب الايطالية ، يصبح مرتين قاب قوسين او ادنى من نهايته وفي كل مرة يفلت بطريقة غير منتظرة . والجيوش الروسية الوحيدة القادرة على تهديم مجده لا تتقدم في اوربا بنتيجة تدابير دبلوماسية مختلفة مازال هو فيها .

وعند عودته من ايطاليا الى باريز وجد الحكومة في حالة من التفسخ جعلت المساهمين فيها عرضة للتبدد والفناء بشكل لا مناص معه . فتعرض وسيلة من تلقاء نفسها لانقاذه من موقفه الخطير : بعثة غـير مصيبة ، منافية الى افريقيا . ومن جديد تعود « الصدف » نفسها الى مواكبته . فمالطة ، المشهورة بامتناعها تستسلم له دون ان تطلق رصاصة واحدة ، والقرارات الأكثر عرضة للخطر تكال بالنجاح . فالاسطول العدو الذي لايدع بالتالي زورقاً واحداً يمر ، يوسع المجال لمرور جيش كامل . وفي افريقيا ارتكبت اسوأ الشناعات ضد شعب شبه اعزل تقريباً ، فيجد فاعلوا هذه المساوىء ورئيسهم على رأسهم ، كل هذا رائعاً وانه جدير بقيصر وبالاسكندر المقدوني ، وانه خير .

وهــذا المثل الاعلى من المجد والعظمة الذي لايقوم فقط على الظن بانهم لايأتون منكراً ، بل كذلك على الافتخار بكل هذه الجرائم التي يرتكبونها بعز

نابوليون يبعث رسالة

وتفسير لها غير مفهوم وفوق طبيعي ، هذا المثل الاعلى الذي وجب ان يسوس هذا الرجل ككل المتصلين بمصيره ، نضج في الرقعة الافريقية المتسعة ، اذ ان كل ماشرع به هناك اصاب النجاح . وتنكبه الطاعون. ولم ينسب اليه أي جرم عن تقتيل الأسرى الوحشي. ومغادرته افريقيا بخرق صبياني لا معنى له وهجران مرافقيه في البؤس عاد عليه بالنفع ومن جديد ترك له الاسطول العدو مجال الافلات للمرة الثانية وفي تلك الاثناء ، عندما كان رأسه ثملا بنجاح كل جرائمه وصل الى باريز وهو على استعداد ليلعب دوره ولكن دون ان تكون له غاية محددة وتفسخ الحكومة الجمهورية الذي كان منذ عام مضى يمكن ان يسبب ضياعه ، كان قد بلغ مرحلته النهائية ، فلم تكن صنعته ، صنعة البعد عن كل الاحزاب ، الا لتبرز ميزته وتخدم علوه .

ليس لديفاية خطة للعمل وهو خائف من كل شيء . لكن الاحزاب تسعى الى التعلق به وتطالب بمعاونته .

فهو وحده ، بالمثل الاعلى من المجد والعظمة الذي خلقه لنفسه في ايطاليا وافريقيا ومصر ، وبعبادته المجنونة لذاته وجرأته في مضمار الجريمة ووقاحته ، هو وحده يستطيع ان يقرر الاحداث التي يجب ان تتم .

انه الرجل الملازم للمكان الذي ينتظره . وهكذا، بشكل خارج عن ارادته تقريباً ، رغم قلة حزمه وافتقاره للبرنامج وكل الاخطاء التي يكدسها ، جر في مؤامرة تهدف الى رفعه الى سدة الحكم ونجحت هذه المؤامرة .

وجروه الى جلسة من جلسات حكومة المديرين ، فذعر وحاول ان يفر ظناً منه انه ضائع ، وتظاهر بالغشيان والقى خطباً منافية كانت كافية للقضاء عليه . لكن المديرين الفخورين حتى ذلك الحين الفطينين ، شعروا الآن بان دورهم قد انتهى ، ففاهوا هم كذلك ، وهم اشد جزعاً منه ، بكلمات هي اقل ما يصلح لحفظ السلطان لهم وجر الخراب على هذا الرجل .

انها « الصدفه » ، انها ملايين « الصدف » التي سلمت اليه السلطان وراح كل الناس ، وكأنهم خاضعون لكلمة سر واحدة ، يساهمون في تدعيم هذا السلطان انها « الصدف » التي كونت شخصيات مديري فرنسا حينذاك ، انها الصدف التي كونت شخصية بول [1] الأول الذي اعترف بسلطانه وهي الصدفة التي دبرت ضده مكيدة دمرت سلطانه بدلا من ان تودي به . وهي الصدفة التي سلمته الدوق دانجيان [2] ودفعته الى العمل على قتله غيلة ، ساعياً عن هذا السبيل الأقوى من كل السبل الأخرى ، الى اقناع الجمهور بان له الحق طالما بيده القوة . وهي « الصدفة » التي جعلته يوجه كل قواه للقيام بحملة ضد انجلترا كانت ولا ريب ستسبب دماره الكامل ، فلا يحقق هذه الغاية ابداً لكنه يقع فجأة على ماك [3] وجماعته النمساويين الذين يستسلمون دون قتال وهي « الصدفة » و « العبقرية » اللتين منحتاه النصر في اوسترليتز ومن قبيل « الصدفة » كذلك ، ان كل الرجال ليس رجال فرنسا فحسب ، بل رجال اوربا كلها باستثناء انجلترا التي لم تساهم ابداً في أي من الاحداث الجارية ، كل الرجال رغم هولهم الأصلي وحقدهم على جرائم هذا الرجل ، يعترفون الآن بسلطانه وباللقب الذي منحه لنفسه وبمثله الاعلى عن العظمة والمجد الذي يتبارى كل منهم الى اعتباره شيئاً ما رائعاً ومعقولاً .

---

(١) بول الأول ، امبراطور روسيا ، ابن كاترين الثانية ، ولد في بيترسبورج عام ١٧٥٤ واعتلى العرش عام ١٧٩٦ ثم اغتيل في مؤامرة بالبلاط عام ١٨٠١

(٢) الدوق دانجيان ، ابن لويس هنري جوزيف دوق دو كونديه ، ولد في شانتللي عام ١٧٧٢ واختطف بناء على امر بونا بارت من الاراضي الالمانية وحمل الى باريز حيث اعدم رمياً بالرصاص في فانسين عام ١٨٠٤

(٣) شارل ماك ، جنرال نمساوي ولد عام ١٧٥٢ وتوفي عام ١٨٢٨ ، استسلم لنابوليون ــ كما سبق القول ــ في اولم مع ثلاثين الف رجل دون قتال .

وكأن القوات الغربية ارادت ان تجرب سلفاً حركتها المقبلة فاتجهت مرات عديدة نحو الشرق في اعوام ١٨٠٥ و ١٨٠٦ و ١٨٠٧ و ١٨٠٩ وكل مرة بأكثر قوة وأوفر عدد . وفي عام ١٨١١ ، ذابت الكتلة من الرجال المتكتلة في كتلة اخرى هائلة من شعوب وسط اوربا . وكلما ازدادت هذه الكتلة ضخامة وقوة ، ازداد تبرير تصرف الرجل القائم على رأس الحركة . وخلال حقبة العشر سنوات التى اعدت هذه الحركة ، دخل هذا الرجل في مفاوضات مع كل الرؤوس المتوجة في اوربا . وسلطات هذا العالم المسلوبة من سلطانها ، لايمكن ان تتعرض على مثل نابوليون الاعلى بالعظمة والمجد ، ذلك المثل الاعلى الخالي من اي معنى ، بأي مثل اعلى آخر معقول .

فراحت الواحدة تلو الاخرى ، تتهافت على تقديم مشهد تفاهتها اليه . فملك بروسيا يرسل زوجته لاستجداء التفاتات الرجل العظيم ، وامبراطور النمسا يعتبر نعمة ان يتفضل هذا الرجل العظيم باستقبال ابنة القياصرة في سريره ، والبابا ، حارس كنوز الشعوب المقدسة يسخر دينه لرفعة الرجل العظيم . ان نابوليون بالذات لم يعد نفسه لاشغال دوره بقدر ما جرفه من حوله والجأه الى احتمال كل مسؤولية الاحداث الحاضرة والمقبلة على عاتقه . انه لم يرتكب غشاً او جرماً او خيانة وضيعة الا وانقلبت في فم من حوله الى عمل رائع . لم يجد الألمان لارضائه خيراً من الاحتفال بهزيمتهم في ايينا واويرستادت ثم انه ليس وحده العظيم ، بل اسلافه واخوانه وابناء زوجته واصهاره واخوان زوجاتهم كلهم عظماء كذلك فكل شيء يساهم في حرمانه من آخر اثار تعقله واعداده لدوره المريع . ولما أعد ، كانت القوى التي اعدته جاهزة كذلك .

نشر الغزو قلوعه باتجاه الشرق فبلغ هدفه النهائي الذي هو موسكو . وأخذت العاصمة وأبيد الجيش الروسي ابادة لم يقو مثلها على جيوش الاعداء في الحروب

السالفة من اوسترليتز الى واجرام . وفجأة بدلا من هذه « الصدف » ونوبات « العبقرية » التي حملت نابوليون بكثير من الاستمرار من ظفر الى ظفر حتى الهدف المحدد ظهرت سلسلة لاتحصى من «الصدف» العكسية ، ابتداء من حالة الزكام في بورودينو وحتى برد الشتاء القارس والشرارة التي اشعلت النار في موسكو . وبدلاً من العبقرية ، ظهر غباء ونذالة لامثيل لهما .

الغزو يتقهقر ويعود الى الوراء ويفر من جديد والآن ، ودون توقف ، اصبحت الصدف ضد نابوليون بدلا من ان تكون معه .

وقامت حركة عكسية من الشرق نحو الغرب تمثل مجانسات مرموقة مع السابقة ، حركة الغرب نحو الشرق . نفس المحاولات الأولية للشرق ضد الغرب كما في اعوام ١٨٠٥و١٨٠٦ و١٨٠٩ قبل التزعزع الاكبر : نفس تركيز الرجال الهائل واشتراك شعوب وسط اوربا نفسه في الحركة والتردد في منتصف الطريق نفسه ومضاعفة السرعة نفسها كلما ازداد القرب من الهدف .

وبلغت الغاية الأخيرة ، باريز ، فدمرت حكومة نابوليون كما دمر جيشه فلم يعد لنابوليون نفسه سبب للوجود ، فكل تصرفاته باتت منذ ذلك الحين منحطة تستدر الشفقه . لكن صدفة جديدة لايمكن تفسيرها ، تتدخل في الأمر من جديد . ان الحلفاء يكرهون نابوليون الذي يتهمونه بانه سبب تعاساتهم . فلما جرد من قوته وسلطانه وثبتت عليه جرائمه وغدره كان يجب أن يظهر لهم كما كانوا يرونه منذ عشرة اعوام خلت وكما رأوه بعد عام آخر : مجرماً خارجاً عن القانون . لكن ما من احد ، بصدفة غريبة ، ، رأى ذلك . ان دوره لم ينته بعد فالرجل الذي قبل عشرة اعوام مضت وعام قدم اعتبر مجرماً خارجاً عن القانون ، ارسل الى مسافة سفر يومين عن فرنسا ، في جزيرة منح فيها السيادة المطلقة ، مع حرس وملايين . الله يعلم في اي شيء نفعته .

الفصل الرابع

علاقة وليس غاية

بدأت حركة الشعوب تتعقل في شواطئها وانحسرت موجات المد الكبير واخذت الحلقات تتشكل على صفحة البحر الهادىء ، طفا فوقها الدبلوماسيون الذين كانوا يتصورون انهم هم الذين جاؤوا بهذا الهدوء .

لكن البحر الهادىء ماج فلم يلبث الدبلوماسيون ان ظنوا انهم هم ، باختلافاتهم سببوا هذا التوتر الجديد من القوى ، وتوقعوا حرباً بين ملوكهم وبدى لهم الموقف لا مخرج له . لكن الموجة التي شعروا بارتفاعها لم تنتشر من حيث توقعوا انها دائماً الموجة اياها ، نقطة الانطلاق نفسها ، باريز . انها آخر تفجر للمد المتدفق من الغرب ، تفجر عليه ان يحل المصاعب الدبلوماسية ذات الطابع الممتنع عن الحل ووضع حد للحركات الحربية في ذلك العهد .

عاد الرجل الذي دمر فرنسا الى فرنسا هذه ، وحيداً ، دون ان يكون في حاجه الى مؤامرة ودون جنود ، يستطيع أي حارس غابة ان يطبق على عنقه . ولكن ، بصدفة غريبة ، لا يطبق احد على عنقه فحسب ، بل انهم جميعاً يهرعون لاستقبال هذا الرجل الذي كانوا يلعنونه بالامس ، والذي سيلعنونه بعد شهر ، استقبالا حماسياً .

لازال هذا الرجل ضروريا لتبرير آخر حركة جماعية .

ولقد انجزت هذه الحركة .

لعب الدور الأخير وطلب الى الممثل ان يخلع ثوبه وينزع ما على وجهه من مساحيق اذ لم تعد بهم حاجة اليه .

وتمضي بضع سنين ، يلعب هذا الرجل خلالها ، في وحدة جزيرته، مسرحية مضحكة مثيرة للعطف ، فيدس ويكذب ليبرر اعماله حيث لا نفع في أي تبرير ويظهر للعالم اجمع قيمة ما كانوا يعتبرونه قوة في حين ان يداً خفية كانت تقوده

وبعد ان تأدى الدور ، وخلع الممثل ثيابه ، اخذ المخرج يرينا الممثل .

ـ انظروا الى الذي آمنتم به ! ها هو ذا ! هل رأيتم الآن انه ليس هو الذي كان يوجهكم بل انا ؟

لكن الرجال الذين اعمتهم القوة التي جعلتهم يتماوجون ظلوا طويلاً لا يفهمون ذلك .

والمنطق والضرورة اللذين يمثلان حياةالكسندر الاول، الشخصية التي كانت على رأس الحركة في الاتجاه المعاكس ، من الشرق الى الغرب ، كانا اعظم من ذلك .

ماذا كان يجب للرجل الذي سيتخذ مكاناً على رأس هذه الحركة كاسفاً الآخرين ؟

كان عليه ان يمتلك شعور الحق ويساهم في مشاكل اوربا ولكن عن بعد ، كي لا تعكر المصالح الدنيئة رؤيته . كان عليه ان يطغى بعظمته الخلقية على شركائه ، ملوك ذلك الزمان، وان يكون صائراً على شخصية فتانة محبوبة، وعليه كذلك ان يكون قد تلقى من قبل اهانة شخصية من نابوليون. ولقد اجتمعت هذه الشروط كلها في الكسندر الاول ، وكل ذلك ، ثمرة « لصدف » لا تكاد

تمحص ، غرست على طول حياتـه الماضية ، وفي ثقافته وميوله المتحررة وفي المستشارين من حوله وعن طريق اوستر ليتز وتيلسيت وايرفورت .

ظل عاطلا عن النشاط خلال الحرب الشعبية لأن الحاجة لم تكن تدعو اليه ولكن ما كادت ضرورة حرب اوربية تبدو ، حتى ظهرت شخصية في مكانها في اللحظة المناسبة ، فجمع شتات الشعوب الاوربية كلها وقادها الى الهدف .

بلغ الهدف ووجد الكسندر نفسه بعد حرب ١٨١٥ الأخيرة في أوج القوة الذي يمكن لانسان ان يبلغه . فبأي شكل استغله ؟

الكسندر الاول ، معيد السلم الى اوربا ، الرجل الذي يبحث منذ نعومة اظفاره الا عن سعادة شعبه ، المحرض على التشكيلات التحريرية التي ادخلت الى وطنه في اللحظة التي ، على مايبدو ، كان يملك اوسع سلطة وبالتالي ، الوسائل لتحقيق سعادة شعبه ، في اللحظة التي شرع نابوليون في منفاه يضع الخطط الصبيانية المخادعة حول الطريقة التي سيجعل العالم سعيداً بها لو ترك له مجال العمل ، في هذه اللحظة بالذات ، بعـد ان انهى الكسندر الاول مهمته وشعر بيـد الله عليه ، اعترف بالعدم فجأة ، عدم تلك السلطة المزعومة ، فاسلمها الى ايـدي اشخاص محتقرين يستحقون الاحتقار وقال ببساطة :

— « كلا ، ليس لأجلنا ، مولانا ، ليس من اجلنا ، ولكن من اجل اسمك ! » اني رجل مثلكم فدعوني اعيش كرجل ، دعوني افكر في روحي وبالله .

وكما أن الشمس ، ككل ذرة من الاثير ، كرة كامـلة في نفسها وبنفس الوقت ذرة واحدة في اللامتناهي الذي لايمكن للانسان بلوغه في اقصى سعته ، كذلك يحمل كل شخص في نفسه اهدافاً خاصة به ، مع ذلك ، فانه يحملها لخدمة اغراض عامة لايطولها الانسان .

لقد لسعت نحلة وقفت على زهرة ، طفلاً . والطفل يخاف النحل ويقول ان

غايته لسع الناس . والشاعر يتأمل النحلة التي تمتص ما في كم الزهرة ويقول ان غايتها امتصاص اريج الزهور . ومربي النحل عندما يلاحظ ان النحلة تجمع غبار الطلع وتحمله الى الخلية ، يقول ان غاية النحلة هي انتاج العسل له . ومرب آخر درس حياة الثول بأكثر تعمق يقول ان النحلة تجمع غبار الطلع لتغذي الفقس الصغير ولكي تربي الملكة ، وان غايتها هي المحافظة على النوع . وعالم النبات يرى ان النحلة تحمل غبار اللقاح من الزهرة ثنائية المسكن الى الزهرة الانثى فتلقحها ويرى ان غاية النحل تنحصر في هذا العمل . وآخر يهتم بانتشار النبت ، يرى أن النحلة تساهم فيه فيستنتج هذا البحاثة ان غاية النحل هي هذه . في حين ان غاية النحل الاساسية لاتقتصر على الاولى ولا على الثانية او الثالثة من الغايات التي استطاع الفكر البشري اكتشافها . وكلما ارتقى الفكر البشري في اكتشاف هذه الغايات ، ازداد ادراكه بوضوح كافي ان الغاية الكامنة وراءها لا يمكن بلوغها .

ان شيئاً واحداً ميسور للانسان : ملاحظة الارتباطات الكامنة بين حياة النحل وظاهرات الحياة الأخرى . وهذا هو الحال بالنسبة الى الشخصيات التاريخية والشعوب والغايات التي يسعون اليها .

الفصل الخامس

ارث الكونت

كان زواج ناتاشا وبيزوخوف الذى تم عام ١٨١٣ آخر حدث سعيد وقع للأسرة العجوز ، أسرة روستوف . لقد مات الكونت ايليا اندريئيفيتش ذلك العام ، وكما يحدث دائما ، ادى ذلك الموت الى تجزؤ الاسرة .

لقد ابهظت احداث السنة الفائتة ، حريق موسكو وفرار آل روستوف من المدينة وموت الأمير آندريه ويأس ناتاشا وموت بيتيا وألم الكونتيس، كل هذا ابهظ الكونت العجوز . ما كان يفهم على مايبدو ولا يحس بقوة لفهم معنى كل هذه الاحداث فكان، يطأطىء رأسه العجوز معنويا وكأنه يتوقع او يلتمس الضربة التي ستجهز عليه : كانوا يرونه تارة مروعاً ومرتبكاً وتارة ممتلئاً بحماس ونشاط مصطنعين .

ولقد شغله زواج ناتاشا بعض الوقت من جانبه الظاهري . أعد الحفلات والولائم وعمل جاهداً ليظهر مرحاً . لكن مرحه ، بدلا من ان يكون ساريا كعادته ، ما كان يوقظ الا الاشفاق في نفوس الذين كانوا يعرفونه ويحبونه .

ولقد هدأ بعد رحيل بيير وزوجته وبدأ يشكو آلامه فلم يلبث ان سقط مريضاً ولازم الفراش . ولقد فهم منذ أيام مرضه الاولى ، رغم تأكيدات

الاطباء ، انـه لن يبلى منه . وامضت الكونتيس اسبوعين كاملين امام سريره دون ان تخلع ثيابها . وكلما جرعته الدواء ، كان يقبل يدها ويبكي دون ان ينطق بكلمة . وفي اليوم الآخر ، سأل زوجته وابنه الغائب الصفح وهو يجهش على تبذيره ثروته ، وهي الخطيئة الرئيسية التي شعر بنفسه مذنباً لارتكابها . وبعد ان تناول وتلقى المسحة الأخيرة ، مات بهدوء وملأت جمهرة المعارف الذين جاؤوا في اليوم التالي يشيعون المتوفى ، حجرات المسكن الذي استأجره آل روستوف . كان هؤلاء الاشخاص كلهم ، الذين كثيراً ماتناولو الطعام على مائدته ورقصوا في بيته والذين كثيراً ماسخروا منه ، كلهم ،باتوا الآن يشعرون شعوراً موحداً بتبكيت الضمير والتحنان ، يقولون كلهم ليبرروا سلوكهم : « نعم ، يمكن ان يقال كل شيء ، لكنه كان رجلا ممتازاً . ان اشخاصاً مثله لم يعد ممكنا ايجادهم ... ثم ، من ذا الذي لايحمل اخطاء في نفسه ؟... »

في الفترة التي بلغت اعماله من الارتباك حداً جعله لايستطيع ان يتصور كيف سينتهي الأمر اذا دام طيلة عام آخر ، مات الكونت فجأة .

وكان نيكولا مع الجيش الروسي في باريز عندما بلغه نبأ موت ابيه فطلب من فوره احالته على المعاش . ودون ان ينتظر النتيجة ، استأذن وسافر الى موسكو . ولقد اقيم كشف عن حالة الكونت المادية بعد شهر من وفاته فذهل كل الناس من ضخامة المبلغ الذي شكلته الديون التافهة المختلفة التي لم يكن احد قط يتوقع وجودها . لقد بلغت الديون ضعف قيمة ممتلكاته .

اوصى الاقرباء والاصدقاء نيكولا ان يرفض الارث . لكن نيكولا وجد في ذلك الرفض مسبة لذكرى ابيه المقدسة ، لذلك فانه امتنع عن الاصغاء الى أي نصح وقبل الميراث مع الوعد بتسديد الديون كلها .

وراح الدائنون الذين صمتوا طويلاً ، يستوقفهم في حياة الكونت ، التأثير

غير الممكن تحديده والمعترف بقوته، الذي كان لطبيبة الكونت المضطربة عليهم يطالبون بسداد الديون ، كلهم ، وبشكل مفاجيء . وقامت بينهم ، كالعادة ، خصومات حول من سيدفع له قبل غيره ، وراح الذين بأيديهم أوراق رهن وليس اعتراف بدين ، امثال ميتانكا وغيره ، يظهرون اكثر الحاحاً . لم يتركوا لنيكولا متسعاً للراحة او الاستمهال ، واولئك الذين اشفقوا على العجوز المسؤول عن خسارتهم — مع فرض تعرضهم لهذه الخسارة — ، اخذوا الآن يتكالبون على الوارث الشاب الذي تعهد طائعاً ان يسدد كل ديونهم .

لم يوفق واحد من الوسطاء ولم يقبل اى عرض قدمه نيكولا ، فبيعت الاملاك بالمزاد العلني بنصف قيمتها وبالتالي ظلت نصف الديون دون سداد . ولقد قبل نيكولا مبلغ ثلاثين الف روبل من صهره بيزوخوف ليسدد مايعترف به من ديون نقدية ، ديون حقيقية . ولكي يتحاشى القاءه بالسجن ، كما كان دائنوه يهددونه ، عاد الى الخدمة .

استحال عليه العودة الى الجيش حيث كان يمكن ان يصبح برتبة زعيم عند اول شاغر ، لأن امه باتت شديدة التعلق به ، تعتبر انه غايتها الأخيرة الوحيدة في الحياة . وعلى ذلك ، فقد قبل وظيفة في موسكو ، رغم زهده في البقاء في المدينة في الجو نفسه الذي كان فيه من قبل ورغم كراهيته للخدمات المدنية . وبعد ان خلع الزي العسكري الذي طالما احبه ، اقام مع آن وسونيا في مسكن صغير في سيفنتسيف — فراجيك ، وهو شارع ذو بيوت متواضعة وراء متحف الكسندر الثالث ، باتجاه حاجز دراجوميلوفسكايا .

وكان بيير وناتاشا اللذين كانا يقطنان بيتر سبورج حينذاك ، يجهلان حقيقة وضع نيكولا . لقد اخذ هذا يعمل جاهداً بعد اقتراضه المال من صهره ، على اخفاء شروطه الحياتية المؤقتة . اقد كانت شؤونه المالية سيئة بشكل خاص حتى

انه لم يكن مضطراً الى ان يقوم بأوده بألف ومائتي روبل ، هي كل مرتبه ، وبحاجات سونيا وامه فحسب ، بل كذلك ان يسهر على ان تحيا امه بشكل لايجعلها تشعر بفقرهم . وكانت الكونتيس عاجزة عن تقبل الحياة بدون الترف الذي ألفته منذ طفولتها ، فكانت في كل مناسبة ، دون ان تشعر بما تحدثه لولدها من منغصات ، تطالب سواء بالعربة التي ما عادوا يملكونها ، لتستقدم صديقة ، او بطعام نادر لها أو بخمر ثمينة لولدها او بمال لتقدم هدايامفاجئة لناتاشا وسونيا ونيكولا نفسه .

وكانت سونيا منصرفـة الى شؤون البيت ، تعنى بعمتها فتقرأ لهـا وتحتمل نزواتها وكرهها السري ، وتساعد نيكولا على ان يخفي عن الكونتيس العجوز الأرتباك الذي كانوا واقعين فيه . وكان نيكولا يشعر بأنه مدين نحو سونيا ، لقاء كل ما كانت تعمله من اجل امه ، ديناً من العرفان لن يقدر على سداده ، فكان يعجب بصبرها وتفانيها لكنه كان يتركها دائما عند حد ما .

كان يبدو ناقما عليها من اعماق قلبه لأنها مفرطةالكمال مفرطة في الامتناع عن اللوم . كانت تملك كل مايزيد التقدير لكنها مـاكانت تستطيع ان تجعل نفسها محبوبة منه . ولقد ادرك نيكولا نفسه أنه كلما سما بها السماك ، قل حبه لهـا . ولقد اخذ عليها كلمتها في الرسالة التي وجهتها اليه تعيد اليه حريته فبات الآن يتصرف حيالها وكأن كل ماوقع بينهما،نسي منذ امد طويل ، لايمكن ان يعود بأي حال الى الحياة .

ازداد مركز نيكولا المالي سوءاً ولم تكن فكرة الاقتصاد من مرتبه الا اضغاث احلام. لم يكن عاجزاً عن الاقتصاد من راتبه فحسب ، بل انه كذلك اضطر الى التورط في قروض صغيرة ليرضي متطلبات امه . كان يرى نفسه في ورطة لاخلاص منها ، تسيء اليه فكرة الزواج من وارثه غنية كما كان ذووه

يشيرون اليه بها وتنفره . اما المخرج الثاني : موت امه ، فما كان يتوارد الى خاطره . ماكان يرغب في شيء ولم يعد يأمل شيئاً . كان يتلذذ في اعماق نفسه برغبة قاتمة شرسة توحي اليه بتقبل مصيره دون تذمر ، واخذ يعمل على تجنب معارفه السابقين الذين كانت رأفتهم وعروض المساعدة التي يقدمونها تجرح كبرياءه وبات يتحاشيها كل انواع التسرية والتسلية حتى في مسكنه ، فـلا يهتم الا بقطع الوقت بفتح « فأل » مع امه أو بذرع حجرته جيئة وذهاباً وهو صامت يدخن غليوناً اثر غليون . كان يبدو صارفاً عنايته الى رعاية المزاج اليائس في نفسه بعناية الذي ما كان يشعر بقدرته على حمل عبئه إلا به .
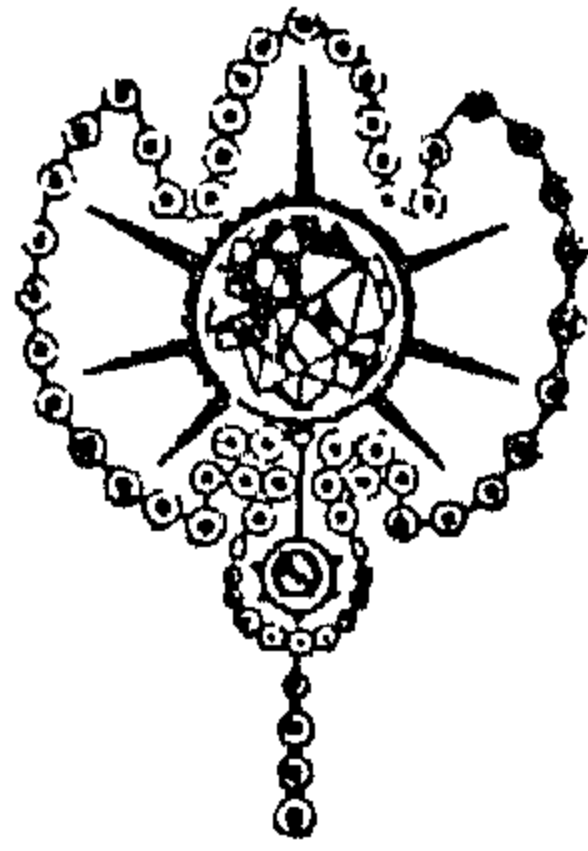
الفصل السادس

ماري ونيكولا

عادت الأميرة ماري في اوائل الشتاء الى موسكو ، واطلعت من ثرثرات المدنية على وضعية آل روستوف والطريقة التي كان « الابن يضحي بنفسه بها من اجل امه » — على حد تعبير الاشاعات — .

حدثت الاميرة ماري نفسها وهي تشعر بفرح بثقة اقوى من اي وقت مضى بحبها له : « ما كنت اتوقع شيئاً خلافاً لذلك منه » ولقد ظنت ان من واجبها ، استناداً الى علاقات الصداقة بل والقرابة تقريباً التي تربطها مع الاسرة كلها ، ان تقوم بزيارة لآل روستوف . مع ذلك ، فانها لمجرد التفكير فيما جرى لها مع نيكولا في فورونيج ، كانت تخاف من تلك الزيارة . وبعد ان قامت بمجهود كبير على نفسها ، مضت لزيارة آل روستوف بعد بضعة اسابيع من وصولها الى موسكو .

كان نيكولا أول من قابلته اذ كان يجب اجتياز غرفته قبل بلوغ حجرة الكونتيس . وللنظرة الاولى التي القاها عليها ، اتخذ وجهه ، بدلاً من تعبير الفرح الذي كانت تتوقعه ، امارات البرود والجفاء والتعالي التي لم ترها من قبل قط على وجهه . استعلم نيكولا عن صحتها وقادها الى امه . وبعد ان جلس خمس دقائق ، انسحب متسللا .

وعندما خرجت الأميرة من لدن الكونتيس ، جاء نيكولا يلحق بهـــا فقادها الى الردهة بأدب احتفالي مفرط . لم يجب بكلمة واحدة على الملاحظات التي ابدتها حـول صحة الكونتيس وكأن نظرته كانت تقول : « ماذا يهمك ؟ دعيني بسلام . »

قال بصوت مرتفع امام سونيا بعد أن ابتعدت عربة الكونتيس وقد بدا عليه عجزه عن كبت سخطه :

– لماذا جاءت تحوم هنا ؟ ماذا ينبغي لها ؟ انني لا استطيع احتمال اولئك الغبيات الثرثارات وتوددهن !

قالت سونيا التي وجدت صعوبة في اخفاء سرورها :

– آه ! كيف يمكنك التحدث على هذا النحو يانيكولا . انها شديدة الطيبة و« ماما » تحبها كثيراً ؟

لم يجب نيكولا بشيء كان يود لو لم يرد ذكر الأميرة قط بعـد ذلك . لكن الكونتيس ما فتئت تتحدث عنها منذ زيارتها وتمـــتدحها وتلح على ابنها بالذهاب لزيارتها معبرة عن رغبتها في رؤيتها اغلب الاحيان ولكن ينتهي بها الأمر دائمـاً الى الانفعال وهي تتحدث عنها .

وكان نيكولا يسعى الى التسلح بالصمت كلما تحدثت امه عن الأميرة لكن صمته هذا كان يثير حفيظتها .

كانت تقول :

– انها فتاة كريمـة جداً فتانة كل الفتنة يجب ان تزورها . ان ذلك يتيح لك زيارة بعضهم وبدون ذلك سينتهي بك الأمر الى السأم .

– لكنني لا انوي زيارتها يا اماه .

– لقد كنت راغباً في ذلك اشد الرغبة من قبل والآن بات هذا لايروق

لـك . حقاً ياعزيزي انـــني لا افهمك. انك تتضجر فجأة وفجأة ، لاترغب في رؤية احد .

— لم اقل انني متضجر .

— كيف ، لقد اعربت لي منذ حين انك غير راغب في رؤيتها ، مع انهـا فتاة عظيمة القيمة كانت دائمـاً تروق لك . والآن ، ماهي هذه الاسباب! انكم تخفون عني كل شيء .

— ولكن ابداً يا اماه !

— لو انني كنت اسألك تصرفاً كريماً لجاز الأمر . غير انني لا أسألك الا ان تذهب لترد زيارتها . يخيل الي ان الآداب تفرض ذلك ... لقد رجوت مراراً ان تفعل ذلك . لكنني منذ الآن لن اتدخل في شيء طالما ان لديك مـا تخفيه عن امك .

— حسناً ، سأذهب طالما انك تصرين على ذلك .

— انا ، سيان عندي . انني اطالب بذلك من اجلك .

اطلق نيكولا زفرة وعض على شاربه ثم نشر اوراق اللعب بغية اجتذاب انتباه امه الى موضوع آخر .

ولقد تجدد هذا الحديث في الغد واليوم الذي تلاه والايام التالية .

حدثت الاميرة ماري نفسها بعد اللقاء الفاتر غير المنتظر الذي اظهره لهـا نيكولا بانها على صواب حينما كانت ترغب في عـدم الذهاب الى زيارة آل روستوف اولاً .

حدثت نفسها وهي تتسلح بالكبرياء لمساعدتها :

— ما كان لي ان اتوقع شيئاً آخر . انه لايعنيني بحال . ما كنت اريد الا رؤية الكونتيس العجوز التي كانت طيبة دائماً معي والتي انا مدينة لها بالكثير .

لكن هذه المبررات ما كانت تستطيع تهدئتها : كان هناك لون من الندم لايكف عن تعذيبها كلما فكرت في تلك الزيارة. وعلى الرغم من قرارها المكين بعدم العودة الى زيارة آل روستوف ، ونسيان ما حدث ، فانها كانت تشعر دائماً بأنها في مرقف قليل الجلاء . وعندما كانت تتساءل عما يعذبها ، كانت مرغمة على الاعتراف بانهاء علاقاتها مع نيكولا . ان اللهجة المهذبة الفاترة التي اتخذها حيالها ، غير صادرة عن الشعور الذي يكنه لها — وهي تعرف ذلك تماما — انه يخفي شيئاً ما . وهذا « الشيء » هو الذي يجب ان تستجلي غموضه وبانتظار ذلك ، كانت تشعر بانها لن تستقر .

كانوا في منتصف الشتاء وكانت مستقرة في حجرة دروس ابن اخيها وهي تراقب درسه عندما جاؤوا يعلنون لها زيارة روستوف . ولما كانت مقررة ان لاتفضح شيئاً من سرها وان لاتظهر اي ارتباك ، فقد استدعت الآنسه بوريين ودخلت معها الى البهو .

ادركت من النظرة الاولى التي القتها على نيكولا انه لم يحضر الا لأداء واجب من واجبات اللياقة فوعدت نفسها بجزم بان تحتفظ بمثل هذا التحفظ الذي ظهر عليه .

تحدثوا عن صحة الكونتيس وعن اصدقائهم المشتركين وعن اخبار الحرب الأخيرة ولما انقضت الدقائق العشر التي تفرضها اللياقة ، والتي يستطيع الزائر اللبق بعدها ان ينهض وان ينسحب ، قام نيكولا لينصرف .

ولقد ادارت الأميرة الحديث بمساعدة الآنسة بوريين خير ادارة . لكنها في الدقيقة الأخيرة ، عندما نهض نيكولا ، شعرت باعياء شديد من الكلام عما لايهمها التكلم عنه ، واستولت عليها فكرة حرمانها من انفه اسباب المرح في الحياة لدرجة انها لم تلحظ في فترة شرود ونظرتها المضيئة شاخصة الى الامام ، انها لا زالت جالسة لاتتحرك وان نيكولا واقف .

نظر اليها نيكولا ورغب في ان لايظهر بمظهر الملاحظ شرودها ، فقال بضع كلمات الى الآنسة بوريين ثم عاد ينظر اليها من جديد . ما كانت تتحرك وكان وجهها الوديع يعبر عن الألم . وفجأة شعر باشفاق عليها وشعر بابهام انه قد يكون هو سبب الألم الذي يفضحه وجهها وود لو يبادر الى مساعدتها وان يتفوه بكلمات ودودة ، لكنه لم يستطع ايجاد شيء .

قال :

– وداعاً يا أميرة .

فعادت الى نفسها وتضرج وجهها ثم زفرت زفرة عميقة وهتفت وكأنها استيقظت لتوها :

– آه ! عفوا . انك ذاهب ياكونت ؟ حسناً ، الى اللقاء اذن ! ولكن ، ماذا بشأن وسادة امك ؟

فقالت الآنسة بوريين التي غادرت الحجرة من فورها :

– انتظر ، سأحضرها على الفور .

لزم كلاهما الصمت وتبادلا النظر من حين الى آخر واخيراً قال نيكولا بابتسامة حزينة :

– نعم يا اميرة ،يبدو ذلك وكأنه من امس ولكن ، كم من المياه مرت تحت الجسور منذ ان تقابلنا للمرة الاولى في بوجوتشاروفو . كنانعتقدحينذاك اننا تعساء حقاً بيننا بالكثرة ما ادفع لكي يعود ذلك الزمن ... ولكن لا يمكن اعادته .

كانت الأميرة تنظر اليه بالحاح بعينيها المضيئتين وهو يتحدث . كانت تبدو وكأنها تبذل جهدها للتوغل في معنى الكلمات السري التي يفوه بها ذلك المعنى الذي يستطيع ان يكشف لها عن حقيقة شعوره نحوها .

قالت :

ـ نعم ، نعم . ولكن لاتأسف على الماضي ياكونت . انني ، على قدر ما استطيع ان افهم حياتك الحالية ، اعتقد انك واجد متعة ابداً في الذكرى طالما أن حياتك الآن ترتكز على التضحية .

قاطعها نيكولا بحدة :

ـ لا اقبل اطراءاتك ،ان العكس كل العكس هو مايحدث وليس لي الاان اوجه اللوم الى نفسي .... لكن هذا لايثير الاهتمام ولا المرح اذا دار الحديث حوله .

واستعادت نظرته تعبيرها الفاتر الجاف . ولكن الأميرة ماري كانت قد وجدت الرجل وحده .

ـ كنت اظن انك ستسمح لي ان اقول ذلك ولقد كنت شديدة القرب منك ومن اسرتك حتى انني ظننت انك لن تأخذ مودتي في غير محلها . لكنني ارى انني كنت واهمة .

وارتعد صوتها فجأة ثم استأنفت وهي تتمالك :

ـ لست ادري السبب ،لكنك لم تكن من قبل على هذا النحو . . .

ـ ان هناك الف سبب « للماذا » هذه ـ وضغط على هذه الكلمة ثم قال بصوت خافض جداً :

ـ اشكرك ياأميرة ، ان ذلك شديد القسوة احيانا .

وهتف صوت سري في نفس الأميرة ماري : « آه ! هذا هو السبب !هذا هو السبب ! انني لم احبب فيه فقط هذه النظرة المرحة الصريحة الطيبة ،ولم يكن هذا المظهر الجميل وحده هو ما احببت ،بل خمنت كذلك النفس النبيلة الحازمة القادرة على التفاني . نعم ، انه الآن فقير وانا غنية. . .نعم ، هذا هو السبب. . . نعم ، لو ان هذا لم يقع ...»

ولما تذكرت رقته السابقه ونظرت الآن الى وجهه الطيب الحزين ، ادركت فجأة سبب بروده .

وفجأة قالت وهي تصرخ تقريباً . وتقترب منه لا اراديا :

ـ لماذا اذن يا كونت ، لماذا ؟ قل لي لماذا . يجب ان تقوله لي .

ظل صامتاً فاسترسلت :

ـ لست افهم « لماذاك » يا كونت . لكن ذلك يؤلمني ... اعترف لك بذلك . انك تريد ان تحرمني صداقتي السالفة لا اعرفه . وهذا يؤلمني .

وكانت عيناها ممتلئتين بالدموع وكذلك صوتها :

ـ لقد لقيت النذر التافه من السعادة في حياتي حتى ان كل خسارة تبهظ كاهلي . اصفح عني ، الوداع ..

وانفجرت باكية فجأة وخرجت من الحجرة .

هتف نيكولا وهو يحاول جاهداً استيقافها :

ـ يا اميرة ! امكثي حباً بالله ! يا اميرة !

التفتت وتبادلا النظر خلال بضع ثوان بصمت . وفجأة بات كل ما كان مستحيلاً ونائياً قريباً ، ممكناً ، لا مناص منه .
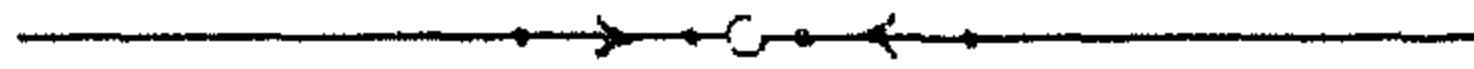
الفصل السابع

نقولا في ممتلكاته

في خريف ١٨١٤ ، تزوج نيكولا الأميرة ماري وذهب مع زوجه يقيم مع سونيا وامه في ليسيبا جوري .

وفي مدة اربعة اعوام ، استطاع ، دون ان يمس ثروة زوجته ، ان يسدد ماتبقى من ديون بل وسدد دين بيير كذلك بفضل ارث خلفته له بنت عم له .

وبعد ثلاث سنين ، أي في عام ١٨٢٠ ، استطاع نيكولا ان يسوي أوضاعه المادية حتى أنه استطاع شراء ارض صغيرة قرب ليسيبا جوري وراح يدخل في مفاوضات لاستعاد ارض ابيه في اوترادنواي ، وهو ماكان يحلم به .

ولما اتخذ بحكم الضرورة ادارة املاكه بنفسه وسيلة ، كلف بالزراعة حتى باتت شاغله المفضل، بل والأوحد . كان نيكولا ملاكاً بسيطاً ماكان يحب التجديدات وبصورة خاصة ، تجديدات الانجليز التي كانت شائعة حينذاك . وكان يسخر من دراسات فن الزراعة النظرية ، لايحب مرابض تجويد نسل الخيل ، ولا منتجات الترف وزراعة الحبوب الغالية ، ولايركز عنايته في ناحية مميزة من نواحي انتفاعه . لقد كانت اقطاعيته ، واقطاعيته كلها هي الماثلة امام عينيه وليس جانب منها . لم يكن الآزوت او الاوكسيجين الموجودين في

الارض او في الهواء هما ما يثيران انتباهه ولا محراث او مرعى خاصين ولكن الأداة الرئيسية التي تحرك الآزوت والأوكسيجين والمرعى والمحراث ، واعني العامل ، الفلاح . وعندما اكب نيكولا على مهمته كملاك عقاري واستطاع ان يتأمل عن قرب كل تفصيل ، اجتذب الفلاح انتباهه بصورة خاصة ورآى انه لايمثل بالنسبة اليه اداة فحسب بل كذلك الغاية الواجب بلوغها والحكم وفي بادىء الأمر ، عندما درس الفلاح ، حاول ان يدرك حاجتة وما يعتبره جيداً وما يراه رديئاً . ولقد كان نيكولا يتظاهر فقط بأنـه يتخذ التدابير ويلقي الاوامر . لكنه كان في الحقيقة يتثقف باحتكاكه بالفلاح ويدرس اراءه ومواضيعه واحكامه على ماهو خير اوشر . وبعد ان فهم اذواق الفلاح وميوله ، وبعـد ان تعلم لغته وادرك المعنى المستتر فيها وبعد ان تقرب اليه تقربة الى قريب ، راح بوجهه بنشاط ، أي يقوم حيال الفلاح بالواجبات نفسها التي كان يطالبه بتحقيقها ولقد انتهى انتفاع نيكولا الى المع النتائج .

ولما اتخذ نيكولا اعباء ادارة بمتلكاته مهمة له ، عين ، بلون من التكهن ، لكل الوظائف العامة من حكم ووكيل ومساعد ، وهم الرؤساء الذين كان الاقطاعيون ينتخبونهم على عهد الرقيق ، الرجال انفسهم الذين كان القرويون سينتخبونهم لو كان لهم الحق ، فلم يعد به حاجة قط الى ابدال هؤلاء الرؤساء . وقبل ان يحلل خصائص السماد الكيميائية ، وقبل ان يعـد الـ : « من » وال « الى » — كما كان يحب ان يقول ساخراً — كان يستعلم عن كمية الحيوانات التي يملكها الفلاحون ويزيد تلك الكمية بكل الوسائل الممكنة . كان يقيم الاسر على اوسع رقعة من الارض ممكنة دون ان يسمح لها بالتقسيم . امـا الكسالى والفاجرون والعمال الرديئون ، فكانوا يطاردون وكان يعمل ما بوسعه لاقصائهم عن الاشتراك .

وخلال فترات البذار وحصاد الهشيم ، كان يراقب بمثل العناية المفرطة حقوله وحقول الفلاحين. فكان قليل من المالكين يرون حقولهم مزروعة بمثل هذه العناية ومحصودة ، وقليل يستخلصون انتاجاً يضاهي انتاج نيكولا.

ما كان يحب الاهتمام بالخدم الارقاء وكان يدعوهم « طفيليات » ويترك لهم على ما كانوا يزعمون – كل الحرية بل ويكثر من تدليلهم . فاذاما اقتضى الامر اتخاذ التدابير حيال واحد منهم ، وبصورة خاصة عندما كان يجب معاقبته ، كان نيكولا يرتبك ويأخذ رأي اهل البيت جميعهم ولم يكن يتصرف دون أي تردد الا عندما يقتضي الحال تقديم مملوك من البيت للجندية بدلا من فلاح عامل ما كان قط يشك في أي تدبير يتخذه حيال الفلاحين .كان يعرف ان كل قرار يتخذه ، سيلاقي الموافقة العامة .

على اية حال ، لم يكن يسمح لنفسه ان يهبط احدهم بالعمل او ان يعاقبه تبعاً لرغبته الا بقدر ما كان يسمح لنفسه بتخفيف خدمته ومكافأته تبعاً لرضاه الشخصي . وما كان يستطيع القول على أي شيء ترتكز القاعدة التي تقرر ما اذا كان يجب ان يعمل او ان لايعمل . لكن هذه القاعدة كانت دائماً ثابتة في نفسه لاتتزعزع .

كان غالباً مايقول باحتداد في معرض الكلام عن اخفاق او عن سوء تصرف ما : « مع شعبنا الروسي هذا » ويتصور انه لايطيق احتمال الفلاح .

لكنه كان يحب بكل مافي نفسه من قوة « شعبنا الروسي هذا » يحبه ويحب طرقه في الحياة ، ولهذا السبب وحده ، ادرك وتبنى الاسلوب الاوحد في الاستغلال الذي يعود على صاحبه بنتائج طيبة .

وكانت الأميرة ماري تحس بغيرة من حب زوجها هذا وتأسف ان لا تستطيع مشاطرته فيه لكنها ما كانت تتوصل الى فهم افراح عالم غريب عنها الى

هذا الحد واتراحه . ما كانت تتوصل الى فهم سبب شدة حمية نيكولا وسعادته عندما يعود من البذار، بعد ان يكون قد استيقظ منذ الفجر وامضى الصباح كله بين الحقول او في ارض الدراس ، او في حصاد الهشيم أو الحصاد ، ليتناول الشاي معها . ما كانت تدرك سبب حماسته الشديدة عندما يحدثها عن الفلاح الثري (ماتفيئي ايوميشين) الذي امضى الليل مع اسرته ينقل الحزم بجد حتى انه اول من بدأ الحصاد واول من جهزت عرمه . ما كانت تفهم لماذا يبتسم بمرح تحت شاربيه ويرف بعينيه وهو يروح ويجيء من النافذة الى الشرفة عندما كان المطر يهطل مدراراً قويا فاتراً على خرطاله النامي الذي يكاد ان يجف ، ولا لماذا كان نيكولا يقول اذا ماطردت الرياح سحابة سوداء متوعدة قاتمة في موسم الحصاد او حصاد الهشيم ، وعاد من البيدر متضرج الوجه لاهث الأنفاس ينضح بالعرق يفرك يديه مبتهجاً وفي رأسه خليط من الافسنتين والنعنع : « حسناً ، يوم آخر صغير كهذا اليوم ، وسيتم ايداع كل شيء في المكادس ، حصادي وحصاد القرويين . »

بل وكانت تعجز اكثر من ذلك عن فهم السبب الذي من اجله يخرج عن طوره رغم كل طيبة قلبه ومبادرته الدائبة على اشباع رغباتها ، عندما كانت تنقل اليه طلبات القرويين او القرويات الراغبين في اعفائهم من عملهم ولماذا كان نيكولا « ها » شديد الطيبة يجيبها باصرار وعناد بالرفض راجياً منها ان لاتتدخل في مثل تلك اللحظات ، كانت تدرك ان له عالماً خاصا به ، عالما يتعلق به بكلف ، وان لهذا العالم من القواعد ما لاتصل هي الى ادراكه .

وعندما كانت احيانا تجهد نفسها لفهمه فتحدثه عن فضله في الخير الذي يعممه على اتباعه ، كان يتوقف ويرد عليها : « ولكن مطلقا . ان ذلك لايتبادر اطلاقا الى ذهني . انني لااحاول قط ان ابني سعادتهم . ان سعادة الغير ليست

الا حلما شاعريا وثرثرة بين النساء . ان ما انا في حاجة اليه،هو ان لايقع ابناؤنا في الفاقة . وما ينبغي ، هو ان انمي ثروتنا ما دمت حيا ليس الا . ومن اجل ذلك ، يجب استعمال النظام والصرامة ، هذا كل شيء ! » وهنا يقبض قبضتيه القويتين ويضيف : « يجب كذلك تحري العدالة ، وهـذا بديهي ، لأن الفلاح اذا كان سيء اللباس مجوعاً لا يملك الا جواداً هزيلا ، فانه لايستطيع ان يعمل لا من اجل نفسه ولا من اجلي . »

ولعل نيكولا بسبب امتناعه عن التفكير في انه يعمل عملا خيراً للغير باسم الفضيلة ، لعله لهذا السبب بالذات كان كل ما يشرع به يؤتي أكله . كانت ثروته تتضخم بشكل واضح والقرويون من الجوار يفدون اليه راغبين اليه ان يشتريهم ولقد ظل الشعب طويلا بعد موته يحتفظ بذكراه بورع :« لقد كان سيداً... الفلاح اولا وبعده هو لاشك انـه لم يكن متساهلاً . ولكن لامجال للجدل ، لقد كان سيداً . »

الفصل الثامن

بناء القصر

كان الشيء الوحيد الذي يعذب نيكولا احياناً في علاقاته مع مماليكه هو انفعاله مضافة اليه عادته القديمة كفارس ، وهي استعمال يده . ما كان في المرحلة الاولى يجد شيئاً معيباً في ذلك . لكنه في السنة الثانيه لزواجه ، تبدل رأيه فجأة حول هذه العدالة الموجزة .

وذات يوم ، اثناء الصيف ، استدعى من بوجوتشاروفو الوكيل الذي خلف المتوفي درون وقد اتهم باختلاسات مختلفة واهمالات . مضى نيكولا للقائه على المرقاة فلم تلبث الصيحات والضربات ان بلغت الردهة اثر اجوبة الوكيل الاولى . ولما عاد لتناول الطعام في البيت ، اقترب نيكولا من زوجته الجالسة امام نول الوشي مطرقة الرأس وراح يروي لها حسب عادته مافعله في الصباح ، فتحدث عن الوكيل في سياق الكلام . احمر وجه الكونتيس ماري ثم شحبت وزمت شفتيها ولكن دون ان تتحرك او ان ترفع رأسها او تنظر الى زوجها .

هتف وهو يحتد لمجرد الذكرى :

— ياله من نذل وقح . ولو انه كان ثملاً لوضح الأمر . . .

وفجأة سأل :

– ولكن ، ماذا بك ياماري ؟

رفعت الكونتيس ماري رأسها وارادت الكلام لكنها سارعت الى الاطراق برأسها وزم شفتيها .

ماذا بك ؟ ماذا بك ياصديقتي ؟

كانت الكونتيس ماري الدميمة ، تصبح جميلة كلما بكت . ما كانت قط تبكي بسبب الم جسماني او لسأم ، ولكن بسبب حزن واشفاق . وحينئذ كانت عيناها المضيئتان تتخذان فتنة لا تعبر .

ما ان امسك نيكولا بيدها حتى عجزت عن كبت عواطفها اكثر مما فعلت ، فانهارت باكية .

– نيكولا ، لقد رأيت .. انه مخطيء . . . ولكن انت ، لماذا عملت . . . نيكولا !

وغطت وجهها بيديها .

صمت نيكولا وتضرج وجهه ثم ابتعد عنها وراح يذرع الحجرة صامتاً . لقد ادرك سبب دموعها ، لكنه ما كان يستطيع للوهلة الاولى ان يتفق معها في اعماق نفسه وان يعترف بان كل ماعمله منذ طفولته ويعتبره كشيء من اكثر الاشياء طبيعة ، يستوجب الذم تساءل : « هل هذا شيء من الشعورية ، هل هذا شيء من الشعورية ، هل هي قصص تجعل المرء ينام وهو واقف ، ام انها في واقع الحياة ؟ » ودون ان يحسم الموضوع بنفسه ، القى نظرة جديدة على وجه زوجته حيث كان الألم والحب يقرآن عليه وفهم فجأة انها هي التي على حق وانه كان مذنباً منذ امد طويل حيال نفسه .

قال لها بصوت خافت وهو يقترب منها :

– ماري ، لن يقع ذلك فيما بعد ابدا ، اعدك بذلك .

وكرر بصوت متهدج ، صوت فتى صغير يستجدي صفحها :

ـ اعدك ياماري ، لن يقع ابدا .

انبعثت الدموع من عيني زوجته بقوة اكثر فأمسكت بيده وقبلتها .

قالت لتبدل الحديث وهي تنظر الى يـده والتي تحمل خاتماً يحمل رأس لاوكون :

ـ نيكولا ، متى حطمت الحجر الثمين ؟

ـ اليوم ، انها المسألة نفسها ايضاً ! آه ! ماري، كفي عن الحديث عن هذا.

وتضرج وجهه من جديد :

ـ امنحك كلمة الشرف ان هذا لن يعود مطلقاً .

واضاف وهو يظهر الحجر الثمين المحطم :

ـ عسى ان يذكرني هذا بوعدي دائماً .

ومنذ ذلك الحين ، ماأن تجعل مناقشته مامع وكيل او مسجل ، حتى كانت الدماء تتصاعد الى رأسه ويبدأ بضم قبضته حتى يشرع نيكولا بادارة خاتمه المحطم حول اصبعه ويطرق برأسه امام الرجل الذي اثار سخطه . لكنه كان كذلك ينسى نفسه مرة أو مرتين خلال العام وحينئذ كان يعود الى قرب زوجته ويعترف لها ثم تجدد الوعد بان هذه ستكون المرة الأخيرة .

كان يقول لها :

ـ ماري ، سوف تحتقرينني حقاً ، وانني لأستحق ذلك .

فكانت الكونتيس ماري تقول له وهي بادية الحزن ، محاولة تعزيته :

ـ ولكن ابتعد، مسرعاً عندما تشعر بانك لم تعد تملك القوة على ضبط اعصابك .

كان النبلاء من افراد الحكومة يضمرون الاحترام الجزيل لنيكولا ولا يحبونه الا قليلا وما كان يعنى بمصالح هذه الطبقة، بحيث كان البعض ينظرون اليه كرجل متكبر ، والآخرون يعتبرونه أقرب بالاحرى الى البلاهة . وكانت المعاينة

بمزرعته تشغل وقته كله ، منذ موسم الزراعة في الربيع حتى الحصاد ، فاذا حل الخريف انطلق الى الصيد بمثل ذلك النشاط الجدي الذي يبديه في العناية بحقوله، وتغيّب عن الدار حوالي شهر او شهرين بصحبة قطيع من كلاب الصيد . وفي الشتاء كان يزور القرى البعيدة او يطالع الكتب . وكانت مطالعاته تنحصر بكتب التاريخ على الأخص ، فيخصص لها سنويا مبلغاً كبيراً من المال . وكان يتضح من حديثه انه يؤسس مكتبة محترمة مقيداً نفسه بقراءة سائر ما يبتاع من كتب . وكانت تلوح عليه مظاهر الجد عندما يتخذ مجلسه في مكتب عمله مستسلماً لمطالعاته التي كانت الزاماً بادىء الامر ، ثم أصبحت عنده عادة توفر له في نفس الوقت لذة خاصة ، والشعور بالانشغال بعمل جدي . واذا استثنينا الأسفار التي يقوم بها بسبب من اعماله ، فهو يقضي في الشتاء القسم الاعظم من وقته في داره في احضان العائلة وكان يشارك في امثال تفاصيل حياة زوجته واولاده اليومية وهو يحس انجذابا متزايداً الى ماري ، ويكتشف فيها كل يوم كنوزاً روحية جديدة لم يكن يعرفها .

وكانت سونيا تعيش في بيت نيكولا منذ زواجه . وكان نيكولا قد روى لماري قبل زواجها كل ماجرى بينه وبين سونيا، مهتماً لنفسه ، ممتدحاً خصائل الفتاة راجياً ماري ان تكون طيبة ومحبة تجاه ابنة عمه . وكانت الكونتيس ماري تشعر بما ارتكب زوجها من جرم بحق سونيا ، وتشعر بذنبها الخاص ايضاً . وكانت تحسب انه كان لثروتها تأثير على اختيار نيكولا ، فما كانت تضمر لسونيا أي عتاب ، بل تود بالأحرى ان تحبها . بيد انها لم تكن بعيدة عن حبها فحسب، بل غالباً ما كانت تكتشف ايضاً في نفسها عواطف عدائية تجاهها تعجز عن التغلب عليها .

وذات يوم ،تحدثت الى صديقتها ناتاشا في موضوع سونيا وظلمها لها فقالت لها ناتاشا :

ــ اتعلمين ، ما دمت قرأت الانجيل كثيراً ، ففيه مقطع ينطبق بالضبط على سونيا

فسألت الكونتيس ماري في دهشة :

ــ اي مقطع ؟

ــ «من معه يعطى ويزاد ومن ليس معه يؤخذ منه .»[1] اتذكرين ذلك ؟ من ليس معه ، انها هي . لماذا ؟ لست ادري ! لعلها بعيدة عن أدنى انانية ، لا اعلم ، لكن سيؤخذ منها كل شيء ولقد اخذ كل شيء منها . وانها لتبعث في احيانا الرأفة بصورة فظيعة ، ولقد اردت يوماً من صميم قلبي ان يتزوج نيكولا منها ، ومع ذلك فقد كنت اشعر على الدوام ان ذلك لن يتحقق، انها « الزهرة العقيم ، كما يوجد مثل هذه الازهار في شجرة القريز : اني ارسي لها احيانا واحيانا افكر انها لاتحس ذلك كما نحس نحن .

ورغم ان الكونتيس ماري اوضحت وقتئذ لصديقتها انه ينبغي فهم كلمات الانجيل هذه بصورة مغايرة ، فقد كان يكفيها ان تتطلع الى سونيا كي توافق على تفسير ناتاشا . ولقد كانت تقول في الحقيقة ان سونيا اعتادت مصيرها « كزهرة عقيم » بدلا ان تتألم له وكان يبدو عليها انها تحب العائلة ككل واحد ، منها بالاحرى تحب الافراد في هذه العائلة ، فمثلها مثل القط الذي يتعلق بالدار اكثر من تعلقه بأشخاصها . كانت تعني بالكونتيس العجوز ، وتداعب الاولاد وتدللهم ، وهي ابداً على أهبة القيام بأدق الخدمات الي تستطيع انجازها . ولكن ذلك كله يؤخذ على انه امر مفروغ منه ، دون ان يقابل بشيء من الامتنان والعرفان بالجميل .

---

(١) متى : الاصحاح الخامس والعشرون : ٢٥

وكان قصر ليسيلياجوري المعاد بناؤه يختلف عنه ايام الامير الراحل .

فقد كانت الابنية ، المرفوعة في زمن لابد من اخذ المال فيه بعين الاعتبار، اكثر من محتقره . وكان البناء الفخم ذو الاسس الحجرية مصنوعاً من خشب ، قد طلي باطنه بالجص بكل بساطة . وكانت الحجرات الواسعة ذات الارض الخشبية البيضاء مؤثثة بكنبات بسيطة ومقاعد كبيرة على درجة عظيمة من القسوة ، وبطاولات وكراس مصنوعة من خشب السندر المستمد من الغابات التابعة الملكية بايدي نجارين من المنطقة ايضاً . ولما كانت الدار فسيحة الارجاء ، فقد كانت تضم غرفاً للخدم وجناحاً خاصاً المدعوين ، وكان أقرباء آلي روستوف وبولكونسكي يجتمعون في هذه الدار من حين لآخر ، فتأتي عائلاتهم بنصابها الكامل ،يرافقهم حتى ستة عشر جواداً لجر المركبات وعشرات من الخدم ؛ وكانوا يقيمون هناك أشهراً طويلة . وعدا ذلك فان حوالي مائة مدعو كانوا يحلون في الدار يوماً او يومين أربع مرات في السنة ، وذلك بمناسبة عيد ميلاد سيدي الدار وعيد شفيعهما . اما في غير ذلك من الاوقات ، فقد كانت الحياة تجري بانتظام ودونما أي اضطراب بمشاغلها العادية ، والاجتماعات حول الشاي ، او في الافطـــار والغداء والعشاء التي تقدم جميعاً على ما تنتجه الملكية من مواد غذائية .

الفصل التاسع

عشية العيد

كان ذلك عشية عيد القديس نيكولا الشتوي ، الخامس من كانون الاول عام ١٨٢٠ وكانت ناتاشا ، تلك السنة تقيم مع زوجها واولادها عند اخيها منذ بداية الخريف . وكان بيير قد قصد بطرسبورج حيث تدعوه على زعمه ، مشاغل خاصة تستغرق من وقته ثلاثة اسابيع ؛ ولقد مضت حتى الآن ستة اسابيع منذ رحيله فهم يتوقعون مجيئه من لحظة لأخرى .

وفي الخامس من كانون الأول ، فيما عدا العائلة بيزوخوف ، كان ثمة ضيف آخر هو صديق نيكولا القديم الجنرال المتقاعد فاسيلي فيدوروفيتش دينيسوف وكان نيكولا يعرف أن من واجبه في اليوم السادس من الشهر ، وهو يوم الاحتفال الذي سيتدفق الضيوف فيه ، أن يخلع سترته الواسعة التترية ، ويرتدي بذلة الاحتفال الرسمية ، ويلبس حذاء ضيق المقدمة ، ويذهب الى الكنيسة الجديدة التي بنيت تحت اشرافه ثم يتقبل التهاني ، ويقود ضيوفه الى أمام مائدة عامرة ويتكلم عن انتخابات النبلاء ، وعن الموسم ؛ لكنه كان لما يزل يحس عشية ذلك اليوم ، الحق في ان يحيا حسب عاداته ، وهكذا قضى الوقت حتى موعد الغداء في مراجعة حسابات وكيل قرية قريبة من ريازان تابعة لملكية ابن اخ زوجته ، وكتب رسالتين تتعلقان بأعماله ، وقام بجولته على البيادر ، والزرائب ، والاسطبلات

وبعد أن اتخذ التدابير اللازمة ضد السكر العمومي المنتظر في الغداة ، وهو يوم عيد للجميع رجع من اجل الغداء ، واتخذ مكانه الى المائدة الطويلة حيث رتبت الصحون العشرون الخاصة بأهالي الدار دون ان تسنح له فرصة مبادلة زوجته كلمة واحده على انفراد . وكان الجميع قد اتخذوا أماكنهم الى المائدة : أمه ،والعجوز بيسلوخا التي ترافقها دائماً وزوجته ، وأولاده الثلاثة ، ومربيتهم واستاذهم وابن اخيه مع مربيته ، وسونيا ، ودينيسوف ، وناتاشا وابناؤها الثلاثة ، ومربيتهم ، والعجوز ميخائيل ايفانيتش ، مهندس الامير الراحل ، الذي ينهي حياته بطمأنية في ليسياجوري .

وكانت الكونتيس ماري تجلس الى الطرف الآخر من المائدة ، وما كاد زوجها يقصد كرسيه حتى أدركت من الحركة السريعة التي قام بها بعد أن نشر فوطته كي ينقل قدح الماء وقدح الشراب الموضوعين امامه ، انه مضطرب المزاج ، الامر الذي يقع له احياناً ،وعلى الاخص قبل تناول الحساء، عندما يعود الى الدار من الحقول مباشرة . وكانت الكونتيس ماري تعرف هذه الحال الروحية جيداً فإذا كانت هي نفسها حسنة المزاج انتظرت بهدوء حتى يتناول حسائه كي تشرع في الحديث ،وتحمله على الاعتراف بأن لا مبرر لامتعاضه . لكنها نسيت تماماً في ذلك اليوم هذه الخطة ، وراحت تتألم لرؤيته متعضاً منها دونما سبب ، وأحست بتعاسة عظيمة تجتاحها . وسألته أين كان ، فأجاب عن سؤلها ، فعادت تسأله إذا كان كل شيء على مايرام في الملكية ، فكانت لهجته قاسية حين كشر باكتآب وأجاب بشيء من العنف .

وقالت الكونتيس ماري في نفسها : «لم أكن مخطئة إذن . ولكن ماذا يأخذ علي؟» كان كل شيء في جواب نيكولا يشير إلى امتعاضه منها ،فلا يهمه سوى أن

يضع حداً للحديث . وكانت تشعر بأن أسئلتها لاتبدو طبيعية ، ولا تستطيع مع ذلك امتناعاً عن طرح أسئلة جديدة عليه .

وسرعان ما احتدم الحديث ، بفضل دينيسوف وشمل الجميع ؛ بيد أن الكونتيس ماري لم تتحدث بعدئذ إلى زوجها مطلقاً . وعند الانتهاء من الطعام ، اقترب كل بدوره من الكونتيس العجوز ليقدم إليها بشكره ، فقبلت الكونتيس ماري زوجها وهي تمد له يدها ليقبلها[1] وسألته عن إمتعاضه منها فقال :

— إن افكاراً تراودك دائماً ، لماذا تريدينني أن أكون ممتعضاً ؟

ولكن كلمة «لماذا» في جوابه كانت تعني بالنسبة إلى الكونتيس : «اجل إني ممتعض ولا أريد أن أقول لماذا »

كان نيكولا يعيش في وئام تام مع زوجته ، بحيث ما كانت سونيا والكونتيس العجوز ، وهما تتمنيان بدافع من الغيرة بعض سوء التفاهم بينهما تجدان ذريعة لتوجيه أي نقد مطلقاً . ولكن بعض التوتر كان يقوم احياناً ، على أية حال ، بين الزوج وزوجته . وفي الاحايين ، وخاصة بعد الأوقات الأكثر سعادة ، كان يجتاحهما شعور بالتباعد والنفور وكان هذا الشعور يولد خاصة أثناء حمل الكونتيس ماري ، ولقد كانت حاملا في هذه الأيام .

قال نيكولا بصوت مرتفع ولهجة مازحة (كأن يلوح للكونتيس ماري أنه يتحدث بهذه اللهجة عمدا لاغضبها) .

— حسناً ، أيها السادة والسيدات ، إني اقف على ساقي منذ ست ساعات ، ومن المؤكد أنه لابد لي ، غداً ، من الاستمرار في الوقوف حتى النهاية ، أما اليوم فاني ذاهب أنال قسطاً من الراحة .

---

(١) العادة في روسيا ، عند انتهاء الطعام ، ان يشكر المدعوون سيدة الدار بتقبيل يدها

وبدون أن يضيف شيئاً خاصاً بالكونتيس ماري ، انتقل الى المخدع الصغير حيث تمدد على كنبة . وفكرت الكونتيس ماري : «تلك هي الحال دائماً، فهو يوجه كلمة إلى الناس جميعاً ، أمالي فلا يقول شيئاً . إني أرى جيداً أني أنفره ، وخاصة عندما أكون هكذا »؟ وتطلعت إلى بطنها المتضخم ونظرت في المرآة إلى وجهها المشدود الشاحب ، والمصفر حيث تبدو العينان اكبر منها في اي وقت آخر .

وإذا كل شيء يصعب عليها بصورة مباغتة : رنين الأصوات وضحكة دينيسوف ، وأحاديث ناتاشا وبصورة خاصة النظرة السريعة التي رمقتها سونيا بها .

ولقد كانت سونيا على الدوام الذريعة الأولى التي تقع الكونتيس ماري عليها عندما تكون في ثورة وامتعاض .

وبعد أن أمضت بضع دقائق مع ضيوفها دون أن تفهم شيئاً مما يقولون غادرتهم دون ضوضاء واتجهت إلى غرفة أولادها .

وكان الأطفال الراكبون مقاعد ذاهبين الى موسكو فدعوها لمرافقتهم . جلست ، ولعبت معهم ،بيد أن فكرة زوجها وامتعاضه ما كانت تفارقها البتة وما أسرع أن نهضت وغادرت الغرفة ، وهي تسير بحذر على اطراف أصابعها نحو المخدع الصغير .

قالت في نفسها : «لعله لم ينم بعد فأسوي الأمور معه »وكان آندريه الصغير بكر ابنائها ، يتبعها وهو يقلدها ويسير مثلها على أطراف أصابعه ، لكنها لم تنتبه إليه

والتقت بسونيا في قاعة الاستقبال ، سونيا هذه التي تصطدم بها في كل مكان (فيما يخيل الى الكونتيس ماري) فقالت لها :.

— ياماري العزيزة ، إنه ينام فيما اعتقد : إنه على درجة عظيمة من الاعياء .
حاذري فسوف يوقظه أندرية .

فالتفتت الكونتيس ماري ورأت الصغير الذي يتأثر خطاها ، فأدركت أن سونيا على حق ولأنها كانت مخطئة ، فقد احمرت وجنتاها وكادت تتفوه بكلمة جارحة لاذت بالصمت لكنها أرادت أن تبرهن أنها لا تأبه لما تقول سونيا فأشارت للصبي أن يتبعها دون ضوضاء ، ثم اقتربت من الباب ، بينا ، اختفت سونيا في الباب المقابل . ودفق من الحجرة حيث ينام نيكولا أصداء تنفسه المنتظم الذي تعرف أدق تفاصيله . وكانت ترى حيالها ، وهي تسمع هذا التنفس ، جبين زوجها المرتفع المغضن ، وشاربيه ، وكل هذا المحيا الذي كثيراً ما تتأمل فيه وهو ينام في هدأة الليل وسكونه . وبغتة تحرك نيكولا وسعل فما أسرع أن صاح أندريه الصغير في خلف الباب : «أبتي ان امي هنا ! » فملأ الشحوب وجه الكونتيس ماري ذعرا وأشارت لابنها أن يلوذ بالصمت فأطاع ، فران طوال دقيقة سكون أليم بالنسبة اليها . كانت تعرف كم يكره نيكولا أن يوقظه من نومه وعلى حين بغتة ، تردد في الجانب الآخر من الباب سعال جديد ، فتحرك نيكولا مرة أخرى وقال بصوت فيه دلائل الاستياء :

— ليس من سبيل الى الراحة دقيقة واحدة . أهذه أنت ياماري ؟ لماذا جئت به الى هنا ؟

— جئت لألقي نظرة فقط ، ولم أر ... اعذرني ...

فسعل نيكولا وسكت ! وابتعدت الكونتيس ماري عن الباب ورجعت بولدها الى غرفه الاطفال . بيد أن الصغيرة ناتاشا ، وهي طفلة في الثالثة من سنيها جميلة العينين السوداوين ، والابنة المفضلة عند أبيها ، اسرعت بعد خمس دقائق وقد عرفت من أخيها أن اباها تألم وأن أمها ذهبت الى المخدع ، تبحث عن نيكولا

من دون علم والدتها. وفتحت الصغيرة السوداوية العينين الباب بجرأة، وتقدمت من المكتبة بخطوات حازمة على قدميها غير الثابتتين ؛ ووقفت هناك تتأمل برهة أباها الذي ينام وقد أدار لها ظهره ، ثم تطاولت على رؤوس اصابعها وطبعت قبلة على اليد التي تسند رأس نيكولا ، فاستدار اليها وعلى شفتيه ابتسامة حنون .

ومن خلف الباب همست الكونتيس ماري بذعر :

ـ ناتاشا ؛ ناتاشا ؛ هلا تركت أباك نائماً :

فهتفت الصغيرة ناتاشا ببهجة ظافرة :

ـ ولكن لا ، يا أماه ليست به رغبة في النوم انه يضحك .

فوضع نيكولا قدميه على الارض ، وجلس على الكنبة وأخذ الصغيرة بين ذراعيه .

قال لزوجته

ـ ادخلي ، ياماري ،

فدخلت الكونتيس ماري وجلست بجانب زوجها .

قالت بتردد :

ـ لم اكن أعلم أنه يتبعني . ولقد جئت هكذا .

فتطلع نيكولا ممسكا بابنته الصغيرة بذراعه الواحدة ، الى زوجته وشاهد سيماها المضطربة ، فأحاط قامتها بذراعه الطليقة وطبع على شعرها قبلة سريعة .

استفهم من ناتاشا :

ـ أيمكن تقبيل ماما ؟

فافترت شفتا ناتاشا عن ابتسامة خجول :

قالت ، وهي تشير بحركة آمرة الى المكان حيث قبل نيكولا زوجته :

ـ أيضاً !

قال ، نيكولا مجيباً على السؤال الذي يعرف انه يدور في خلد زوجه :

ـ لا أدري لماذا تحسبين أني سيء المزاج ...

ـ لست تستطيع أن تتصور مبلغ تعاستي، وشدة وحدتي عندما تكون على هذه الحال . ليخيل الي على الدوام ...

فهتف في مرح :

ـ صه ، ياماري ، فتلك حماقات ، كيف لا تخجلين من نفسك ؟

ـ يصور لي انك لا تستطيع أن تحبني ، وأني قبيحه جدا ... وخاصة ... الآن ... في هذا الو ...

ـ آه! ما اسخفك ، ان الجمال لا يصنع الحب ، بل الحب هو الذي يصنع الجمال ان ما لفينا وأشباهها نحبهن من اجل محياهن الجميل ، أما بالنسبة الى زوجتي فلست اشعر بالحب، بل بشيء آخر ، ولا أدري كيف أفسر لك ذلك حين لا تكونين ههنا ، أو يمر ظل بيننا ، كما حدث قبل لحظة ، فأشعر كأنني ضعت ولم أعد أساوي شيئاً . اليك ، هذه الاصبع ، هل احبها؟ كلا لست أحبها ولكن هيا وجربي ان تقطعيها مني !

ـ كلا أنا لست كذلك ، لكنني أفهم . اذن فأنت غير ممتعض مني ؟

فقال مبتسما :

ـ ممتعض بصورة فظيعة !

ونهض ، وأمر يده في شعره المشعث وراح يذرع أرض الغرفة بخطواته .

قال على الفور ، وقد تم الصلح بينهما ، فهو مستعد إذن أن يفكر أفكاره بصوت مرتفع أمام زوجته :

ـ أتعرفين ، يا ماري ، فيما فكرت ؟

لم يسأل نفسه ما إذا كانت مستعدة للاستماع اليه ، فذلك لا يهمه كثيراً . ينبغي ، منذ أن تراوده فكرة ، ان تشاركه فيها أيضاً . وعرض عليها نيته في دعوة بيير إلى قضاء الربيع معهم .

واصغت الكونتيس ماري اليه ، وقدمت بضع ملاحظات ، وجعلت بدورها تفكر بصوت مرتفع . كانت تفكر في ابنائها .

قالت بالفرنسية ، مشيرة إلى ناتاشا الصغيرة :

— كم تحس فيها المرأة منذ الآن . أنتم تأخذون علينا ، نحن النساء انعدام المنطق عندنا . ولكن اليكن ، منطقنا ، إني أقول : بابا راغب في النوم فتجيب : كلا انه يضحك .

ثم هتفت وعلى شفتها ابتسامة سعيدة :

— وإنها على حق .

— أجل ، أجل :

وأخذ نيكولا ابنته في ذراعيه القويتين ورفعها عالياً ووضعها على كتفه، ثم عاد يذرع ارض الغرفة بخطاه وقد أمسك بها من فخذيها . وكان من الصعب أن نقول اياً من الأب والابنة كان أعظم سعادة وهناء .

همست الكونتيس ماري بالفرنسية :

— اسمع ، أنت تتعرض لأن تكون ظالماً . إنك تحب هذه كثيراً .

— ماذا تريدين أن أفعل ؟ ... إني أسعى كي لا أظهر ذلك ...

وفي تلك اللحظة سمع في الغرفة المجاورة والدهليز أصوات خطا ثقيلة ، شبيهة بالأصوات التي تعلن عن وصول مسافر من مكان بعيد .

قال نيكولا .

— جاء شخص ما .

فقالت الكونتيس ماري وهي تخرج من الغرفة :

ـ أنا متأكدة أنه بيير .

واغتنم نيكولا . . . فرصة غياب زوجه كي يخب بابنته قليلا ، ثم توقف منقطع الأنفاس ، ورفع بسرعة الصغيرة الضاحكة عن كتفه وشدها إلى صدره كانت القفزات التي قام بها لتوه تذكره ببعض الخطوات الراقصة ، وحين تأمل الوجه الصغير المدور المشع فرحاً ، فكر فيما ستكون عليه حين يصير عجوزاً ، وكيف سيخرج بها الى ما بين الناس ويرقص المازوركا معها ، كما كان المرحوم والده يرقص الدانيو كوبر مع ناتاشا .

صاحت الكونتيس ماري بعد دقائق قليلة وهي تعود الى الغرفة :

ـ هذا هو يانيكولا . والآن عادت حبيبتنا ناتاشا إلى الحياة ولو رأيت بأية حمية استقبلته ثم كيف عنفته لتأخره ! هيا تعال ، تعال سريعاً .

وأضافت أخيراً وهي تبتسم وتنظر إلى الصغيرة المتعلقة بأبيها :

ـ هلا انفصلتما أخيراً !

فرح نيكولا ممسكا ابنته من يدها ، بينما تباطأت الكونتيس في المخدع . همست :

ـ أبداً ، أبداً لم افكر أني يمكن أن أكون على هذه الدرجة من السعادة

وتألق وجهها بابتسامة ، بيد أنها صعدت زفرة في الوقت نفسه ، ومر في نظرتها العميقة ، انعكاس حزن صموت ، فكان ثمة سعادة أخرى ، إلى جانب السعادة التي تحس ، سعادة لا تبلغ في هذه الحياة ، لكنها تتردد الآونة فى ذهنها رغما عن ارادتها .

الفصل العاشر

عودة بيير

كانت ناتاشا قد تزوجت في الأيام الأولى من ربيع ١٨١٣ ، وفي عام ١٨٢٠ كانت قد ولدت ثلاث بنات بالاضافة الى الابن الذي طالما تاقت اليه والذي كانت ترضعه من ثديها ، كانت قد سمنت قليلاً وازدهرت ، بحيث كان يصعب على المرء أن يعرف في هذه الأم الخصاب للعائلة ،ناتاشا الأيام السابقة ، النحيلة والدائبة الحركة. وكانت سيماء وجهها قد اتضحت واتخذت تعبيراً في الوضوح والليونة الهادئة وبارحتها تلك الشعلة من الحياة الملتهبة ابداً، التي كانت تشكل فتنتها في الأيام الغابرة إن المرء لايشاهد منها الآن ، في غالب الأحيان ، سوى وجهها وجسدها ، أما نفسها فصارت غير مرئية ؛ لم يعد يرى منها سوى الانثى القوية ، الجميلة والخصابة وكان لهيب الماضي يعادل الاشتعال فيها ، في حالات استثنائية ، مثلهــــا اليوم لدن قدوم زوجها ، او حين يقوم أحد أبنائها من الفراش بعد مرض الم به ، أوحين تتحدث مع الكونتيس ماري عن الأمير اندريه (لم تكن تتحدث البتة عن الأمير اندريه أمام زوجها ،مفترضة أنه يغار من الذكرى التي تحفظها عنه) أوحتى يدفعها شيء ما ، مصادفة إلى الغناء بعدما أهملته تماماً منذ زواجها . وفي اثناء هذه اللحظات النادرة حيث يتأرث مهيب الماضي في هذا الجسد الجميل اليانع ، كانت تصير أشد إغراء منها قبلاً.

كانت ناتاشا تقيم منذ زواجها من زوجها في موسكو ،وفي بطرسبورج
او في ملكيته الواقعة في ضواحي موسكو ، أو عند أمها ، يعني عند نيكولا
ونادراً ما كانت الكونتيس بيزوخوف الشابة ترى في المجتمعات ، واولئك الذين
كانوا يقابلونها هناك ماكانوا يسرون منها كثيراً ،فهي بعيدة عن كل لطف ومودة .
ولم يكن دافعها إلى ذلك تفضيلها للوحدة (ماكانت تعرف إذا كانت تحبها أم
لا ، بل كانت تعتقد ان لا) ، غير أن حملها المتكرر ،وواجب ارضاع أطفالها
ومساهمتها في كل من لحظات حياة زوجها ، هذه الأمور جميعاً كانت تحملها
على الابتعاد عن الناس . وكان سائر الذين عرفوها قبل الزواج يدهشون لذلك
التبدل الطارىء عليها فكانه أمر فوق عادي . وكانت الكونتيس العجوز وحدها
بمظهرها الأمومي ، قد فهمت أن سائر انطلاقات ناتاشا ناشئة من مجرد رغبتها في
تأسيس عائلة ، والحصول على زوج ، كما أعلنت ذلك ذات يوم في اوتراندويه
جادة في ذلك أكثر منها مازحة . وكانت تدهش ، في قلبها الأمومي ، من عجب
الناس الذين لايفهمون ناتاشا ، فهي لاتني تردد أنها قد عرفت على الدوام أن
ابنتها ستكون زوجة دائماً مثالية .

وكانت تضيف :

— سوى أنها تذهب أبعد قليلاً مما يجب في حبها لزوجها وأولادها : بل
إن ذلك يجانب السخف قليلاً .

ولم تكن ناتاشا تتبع تلك القاعدة الذهبية التي ينادي بها الناس الأذكياء،
والفرنسيون بصورة خاصة ، القائلة ان الفتاة ، إما تتزوج ، يجب ألا تتنازل
عن مواهبها أو تدفنها بل أن تعنى بشخصها أكثر من ذي قبل ، ساعية لاغراء
زوجها بقدر ماكانت تجهد لاغراء خطيبها . بيد أن ناتاشا ، على العكس من ذلك
قد اهملت دفعة واحدة سائر فتنها التي كان الغناء أشدها قوة . ولقد أهملت

الغناء بسبب وحيد ، ألا وهو كونه أفضل فتنة تتمتع بها . ولم تكن ناتاشا تأبه للياقة في سلوكها ، أو الرقة في أحاديثها ، أو الأوضاع المغرية التي يجب أن تتخذها حيال زوجها . أو بزينتها ؛ وكذلك لم تكن أكثر اهتماماً بعدم إزعاج زوجها بطلباتها . كانت تتصرف ضد هذه القواعد تماماً ، فهي تشعر أن الاغراءات التي كانت غريزتها تحملها على إظهارها من قبل ، ستلوح سخيفة مضحكة في عيني الرجل الذي استسلمت اليه بكليتها ، يعني بكل روحها ، دون أن تحتفظ بزاوية خفية عليه . وكانت تشعر أن اتحادها مع زوجها لا يعود إلى تلك المشاعر الشعرية التي اجتذبته إليها ، بل الى شيء آخر لا يمكن تحديده ، لكنه ثابت ، صلب ، مثله مثل اتحاد نفسها الخاصة بجسدها .

اما ان تتخذ اوضاعاً مسرحية ، وتحمل سلالا وتنشد اغاني غرامية كي تجعل زوجها عاشقاً لها ، فذلك عندها امر غريب مثل تزينها كي تعجب نفسها . اما ان تتزين كي تعجب الآخرين ، فلعل ذلك كان يلاقي قبولاً عندها – انها لا تعرف على وجه الدقة – لكنها لا تجد الوقت له مطلقاً . وفي الحقيقة ان السبب الرئيسي الذي هجرت من اجله الغناء ، والزينة ، والرقة في الحديث ، هو عوزها للوقت الضروري في سبيل هذه الامور جميعاً .

نحن نعلم ان الانسان يملك القدرة على الاستغراق بكليته في اي مشاغل مهما يكن تافهاً . ونعلم ايضاً انه لا يوجد اي مشاغل تافه الا دعينه ان يتعاظم في الاهمية حتي مالا نهاية ، عندما يتركز الانتباه عليه بصورة كلية .

وما كان يشغل ناتاشا بصورة كلية هي العائلة ، يعني الزوج الجاهدة للاحتفاظ به كي يكون لها دون شريكة ، والبيت والاطفال الذي ينبغي حملهم وولادتهم وتغذيتهم وتربيتهم .

وبقدر ما كانت تستغرق ، لا بعقلها ، بل بكل روحها ، وبكل كينونتها ، في

هذا الشيء المفضل ، كان هذا الشيء يزداد اهمية في عينيها ، فتبدو لها قواها غير كافية ، بحيث لابد لها من تركيز سائر هذه القوى على ذات النقطة دون ان تتوصل أبداً الى تحقيق كل ما يلوح لها ضروريا لا استغناء عنه .

وكانت المناقشات والمحاكمات العقلانية عن حقوق الزوجة ، والعلاقات بين الزوجين ، وحرياتهما وحقوقهما المتبادلة ، رغم ان الناس يومئذ ما كانوا يسمونها « مشاكل » كما يفعلون اليوم ، موجودة مثلها هذه الايام بالضبط ، بيد ان هذه القضايا ما كانت تثير اهتمام ناتاشا ، وهي بكل تأكيد ماكانت تفهمها .

هذه القضايا في الماضي كما في الحاضر ، ماكانت توجد سوى بالنسبة الى الناس الذين لايجدون في الزواج سوى اللذة التي يتبادلها الزوجان ، يعني عنصراً واحداً من عناصره ، وليس معناه الكامل الذي هو العائلة .

هذه المناقشات وهذه المشاكل التي تطرح اليوم ، وهي كثيرة الشبه بقضية معرفة كيف نستخرج اقصى ما نستطيع من لذة من وجبة طعام ، ما كانت تطرح وقتئذ اكثر منها اليوم بالنسبة الى الناس الذين يعتبرون أن الغاية من وجبة الطعام هي تغذية الجسد ، وان الهدف من الزواج هي العائلة .

فاذا كانت الغاية من الطعام هي تغذية الجسد ، فذاك الذي يتناول في وقت واحد وجبتين من الطعام ربما أحس متعة أعظم ، بيد انه لن يبلغ الهدف المطلوب لان المعدة لاتستطيع ان تهضم وجبتين في وقت واحد .

واذا كان الهدف من الزواج هي العائلة ، فذاك الذي يريد ان تكون له زوجات متعددات ، أو تلك التي تطلب أزواجاً كثيرين ربما حصلا على لذة عظيمة ، لكنه لن يكون لهما عائلة في حال من الأحوال .

اذا كانت الغاية في الطعام تغذية الجسد والغاية في الزواج تشكيل العائلة فالمسألة تعود إذن بكل بساطة الى الامتناع عن تناول أكثر مما تستطيع المعدة

أن تهضم من طعام،وإلى الامتناع عن الاقتران بعددمن الزوجات أوالازواج أكبر مما تتطلب العائلة،يعني عدم الاقتران بأكثر من واحدة أوواحد . وكانت ناتاشا تحتاج إلى زوج ، وقد اعطي هذا الزوج لها . ولقد منحها هـذا الزوج عائلة . وهي لم تكن عامية عن ضرورة الحصول على زوج افضل فحسب ، بل لما كانت سائر قوي نفسها لا تسعى سوى لتكريس ذاتها لخدمة زوجها وعائلتها فهي ما كانت تستطيع ان تتصور وما كانت ترى أية أهمية في تصور ما كان يحدث لو كانت الامور تختلف عنها الآن .

وما كانت ناتاشا على العموم ، تحب الناس، فهي لذلك تفضل مجتمع أهليها الكونتيس ماري ، وأخيهاوأمها ، وسونيا . كانت تحب مجتمع الكائنات اللائي تستطيع أن تأتي اليهن في ثياب النوم شعثاء الشعر ، قادمة من غرفة الاولاد تطالعهن بمحيا سعيد على أحد قمط الرضيع الملوث بالصفرة بدلا من الخضرة ، كي تسمع كلمات مطمئنة تقال لها في موضوع الرضيع الذي صارت حالته الصحية باعثة على الارتياح .

وكانت ناتاشا تهمل هندامها بحيث أن أثوابها وزينتها ، وكلماتها التي تتفوه بها بغير مناسبة ، وغيرتها – كانت تغار من سونيا ، ومن المربية ، ومن كل امرأة جميلة او قبيحة – الموضوع العادي لعبث سائر اقربائها وكان الرأي المنتشر أن بيير واقع تحت خف زوجه ، ولقد كانت تلك هي الحقيقة . فمنذ الايام الاول لزواجها ، أعلنت ناتاشا له عن طلباتها . ولقد دهش بيير كثيراً من وجهات النظر الجديدة بالنسبة اليه ، التي تبشر بها زوجته حتى تزعم بأن كل دقيقة من حياته ملك لها وللعائلة . لقد دهش بيير كثيراً في متطلبات زوجه لكنه سر بها ورضخ لها .

كان خضوع بيير على درجة عظيمة من الكمال بحيث لم يكن يجسر لا على

مغازلة امرأة أخرى فحسب ، بل حتى على محادثتها وهو يبتسم ، كما انه لم يكن يجسر على الذهاب إلى النوادي لتناول طعام العشاء ، أو «هكذا» كي يجري الوقت أو أن يصرف المال على اهوائه ، او على القيام بسفرة طويلة سوى من اجل اعماله التي تدخل زوجته في عدادها اعمالها في علوم تعلق عليها أهمية قصوى دون أن تفهم شيئاً منها . وبالمقابل ، فقد كان بيير يملك كل الحق في التصرف كما يشاء لا بذاته فحسب ، بل بكل عائلته وكانت ناتاشا جعلت من نفسها عبدة لزوجها حين تكون وحيدة معه ، فسائر سكان الدار يسيرون على رؤوس أصابعهم حين يعمل بيير ، يعني حين يقرأ أو يكتب في مكتبه وكان يكفي أن يظهر رغبة ما كي تتحقق أمنيته في الحال . كان يكفيه أن يعبر عن رجاء حتى تنطلق ناتاشا على الفور وتنجز رجاءه .

كان البيت بأسره يسير حسب أوامر الزوج المزعومة ، يعني برغبات بيير التي تجهد ناتاشا في سبيل تخمينها . كان اسلوب الحياة ، ومكان الاقامة ، والعلاقات مع الناس ، وروابط الصداقة ، ومشاغل ناتاشا وتثقيف الأولاد ، كانت هذه الأشياء ، جميعاً مقررة حسب إرادة بيير كما اعلن عنها ؛ والاكثر من ذلك أن ناتاشا كانت تجهد لتخمن ما يمكن أن ينبثق من الافكار التي يصوغها بيير خلال أحاديثه . ولقد كانت تصيب دائماً في تخمين هذه الأفكار والرغبات بحيث إذا ما خمنتها مرة تعلقت بحزم بما قد اختارته . وحين كان بيير نفسه يحاول أن يذهب ضد رغبته الخاصة ، فقد كانت تقاومه بنفس أسلحته .

وهكذا فقد اضطرت ناتاشا ، في ظروف صعبة سيحتفظ بيير بذكراها على الدوام ، إثر ولادة طفل بكر هزيل ، أن تغير المرضعة ثلاث مرات حتى قد أمضها اليأس . وعندئذ أوضح لها بيير نظريات روسو التي كان يؤمن بها كل الايمان ، عن استخدام المرضعات المخالف للطبيعة ومضارهن . وهي ولد الطفل

الآخر صمدت ناتاشا رغم معارضة أمها ، والأطباء ، وزوجها نفسه ، وقد هبوا جميعاً يقاومون إرادتها في إرضاعه ، الأمر الذي كان يعتبر وقتئذ شيئاً لا مثيل لها ، بل ضاراً ، ومنذ ذلك الحين وهي ترضع سائر ابنائها .

وكثيراً ما كان يحدث ، في لحظات الغضب ، أن يتخاصم الزوجان . بيد أن بيير يكتشف ، بعد الخصام بوقت طويل — وكان ذلك يبعث فيه فرحاً عظيما ودهشة كبيرة — لا في كلمات زوجه بل في أفعالها أيضاً — فكرته الخاصة التي كانت تقاومها . ولم يكن يجد هذه الفكرة فحسب ، بل كان يجدها أيضاً وقد عريت عن كل المبالغة التي وضعها فيها في حميا النقاش والجدال .

وبعد سبع سنوات من الزواج ، اكتسب بيير — وهو فرح — اليقين الحازم انه لم يكن زوجاً شريراً ، وكان يحس ذلك بصورة خاصة لأنه كان يراه منعكساً في زوجه . كان يشعر أن الصالح والرديء في باطنه يشكلا مزيجاً ويقللان من حدة بعضها بعضاً . بيد أن ما ينعكس في زوجه كان الشيء الصالح حقاً منه ، أما كل ما لم يكن صالحاً تماماً فقد كانت تبعده . ولم يكن هـــذا الانعكاس ينشأ عن فترة منطقية ، بل عن انعكاس آخر ، مباشر وخفي .

الفصل الحادي عشر

عتاب ناتاشا

قبل شهرين ، وكان بيير قد استقر عند آل روستوف ، تلقى رسالة من الأمير فيدور تدعوه إلى بطرسبورج لمناقشة مسائل هامة مع اعضاء الجمعية التي كان بيير أحد مؤسسيها الرئيسيين .

وبعد أن قرأت ناتاشا هذه الرسالة (وكانت تقرأ سائر رسائل زوجها) ، نصحت له من تلقاء نفسها بالذهاب إلى بطرسبورج ، رغم كل مايسببه لها غيابه من ألم كانت تسبغ على سائر القضايا الفكرية والمجردة التي يعني بها زوجها أهمية عظمى من دون أن تفهم شيئاً منها ، وكانت تخشى دائماً أن تكون عائقاً في سبيل هذا النوع من النشاط الذي يقوم به . واجابت على النظرة الخجول المتسائلة التي رماها زوجها بها بعد قراءتها رسالة بأن توسلت إليه أن يذهب ، لكن بشرط ان يحدد لها بدقة موعد عودته . ومنحته فرصة مدتها شهر واحد .

ومنذ انتهى موعد هذه الفرصة ، يعني منذ خمسة عشر يوماً ، وناتاشا قلقة دون انقطاع ، حزينة مكتئبة .

وكان دينيسوف ، هذا الجنرال المتقاعد الممتعض من حالته هذه وقد وصل الدار في هذين الاسبوعين الاخيرين ، ينظر الى ناتاشا بشيء متساو من الدهشة والحزن ، كما ينظر المرء الى صورة كائن عزيز عليه ، لكنها قليلة الشبه به وكان

كل مايراه او يسمعه من فتنة الماضي نظرة ملأى بالضجر ، وأجوبة مقتضبة ، وأحاديث لاتخرج عن موضوع الأطفال مطلقاً .

وكان الاكتئاب والامتعاض ينتاب ناتاشا بصورة خاصة ، أثناء هذه الفترة حتى تجرب أمها ، او أخوها ، أو سونيا ، أو الكونتيس ماري ان يجدوا اعذاراً تبرر تأخر بيير ، وهدفهم في ذلك تعزيتها وتشجيعها .

كانت ناتاشا تقول وهي تتحدث عن ذات هـذه المشاغل التي كانت تؤمن بجزم بأهميتها العظمى .

ــ ماتلك سوى حماقات وسخافات ، سائر مشاغل بيير هذه التي لاتؤدي الى شيء ، وسائر هذه الجمعيات البلهاء أيضاً .

وتغدو الى غرفة الأطفال تعطي ثديها للصغير بيتيا ، ابنها الوحيـد . ولم يكن في منته اي إنسان أن يقول لها أشياء معزية عاقلة قدرهذا الكائن الصغير البالغ ثلاثة أشهر من العمر ، بينما هو يرتاح على صدرهـــا فتحس حركة شفتيه والأنفاس المترددة من أنفه الصغير . كان يقول لهـا : « انت تغضبين ، أنت تغارين ، أنت تريدين الانتقام منه ، أنت خائفة . أما أنا فاني ههنا . وأنا هو ، فماذا يلزمك أكثر من ذلك ؟ » وما كانت تعرف بمـــا تجيب ، فذلك أكثر من الحقيقة .

وخلال هذين الاسبوعين من القلق ، ما أكثر ما لجأت ناتاشا الى الصغير كي تطمئن نفسها . ولقد عنيت به كثيراً ، حتى قد أفرطت في تغذيته فوقع مريضاً وأصابها الهلع لمرضه ، ومع ذلك فقد كان ذلك بالضبط ماتحتاج اليه ، فالعناية التي تقفها عليه تخلصها من قلقها على زوجها .

وكانت ترضع الصغير عندما دقت اصداء عربة بيير لدى وقوفها عند عتبة البوابة ، فجاءت المربية العجوز ، وهي تعرف كم ستسعد سيدتها الآن ، الى

الباب في الحال ، دون أن تثير آي ضوضاء ، واطلت منه بمحياها المشعشع .

وسألت ناتاشا في همس سريع ، وهي تخاف ان تأتي حركة توقظ الرضيع المتلفلف في غلائل النوم :

ـ أهذا هو ؟

فأجابت المربية العجوز بصوت خفيف :

ـ أجل ، يا عزيزتي ، هذا هو .

فوثب الدم الى محيا ناتاشا ، وأتت قدماها بحركة غير ارادية ، بيد ان تلك اللحظة لم تكن او أن القفز والركض وفتح الطفل عينيه من جديد وتطلع اليها ، فكأنه يقول : « أنت هنا ! » ، ثم عاد يرضع الثدي في كسل .

وسحبت ناتاشا الثدي من فمـــه بلطف ، واسلمته الى المربية العجوز وهي تهدهده ، ثم توجهت بخطاً سراع نحو الباب . بيد انها توقفت عند الباب ، فكان ضميرها يؤنبها لما ألم بها من فرح عجول قليلا اذ تركته ، ثم رجعت اليه . وكانت المربية العجوز ، مرفوعة المرفق ، تمرر الرضيع من فوق حافة مهده .

همست مبتسمة ، وصوتها ينم عن تلك الالفة القائمة بينها وبين سيدتها :

ـ اذهبي ، اذهبي ، يا عزيزتي . كوني مطمئنة ، اذهبي !

فانطلقتا ناتاشا ، سريعة الخطا ، نحو الغرفة الاخرى .

وشاهد دينيسوف من جديد ، المرة الاولى ، ناتاشا القديمة وهو يمر في تلك اللحظة من المكتب الى قاعة الاستقبال الكبيرة وغليونه في فمه . كان نور مغتبط ، مشعشع متألق ، يغمر بامواج متدفقة محياها المتجلي .

صاحت به وهي تركض :

هذا هو !

فأحس دينيسوف أنه سعيد بعودة بيير ، رغم أنه لا يضمر له كثيراً من الحب .

ولما بلغت ناتاشا الدهليز، شاهدت شخصاً طويل القامة يرتدي معطف الشتاء منهمكا في رفع الحزام الذي يغطي انفه. وكانت تردد في نفسها: «هذا هو! هذا هو حقاً! انه هنا»، ثم أندفعت، وعانقته، والتصقت به بشدة. مسندة رأسها الى صدره، ثم ابتعدت عنه لتنظر الى محياه الأحمر السعيد، المغطى بالجليد. «أجل، هذا هو! انه سعيد، مسرور...»

ولكنها تذكرت بغتة سائر عذابات انتظارها خلال هذين الاسبوعين المديدين فتلاشى الفرح الذي كان ينير محياها، فعقدت مابين حاجبيها، وصبت على زوجها سيلا من العتابات والكلمات المريرة:

ــ أجل، أنت مسرور. أنت مسروراً جداً، وقد تسليت جيداً... وانا اثناء ذلك؟.. لو كنت تشفق على الاطفال فقط: اني ارضع، وقد فسد حليبي... وقد كاد الصغير يلاقي حتفه. اما أنت، فتتسلى، اجل تتسلى...

كان بيير يعرف أنه غير مذنب مادام لم يستطع مجيئاً بصورة أقل؛ وكان يعرف أن انفجار الغضب هذا من قبل ناتاشا في غير محله، وأنه سيخمد في دقيقتين على أية حال. وكان يعرف على الأخص أنه، هو، سعيد مبتهج وكان يود أن يبتسم، لكنه لم يجرؤ على التفكير في ذلك. وساد الهلع ملامحه، وانحنى ظهره، وقال:

ــ لم استطع! اقسم لك. لكن بيتيا، كيف حاله؟

ــ الآن، هو في حالة حسنة، هيا، تعال! كيف لاتخجل من نفسك؟ لو عرفت إلام صرت أثناء غيابك، والعذاب الذي عانيت...

ــ أنت لست مريضة؟

فأجابت دون أن تفلت يده:

ــ تعال، تعال.

وانتقلا إلى جناحهما .

وعندما جاء نيكولا وزوجته يفتشان عن بيير ، وجداه في غرفة الأطفال يحمل على راحة يده اليمنى العريضة رضيعه الذي استيقظ ، وكان آخذاً في تدليله وكان وجه الصغير العريض، بفمه الخالي من الاسنان والمفتوح كل سعته، يحمل ابتسامة هانئة مرحة .وكانت العاصفة قد مرت منذ زمن طويل،وشمس مرحة تضيء الأونة محيا ناتاشا بينما هي تنظر بحنان إلى زوجها وابنهما معاً .

استفهمت :

— وهل ناقشت الأمير جيداً في سائر القضايا ؟

— أجل جيداً

— أترى كيف يمسك به (كانت ناتاشا تعني رأسه) لكنه اشد ما أخافني والأميرة ، هل رأيتها ؟ أصحيح أنها عاشقة ذلك ...

— أجل ،تصوري ...

وفي هذه اللحظة دخل نيكولا والكونتيس ماري ، فانحنى بيير يقبلهما دون أن يترك ابنه ، وراح يجيب عن اسئلتهما لكنه كان من الواضح أن الرضيع الصغير ، بطاقيته ورأسه المتأرجح ، اخذ كل انتباه بيير رغم كل ما في الحديث الذي يتبادلونه من أهمية .

قالت الكونتيس ماري ، وهي تنظر إلى الطفل وتلاعبه :

— ما ألطفه !

واسترسلت تقول ، وهي تلتفت نحو زوجها :

— هذا مالا أستطيع ان افهمه، يا نيكولا . لماذا لاتحس فتنة هذه الكائنات الصغيرة الرائعة ؟

فأجاب نيكولا ، وهو يرمي الرضيع بنظرة باردة :

ـ لا افهم شيئاً في ذلك ، ولا استطيع . إنه قطعة من اللحم لا اكثر . هل تأتي ، يا بيير ؟

فأضافت الاميرة ماري مبررة زوجها :

ـ ومع ذلك فليس أب أشد حناناً منه ؛ لكنه ينبغي أن يكون لهم سنة واحدة من العمر على الاقل ، وإما ...

فقالت ناتاشا :

ـ أما بيير ، فهو يعرف جيداً كيف يكون مربية أطفال . وهو يدعي ان يده صنفت على قالب تفاهم . انظري بالأحرى ...

وصاح بيير بغتة ، وهو يضحك :

ـ أجل ، لكن ليس من أجل ذلك وحده ..

ثم أخذ الصغير ، واعاده الى المربية العجوز .

الفصل الثاني عشر

الكونتيس العجوز

كانت عوالم عديدة مختلفة تحيا في ليسيبيا جوري ، كما هي الحال في كل عائلة حقيقية ، كان كل فرد يحتفظ بعاداته الخاصة . ويتسامح مع ذلك في علاقاته بالآخرين ، بحيث كان الكل يذوبون في مجموع متناسق . فاذا ما نزل حادث بساحة البيت ، فهو فرح أو حزن بالنسبة إلى سائر هذه العوالم على حد سواء وعلى أية حال ، فقد كان لكل من هذه العوالم ، بصورة مستقلة عن العوالم الآخرى ، أسبابه المخصوصة تماماً التي تجعله يغتبط أو يتألم لهذا او ذاك من الأحداث .

وهكذا فإن عودة بيير ، هذا الحادث المفرح الهام ،قد اعتبره الجميع هكذا دون استثناء .

وكان الخدم ، وهم افضل حكام على أسيادهم ، لأنهم يدينونهم لا تبعاً لأحاديثهم وتعابيرهم عن عواطفهم ، بل تبعاً لأفعالهم وأسلوبهم في الحياة سعداء بقدم بيير لأنهم كانوا يعرفون ان الكونت سيكف بعد الآن عن الخروج يومياً لتفقد ملكيته ، وأنه سيكون اكثر مرحاً ولطفاً ، وفيما عدا ذلك فإن كلا منهم سيتلقى هدية ثمينة بمناسبة العيد

وكان الأولاد والمربيات مغتبطين بقدم بيير ،فهو نسيج وحده في قدرته على

إشراكهم في الحياة العامة ، كان هو الوحيد الذي يعرف كيف يعزف على البيان هذه القطعة الاسكوتلاندية (المعزوفة الوحيدة التي يعرفها) التي يزعم أنها يمكن أن توافق سائر الرقصات التي يمكن أن يتصورها الخيال — دون حساب للهدايا التي يحملها بكل تأكيد للجميع دونما تفريق —.

وكان نيكولا الصغير ، وله من العمر الآن خمسة عشر عاماً ، وهو فتى ذكي ، ناحل ، مروض كستنائي الشعر المجعد ، كثير جمال العينين ، مغتبطاً لأن العم بيير ، كما كان يناديه ، هو عنده موضوع إعجاب وحب جموحين . ولم يجرب أي انسان أن يوحي اليه بحب مخصوص لبيير الذي ما كان يراه إلا في النادر من الأحايين . وكانت الكونتيس ماري ، التي أخذت أمر تربيته على عاتقها ، قد جهدت بكل ما اوتيت من قوى كي تحمل نيكولا الصغير على حب زوجها بقدر ما كانت تحبه هي نفسها ؛ وكان الصغير يحب عمه في الحقيقة، لكن بشيء غير محسوس من الازدراء ، بينا هو يعبد بيير عبادة حقيقية . وما كانت به رغبة في الصيرورة فارساً ، أو الحصول على صليب القديس جورج مثل عمه نيكولا ؛ كان يريد أن يكون عالماً ، ذكياً ، طيباً مثل بيير . وكان محياه يتألق سعادة على الدوام في حضرة بيير ، لكنه يحمر خجلا ويضيق نفسه عندما يخاطبه عمه . وما كان ينطق كلمة واحدة تسقط من شفتي بيير ، ومن ثم يتذكر ذلك وحده أو مع ديسال ، ويحاول أن يخمن معنى كل ما سمعت أذناه . وكانت حياة بيير الماضية ، وأحزانه حتى عام ١٨١٢ (كان قد شكل عنها صورة غامضة شعرية بناء على الاحاديث التي سمعها) ومغامراته في موسكو ، ووقوعه في الاسار وأفلاطون كاراتاييف (الذى حدثه بيير عنه) وحبه لناتاشا (التي كان الصبي يحبها أيضاً بعاطفة خاصة) ، وبصورة خاصة صداقته لأبيه الذي ما كان يستطيع أن يتذكره ، هذا كله كان يجعل من بيير ، في عينيه ، بطلاً وقديساً .

لقد استنتج الفتى من بعض نقط الحديث الذي تساقط اليه عن ابيه وناتاشا ومن العاطفة التي تترد في صوت بيير حين يتحدث عن المرحوم ، ومن الحنان المتحفظ والحار الذي تتحدث به ناتاشا أيضاً عنه ، استنتج وقد بدأ يستيقظ على عاطفة الحب أن أباه قد أحب ناتاشا وسلمها لصديقه عند موته وكان هذا الأب الذي لا يتذكره ، يشكل في نظره الوهية لا يمكن أن تسبغ عليها صورة معينة وما كان يفكر فيه الا وينقبض قلبه وتترقرق دموع الحزن والحمية في عينيه وهكذا فقد كان نيكولا الصغير سعيداً اذن لعودة بيير

وكان المدعوون سعداء أيضاً ؛ كان بيير بفضل بشاشته وجذله ، يمكن من اواصر أعضاء الجمعية بأسرها .

وكان سائر الكبار في الدار ، بالاضافة الى زوجته مغتبطين اذ التقوا مجدداً بالصديق الذي تصير الحياة الى جانبه أخف وطأة واكثر هدوءاً

وكانت النساء العجائز مسرورات بالهدايا التي يحملها . وبصورة خاصة يكون ناتاشا ستستعيد مرحها وتذوقها للحياة

وكان بيير ؛ وهو يشعر أساليب النظر المختلفة التي ترى اليه بها هذه العوالم المتعددة ؛ يمنح كلا منها ما كان يتوقع منه .

كان بيير ، هذا الرجل الأكثر سهوا ونسياناً بين البشر ، قد ابتاع كل ما تشير اليه لائحة وضعتها زوجته ، من دون أن ينسى شيئاً من توصيات حماته وصهره ولا قطعة القماش من اجل ثوب بيلوفا العجوز ، ولا الدمى من أجل أبناء أخيه ولقد وجد من الغرابة في الأيام الأولى من زواجه أن تتطلب زوجه منه ألا ينسى شيئاً مما يجب أن يشتري ، والأغرب من ذلك أيضاً انها غضب بصورة جدية حين نسي كل شيء في رحلته الأولى بعد الزواج . لكنه اعتاد هذا الأمر فيما بعد . وإما أدرك أن ناتاشا لاتطلب لنفسها ولا توصيه على شيء من اجل

الآخرين إلا عندما يتطوع لذلك من تلقاء نفسه ،فقد صار يجد الآونة لذة غير منتظرة ،لذة صبيانية بأن يتبضع الهدايا لسائر أهل الدار ،وما كان ينسي واحداً منهم قط. واذا استحق أي لوم ناتاشا بعد الآن ، فذلك لابتياعه أشياء كثيرة وبثمن غال جداً أيضاً . لقد كانت ناتاشا ، الى جانب ما يسميه الناس عيوبها (اهمالها لهندامها وزينتها) ، وهي أمور كان يراها بيير صفات حميدة تجمع البخل أيضاً

ومنذ أخـــذ بيير يحيا في سعة مع عائلة تتطلب مصاريف باهظة ، وحبه والدهشة مستولية عليه أنه يعرف أقل من قبل بمرتين ، وأن اعماله التي ساءت في الماضي ، خاصة بفضل ديون زوجته الأولى ؛ قد بدأت تتحسن الآن.

كان يعيش بمصاريف أقل لأنه أصبح مرتبطاً بعلاقات عائلية . فقد تنازل عن الزينة الأشد كلفة ، ألا وهي ذلك الأسلوب في الحياة الذي يبدله المرء في كل لحظة ، وما عاد يرغب فيه بعد الآن . كان يشعر أن مجرى حياته قد ثبت من اليوم فصاعداً بصورة نهائية حتى وفاته ، وأنه ما عاد في طاقته أن يغيره ، وبالتالي فان مجرى هذه الحياة قد قلت تكاليفه .

كان بيير ينشر مشترياته باسم الوجه مرح السيماء . قال وهو يفرد ، مثل بائع ، قطعة من قماش :

— ايه ! أهي جميلة !

ونقلت ناتاشا ، وهي تضع ابنتها البكر على ركبتها ، نظراتها المتألقة من زوجها الى ما يريها اياه بين يديه ، وقالت :

— أهو من أجل السيدة بيلوف ؟ رائع !

ولمست النسيج بيدها واسترسلت تقول :

— هذا يساوي روبلاً على الأقل للمتر الواحد .

فأعلن بيير انها عن سعره ، فهتفت :

— انه غالي الثمن ! لكن اشد ما سيكون الصغار مسرورين، وأمي ايضاً !
وأضافت ، دون أن تتمكن من كبح ابتسامة علت شفتيها وهي تعجب بمشط ذهبي مزين بالآلىء قد انتشر زيه في تلك الأحيان .
— لكنك أخطأت إذ ابتعت لي هذا الشيء !
— إن السيدة أديل قد اجبرتني على شرائه . اشترِ ، هيا اشترِ ، هذا ما ألحت به عليّ .
— ولكن متى أحمله ؟
وزرعته ناتاشا في ضفائرها :
— سأحمله يوم آخذ ماشا الى مابين الناس . لعل موضته تعود فتنتشر وقتئذ . هيا ، فلنذهب .
وبعدما جمعا الهـــدايا ، مرا اولاً بغرفة الأطفال ، ثم توجها إلى غرفة الكونتيس العجوز .
وكانت هذه الكونتيس تجلس كعادتها مع السيدة بيولوف يلعبان الورق عندما دخل بيير وناتاشا الى الصالة ، ورزمها تحت إبطها .
كانت الكونتيس العجوز قد تجاوزت الستين ، وكان شعرها أبيض تماماً ، وهي تلبس طاقية من الصوف تؤطر كل محياها . وكان وجهها يغص بالغضون وقد انقلبت شفتها العليا الى الداخل قليلاً ، بينا أظلمت عيناها وتلاشى لونها .
كانت تحس أنها منسية بصورة غريبة في العالم ، لا تتذوق العيش ولا تجد له مبرراً . وذلك منذ وفاة ابنها وزوجها في فاصل قصير من الزمن . كانت تأكل ، وتشرب وتنام ، وتقعد بين الناس ، لكن لا تحيا البتة . كانت الحياة تتركها لا مبالية تماماً ، فهي لا تنتظر منها بعد الآن سوى الراحة وهذه الراحة لا تمكن ان تجدها سوى في الموت ولكن ما دام الموت لم يأت بعد ، فلا بد من الاستمرار في الحياة ،

يعني لا بد من استخدام الانسان لقواه الحية كان المرء يلاحظ عندها مايلاحظ عادة عند الاطفال الصغار والأشخاص الذين تقدمت السن بهم كثيراً، وقد بلغ حده الأقصى، فليس في حياتها أي هدف خارجي، ولم يبق منها فيما يبدو سوى الحاجة الى تحريك ميولها وقابلياتها المختلفة. كانت في حاجة الى الأكل، والنوم، والتفكير، والحديث، والبكاء، والاشتغال بأمر ما، والغضب . . . الخ، وذلك بمقادير قليلة، فقط لأنها تملك معدة، ودماغاً، وعضلات، واعصاباً وكبداً. وكانت تنجز ذلك كله دون ان يحثها عليه أي دافع خارجي، وليس مثل الاشخاص المتقدمين في السن من لا يرى خلف الهدف الذي يسعى اليه الهدف الآخر الذي هو بكل بساطة استخدام طاقتهم. كانت تتحـــدث بمجرد انها تحتاج، حكمياً، ان تقوم بقليل من العمل كي تشغل رئتيها ولسانها. وكانت تبكي مثل طفل صغير لأنها في حاجة الى التمخط، وهكذا دواليك. إن كل ماهو غاية عند الكائنات المكتملة القوة لم يكن عندها سوى ذريعة.

وهكذا في الصباح، خاصة اذا كانت تناولت طعاماً دسماً في العشية، كانت تشعر بالحاجة الى الغضب. فتختار لذلك أول ذريعة تقع عليه، ألا وهي صمم السيدة بيولوف.

وتبدأ تقول لها أي شيء كان بصوت خفيض، من طرف الحجرة الآخر فتهمس مثلاً :

ـ اليوم، أظن ان الطقس شديد الحرارة، ياعزيزتي.

وعنده تجيب السيدة بيولوف : «ولكن اجل، إنهم ههنا» فهي تهمهم في غضب إذن : ياإلهي، « لشد ماهي حمقاء وسخيفة » .

وكانت الذريعة الثانية لغضبها هي الطباق الذي تتنشقه، والذي تجده تارة كثير الجفاف، وتارة كثير الرطوبة، وتارة خشناً قليل النعومة. وبعد هذه الفترات من الغضب، كانت الصفراء تتدفق إلى محياها، وهكذا كانت الوصيفات

يعرفن بدلائل يقينية متى ستعيد بيولوف صماء من جديد ، ومتى سيصير الطباق كثير الرطوبة من جديد ، ومتى سيصفر لون سيدتهن مجدداً . وكما انها كانت تحتاج في الأحايين إلى تشغيل صفرائها ، كذلك لم يكن لها بد من استخدام الامكانيات الباقية لها ومن التفكير ،بحيث ان الألعاب الطويلة بالورق تصلح ذريعة لها في سبيل ذلك . وإما تحتاج إلى البكاء ،فهي تفكر في الكونت المرحوم وإما تحتاج إلى القلق ، فهي تعني بنيكولا وصحته . وإن كانت تحتاج إلى قول اشياء خبيثه ، فالكونتيس ماري هدف هجومها اذن وإن كانت تحتاج إلى تمرين اعضائها الصوتية ،الأمر الذي يحدث في غالب الأحيان حوالي الساعة السابعة بعدما تأخذ قسطها من الراحة والنوم في النور المعتم لغرفتها ، فذريعتها هي إذن تكرار نفس القصص لنفس المستمعين .

وكان سائر المستمعين في الدار يدركون حالة السيدة العجوز ، رغم ان اياً منهم لم يتحدث عنها . وكانوا جميعاً يبذلون جهدهم لارضائها . وكانت النظرات الخاطفة ونصف الابتسامات المكتئبة التي يتبادلها نيكولا ، وبيير ، وناتاشا ، والكونتيس ماري تشهد وحدها ان الجميع يفهمون هذه الحال التي صارت اليها.

بيد ان هذه النظرات ، فيما عدا ذلك ، كانت تقول اشياء اخرى . كانت تقول إن الكونتيس العجوز قد انهت مهمتها في هذا العام . وانها لم تكن على الدوام كما هي الآن ، وانا جميعاً سنصير مثلها يوماً ما ، وانه ينبغي ان نكون سعيدين بالنزول عند رغباتها واهوائها ، وان نتمالك انفسنا من اجل هذا الكائن الذي كان عزيزاً جداً في الماضي ، والذي كان يطفح حياة من اجلنا في غابر الأيام ، والذي صار اليوم باعثاً على الشفقة حتى درجة بعيدة . كانت سائر هذه النظرات تقول : .

ولم يكن في الدار سوى الأشخاص الاغبياء تماماً او الخبثاء ، والأطفال الصغار ، لا يفهمون ذلك فيتجنبون لهذا السبب الكونتيس العجوز ويبتعدون عنها .

الفصل الثالث عشر

حول السماور

عندما دخل بيير وزوجه الى الصالة، كانت الكونتيس في تلك الحال العادية حيث تمس الحاجة الى ممارسة ذكائها بالقيام بتمرين من الصبر الطويل ، وهكذا كان من الواضح ، بالرغم من تفوهها بالكلمات التي تكررها كلما عاد بيير أو ابنها من السفر :

— حسناً : «لقد حان وقت العودة ، ياعزيزي ؛ لقد انتظرناك كفاية ، وهذا أنت أخيراً . شكراً لله » وكلما تلقت هدية ما ! « ليست الهدية التي تسرني ، ياصديقي الصغير . شكراً لأنك فكرت أن تأتي بشيء ما لعجوز مثلي » — كان من الواضح أن بيير يزعجها في تلك اللحظة إذ يعكر صفو لعبتها التي لم تكن تسير في طريق النجاح وانهت اللعبة ، وعندئذ فقط التفتت صوب الهدايا التي كانت تتألف من علبة لورق اللعب ذي صنع جميل للغاية ، ومن قدح فني أزرق اللون له غطاء لطيف قد رسمت عليه جماعة من الرعيان ، ومن علبه طباق ذهبية يزينها رسم الكونت ، قد اوصى بيير عليها عند عميل في بترسبورج (وهي ما كانت الكونتيس تتوق إليه منذ زمن طويل) . ولم تكن بها رغبة في البكاء في تلك اللحظة ، ولذا فقد نظرت الى الصورة بلا مبالاة كي لاتهتم سوى بالعلبة وحدها

قالت مكررة جملها المعتادة :

ـ شكراً ياصديقي ، لقد منحتني سروراً عظيما . لكن الأمر الأفضل هو وجودك ههنا بلحمك وعظمك . والا ، فلا معنى لذلك كله . ينبغي ان توبخ زوجته على الأقل ، فهي عديمة الحس السليم ! انها اشبه بالمجنونة حين تكون غائباً ، فهي لا ترى شيئاً ولا تتذكر شيئاً .

واسترسلت تقول .

ـ آنا تيمو فيئيفنا ، انظري العلبة التي جاءنا ابننا بها .

فاعجبت السيدة بيولوف بالهدايا وأشرقت فرحاً حين رأت قطعة النسيج الخاصة بها .

كان ثمة اشياء كثيرة يريد بيير ، وناتاشا . ونيكولا ، والكونتيس ماري . ودينيسوف ، ان يتبادلوا الحديث في موضوعها ، ولا يستطيعون ذلك امام الكونتيس العجوز ، ليس لأنهم يخفون هذه الاشياء عنها ، بل لانها ماكانت تعرف الا الشيء القليل مما يجري حولها ، بحيث اذا فتح حديث في حضورها ، فهي تروح تطرح الاسئلة ذات اليمين وذات اليسار ، وتطلب ان يعاد على مسامعها من جديد ماسبق فقيل لها مائة مرة : ان فلانا مات ، وان فلانا تزوج ، وهي أمور ماكانت تنجح في تذكرها . وتجمع أهل الدار أثناء ذلك ، كما هي العادة ، في الصالون حول السماور ، حيث اضطر بيير أن يجيب عن عدد كبير من أسئلة الكونتيس العجوز العديمة النفع ، فيقول لها وان الامير فاسيلي قد شاخ ، وان الكونتيس ماري آلكسيفنا ما برحت تذكرها وهي ترجوها ألا تنساها ، وهكذا دواليك .

واستمر هذا الحديث الذي لا يثير اهتمام احد ، لكن الضروري رغم ذلك ، طوال فترة تناول الشاي . وكانت سونيا تجلس بجانب السماور ، وقد اجتمع سائر

اشخاص العائلة الكبار حول المائـــدة المستديرة ، بينا الأطفال ، والمربيات والمربون قد تناولوا نصيبهم من الشاي من قبل ، وأصواتهم تدف الآونة مـن المخدع المجاور حيث تجمعوا . وكان كل يحتل مكانه المعتاد ، فنيكولا يجلس بجانب المدفأة ،أمام مائدة صغيرة يقدم له الشاي عليها . وكانت ميلكا العجوز ، الكلبة العداءة ، ابنة ميلكا الاولى ، وهي ذات رأس أبيض تماماً تبرز فيه عينان سوداوان كبيرتان ، ترتاح على مقعد الى جانبه . وكان دينيسوف ، بشعره المصفف ، وشاربيه ، وسالفيه اللذين وخطهما المشيب ، وبزة الجنرال المفكوكة الأزرار التي يرتديها ، يجلس بجانب الكونتيس ماري ، اما بيير فكان موقعه بين زوجته والكونتيس العجوز ، وكان يروي حديثاً يعرف أنه يهم السيـدة العجوز ويمكن أن يفهم منها ،فهو يتحدث عن الحوادث السياسية وعن الاشخاص الذين كانو يشكلون في الماضي حلقة الكونتيس-حلقة تعج بالحياة والنشاط في ايامها- لكن اعضاءها قد تبعثر اليوم معظمهم في مختلف أرجاء العالم ، وهم يكملون بقية أيام عمرهم ، مثلهم مثلها ، يلتقطون الثمرات الاخيرة لما زرعوه في ماضي ايامهم . وعلى أية حال ، فان معاصري الكونتيس هؤلاء يشكلون بالنسبة اليها العالم الحقيقي الجدي الوحيد . وكانت ناتاشا تدرك في حيوية بيير أن الرحلة قد أثارت اهتمامه كثيراً ، وان في جعبته أشياء كثيرة يرويها ، لكنه لا يجرؤ على المباشرة بذلك في حضرة الكونتيس العجوز . ولم يكن دينيسوف ، وهو ليس عضواً في العائلة ، بقادر على فهم تحفظ بيير ، فهو رغم امتعاضه يعني كثيراً بالحوادث الجارية في بيترسبورج ،ولا ينى يستحث بيير كي يقدم التفاصيل عن القضية الجديدة الخاصة بفرقة سيميو نوفسكي ،وأراكتشيف ، وجمعية الكتاب المقدس . وكان بيير ينحرف احيانا فيروي قصة ما ، لكن ناتاشا ونيكولا يسرعان فيردانه في الحال الى الحديث عن صحة الامير ايفان والكونتيس ماري أنتوتوفنا.

وسأل دينيسوف :

ـ هيا ، انما هذا جنون . وغوستر ذاك ، وتاتارينوفا [1] أيمكن أن يستمر هذا الأمر ؟

فهتف بيير :

ـ أجل ، هذا يستمر ، وأكثر من أي وقت مضى : ان جمعية الكتاب المقدس [2] هي كل الحكومة الآن .

فسألت الكونتيس العجوز التي أنهت قدحها ، فهي تبحث الآن عن حجة تتذرع بها كي تغضب

ـ عما تتحدث ، ياصديقي العزيز ؟ ماذا قلت ؟ الحكومة ؟ أنا لا أفهم .

فتدخل نيكولا في الحديث قائلاً ، وهو يعرف كيف يترجم الأشياء الى لغة والدته :

ـ لكنك تعرفين جيداً ياأماه ، أن الأمير الكسندر نيكولا يفتش غولستين قد نظم جمعية ، وهو لذلك على قدر من القوة فيما يقولون .

فقال بيير

ـ أراكتشيف وغوليتسين انهما كل الحكومة اليوم . وأية حكومة ! انهما يريان المكائد في كل مكان ، ويخافان من كل شيء

(١) وقع الكسندر الأول ، بعد عام ١٨١٥ ، تحت تأثير الصوفية ، والمتطهرين وأصحاب الرؤوس الذي كان غوستر وتاتارينوفا مشهورين بينهم حتى درجة بعيدة .

(٢) أسس أ . ن غوليتسين ، وهو المشرف على المجمع المقدس آنذاك ، جمعية الكتاب المقدس عام ١٨١٢ ، وهي نسخة عن الجمعية العاملة في انكلترا . وقد حلت هذه الجمعية فيما بعد ، اثر اتهامها بنشر كتب الحادية .

فقالت الكونتيس العجوز متعضة :

— كيف ؟ كيف يمكن أن يكون الأمير الكسندر ونيكولا فيفتش مذنباً ؟ انه رجل كريم للغاية وقد التقيت به عند ماري أنتونوفنا .

ولما شاهدت ان الجميع ياوذون بالصمت ، فقد ازدادت حنقاً وأضافت :

— في هذه الأيام يريد كل امرىء ان يدين سائر الناس جمعية النجيلية ، أين الشر في هذا ؟

ونهضت صارمة الوجه ، فنهض الجميع ايضاً ، واتجهت الى مخدعها لتعاود اتخاذ مكانها الى مائدتها .

ودق في الغرفة المجاورة ، في مـــلء الصمت الأليم الذي ساد المكان ، ضحكات الأطفال واصداء اصواتهم . مما لاريب فيه ان شيئاً يبعث على المرح بصورة خاصة قد اجتاح ذلك العالم الصغير .

كان صوت ناتاشا الصغيرة الحاد الفرح يهتف فوق بقية الأصوات :

— لقد تم ، لقد تم

فتبادل بيير نظرة مع الكونتيس ماري ونيكولا (اما ناتاشا فكان لا ينقطع البته عن النظر اليها) وافترت شفتاه عن ابتسامة سعيدة

صاح :

— يالها موسيقى رائعة !

فقالت الكونتيس ماري :

— انها آنا مكاروفنا قد انهت الجوربين .

فهتف بيير وهو يقفز من مكانه :

— اوه ! انا ذاهب لأري .

وتوقف عند الباب وقال :

ـ اتعرفين لماذا احب هذه الموسيقى بصورة خاصة ؟ذلك انهم اول من يخبرني ان الأمور جميعاً تسير على مايرام ، اليوم وانا قادم ، كان خوفي يتفاقم بقدر ما اقترب من البيت . و ما كدت ادخل الدهليز حتى سمعت اندريوشا يضحك بأعلى صوته ، فقلت في نفسي : : كل شيء على مايرام .

فوافق نيكولا على كلامه بقوله :

ـ اني اعرف . وانا لا اجهل هـــذا الشعور . لكنه ينبغي الا اذهب للاطلاع ، فهذان الجورنان مفاجأة يخبئونها لي .

ومر بيير الى غرفة الاطفال حيث كانت الهتافات والضحكات تزداد رنيناً وسمع صوته ينادي :

ـ هيا انا ماكاروفنا ، أنت والأطفال ، هنا الى وسط الغرفة . تحت امرتي واحد ، اثنان ، وعندما اقول ثلاثة ... انت ، ابق هنا ، وانت بين ذراعي .. مفهوم ؟ واحد ، اثنان ...

وكان صمت قصير ...

ـ ثلاثة !

وملأ الاطفال الغرفة بزمجرة ظافرة وهتفوا :

ـ اثنان ، هناك اثنان !

كان ثمة جوربان تحيكهما انا ماكاروفنا معاً ، بسر لايعرفه أحد سواها ، فاذا اكتملا اخرجتهما الواحد من الأخر بمهابة واحتفال ، في حضور الأطفال جميعاً !

الفصل الرابع عشر

في مكتب نيكولا

وما اسرع ان جاء الاطفال ليتمنوا لأهل البيت ليلة سعيدة ، وبعدما قبلوا والديهم ، انحنى المربون والمربيات وذهبوا بعالمهم الصغير ، ولم يبق سوى ديسال مع تلميذه ، ودعا المربي نيكولا الصغير الى الخروج بصوت خفيض ، فأجاب التلميذ بصوت خفيض ايضاً :

– كلا ، انها السيد ديسال ، سأطلب من عمتي السماح بالبقاء

وقال ، مقترباً من الكونيتس ماري :

– عمتاه ، اسمحي لي بالبقاء .

كان محياه يعبر عن الرجاء ، والانفعال ، والحماسة . وتطلعت الأميرة ماري اليه والتفتت صوب بيير ، وقالت له :

– عندما تكون هنا . فهو لا يستطيع الذهاب .

فقال بيير ، وهو يمد يده الى الاستاذ السويسري :

– سأجيئك به حالاً ، ياسيد ديسال عم مساء .

وتوجه ، مبتسما ، الى نيكولا الصغير :

– يلوح لي اننا لم نلتق بعد ، نحن الاثنين ؟

والتفت الى الكونتيس ماري واضاف :

ـ آه : لشد ماشرع يشبهه ، ياماري.

فسأل الطفل ، وقد اصبح قرمزي اللون بغتة ، وراح يتطلع الى بيير من اسفل الى اعلى بعينين تتألقان اشراقاً :

ـ ابي ؟

فأشار بيير برأسه ووصل مـــا انقطع من حديث مع الأطفال . وتابعت الكونتيس ماري عملها التطريزي ، بين عينا ناتاشا لاتغادران زوجها لحظة واحدة وكان نيكولا ودينيسوف قد نهضا ، وتناول كل منهما غليونه ، وراحا يطرحان الأسئلة على بيير وهما يدخنان ويتناولان الشاي من يد سونيا التي تقف بعناد ، ودلائل الحزن على سيماها ، قريباً من السماور . وكان الصبي المريض الملامح ذو الشعر المجعد والعينين البراقتين قد انزلق في زاوية من الغرفة دون ان يلاحظه أحد ، وأدار رأسه ذا العنق الناحل ، البارز من ياقة ضيقة ، نحو الجهة حيث يقف بيير ؛ وكان يرتعش من حين لآخر ، واقعاً كما يظهر تحت سلطان احساس قوي جديد ، ويهمس بشيء مابينه وبين نفسه .

كان الحديث يدور في موضوع الاشاعات المنتشرة اليوم ، والصادرة من طبقات الحكومة العليا ، والتي يجد معظم الناس أن كل أهمية السياسة الداخلية متمركزه فيها . وكان دينيسوف ، المستاء من الحكومة بسبب مالحق به من فشل في حياته السياسية ، يتلقى بفرح انباء الحماقات التي ترتكب في رأيه ، في بطرسبورج في الوقت الراهن ، ويقدم ملاحظات مريرة حاده عن كل ما يقدم بيير من تقارير .

فيما مضى ، كان يجب ان يكون المرء المانياً ، أما اليوم فيجب ان يرقص مع تاتارينوفا والسيدة دي كرودنر ، يجب ان يقرأ . . . ايكهار تشوش

وشركته[1] آه ! لو كان يمكن ان نصف ههنا شجاعة بونابرت : لقد كان يعرف اذن كيف يتدبر أمره كي يكنس سائر هذه الحماقات .

واضاف بصوت مرتفع :

– أسألكم بربكم ما معنى ان تعطي فرقة سيميونوفسكي للجندي شوارتز[2]

وكان نيكولا يعتبر ، رغم عدم احساسه بالحاجة الى أن ينظر الى الاشياء نظرة الشر مثل دينيسوفسكي ، أنه من الواجب والمهم جداً أن يقول كلمته في الحكومة . كان يرى أن تعين فلان وزيراً لهذه الوزارة أو تلك ، وتعين فلان حاكماً عاماً لهذه المقاطعة أو تلك ، وأن هذه الكلمة التي تفوه بها الامبراطور أو تلك الكلمة التي تفوه بها ذاك الوزير هي شؤون ذات أهمية عظمى ، فهذا يسأل بيير عنها . وكانت أسئلة هذين المتحدثين لاتسمح للحديث أن يخرج من إخبار هذا النوع من الشائعات الثقات المعهودة في الطبقات العليا من الجهاز الاداري .

بيد أن ناتاشا ، وهي التي تعرف سائر إحاسيس زوجها وافكاره ، خمنت أن بيير يود منذ زمن طويل ، دون أن يتمكن من ذلك ، ان ينتقل الى موضوع آخر فيتحدث عن المسائل الخصوصية التي حثته الى القيام بهذه الرحلة الى بيترسبورج كي يسأل الصفح من صديقه الجديد الأمير فيدور . وهكذا فقد أسرعت الى

---

(۱) السيدة دي كرودنر (۱۷۱٤ – ۱۸۲٤) صوفية روسية قدمت الى الكسندر عام ۱۸۱٥ ، في هلبرون في المانيا ، وكان لها عليه تأثير دائم .

ايكهارتشوش : كاتب صوفي ترجمت مؤلفاته الى الروسية وانتشرت كثيراً مادام ناظر المحطة ، في قصة جوجول : « النفوس الميته » كان يقرؤه .

(۲) كانت فرقة سيميونوفسكي قد ثارت ، لأن الجنود ، يطيقوا ان يساقوا الى الفضيحة من قبل الكولونيل شوارتز ، صنيعة اراكتشيف الذي ما كان الامبراطور راغباً أن يجحد به . وقد تساءل نيكولا عزي هذا التمرد الى الجمعيات السريه !

معونته فسألته عن قضيته مع الأمير فيـــدور .

فسأل نيكولا ؟

— ماهي القضية ؟

فقال بيير ، وهو يدور بنظره حواليه :

— الشيء نفسه دائماً . ان الجميع يرون ان الأمور لاتسير باستقامة ، وأن هذا لايمكن أن يدوم ، أنواجب كل امرىءشريف أن يفعل في حدودقواه

فقال نيكولا وهو يعقد ما بين حاجبيه :

— وما يستطيع الناس الشرفاء ان يفعلوا ؟ ماذا نستطيع ان نفعل حقاً ؟

— حسناً بالضبط . . .

فقال نيكولا :

فلننتقل الى مكتبي .

وسمعت ناتاشا صوت المربية العجوز وكانت تتوقع منـذ فترة طويلة أن ينادوها لارضاع صغيرها ، فعدت الى غرفة الأطفال . ولحقت الاميرة ماري بها بينما انتقل الرجال الى مكتب نيكولا ، يتبعهم الصغير نيكولا بولكونسكي دون أن يلاحظه عمه ، وذهب ينزوي في الظل ، قريباً من النافـذة بجانب طاولة العمل .

وسأل دينيـوف :

— اذن ماذا تفعل انت ؟

وقال نيكولا :

— أوهام دائماً .

وشرع بيير يقول ، دون أن يجلس ،وهو يذرع أرض الغرفة بخطاه تارة ويتوقف تارة اخرى ،يتابع الاشارات بيديه،بينما ينطلق الصوت من فمه صافراً :

– حسناً اليكم رأيي ! إن الوضـــع في بيترسبورج هو كما يلي : إن الأمبراطور لا يتدخل في أي شيء ، على الاطلاق ، بل يستسلم للصوفية تماماً (كان بيير ، في تلك الفترة ، لا يغفر لأي انسان كونه صوفيا) . هو لا يطلب سوى طمأنينته ، وطمأنينته لا يمكن ان يوفرها له سوى هؤلاء الناس الذين لا ايمان لهم ولا ناموس ، الذين يسطون على كل شيء ، ويخنقون كل شيء ، أمثال ماغنيتسكي[1] ، وأراكتشييف ومن الف لفهم . . .

وتوجه الى نيكولا بقوله :

– أتوافق أنه ، إذا لم تشرف بنفسك على أمور أملاكك ، بل كنت لا تسعى سوى وراء الطمأنينة ، فانك بالغ هدفك بسرعة أعظم بقدر ما يكون وكيلك أشد قسوة وعنفاً ؟

فأجاب نيكولا :

– ولكن بلى . لم سؤآلك هذا ؟

– إذن فكل شيء ينهار . في المحاكم تسود السرقة ، وفي الجيش العصا ، ومشية العرض[2] والمستعمرات العسكرية[3] . أنهم يضطهدون الشعب ،

---

(١) ماغنيتسكي ، عميد جامعة قازان ، دمر سائر الكتب المشبوهة ، واتخذ تدابير رجعية ضد الاساتذة .

(٢) هـذه المشية حملها بول الاول في المانيا ، ونشرها اراكتشييف بصورة خاصة .

(٣) كان هذا النظام يقوم في اسكان الجنود عند الفلاحين ، بحيث كانت القرية تتألف من الفيالق العسكرية ، الجنود ، ومن الفلاحين المستعمرين وهم السكان الأصليون ، وكان الجندي يساعد الفلاح في عمل الحقول ، وأولاد الاثنين المعدون للخدمة العسكرية .

ويخنقون التعليم ويدمرون كل ماهو شريف وفني . ويدرك الجميع ان ذلك لا يمكن ان يستمر على هذا المنوال ، فالحبل قد توتر حتى الدرجة القصوى ، ولا بد أن ينقطع .

لم يكن بيير يقول شيئاً جديداً ، بل ذلك هو رأي الناس دائماً منذ كانت الحكومات ، وكلما تفحص المرء أفعال أية حكومة كانت . واسترسل يقول :

ـ قلت لهم شيئاً واحداً في بيتر سبورج .

فاستفهم دينيسوف :

ـ من هم ؟

فقال بيير بنظرة ذات مغزى :

ـ أنتم تعرفون ذلك جيداً : الأمير فيدور وسائر الآخرين إن نشر التعليم وأعمال الخير شيء رائع من دون ريب . إنه هدف مدهش ، بيد أنه لابد من أشياء أخرى في الظروف الراهنة .

وفي هذه اللحظة ، لاحظ نيكولا وجود ابن اخيه ، فاظلم محياه ، واقترب منه قائلاً : ماذا تفعل هنا ؟

فأخذ بيير نيكولا من زراعه ، واسترسل :

ـ مابالك ؟ دعه . قلت لهم : هذا لا يكفي . بل لابد من شيء آخر في هذا الحين . مادمتم تنتظرون أن ينقطع الحبل المشدود كثيراً ، مادمتم تتوقعون جميعاً ، من لحظة لأخرى . انقلاباً محتوماً ، فيجب أن نتكاتف بقدر المستطاع أن يتماسك أكبر عدد ممكن منا بالأيدي ، وذلك كي نقف في سبيل الكارثة العمومية . كل ماهو فني وقوي يجتذب هناك ويفسد ، فهذا يغرونه بالنساء ، والآخر بالهبات ، والثالث بالغرور أو بالمال . وإنهم لينتقلون جميعاً إلى المعسكر الآخر . أما المستقلون ، مثلك ومثلي ، فلم يبق منهم أحد . وإني لأكرر ذلك : وسعوا حلقة الجمعية ، ولكني شعاركم لا الفضيلة فحسب ، بل الاستقلال والعمل أيضاً .

وقرّب نيكولا مقعداً ، وقدنسي ابن أخيه ، واستقر فيهوالامتعاض بادٍ في سيماه : وكان يسعل ، ويعقد حاجبيه أكثر فأكثر بقدر مايرهف أذنيه لأقوال بيير .

صاح :

ـ أجل ، ولكن العمل لأي هدف ؟وماذا ستكون علاقاتكم مع الحكومة .

ـ العلاقات؟ ستكون علاقات تعاون . فيمكن ألا تكون الجمعية سرية ، وأن تسمح الحكومة لها بالعمل. وهي ليست معادية للحكومة ، مادامت تتألف من عناصر محافظة حقاً . إنها جمعية نبلاء بكل معنى الكلمة . وكل ما تريد هو منع مخلوق مثل بوغاتشوف من ذبح أولادك وأولادي ، ومنع مخلوق مثل أراكتشييف أن يرسلني إلى مستعمرة عسكرية . من أجل هذا فقط نتماسك بالأيدي ، وهدفنا الوحيد هو الخير العام والسلامة العامة .

ـ أجل ، ولكن جمعية سرية لايمكن ان تكون سوى معادية للحكومة وضارة بها ، ولايمكن أن ينشأ عنها سوى الشر .

ـ لماذا ؟ هل كانت جمعية توغن التي أنقذت اوربا (ماكانو يجرؤون بعد أن يفكروا أن روسيا هي التي أنقذت العالم) ضارة ؟ ولقد كانت هذه الجمعية جمعية خيرية ؛ كانت المحبة ، والتعاون المتبادل . وهذا هو ما يشبه به المسيح على الصليب . . .

كانت ناتاشا ، وقد دلفت الى الحجرة في ملء هذا الحديث ، تتأمل زوجها بفرح . كانت مبتهجة لاعما يقول ـ فهذا لايثير اهتمامها ، بل يبدو لها كله بسيطاً تماماً ومعروفاً منذ زمن طويل ، (كانت تملك هـذا الشعور لأنها كانت تعرف ينبوع هذا كله ، الا وهو نفس بيير) ، كانت مغتبطة اذ ترى الحيوية المتدفقة في كل شخصه .

وكان الصبي الصغير ذو العنق الرقيق المنبثق من ياقته الضيقة ، وقد نسيه الجميع ، يلتهم بعينيه بشيء من البهجة والحماسة يفوق ما في نظرة ناتاشا اليه . كانت كل كلمة تسقط من فم عمه تلهب قلبه ، فيحطم بحركة عصبية من أصابعه ، دون أن ينتبه ، الشمع والأرياش الموجودة تحت متناول يده على مكتب عمه نيكولا .

— ليس هذا كما تحسب مطلقاً ! اليك ما كانت الجمعية توغن الالمانية ، والاتحاد الذي اقترحه أنا . . .

فقاطعه دينيسوف بلهجة حاسمة عنيفة :

— هيا ، ايها الأخ ، انها تصبح لآكلة اللحم المقدد ، تلك الجمعية الألمانية . اما انا فلا افهم شيئاً منها ، ولا استطيع ان الفظ هذه الكلمة جيداً — كل شيء يذهب من سيء الى اسوأ ، هذا ما اوافق عليه . لكن الجمعية ، فهذا مالا افهمه . كما انه لايروقني . اذا اردت ثورة ، فباقي معكم .

وتبسم بيير وانفجرت ناتاشا ضاحكة ، بيد ان نيكولا رفع حاجبيه اكثر من ذي قبل وشرع يبرهن لبيير ان الانقلاب شيء غير منتظر ، وان الخطر الذي يتحدث عنه لا يوجد سوى في مخيلته . وكان بيير يبرهن له العكس في ذلك . ولما كان يملك فكراً أقوى واخصب مواد ، فما أسرع أن أحس نيكولا الغلبة ، الامر الذي ضاعف حنقه ، لانه كان يشعر في أعماق نفسه ، بدافع في حدس باطني اكثر منه بدافع من منطق عقلاني ، ان فكرته صحيحة بصورة لا يتطرق الشك اليها .

هتف وهو ينهض ، ويضع غليونه على الطاولة بحركة عصبية ، واخيراً يرميه أرضاً :

— اسمع ما سأقول لك ، وان كنت عاجزا عن برهانه . تزعم ان كل شيء عندنا يسير بصورة رديئة ، واننا نمشي صوب ثورة جارفة ؛ وأنا لا ارى شيئاً من

هذا كله ؛ وأنت تقول ان القسم مجرد عهد واتفاق ، اما انا فأجيبك هكذا:
أنت أفضل صديق لي ، وهذا ماتعرفه ؛ ومع ذلك ، فإذا شكلت جمعية سرية
وقمت ضد الحكومة ، مهما تكن هذه الحكومة ، فأنا اعرف ان من واجبي
إطاعتها . واذا أمرني اراكتشيف في هذه اللحظة أن أهاجمك على رئيس فرقة
عسكرية واقتلك ، فسوف أسير دون تردد على الاطلاق . والآن ، قل في
ذلك ما تشـــاء .

وخيم سكون ثقيل بعد هذه الأقوال المباغتة . وكانت ناتاشا سباقة الى
الكلام للدفاع عن زوجها بالهجوم على أخيها . وكان دفاعها ضعيفاً أخرق ، لكنها
توصلت الى غايتها . واتصل الحديث ، بعد ان فقد تلك اللهجة المشبعة بعداء
كريه ، والتي ختم نيكولا حديثه بها .

وعندما نهض الجميع ليذهبوا لتناول العشاء ، اقترب نيكولا بولكونسكي
الصغير من بيير ، شاحب الوجه . متألق العينين ، وسأل :

ـ أيها العم بيير . . أنت . . . لا . . لو كان أبي حياً بعد . . . أفلا
يكون من رأيك ؟

وادرك بيير بغتة أي عمل عنيف ، خاص ، مستقل ومعقد ، قدقام في دفاع
هذا الطفل وقلبه أثناء الحديث ، واما تذكر كل ما تفوه به آسفاً ان يكون هذا
الصغير قد أصغى اليه . ومع ذلك ، لم يكن له بد من الجواب .

ـ اظن ان بلى .

قال ذلك في شيء من الضيق ، ثم خرج من الغرفة .

فأحنى الصبي الصغير رأسه ، وعندئذ رأي للمرة الاولى ما أحدث من أضرار
على مكتب عمه ، فاحمرت وجنتاه ، واقترب من نيكولا .

قال ، مشيراً الى الشمع والأرياش الممزقة :

ـ عفواً ، ياعماه ، فأنا الذي ارتكبت هذا . . .

فانتفض نيكولا في شيء من الحنق .

غمم ، وهو يرمي بقطع الشمع والأرياش تحت المائدة :

ـ حسناً ، حسناً .

واستدار عن الصغير ،باذلاً جهداً أليما فيما يبدو ليكبح جماح غضبه وصاح :

ـ ماكان لك مكان هہنا .

الفصل الخامس عشر

المذكرات

ولم يجر الحديث ، اثناء العشاء ، عن السياسة او الجمعيات السرية، بل انتقل على العكس الى الموضوع الأحب الى قلب ناتاشا ، ألا وهي ذكريات عام ١٨١٢ التي اثارها دينيسوف ؛ وكان بيير جذلان متحمساً بصورة غير معهودة وافترق الجمع ، اخيراً في صداقة ووئام تامين .

واثر الطعام ، خلع نيكولا ثيابه في حجرته ، واصدر اوامره لوكيل املاكه الذي كان في انتظاره منذ مدة طويلة ، ثم دخل بثياب النوم الى غرفة النوم فوجد زوجته جالسة الى مكتبه تكتب .

استفهم :

ــ ماذا تكتبين ، ياماري ؟

فاحمارت الكونتيس ماري . كانت تخاف الآن يفهم زوجها جيدا ماهي بسبيل كتابته وبالتالي لا يوافق عليه .

ولذا فقد كانت تفضل ان تخفي ما تكتب عنه ، لكنها كانت سعيدة في الوقت ذاته لأنه اكتشفها اثناء هذه الكتابة، فهي مضطرة بالتالي ان تحدثه عنها .

قالت وهي تمد اليه دفتراً ازرق مغطى بكتابتها الكبيرة الثابتة :

ــ انه مذكراتي .

فأجاب نيكولا بشيء من السخرية وهو يتناول الدفتر منها :

— مذكرات ؟.

وقرأ فيه بالفرنسية :

« ٤ كانون الأول . اليوم ، حين استيقظ اندريه رفض ان يرتدي ثيابه ، فارسلت السيدة لويز في طلبي . ولقد تصلب في رغبته الطارئة ، فجربت توبيخه لكن ذلك لم يفد سوى في مضاعفة حنقه . وعندئذ قررت ان اتركه على هواه ، قائلة له اني لا أحبه بعد الآن ، وشرعت أعني بمساعدة المربية بقية الأطفال . وبقي فترة طويلة في سكون ، فكأنه مصعوق ، ثم ارتمى عليّ بقميصه ، وراح ينشج طويلاً بحيث لم اتمكن من تعزيته . وكان من الواضح أن ما يعذبه أكثر من كل شيء آخر هو كونه أحزنني ، وحين أعطيته دفتر علاماته مساء ، شرع يبكي من جديد بصورة تثير الشفقة وهو يعانقني . ليمكن ان ننال منه كل شيء عن طريق الحنان .

وسأل نيكولا :

— ماهو دفتر العلامات هذا ؟ . . .

— إني أضع الآن ، كل مساء ، علامة سلوك للكبار .

والتقى نيكولا بالنظرة المتألقة المثبتة فيه ، وراح يتصفح الدفتر من جديد ويقرؤه . كانت المذكرات تروي كل ما يبدو ذا اهمية في عيني الأم في الحياة الطفولية ، كل ما يكشف عن خلق الأطفال او يؤدي الى تأملات من المرتبة العامة في موضوع مناهج التثقيف . وكان معظمها تفاصيل صغيرة تافهة ، لكنها ما كانت تلوح هكذا في نظر الأم ، أو في نظر الأب الذي كان يقرأ للمرة الأولى هذه المذكرات التي تدور حول الأطفال وحدهم .

وكان يقرأ فيها ، بتاريخ الخامس من كانون الأول :

« لقد اساء ميتيا التصرف على مائدة الطعام، وقد أمر ابوه ان تمنع الحلوى عنه . ولم تعط له ، بالهيئته المحزنة اللهوف وهويرى الآخرين يأكلون. اعتقد ان العقاب بالحرمان من الحلوى لاينقل سوى مضاعفة الجشع سأقول ذلك لنيكولا »

ووضع نيكولا الدفتر وتطلع الى زوجه . كانت العينان المتألقتان ترمقانه وتسألانه . . . (ايوافق على المذكرات أم لا يوافق عليها ؟) ولم يكن ثمة ريبة : لم يكن يوافق فحسب ، بل كان يقف معجباً حيال امرأته .

كان يفكر : لعل هذا التحذلق كله لم يكن ضرورياً ؛ لعله عديم الجدوى تماماً . بيدان هذا التوترالفكري الدائم الذي لا يهدف سوى لغاية واحدة ، الا وهي خير الأطفال ، يلذ له ويرضيه . ولواستطاع نيكولا ان يحلل عاطفته فقد كان يكتشف إذن ان حبه المتين لزوجه ، الحنون والفخور في نفس الوقت ، يستند بصورة خاصة الى تلك الدهشة التي يحس تجاه هذه الحياة الروحية المتدفقة ، تجاه هذا الشعور الأخلاقي الرفيع ، العصي على ادراكه ، المتميز به. العالم الداخلي حيث تعيش بصورة دائمة .

كان فخوراً بأن تكون على هذه الدرجة العظيمة من الذكاء والطيبة ، ويعترف بتأخره عليها في عالمه الباطن ، لكنه يغتبط أكثر فأكثر لأنها لم تكن ، بمثل هذه الروح ، ملكه ، بل كانت ايضاً جزءاً من ذاته .

قال بلهجة حنون :

ـ اوافقك تماماً ياصديقتي :

وأضاف ، بعد برهة من الصمت :

ـ لقد اسأت التصرف اليوم . لم تكوني في المكتب حيث تناقشنا مع بيير ولقد احتددت . لكني ما كنت استطيع ان أفعل سوى ذلك . انه طفل صغير حتى لأتساءل ، إلام كان سيصير لو لم تكن ناتاشا تضبط عنانه . أتستطيعين ان

تتصوري لماذا ذهب الى بيتر سبورج ؟ . . . لقد اسسوا هنالك . . .

فقاطعته الكونتيس ماري بقولها :

ــ اعرف ذلك . فقد روت لي ناتاشا . . .

فعاد نيكولا يقول ، وقد احقد لمجرد ذكرى ذلك النقاش :

ــ آه ! تعرفين ذلك ! إنه يريدان نعني بان واجب كل انسان شريف هو القيام ضد الحكومة ، بينا القسم ، والواجب . . . آسف انك لم تكوني هناك . ولقد هاجمني جميع الحاضرين ، دينيسوف وناتاشا على السواء . ان ناتاشا تضحكني . فرغم سيطرتها عليه في امور العقل والمنطق ، فهي لا تجد كلمة واحدة في جعبتها ، ولا تفعل سوى تكرار ما يقول .

كان نيكولا يقول ذلك بصوت مرتفع ، مستسلماً لميله الجموح الى انتقاد اولئك الأعز على قلبه والاقرب اليه ، ناسياً ان ما يقوله عن ناتاشا يمكن ان ينطبق عليه كلمة كلمة في علاقاته مع زوجته .

وقالت الكونتيس ماري :

ــ اجل ، لقد لاحظت ذلك .

ــ حين قلت له ان الواجب والعهد فوق كل شيء آخر ، راح يبرهن لي الله يعرف ماذا . آسف انك لم تكوني موجودة ، والا فقد كنت بينت له ضلاله!

فأجابت الكونتيس ماري :

ــ عندي أنك على حق تماماً . وهذا ماقلت لناتاشا . ان بيير يزعم أن البشر يتعذبون ، ويتألمون ، ويفسدون ، وان واجبنا هو مساعدة قريبنا . وانه لعلى حق من دون ريب . بيد انه ينسى ان ثمة واجبات أعجل تقع على أكتافنا . قد فرضها الله نفسه علينا ، واننا نستطيع أن نفرض حياتنا الخاصة للخطر ، اما حياة اطفالنا فلا .

فهتف نيكولا ، معتقداً ان ذلك هو بالضبط ما أفحم بيير به :

ـ أجل ، أجل ، هذا هو بالضبط ماقلته له . لكنهم انطلقوا في سبيلهم ، يتحدثون عن محبة الغريب والمسيحية ... وذلك كله امام نيكولا الذي انزلق الى المكتب وحطم كل شيء ؟

فعادت الكونتيس ماري تقول :

ـ آه : أتعرف ، يا نيكولا ، هذا الصغير كثيراً ما يعذبني ، انه صبي غير مألوف . وأخاف أن أهمله بسبب من أطفالي . نحن ، ان لنا أبناءنا ، وعائلتنا به اما هو ، فليس له اي انسان . انه ابداً وحيد مع افكاره

ـ ولكن فلنتركه يخيل الي أنه ليس ثمة ما تؤنبين نفسك عليه من أجله ، مثل ماتستطيع أكثر الامهات حنانا أن تفعل لأبنائها قد صنعته له ، وأنت تصنعينه بعد من أجله ، ومما لا ريب فيه اني مسرور بذلك ، فهو صبي صغير طيب ، طيب جداً .

ولقد كان اليوم في نوع من الاشراق وهو يصغي الى بيير ، وهل تستطيعين أن تتصوري هذا : حين نهضنا متجهين الى غرفة الطعام ، رأيت أنه دمر كل شيء على مكتبي ، واذا هو يعتذر عن ذلك في اللحظة عينها ! أبداً لم امسك به يقول كذبة واحدة . انه طفل طيب للغاية .

كان يكرر ذلك ، رغم أنه ، في صميم نفسه ، ماكان يحب ابن أخيه ، الأمر الذي يزيده تمسكا بامتداحه .

قالت الكونتيس ماري :

ـ ومع ذلك ، فالامر يختلف عما اذا كانت امه موجودة . اني أشعر ان الأمر يختلف ، وهذا مايعذبني . انه طفل رائع ، وأنا اخاف عليه بصورة فظيعة . وان العيش بين الناس ليفيده كثيراً .

فقال نيكولا :

ـ بكل تأكيد ، وسريعاً ما سيتحقق ذلك ، وأنا سأرسله هذا الصيف الى بيترسبورج . وأضاف ، عائداً الى الحديث الذي جرى في مكتبه ، والذي يثير اضطرابه فيما يبدو :

ـ أجل ، هذا صحيح ، فبيير لم يكن اكثر من حالم ، وهو مابرح كذلك . قولي ، ماذا يهمني مما يجري هنالك ، وما إذا كان اراكتشيف رجلاً لعيناً ؛ ماعسى أن يهمني ذلك وقد تزوجت ، وتراكمت علي الديون بحيث تكفي لزجي في السجن ، بينما امي لاترى او تفهم شيئاً من ذلك ؟ ومن بعد ، فهناك انت ، والاطفال ، والعمل . وهل اقضي ايامي في الحقول او في المكتب الذتي الخاصة؟ كلا ، لكني أعرف انه ينبغي ان أعمل كي تعيش امي في طمأنينة ، وكي اوقع الك ما انا مدين لك به ، وكي لانترك اطفالنا فقراء كما كنت .

وكانت الكونتيس ماري تود أن تقول لزوجها ان الانسان لا يحيا من الخبز وحده ، وانه ربما يعلق كثيراً من الاهمية على « اعماله » ؛ لكنها كانت تدرك ان ذلك سيكون عديم النفع وفي غير محله ، فاكتفت بان تاخذ يده وتقبلها . ورأى في هذه الحركة علامة تأييد له ، وتاكيد لافكاره ، فعاود حديثه الشخصي ، بعد برهة ، بصوت مرتفع :

ـ اتعرفين . ياماري ، ان ايليا ميتروفانوفيتش (هو وكيل اعماله) قد رجع اليوم من قريتنا في حكومة طاموف ، وقال لي انه يقدمون منذ الآن ثمانين الف روبل من اجل الغابة ؟

وطفق نيكولا ، متأرث المحيا ، يشرح لها كيف سيكون في الامكان ، في برهة من الزمن ، استرداد اوترادنويه من جديد « عشر سنوات أخر ، واترك الاطفال . . . في وضع ممتاز » .

وكانت الكونتيس ماري تصغي الى نيكولا دون ان تفلت منها كلمة واحدة مما يقول . كانت تعرف انه حين يفكر هكذا بصوت مرتفع ، فانه

سيعود ليسألها عما قال ، وسوف يغضب حين يعلم انها كانت تفكر في شيء آخر . لكنها كانت مضطرة ان تقوم بجهود عظيمة ، لأن هذه الاحاديث ما كانت تعنيها على الاطلاق . كانت تنظر اليه اذن . واذا لم تكن تفكر في شيء آخر ، فقد كانت عواطفها في مكان آخر على اية حال . كانت تحس حباً حنونا مستسلماً لهذا الرجل الذي لن يفهم قط كل ما تفهم هي ، فهي تزداد حباً له ، وربما لهذا السبب بالضبط ، بشيء من الحنان اللاهب . والى جانب هذا الشعور الذي كان يتملكها جميعاً ويمنعها من الاهتمام بتفاصيل مشاريع زوجها ، كانت افكار أخر تجتـــاز رأسها ، غريبة تماماً عما يروي لها . كانت تفكر في ابن اختها (فحديث زوجها عن انفعال الصبي الصغير وهو يصغي الى بيير قد أثر فيها بشدة) ؛ كانت دلائل مختلفة من خلقه الحساس اللطيف تمر في ذهنها ، فتفكر في أفعالها حين تفكر فيه لم تكن تقارن ما بينه وبين أبنائها ، بل كانت تقارن عاطفتها تجاهه بالعاطفة التي يثيرها أطفالها في نفسها ، فتشاهد في شيء من الاسى ان في العاطفة التي تمنحها للصبي الصغير شيئاً ناقصاً .

وكانت تفكر في الاحايين أن سبب هـذا الفرق هو السن . لكنها كانت تشعر مع ذلك أنها مذنبة في حقه ، فتقطع على نفسها عهداً مخلصاً أن تصلح نفسها وتصنع المستحيل ، يعني ان تحب في هذه الحياة رجلها ، وأولادها ، وابن اختها وسائر اقاربها ، مثلما أحب المسيح الانسانية . كانت نفس الكونتيس ماري تتوق دون انقطاع الى اللانهاية ، الى الأبدي ، نحو الكمال المطلق ، وبالتالي ما كانت تستطيع أن تطمئن قط . وكان محياها يحمل الطابع العميق لهذا العذاب السري الذي تقاسيه نفس يثقلها الجسد عليها . وتطلع نيكولا اليها في تلك اللحظة بالضبط ، وقال في نفسه : « يا إلهي ! الام نصير اذا ماتت ، ولشد ما افكر في ذلك دائماً عندما يصير محياها هكذا ! » ووقف حيال الأيقونات ، وأنشأ يتلو صلوات المساء .

الفصل السادس عشر

حلم الصغير

إما صارت ناتاشا وحيدة مع زوجها ، شرعت هي الاخرى تتحدث كما لا يجري الحديث الابين الزوج والزوجة ، يعني بتخمين الفكرة قبل أن توضع في قالب الكلمات ، وتبذلك الحدة والسرعة فوق العاديتين ، عن طريق متناف لسائر قواعد المنطق ، دون محاكات ودون استقراءات ، ودون استنتاجات ، بل بأسلوب مخصوص تماماً . وكانت ناتاشا قد اعتادت كثيراً محاورة زوجها هكذا ، بحيث أن العرض الأكيد للخلاف بينهما هو دائماً مشروع بيير بالتعبير عن فكرته بصورة منطقية كانت تعرف بيقين تام ، حين يشرع يبرهن ، ويقدم الحجج بمهابة ، فتنجرف هي به ، وتروح تصنع صنيعه ، كانت تعرف إذن ان المناقشة ستنتهي الى الخصام بصورة أكيدة ثابتة .

وما صارا وحيدين حتى اقتربت ناتاشا من زوجها بلطف ، متمددة العينين فرحاً ، وامسكت برأسها بصورة مباغتة ، وشدته الى صدرها وهي تهتف : «الآن ، أنت لي بكليتك ، ولن تفلت مني بعد الآن أبداً ! » وفي الحال قام بينهما حديث مناف لسائر قوانين المنطق ، ولو لمجرد شموله لمواضيع متناقضة تماماً وكانت هذه الطريقة في طرق عدة مواضيع في وقت واحد لاتخل بوضوح الحديث مطلقاً ، بل تكشف على العكس ، بيقين تام ، عن تفاهم الزوجين المطلق .

وكما أن كل شيء ، في الأحلام ، غير معقول ، ومضاد للمنطق ، وسخيف باستثناء العاطفة التي تثير تلك الأحلام ، كذلك هو هذا التبادل للأفكار حيث المحاكمة لادخل لها ، حيث ليست الكلمات هي التي تتمتع بالوضوح والترتيب ، بل العاطفة التي تمليها .

كانت ناتاشا تروي لبيير كيف يحيا أخوها ، وتقول له إنها تتعذب ، ولا تستطيع حياة بدون رجلها ، وتقول له إنها تزداد حباً للكونتيس ماري ، وكيف تتجاوزها زوجة أخيها في كل مضمار ، صلاحاً وطيبة قلب . وكانت تعترف بإخلاص ، حين تتفوه بهذه الكلمات ، بتفوق ماري عليها ، لكنها لا تتساهل في طلبها من بيير أن يفضلها على ماري وعلى سائر النساء الأخريات ؛ وكان لا بد له من تكرار ذلك على مسامعها ، خاصة هذه الآونة إثر رجوعه من بيترسبورج حيث شاهد كثيراً من النساء .

ونزل بيير عند إصرار ناتاشا فروى لها كم من دعوات الغداء والسهرات في بيترسبورج مع نساء من المجتمع الراقي لم يتمكن أن يطيقها .

قال :

لقد فقدت تماماً عادة التحدث الى السيدات ، فليس شيء أكثر ضجراً من ذلك وعلى أية حال ، فقد كنت مشغولاً .

فرنت ناتاشا اليه بثبات ، وأضافت :

— إنها الاغراء نفسه ، ماري هذه : لشد ما هي تفهم الأطفال ! لتقول أنها ترى نفسهم ، فالبارحة مثلاً ، ركب الهوى رأس ميتيا الصغير .

فقاطعها بيير قائلاً :

— إنه صورة أبيه .

وفهمت ناتاشا لماذا قدم هذه الملاحظة عن البشر بين ميتيا ونيكولا ؛ إنه

يأسف لمناقشته مع صهره ، ويريد أن يأخذ رأي زوجته في الموضوع .

قالت ، وهي تكرر الكلمات التي سمعت بيير يتفوه بها :

ـ اجل ، إن لنيكولا هـذه الناحية الضعيفة التي تجعله لا يقبل شيئاً لا يقبل الجميع به . لكنني أفهم ، فأنت على العكس ، تريد أن تنطلق .

فأجاب بيير :

ـ كلا ، بل الامر الاساسي هو أن الافكار والمحاكمات تسلية بالنسبة الى نيكولا ، تـكاد تكون أسلوباً لتزجية الوقت . لقد أسس مكتبة واتخذ قاعدة لنفسة هي ألا يبتاع كتاباً جديداً قبل أن يقرأ آخر كتاب تلقاه ، وسيسموندي وروسو ، ومونتسكيو ...

قال ذلك مبتسما واضاف ، راغباً في تلطيف كلماته :

ـ وانت تعرفين على أية حال كم ...

فقاطعته ناتاشا ، مشعرة اياه ان ذلك غير ضروري :

ـ اذن فأنت تعتقد ان الأفكار تسليه بالنسبة اليه .

ـ اجل ، اما بالنسبة الي ، فان كل شيء آخر هو التسلية . وخلال اقامتي في بيتر سبورج ، كنت اشاهد كل شيء فكأني في حلم . وحين تتملكني فكرة فليس لأي شيء آخر أو في اهمية اذن .

فقالت ناتاشا :

ـ آه ! لشد ما آسف لأني لم ارك تتمني للأطفال صباحاً سعيداً ! اي واحدة كانت اكثرهن سروراً ؟ ليز بكل تأكيد ؟

فأجاب بيير :

ـ أجل .

واسترسل فتحدث عما يشغل فكره :

— يزعم نكيولا أنه لا ينبغي لنا أن نفكر اما انا ، فلست استطيع . هذا اذا استثنينا اني كنت احس في بيترسبورج (انت ، استطيع ان اعترف لك بذلك) ان كل شيء يتعرض للانهيار بدوني ، وان كل واحد يشد الغطاء الى جانبه . ومع ذلك فقد نجحت في توحيدهم جميعاً ، وعندئذ صار فكري بسيطاً جداً وواضحاً جداً . وانا لا اقول انه ينبغي لنا القيام في وجه فلان او فلان ، فقد نخطىء في هذه الحال اني اقول فقط : تعاونوا ، انتم الذين تحبون الخير ، ولتكن رايتكم الوحيدة الفضيلة الفاعلة . ان الامير سيرج رجل ممتاز وهو ذكي ايضاً .

ما كانت ناتاشا تشك في عظمة فكرة بيير ، لكن شيئاً واحداً كان يزعجها الا وهو ان يكون ذلك هو زوجها بالضبط « أيمكن ان يكون رجل على مثل هذه الأهمية والضرورة للمجتمع زوجي في الوقت نفسه ؟ وكيف أمكن حدوث ذلك ؟» وأرادت أن تعبر له عن شكها ، فهي تتساءل ، مستعرضة في ذهنها سائر الذين يضمر لهم بيير عظيم الاعتبار ولكن من هم اذن الذين يستطيعون أن يقرروا ما اذا كان حقا أذكى بكثير من الآخرين . وما كان يحترم أحداً كما يفهم من أحاديثه ، مثل احترامه لأفلاطون كاراتاييف .

صاحت :

—أتعرف فيمن افكر ! في افلاطون كاراتائييف . ما عساه يفعل ، هو ؟ أهو يوافقك ؟

ولم يدهش بيير مطلقاً لهذا السؤال ، فقد كان يفهم تسلسل افكار امرأته قال :

—افلاطون كاراتائييف ؟

واستغرق في التفكير ساعياً بكل اخلاص ان يتصور اي حكم يمكن ان

بصوره كاراتائيف في هذا الموضوع ، واخيراً قال :

ـ ما كان يفهم ؟ ولكن من يدري ؟ لعله كان يفعل !

فقالت ناتاشا بصورة مباغته :

ـ ذلك يخيف ، مبلغ حبي لك . انه مخيف !

وقال بيير ، بعد برهة في التفكير :

ـ كلا ، لن يوافقني . ماكان يوافق عليه هو حياتنا العائلية لقد كان يود كثيراً أن يشاهد الجمال في كل مكان ، والسعادة والسلام، بحيث اكون فخوراً بان يرانا ، اليك ، أنت تشكين امر الفراق . ولكن لو تدرين أية عاطفة مخصوصة أضمر لك بعد الفراق ...

وارادت ناتاشا أن تعترض :

واكن ...

ـ كلا ، ليس هذا . أنا لا انقطع البتة عن حبك . ولا يمكن لمرء أن يحب أكثر من هذا ، ذلك انه ، خاصة ... حسناً ، أجل ...

ولم يكمل حديث ، لأن نظرتيهما التقتا ، فتبادلتا بقية الحديث .

قالت ناتاشا على حين غرة:

ـ ماأحمق ذلك الحديث عن شهر العسل ، والقول إن المرء يكون سعيداً في الأيام الأولى . الأمر على العكس ، فالآن نحن أفضل من قبل . لو كنت لاتسافر فقط . أتذكر كيف تخاصمنا ؟ وكنت أنا المخطئة دائماً ، انا دائماولماذا؟ أنا لا أذكر أبداً .

فقال بيير مبتسماً :

ـ للسبب نفسه دائماً ، الغيرة .

فهتفت ناتاشا :

ـ لاتقل ذلك فأنا لاأضيق سماعه .

واشتعل لهيب بارد في عينيها ، وأضافت بعد سكوت قصير :

ـ أرأيتها ؟

ـ كلا . وعلى أية حال ، فلن أعرفها إذا ماشاهدتها .

وجنحا إلى الصمت .

صاحت ناتاشا ، راغبة بصورة بينة في طرد السحابة التي تقترب :

ـ وهل تعرف ؟ حين كنت تتحدث في المكتب ، كنت أنظر إليك . إنك تشبهها مثل قطرتين من الماء ، « الصغير » (هكذا كانت تدعو ابنها) . آه! لقد حان الوقت لأذهب وأعني به... هذا هو الميعاد... لكنه يؤلمني أن أذهب

ولاذا بالصمت بضع ثوان . ومن ثم وبصورة ، مفاجئة ، التفتا نحو بعضهما بعضاً وشرعا يتكلمان في وقت واحد . كان بيير يتحدث بلطف وحرارة ، وناتاشا بابتسامة عذبة سعيدة . وإما تصادما ، فقد توقفا وتراجعا أمام بعضهما البعض

ـ إذن ، ماذا كنت تريدين أن تقولي ؟ تكلمي ، تكلمي .

فصاحت ناتاشا :

- كلا ، بل أنت الذي يجب أن تتكلم . أما أنا ، فما تلك سوى حماقات

فرجع بيير إلى الموضوع الذي افتتحناه ، واستمر يتوسع بلهجة راضية عن نجاحاته ببيترسبورج . كان يعتقد في تلك الساعة اللحظة أنه مدعو لتوجيه المجتمع الروسي والعالم بأسره في منحى جديد .

ـ كنت أريد فقط أن أقول إن سائر الأفكار التي تؤدي إلى نتائج عظيمة هي بسيطة دائماً . وكانت كل فكرتي تقول إنه كان الناس الشريرون يؤلفون قوة باتحادهم ، فما أمام الناس الشرفاء إلا أن يفعلوا مثلهم . وأنت ترين بساطة ذلك .

ـ أجل .

ـ وأنت ، ماذا كنت تريدين أن تقولي ؟

ـ لاشيء ، لاشيء .

ـ ولكن ؟

فأصرت ناتاشا ، وعلى شفتيها ابتسامة تزداد اتساعاً :

ـ أقول لك لاشيء . كنت أريد فقط أن أحدثك عن بتيا . لقد جاءت المربية اليوم لتأخذه ، وكان يعتقد ركبتي ، فطفق يضحك ، والتصق بي وهو يغلق عينيه فكأنه يريد أن يختبىء . إنه لطيف حتى الدرجة القصوى . وهذا هو يصيح هيا ، إلى اللقاء !

وخرجت من الغرفة .

وفي الوقت نفسه ، في الطابق السفلي ، في غرفة نوم نيكولا بولكونسكي الصغير ، كانت الساهرة مشعلة كالعادة (كان الصبي يخاف الظلام ، ولم تنجح أية محاولة في تخليصه من هذا الضعف) . وكان ديسال ينام مرتفعاً على وسائده الأربع ، ومن أنفه الروماني ينطلق شخير منظم . وكان نيكولا الصغير ، الذي استيقظ لتوه متصبباً عرقاً بارداً ، جالساً في سريره ، يحملق باستقامة إلى الأمام منه . كان كابوس مريع قد أيقظه ، فقد شاهد فيما يشاهد النائم أنه يرتدي وعمه بيير قناعين شبيهين بتلك الأقنعة المصورة في مؤلفات بلوتارك ، وهما يسيران في مقدمة جيش عظيم . وكان هذا الجيش مؤلفاً من صفوف بيض منحرفة تملأ الهواء مثل هذه الخيوط تتطاير في الخريف ويسميها ديسال خيوط العذراء . وإلى الأمام منها كانت الطليعة ، المصنوعة من نفس الخيوط لكنها أقوى بقليل وكان كلاهما ـ العم بيير وهو ـ ينطلقان خفيفين فرحين ويقتربان من الهدف أكثر فأكثر وبغتة ، أخذت الخيوط التي تحملها تنحل ، وتتشابك ، وصارا في وضع خطر . وإذا العم نيكولا إيلييسن يقف حيالهما في وضع صارم متوعد .

قال ، مشيراً إلى بقايا ريش وشمع يخدم في ختم الغلافات : « أأنتما اللذان فعلتما هذا؟ لقد كنتما عزيزين علي ، لكن أراكتشيف أمرني أن أقتل من يتقدم منكما خطوة واحــــدة إلى أمام » وأدار نيكولا الصغير بصره نحو بيير ، لكن بيير لم يكن هناك . كان بيير قد صار أباه ، الأمير اندريه ، ولم يكن لأبيه حدود أو شكل ، رغم أن الواقف بجانبه كان أباه عينه ؛ وإمارآه ، أدرك نيكولا الصغير أن الحب يحرمه قواه ؛ فأحس أنه لا موطن له ، ولا قوام ، ولا هيكل ، فكأنه تميع ، وكان أبوه يربت عليه ويعزيه . بيد أن العم نيكولا ايليتش يهاجمهما ويقترب منهما أكثر فأكثر ، فتملك الذعر الصبي الصغير واستيقظ من نومه .

فكر في داخله : أبي (كان في البيت صورتان لأبيه على درجة عظيمة من الشبه ، ومع ذلك فإن نيكولا الصغير لم يتصور الأمير اندريه في صورة بشرية قط) . لقد كان أبي بجانبي وكان يداعبني . وكان يوافقني ، ويوافق العم بيير ومهما سيقل لي رفاقي فإني فاعله إن موسيوس شيفولا قد أحرق يده ، فلمَ لا أفعل أنا مثله في حياتي ؟ أعرف أنهم يريدونني أن أتعلم ، ولسوف أتعلم . ولكني سأنتهي من ذلك يوماً ، وعندئذ افعل ، ولست أسأل الله سوى شيء واحد ، ألا وهو أن يصيبني ما أصاب الرجال العظام الذي يتحدث بلوتارك عنهم ، وسوف أصنع مثل صنيعهم بل سوف أصنع أفضل من صنيعهم. وسوف يعرف جميع الناس ذلك ، ويحبونني ، ويعجبون بي » .

وأحس نيكولا الصغير ، على حين بغتة ، بالبكاء يغص به حلقه وينقبض له صدره ، فانهمرت عبراته مدرارة غزيرة .

قال صوت ديسال :

— هل تشعر بوعكة ؟

فأجاب الصغير ، وهو يعاود النوم على وسادته :

– كلا .

قال في نفسه ، وهو يفكر فيه ديسال :

– انه شريف وطيب ، وأنا احبه . وعمي بيير : آه ! ياله من انسان رائع ! وأبي ؟ أبي . . أجل ، سوف اصنع اشياء يكون هو نفسه فخوراً بها . .
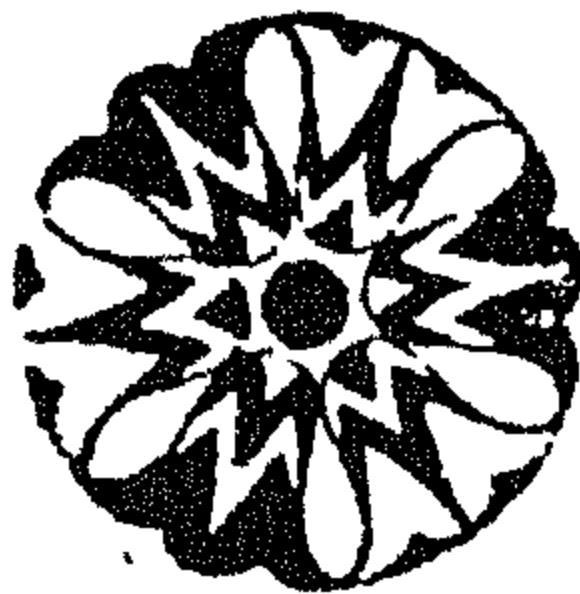
القسم الثاني

الفصل الأول

محرك التاريخ

ان غرض التاريخ هو حياة الشعوب والانسانية . بيد ان الادراك المباشر لالحياة الانسانية بل حتى لحياة شعب واحد وحصر هذه الحياة في حدود الكلمات ووضعها ، لأمور تبدو مستحيلة تماماً .

ولقد لجأ سائر مؤرخي الازمان القديمة الى ذات الطريقة كي يصفوا ويدركوا هذا العنصر الممتنع ، الا وهو حياة شعب من الشعوب . لقد وصفوا نشاط زعمائه ، لكن بصورة منعزلة ، وكان هذا النشاط يعبر بالنسبة اليهم عن فاعلية الشعب باسره .

اما السؤلان : كيف كان الافراد المنعزلون يجبرون الشعوب على الفعل حسب ارادتهم وماذا كان يوجه هذه الارادة فان مؤرخي الأزمان القديمة قد اجابو عنها هكذا : أجابوا عن السؤال الأول بان أرجعوا الى ارادة الألوهية امر خضوع الشعوب لشخص واحد ، واجابو عن السؤال الثاني،مؤكدين أن تلك الألوهية نفسها كانت توجه ارادة المنتخب نحو هدف معين سلفاً .

اذن فقد حلت هذه المسائـــل ، بالنسبة الى القدماء ، بالايمان باشتراك الألوهية المباشر في القضايا الانسانية .

لكن التاريخ المعاصر قد رفض ، في نظريته : هاتين الفرضيتين .

وكان يمكن ان نعتقد ان التاريخ الحديث ، بتخلصه من العقيدة القديمة عن خضوع البشر للألوهية ولهدف معين سلفاً تتجه الشعوب نحوه ، قد اختار ان يدرس بدلاً من مظاهرات السلطة ، الأسباب العميقة لها . لكن التاريخ الحديث لم يفعل ذلك ، واذا كان يرفض المفاهيم القديمة نظريا ، فهذا يتأثرها في الممارسة .

فالتاريخ الحديث يقدم لنا ، بـــدلاً من شخصيات متمتعة بسلطان الهي توجهها ارادة الألوهية بصورة مباشرة ، اما أفعالاً يتمتعون بصفات غير مألوفة وفوق انسانية ، اما بكل بساطة أفراداً لهم جرارات مختلفة ، منذ الملوك حتى الصحفيين ، وهم يقودون الجماهير ويوجهونها . وبدلا من الاهداف المعينة قبلاً من لدن الألوهية لبعض الشعوب ، العبرانيين ، والاغريقيين ، والرومانيين ، في سبيل توجيه خطى الانسانية ، فالتاريخ الحديث يضع اهدافه الخاصة : سعادة الشعب الفرنسي ، والالماني ، والانكليزي ، واذا رفعنا التجريد حتى الدرجة القصوى ، فخير حضارة البشرية بأسرها ، هذه البشرية التي يحصرها عادة في الشعوب المحتلة للقسم الشمالي الشرقي من الكرة الارضية وحدها .

ولقد رفض التاريخ الحديث معتقدات القدماء دون ان يقدم بديلا عنها فاذا المنطق يجبر المؤرخين ، الذين زعموا رفض السلطان الالهي للملوك والقدر القديم ، ان يعودوا بطريق أخرى الى نقطة الانطلاق ، الا وهي الاعتراف : ١ — بان البشر موجهون من قبل أفراد منعزلين ، ٢ — بانه يوجد هدف محدد تماماً تسير الشعوب والانسانية نحوه .

وان سائر المؤلفات الحديثة التي كتبها المؤرخون ، منذ جيبون حتى باكل رغم اختلافاتها الظاهرية والجدة الظاهرية لنظراتها ، أساسها هاتان البديهيتان القديمتان المحتومتان .

فالمؤرخ يصف بادىء الأمر نشاط بعض الأفراد المنعزلين الذين يقودون

الانسانية في رأيه . ولا يحسب بعض المؤرخين في عداد هؤلاء سوى الملوك ، والجنرالات ،والوزراء ؛ ويضع مؤرخ آخر ، إلى جانب الملوك ، الخطباء ، والعلماء ، والمصلحين ، والفلاسفة ، والشعراء ومن ثم ، فالهدف الذي تسعى اليه الانسانية معروف تماماً من المؤرخ . وهذا الهدف هو عند هذا المؤرخ عظمة الدولة الرومانيه ، او الاسبانية ،اوالفرنسية ، وهو عند ذاك المؤرخ المساواة وحضارة عرق معين من هذا القسم من العالم المسمى اوروبا

وحدث اضطراب في باريس عام ١٧٨٩ . ولقد كبر هذا الاضطراب وماج واتخذ شكل تحرك لشعوب الغرب إلى الشرق . ولقد اتجهت هــــذه الحركة مراراً صوب الشرق واصطدمت بحركة معاكسة من مروح الشرق الى الغرب وفي عام ١٨١٢ بلغت حدها الاقصى ، موسكو ، ورجعت نفسها ، بتناظر مرموق من الشرق الى الغرب ، خارقة معها في الذهاب والاياب على حد سواء شعوب اوروبا الوسطى . وقد رجعت هذه الحركة المعاكسة الى نقطة انطلاقها ، باريس وتوقفت هناك .

وخلال هذه المرحلة التي دامت عشرين عاماً ، ظل مقدار عظيم من الحقول نهباً للثوار ، وأحرقت منازل وبدلت التجارة وجهتها ، وأملق ملايين الناس ، أو أثروا ، أو تنقلوا ، وكان ملايين من المسيحيين الذين يمارسون محبة القريب يتذابحون .

ماذا يعني كل هذا ؟ ومن أين صار كل هـذا ؟ ما الذي كان يدفع هؤلاء الناس إلى إحراق الدور وقتل أشباههم ؟ماهي اسباب هذه الحوادث ؟ اية قوة دفعت هؤلاء الناس إلى مثل هذ الأعمال ؟هذه هي الأسئلة غير الارادية ، الساذجة والمشروعة جداً مع ذلك ، التي يطرحها المرء على نفسه عندما يقف حيال أنصاب المرحلة المنصرمة من هذه الحركة وتقاليدها .

وأنا لنلتفت ، في نحل هذه المسائل ، صوب عالم التاريخ الذي يهدف الى أن يكشف للشعوب والأنسانية عن معرفة ذواتها .

ولو كان التاريخ يتقيد بوجهة النظر القديمة ، فقد كان ينبغي له أن يقول : أن الألوهية ، كي تكافىء شعبها أو تقتص منه ، قد منحت السلطان الى نابليون وحصلت منه أداة أرادتها في سبيل انجاز غاياتها . ويكون هذا الجواب ، إذن واضحاً وكاملاً . ويمكننا أن نؤمن ألا أن نرفض الايمان برسالة نابليون الالهية بيد أن ذاك الذي يؤمن يتضح بجمل تاريخ تلك الفترة ، بحيث لايبقى ثمة مجال تناقض على الاطلاق .

بيدان التاريخ الحديث لايستطيع ان يجيب على هذا القرار . فالعالم ما عاد يقبل الفكرة القديمة عن التدخل المباشر للألوهية في افعال الانسانية ، وبالتالي فلا بدّ له تدبير أجوبة أخرى .

وإما يجيب التاريخ الحديث عن هذه الاسئلة يقول لنا : انتم تريدون أن تعرفوا معنى هذه الحركة وأصولها ، واية قوة أنتجت مثل هذه الأحداث ؟ اسمعوا اذن :

لقد كان لويس الرابع عشر إنساناً متكبراً مدعياً بصورة مخصوصة ؛ وكان عنده الخليلات العلانيات والوزراء الفلانيون ، وكان يسوس فرنسا بصورة رديئة وكان خلفاؤه رجالاً ضعفاء قد حكموا البلاد ، هم أيضاً ، بصورة سيئة . كان لهم ، هم أيضاً ، الخلان الفلانيون والمحظيات الفلانيات وفيما عدا ذلك فبعض الناس قد كتبوا كتباً في تلك الفترة . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، اجتمع في باريس قرابة عشرين رجلاً راحوا يقولون إن سائر البشر متساوون واحرار . ونتج عن ذلك أن الناس أخـــذوا في كل مكان في فرنسا ، يقتلون أشباههم ويغرقونهم ، ولقد قتل هؤلاء الناس مليكهم ، كما قتلوا أشخاصاً آخرين عديدين

وفي تلك الفترة بالضبط كان في فرنسا إنسان عبقري هونابليون . وكان يسجل الانتصارات في كل مكان ، يعني انه كان يقتل عدداً كبيراً من الناس لأنه كان عبقرياً عظيماً . الغد غدا يقتل، ولاندري السبب ،الافرقيين في بلادهم ؛ ولقد قتلهم بصورة رائعة ، وكان عظيم الحيلة كثير الذكاء ،بحيث استطاع لدى عودته الى فرنسا أن يصدر ، الأمر للجميع كي يطيعوه . ولقد اطاعه الجميع وإما جعل نفسه امبراطوراً ، فقد ذهب أيضاً إلى ايطاليا والنمسا ، وبروسيا ، يقتل البشر . ولقد قتل الكثيرين . ويومذاك كان يحكم في روسيا الامبراطور الكسندر الذي قرر أن يعيد النظام كما كان في اوروبا ، وكان يحارب نابليون بسبب ذلك . لكنه صار ، في ٧ . ١٨ صديقه بصورة مفاجئة ، وظل كذلك حتى عام ١١ ١٨ ، حين اختصم وإياه من جديد، وحين قتل كلاهما، معاً ،عدداً كبيراً من الناس مرة أخرى . وقاد نابليون ستمائة ألف شخص الى روسيا واحتل موسكو . لكن الامبراطور ألكسندر ، وقد نصحه شتين وآخرون ، وحد اوروبا بأسرها ضد ذلك الذي يعكر طمأنينته ، فاذا سائر حلفاء نابليون يصيرون بغتة اعداء له ، ويقومون هبة واحدة ليقابلوا القوى الجديدة التي جمعها نابليون وانتصر الحلفاء، ودخلوا باريس ،وأجبروا نابليون أن يتنازل عن عرشه، وأرسلوه إلى جزيرة إلبا ، لكن دون أن ينزعوا عنه لقبه الامبراطوري ، مبدين مختلف ضروب التكريم لهـــذا الرجل الذي كان الجميع قبل خمس سنوات يعتبرونه — وسيفعلون ذلك بعد سنة واحدة أيضاً . لصاً خارجاً عن القانون وجعل لويس الثامن عشر ، الذي لم يفعل الفرنسيون والحلفاء حتى ذلك الحين سوى السخرية منه ، يحكم فرنسا ، بينا تنازل نابليون عن سلطانه ، وهو يذرف بضع عبرات أمام حرسه العجوز، وغدا ألى المنفى . ومن بعد، اجتمع في فينا للتشاور رجال دولة ودبلوماسيون ما هرون(وبصورة خاصة تاليران الذي تمكن من الجلوس

في تلك الاثناء في مقعد معين ومن توسيع حدود فرنسا بهذه الواسطة)، وكان من نتاج احاديثهم ان صيروا الشعوب سعيـــدة أو شقية . ولكن هؤلاء الدبلوماسيون قد تخاصموا بغتة فاذاهم على استعداد كي يصدروا الأوامر الى جيوشهم لتتذابح ؛ بيد أن نابليون رجع الى فرنسا في ذلك الحين ، برفقة فرقة عسكرية فاذا سائر الفرنسين الذين كانو يكرهونه يخضعون له في الحال . وغضب الملوك لذلك ، فعادوا يحاربون الفرنسيين . ولقد انتصروا على الجنرال نابليون ونفوه الى جزيرة القديسة هيلانه وجعلوا يعاملونه بغتة كانه قاطع طريق . وهناك ، بعيداً عن الكائنات العزيزة على قلبه ، وعن وطنه الحبيب فرنسا ، مات المنفي موتاً بطيئاً فوق احدى الصخور ، جاعلاً من الأجيال اللاحقة ورثة أفعاله الرفيعة . وفي اوروبا تمكنت الرجعية من الحكم مجـدداً ، وراحت سائر الحكومات تضطهد الشعوب مرة اخرى.

ولمن العبث ان نحسب أن هذا كله ليس سوى مزاح أو صورة كاريكاتورية للأقاصيص التاريخية . وعلى العكس ، فهو التعبير الأشد لطفاً عن هذه الأجوبة المتناقضة التي لا تجيب عن أي سؤال ، والتي تقـدم لنا التاريخ باسره ، منذ صناعي الأبحاث والقصص عن الدولة المنفصلة ، حتى مؤلفي التواريخ العامة أو تواريخ الثقافة . هذا النوع المعاصر الجديد .

وغرابة هذه الأجوبة وسخفها ينشآن عن كون التاريخ يشبه أصم يجيب عن أسئلة لم يطرحها عليه احد .

واذا كانت غاية التاريخ هي وصف حركات الانسانية والشعوب ، فالسؤال الأول الذي يتطلب جواباً بالضرورة ، والذي يكون كل مـا يتبع ممتنعاً عن الفهم بدونه ، هو السؤال التالي : ماهي القوة التي تحرك الشعوب ؟ وجواباً عن هذا السؤال ؛ يروي لنا التاريخ الحديث بشيء من دلائل الاهتمام – إما ان نابليون

كان يتمتع بقوة عليا ؛ وإما ان لويس الرابع عشر كثير التفكير ، وأما ايضا أن هؤلاء أو أولئك من المخالفين قد كتبوا هذه الكتب أو تلك .

وهذا كله شيء ممكن تماماً ، والانسانية على استعداد للقبول به ، بيد ان السؤآل يكمن هنا هذا كله يمكن ان يكون باعثاً على الاهتمام اذا كنا نريد القول بأن قوة نابليون ، ولويس الرابع عشر ، والمؤلفين . ولكننا لانتعرف بهذه القوة ، ولذا فانه يبتغي ، قبل الحديث عن أمثال نابليون ، ولويس الرابع عشر ، والمؤلفين ، أن لدى الرابطة القائمة بين هذه الشخصيات وتحركات الشعوب .

واذا كانت قوة أخرى قد اتخذت مكان الألوهية ، فيجب ان نوضح قوام هذه القوة ، لأن أهمية التاريخ تقوم فيها بالضبط .

ويفترض المؤرخ أن هذه القوة أمر مفروغ منه ، وأن الجميع يعرفونها . ومع ذلك وبالرغم من الرغبة العامة في افتراض هذه القوة معروفة ، فذاك الذي ينقب عدداً كبيراً من المؤلفات التاريخية يشك رغماً عنه ويتساءل ما إذا كانت هذه القوة ، المهدمة بصورة مختلفة جداً من قبل المؤرخين انفسهم ، هي معروفة حقاً منهم جميعاً .

الفَصْلُ الثّاني

مغالطات المؤرخين

ماهي القوة التي تحرك الشعوب ؟ إن مؤلفي التراجم الفردية ومؤرخي الشعوب المنعزلة يعتبرون أن هذه القوة سلطان خاص بالأبطال والزعماء . وتبعاً لما يسردون من أوصاف،فالأحداث ناتجة عن مجرد إدارة أمثال نابليون وألكسندر ، أو بصورة عامة أولئك الأشخاص الذين يصف المؤرخ حياتهم الخصوصة . وإن الأجوبة التي يقدمها هذا النوع من المؤرخين عن هذا السؤال المتعلق بالقوة التي تحرك الأحداث لمرضية ، لكن في حدود معينة فقط ، ألا وهي أن يكون ثمة لكل حادث مؤرخ واحد. ولا يكاد مؤرخون من قوميات وآراء مختلفة يشرعون في وصف نفس الحادث الواحد حتى تفقد الأجوبة المقدمة من قبلهم كل قيمة ، لأن كل واحد منهم يفهم هذه القوة لا بصورة مختلفة فحسب ، بل في الأحايين بصورة معاكسة تماماً لفهم جاره لها . ويؤكد الواحد أن الحادث مسبب عن قوة نابليون ، ويؤكد آخر أنه ناشىء عن قوة ألكسندر ، ويؤكد ثالث أن مثارة قوة شخص ثالث . والأكثر من ذلك أن المؤرخين من هذا النوع يناقضون بعضهم بعضاً حتى في التفسيرات التي يعطون عن القوة التي يتولد منها سلطان نفس الشخصية . وهكذا فإن تيير س ، وهو بونابرتي النزعة ، يرجع سلطان نابليون إلى فضيلته وعبقريته ، أما لانفري . وهو جمهوري النزعة ،

فيرجعه إلى سرقاته راحتيالاته حيال الشعب . وبالتالي فإن المؤرخين مـن هذا النوع، حين يطور كل منهم أطروحته وفرضياته الخاصة ، يدمرون بذلك مفهوم القوة التي تقوم في أصل الأحـداث ، ولا يعطون أي جواب عـــن السؤال الأساسي للتاريخ .

والمؤرخون الذين يعنون بالتاريخ العام، باعتبارهم ينظرون إلى سائر الشعوب يقبلون كما تشير الظواهر بخطل وجهة نظر المؤرخين المخصوصين في موضوع القوة القائمة في أصل الأحداث . إنهم لا يعترفون بهذه القوة كسلطان لاصق بالأبطال والزعماء ، بل كحاصلة قوى عديدة ذات اتجاهات مختلفة . وإما يصنعون حرباً أو غزواً لشعب ما ، فإنهم ينقبون عن سبب الحوادث لا في سلطان شخص واحد ، بل في الفعل ورد الفعل المتبادلين لعدد كبير من الأشخاص ذوي العلاقة بالحادث المطروح على بساط البحث .

وتبعاً لوجهة النظر هذه ، فسلطان الشخصيات التاريخية ، المعتبر كحاصلة قوى متعددة ، ماعاد يمكن بعد الآن ، فيما يبدو ، النظر إليه كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث . ومع ذلك فإن مؤلفي التواريخ العامة يلجأون إلى هذا المفهوم عن هذا السلطان المعتبر كقوة تكفي ذاتها بذاتها في سبيل إحداث الحوادث ، وتسلك حيال هذه الحوادث سلوك المسبب ، ويفهم من عرضهم تارة أن الشخصية التاريخية تتابع زمنها فليست سلطتها سوى حصيلة القوى المختلفة ، وتارة أن سلطانها هو القوة التي تخلق الحوادث. ومثال ذلك أن جير فينوس، وشعوسر، وآخرون أيضاً يبرهنون تارة أن نابليون هو نتاج الثورة وأفكار عام ١٧٨٩ ، جير ، وتارة يعلنون ان حملة عام ١٨١٢ ، وكذلك بضعة حوادث تاريخية أخرى لا تروقهم ، مسببة فقط عن إرادة نابليون السيئة التوجيه وأن أفكار عام ١٧٨٩ نفسها قد قضى عليها ، في تطورها ، سلوكه الاعتباطي

إن الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة قد صنعت سلطان نابليون ، وسلطان نابليون قد خنق الأفكار الثورية والحالة الفكرية العامة .

وليس هذا التناقض الغريب مسبباً عن الصدفة . ونحن لانلقاه لدى كل خطوة فحسب ، بل إن الأوصاف التي يقدمها مؤلفو التواريخ العامة إنما تتألف أيضاً من تسلسل حازم لتناقضات مماثلة . وإن هذا التناقض لناشيء عن الواقع التالي ، ألا وهو أن المؤرخين من هذا النوع ، بعدما ينطلقون في ميدان التحليل يتوقفون في منتصف الطريق .

وفيما نجد الأجزاء المركبة المادية للمركب أو الحصيلة ، فيجب تساوي الأجزاء المركبة . وهذا هو بالضبط الشرط الذي لا يلاحظه مؤلفو التواريخ العامة . ولذا لم يكن لهم بد ، كي يفسروا الحصيلة ، أن يقبلوا ، إلى جانب الأجزاء المركبة غير الكافية ، قوة جديدة لا تفسير لها تعمل تبعاً للمركب

وأن المؤرخ الفردي النزعة الذي يصف حملة ١٨١٣ أو عوده آل بوربون الى العرش ، يؤكد بصورة حازمة أن هذه الحوادث مسببة ، عن أدارة ألكسندر لكن جيرفينوس ، وهو مؤلف تاريخ عام ، يدحض هذا التأكيد ويسعى أن يبرهن أن حملة ١٨١٣ وعودة البوربونيين إلى العرش مسببان ، فيما عدا إرادة ألكسندر عن نشاط شتين ومترنيخ ، ومدام دي ستال ، وتاليران ، وفخته ، وشتوبريان وآخرين عديدين . ومن الواضح أن جير فينوس قد جزأ ألكسندر إلى أجزائه المركبة : تاليران شاتوبريان ، الخ : وإن مجموع هؤلاء ، يعني العمل المتبادل لشاتوبريان ، وتاليران ومدام دي ستال والآخرين لايساوي الحصيلة ، يعني حقيقة خضوع ملايين الفرنسيين للبوربونيين . أما أن شاتوبريان ، ومدام دي ستال ، وآخرين قد تبادلوا هذه الأحاديث أو تلك ، فهذا لا ينشأ عنه سوى علاقاتهم المتبادلة ، وليس خضوع ملايين الناس .

وكي تفسر كيف نتج هذا الخضوع عن تلك العلاقات ، يعني كيف خرج من أجزاء مركبة مساوية للمقدار (ب) حصيلة تساوي (أ. ب)، فالمؤرخ مجبر على قبول تلك القوة التي ينكرها ، معرفاً إياها كحصيلة عدة قوى ، يعني أنه ملزم بقبول قوة لاتفسير لها ناتجة عن المركب. وهذا هو بالضبط مايفعل سائر مؤرخي التواريخ العمومية . وإنهم ليقعون في التناقض لذلك السبب أيضاً ، التناقض مع مؤلفي التواريخ المخصوصة ، والتناقض مع أنفسهم .

إن سكان الأرياف ، الذين لايعرفون من أين تأتي الأمطار بالضبط ، يقولون تبعاً لرغبتهم في الغيث أم الطقس الجميل : إن الريح قد طردت السحب أو أن الريح قد جاءت بالسحب وهذا هو بالضبط ما يفعله مؤلفوا التواريخ العامة . وأنهم ليقولون ، حين يناسب ذلك نظرياتهم ، إن السلطان هو نتيجة الحوادث ؛ وحين يحتاجون أن يبرهنوا شيئاً آخر ، فإنهم يقولون إن السلطان قد أدى إلى الحوادث

وثمة مقولة ثالثة من المؤرخين يدعون أنفسهم بمؤرخي الثقافة . ويدعي هؤلاء أحياناً ، متأثرين خطى مؤرخي التواريخ العامة ، أن الكتاب والسيدات هم الذين ينتجون الحوادث . بيد أن هؤلاء المؤرخين يفهمون أيضاً هذه القوى على صور مختلفة تماماً حين يكتشفونها في « الثقافة » أي في الفعالية الفكرية . وإن مؤرخي الثقافة لحازمون تماماً حيال اولئك الذين أعطوهم مولداً ، يعني مؤرخي التواريخ العمومية . لأنه إذا كان في الامكان أن نفسر الحوادث التاريخية بكون بعض الشخصيات قد ارتبطت بعلاقات متبادلة معينة ، فلم لانفسرها أيضاً بكون هؤلاء الناس أو أولئك قد كتبوا كتباً معينة إن هؤلاء المؤرخين يستخرجون ، من الجمهرة الضخمة لتظاهرات التي ترافق كل ظاهرة حية ، إشارة فعالية فكرية ، ويعلنون أن هذه الفعالية هي سبب كل

شيء آخر . ولكنه بالرغم من سائر جهودهم للبرهان على أن سبب الحوادث قائم في الفعالية الفكرية ، فلا بد من مقدار عظيم من الارادة الطيبة في سبيل الاعتراف بوجود صلة مشتركة بين الفعالة الفكرية ولحركات الشعوب. ولا يمكننا في حال من الأحوال أن نقبل بأن هذه الفعالية الفكرية توجه الأمم ، لأن بعض الظواهر ، كالمذابح الرهيبة للثورة الفرنسية الناتجة عن إعلان حقوق الانسان ، والحروب التي لا رحمة فيها والاعدامات الفظيمة الناتجة عن بشارة بناموس المحبة هذه الظواهر تناقض تلك الفرضية بصورة مطلقة .

وعلى أية حال ، فلنقبل بصحة سائر هذه المقالات الفطنة التي يكيلها هؤلاء المؤرخون ؛ فلنقبل أن الشعوب مسيرة بقوة ممتنعة عن التعريف تحمل اسم الفكرة ، فالقضية الأساسية للتاريخ تظل غير محلوله مع ذلك ، وإلا فإن قوة جديدة هي الفكرة ، تتطلب صلتها مع الجماهير تفسيراً جديداً ، تنتضم أيضاً إلى قوة الملوك المأخوذة سابقاً بعين الأعتبار ، وإلى التأثير الذي قبله مؤلفو التواريخ العمومية سلفاً ، والذي هو خاص بالمستشارين والشخصيات الأخرى ويمكننا أن نفهم وقوع الحادث الفلاني ، باعتبار أن نابليون يسيطر على دفة الحكم ، ويمكننا كذلك ان نفهم بشيء من التسامح أن يكون نابليون معضوضاً ببعض التأثيرات الأخرى ، سبب بعض الحوادث ؛ أما أن العقد الأجتماعي كانت نتيجة تذابح الفرنسيين ، فهذا مايعني إدراكنا دون ايضاح للرابطة السببية الموجودة بين هذه القوة الجديدة والحوادث .

إن الرابطة الموجودة بين سائر الأفراد الذين يعيشون في عصر واحد لا يتطرق الشك اليها مطلقاً ؛ وهكذا فانه من الممكن أن نجد بعض العلاقة بين فعالية الناس الفكرية وحركتهم التاريخية ، تماماً كما نجد مثل هذه العلاقة بين تحركات الانسانية والتجارة ، والمهن ، وزراعة البساتين ، وأي شيء آخر . ولكن كم

تتراءى فعالية بعض الرجال الفكرية ، في نظر مؤرخي الثقافة ، كسبب كل حركة تاريخية أو التعبير عنها ؟ إن هذا لأمر يصعب فهمه . ولم ينته المؤرخون إلى مثل هذه النتيجة إلا بالاعتبارات التالية : ١ً - إن العلماء هم الذين يكتبون التاريخ ؛ ولذا فمن الطبيعي والمستحب بالنسبة إليهم أن يعتقدوا أن فعالية طائفتهم تبث الحياة في حركة الانسانية بأمرها ، تماماً كما يلذ بصورة طبيعية للتجار ، والمزارعين والجنود ، أن ينطووا على الفترة ذاتها (وإذا لم يعبروا عنها فما ذلك إلا لأن كتبة التاريخ ليسوا من عدادهم) ؛ ٢ً - إن الفعالية الفكرية والثقافة ، والحضارة ، والمدنية ، والفكرة ، هذه جميعاً مفاهيم مجردة ، غير محددة يسهل تحت غطائها حتى الدرجة القصوى استعمال كلمات أشد غموضاً أيضاً بحيث يمكن بالتالي تكييفها مع أية نظرية كانت .

ولكنه فيما عدا الجدارات الباطنية لهذا النوع التاريخي ، المفيد من دون ريب لشخص ما أو لشيء ما ، فتواريخ الثقافة التي شرعت تمتص سائر التواريخ العامة يلفت النظر فيها أنها تفصل بصورة جدية حساب العقائد الدينية ، والفلسفية ، والسياسية ، التي تجد فيها أسباب الحوادث ؛ ومن ثم لا تكاد تتقدم من وصف حادث تاريخي حقيقي ، كحملة عام ١٨١٢ مثلاً ، حتى تصفه رغماً عنها كنتاج سلطان معين ، وتعلن دون تردد أن أصل هذه الحملة موجود في إرادة نابليون وحين يتحدثون هكذا ، فإن مؤرخي الثقافة إما أن يتناقضوا دون إدارة لذلك منهم ، وإما أن يبرهنوا أن الشكل الجديد الذي أبدعوا لا يفسر الحوادث التاريخية ، وأن الطريقة الوحيدة لفهم هذه الحوادث هي الرجوع إلى ذلك السلطان الذي يتظاهرون بافكاره .

الفَصلُ الثّالِثُ

ما هو السلطان؟

ان القاطرة حركة . وليتساءل المرء ما هي هذه الحركة . فيقول فلاح ما : إن الشيطان يدفعها . ويقول آخر ان القاطرة تتقدم لأن دواليبها تدور . ويؤكد ثالث ان سبب الحركة هو في الدخان الذي تنفخه الريح وتبعثره .

ولا يمكننا ان نبرهن للفلاح الأول أنه على ضلال ، اذ يجب اذن أن نجد الوسيلة الناجعة لاقناعه بأن الشيطان غير موجود ، أو يبرهن له فلاح آخر أن من يحمل القاطرة على السير ليس هو الشيطان ، بل الألماني . والتناقض وحده يمكن ان يثبت لكليهما الخطأ الذي يقعان فيه . بيد ان ذاك الذي يقول ان الحركة ناشئة عن الدواليب يناقض نفسه ، وبما انه انطلق في طريق التحليل فلا بد له من الذهاب قدماً ، وتفسير سبب حركة الدواليب ولن يكون له حق التوقف في التنقيب عن الأسباب ما لم يصل الى السبب الأخير لحركة القاطرة ، الا وهو ضغط بخار الماء في المرجل . اما من فسر حركة القاطرة بالدخان الذي تبدده الريح ، فقد اتضح له ان تفسير الحركة بالدواليب غير مقنع فلجأ الى الظاهرة الأولى التي وقع عليها ليجعل منها سبباً .

فالمفهوم الوحيد الذي يستطيع ان يوضح حركة القاطرة هو مفهوم قوة مساوية للحركة الظاهرة .

بالتالي فالمفهوم الوحيد الذي يستطيع ان يوضح حركة الشعوب هو مفهوم قوة مساوية لهذه الحركة .

وعلى أية حال ، فالمؤرخون المختلفون يفهمون من هذا المفهوم فعل قوى متنافرة وليس مساوية للحركة . ويرى البعض فيه قوة لاصقة بالأبطال ، كما يرى الفلاح شيطاناً في القاطرة ، ويري آخرون فيه قوة منتجة عن قوى أخرى ، كحركة الدواليب مثلاً ؛ ويرى فيه آخرون ايضاً تأثيراً فكرياً ، مثل الدخان الذي تبدده الريح .

وما دمنا لا نكتب سوى تاريخ الشخصيات المنعزلة ، ولو كانت قيصرا ، او الكسندر ، أولوثر ، اوفولتير ، لا تاريخ سائر الأفراد دون استثناء ، هؤلاء الذين اشتركوا في حادث ما ، فلن يكون من الممكن تفسير تحركات الانسانية دون تصور قوة تجبر البشر على توجيه فعالياتهم نحو هدف وحيد . والمؤرخون لا يعرفون لهذا المعنى سوى قوة واحدة ، ألا وهي السلطان .

وهذا المفهوم هو القبضة الوحيدة التي تسمح لتمليك زمام مادة التاريخ كما تُفهم في ايامنا الحاضرة . وان تحطيم هذه القبضة ، دون حيازة اداة اخرى ، كما فعل باكل ، يعني خسارة آخر إمكانية لبحث مادة التاريخ . وان استحالة عدم اللجوء الى مفهوم السلطان يبرهنها على افضل وجه . ومؤرخو التواريخ العامة أنفسهم ومؤرخو الثقافة على السواء ، وهؤلاء الأخيرون يتظاهرون برفض هذا المفهوم ومع ذلك فهم يستعملونه بصورة لا خلاص منها لدى كل خطوة .

وفيما يتعلق بالقضايا المرتبطة بالانسانية ، فقد كان العلم التاريخي ، حتى يومنا الراهن ، شبيهاً بالنقد المتداول ، أكان ورقاً ام معدناً . ان ترجمات الحياة والتواريخ المخصوصة هي انواع من الورق النقدي . ويمكنها الدخول في التداول وتقوم بواجبها دون الحاق الضرر بأي شخص كان ، بل بشيء من الفائدة ايضاً

ما دمنا لا نثير قضية تغطيتها بالذهب . ويكفي ألا نسأل كيف يمكن لارادة الأبطال ان تنتج الحوادث كي تصير تواريخ امثال بيترس باعثة على الاهتمام ، ومفيدة ، بل لا تخلو من الشاعرية أيضاً . ولكنه سرعان ما نشك في القيمة الحقيقية لورق النقد حين نفكر حتى أية درجة تدفعنا سهولة صنعه الى انتاج مقدار اكبر منه ، او اذا اردنا إحالته الى ذهب . وكذلك فاننا نشك في المعنى الحقيقي للتواريخ من هذا النوع عندما نأخذ بعين الاعتبار عددها الكبير ، او عندما نتساءل بكل بساطة ماهي القوة التي أثرت في نابليون ، يعني حين نريد ان نستبدل ورق النقد بقيمته المضبوطة من الذهب .

إن مؤلفي التواريخ العمومية ومؤرخي الثقافة يشبهون اناساً قرروا ، بعدما ادركوا عدم صلاح الأوراق النقدية ، ان يصفوا نقداً معدنياً لاستبدالها ، وذلك بمعدن لا يملك الثقل النوعي للذهب ويكون ذلك ، في الحقيقة ، نقداً رناناً ، لكنه لن يكون أكثر من رنان ؛ ذلك ان الورق النقدي يمكن بعد ان يخدع الجاهلين اما النقد الرنان الذي لا قيمة له ، فلا يمكن ان يخدع احداً . وكما ان الذهب لا يكون ذهباً حقاً إلا حين يمكن استعماله لذاته ، وليس للمقايضة فحسب ، كذلك لن يكون مؤلفوا التواريخ العامة ذهباً حقاً إلا حين يتمكنون من الجواب على هذا السؤال الأساسي للتاريخ : ماهو السلطان ؟ انهم يعطون عن هذا السؤال أجوبة متناقضة ، بينا زملاؤهم الذين يدرسون الثقافة ينفونه تماماً ويتكلمون عن أشياء مختلفة كل الاختلاف . ان استعمال الحجارة مكان الذهب لا يمكن ان يتم إلا بين أناس يريـــدون عن طيبة خاطر أن يقبلوها على ذلك الاعتبار ، او لا يعرفون ايضاً قيمة الذهب . وكتب المؤرخين العموميين ، ومؤرخي الثقافة تلعب دوراً مماثلاً ؛ فهم حين لا يعطون أجوبة عن الأسئلة الأساسية الانسانية ، يخدمون كحجارة لعب لغاياتهم المخصوصة في الجامعات وعند جمهور القراء ، هواة الكتب الجدية فيما يزعمون .

الفصل الرابع

مصدر السلطان

بعد رفض العقيدة القديمة عن الخضوع المفروض من قبل الألوهية ، خضوع إدارة شعب لرجل واحد مختار ،وخضوع هذه الإرادة للألوهية ، يصير من المحال على التاريخ أن يتقدم خطوة واحدة دون ان يصطدم بالتناقضات اذا لم يختر احد امرين : اما الرجوع الى الايمان السابق بالتدخل المباشر للألوهية في القضايا البشرية واما إعطاء تفسير دقيق لهذه القوة التي تنتج الحوادث وتدعى السلطان .

والرجوع الى التأكيد الأول امر مستحيل : فقد قضي على الايمان . ولذا كان من الضروري تفسير هذا السلطان

لقد أصدر نابليون أمره بجمع جيش والسير الى الحرب . ولقد الفنا بهذه الطريقة في النظر الى الامور حتى درجة بعيدة ، بحيث ان مسألة معرفة لماذا ينطلق ستمائة ألف رجل الى الحرب بكلمة واحدة من نابليون تلوح لنا سخيفة لا معنى لها . لقد كان يتربع على سدة السلطة ، فتنفذت أوامره .

وهذا التفسير يرضينا تماماً اذا كنا نؤمن بان نابليون يستمد سلطانه من الألوهية ولكنه لا يرضينا حين نرفض ان نصدق ذلك ، فيصير عندئذ من الضروري تحديد طبيعة هذه السلطة التي يملكها رجل واحد على الآخرين جميعاً .

ولا يمكن ان تكون هذه السلطة هي السلطة المباشرة الناشئة عن التفوق

الحكمي الذي يكون لكائن قوي على كائن ضعيف ، وهو تفوق يعتمـد على استخدام القوة الحكمية او التهديد باستخدامها : وتلك هي سلطة هرقل . وكذلك لا يمكن ان تقوم على التفوق الأخلاقي ، كما يعتقد ذلك ، بسذاجة بعض المؤرخين الذين يؤكدون ان صنعية التاريخ هم ابطال ، يعني رجالاً يتحولون بقوة اخلاقية وذهنية استثنائية تدعى العبقرية . هـــذه السلطة لا يمكن أن تقوم تفوق القوة الأخلاقية لأنه اذا تركنا جانباً العباقرة الابطال من طراز نابليون الذين يحكم على صفاتهم الاخلاقية بصورة مختلفة ، فالتاريخ يبرهن لنا أن امثال لويس الرابع عشر ، ومترنيخ ، الذين كانوا يحركون ملايين البشر ، ما كانوا يملكون ما يؤلف القوة الاخلاقية بالمعنى الصحيح ، بـــل كان معظمهم ، على العكس من ذلك اضعف اخلاقياً من كل واحد من تلك الجماهير التي كانوا يحكمونها . فاذا كان مصدر السلطة لا يقوم في الصفات الحكمية للمرء الذي يملك السلطة ولا في صفاته الأخلاقية ، فلا بد أن يكون قائماً ، من دون ريب ، خارجاً عنه ، يعني في علاقته بالجماهير التي يمارس سلطته عليها .

هكذا يرى الى الأمور علم الحقوق ، هـــذا المصرف للتاريخ ، الذي يعد باستبدال التفهم التاريخي للسلطة بالذهب الخالص .

ان السلطه هى مجموع ارادات الجماهير الممنوحة للأشخاص المختارين من قبل الجماهير باتفاق علني او ضمني . كل هذا واضح في ميـدان علم الحقوق ، هذا العلم المصنوع من اعتبارات عن كيفية وجوب تنظيم الدولة والسلطة ، اذ في حال تمكننا من فعل ذلك . ولكن هـذا التعريف للسلطة يتطلب ايضاحاً اذا كنا سنطبقه على التاريخ .

ان عالم الحقوق ينظر الى الدولة والسلطة كما كان القدماء ينظرون الى النار ، يعني بصفتها شيئاً قائماً في ذاته . اما بالنسبة الى التاريخ ، فالدولة والسلطة همـا

« على العكس ، ظاهرتان بكل بساطة ، تماماً كما أن النار ، بالنسبة الى فيزياء ليست هي عنصراً ، بل مجرد ظاهرة .

وينتج عن هذا الخلاف الأساسي في وجهات النظر بين التاريخ وعلم الحقوق ، أن علم الحقوق يستطيع ، ان يتحدث ماشاء عن الاسلوب الذي ينبغي اتباعه في تنظيم السلطة ، وعن طبيعة هذه السلطة ، المعتبرة ثابتة خارج الزمان لكنه يعجز عن تقديم جواب عن المسائل التي يثيرها التاريخ ، المتعلقة بمعنى هذه السلطة التي يبدل الزمان في أشكالها .

فاذا كانت السلطة تمثل مجموع ارادات الجماهير الممنوحة لحاكم معين ، فهل يكون بوغاتشيف يمثل ارادة الجماهير؟ واذا لم يكن كذلك ، فلم يكون نابليون هذا الممثل اذن ؛ وكم كان نابليون الثالث الموقوف في بولون مجرماً ، وكم صار المجرمون فيما بعد هم الذين اوقفوا بامره ؟

وفي ثورات البلاط ، التي يقوم بها شخصان أو ثلاثة اشخاص ، هل تمنح الارادة الشعبية ايضاً المختار الجديد ؟ وفي النزاعات الدولية ، هل تمنح ارادة جماهير شعب ما الى ذاك الذي غزا هذا الشعب ؟ وفي عام ١٨٠٨ ، هل منحت ارادة عصبة الدين الى نابليون ؟ وهل منحت اليه ارادة الجماهير الروسية عام ١٨٠٩ ، بينما كانت جيوشنا المحالفة لفرنسا تسير الى قتال النمسا ؟

يمكننا ان نجيب بثلاث طرق عن هذه الاسئلة .

١ ً – اما ان نقبل بان ارادة الجماهير تتجه دائماً دون اي شرط الى ذاك او الى اولئك الذين تختارهم ، وبالتالي فان كل تدخل لسلطة جديدة ، وكل نضال ضد السلطة الممنوحة من الشعب ، يجب ان تعتبر عدواناً على السلطة الحقيقية ،

٢ ً – واما ان نقبل بان ارادة الجماهير تعطي للحكام في بعض الشروط المعينة والمعروفة ؛ وفي هذه الحال ، فان كل تحديد ، أو نزاع ، او حتى تدمير للسلطة القائمة ينشأ عن كون الحكام لم ينفذوا الشروط التي منحت السلطة لهم بموجبها .

٣ - واما يجب ان نقبل بأن ارادة الجماهير تمنح للحكام بصورة مشروطة ، تبعاً لعقود مجهولة غير محددة ، وان تدخلات السلطات الاخرى ، وصراعها وانهيارها ، لا تنشأ الا عن مبالغة او تقصير من قبل الحكام في تنفيذ هـــذه الشروط المجهولة التي تنتقل ارادات الجماهير تبعاً لها من شخص الى آخر .

ويفسر المؤرخون علاقات الجماهير بالحكام بهذه الطريقة الثلاثية الجوانب .

وان المؤرخين الذين لايفهمون ، في سذاجتهم ، مشكلة السلطـة ، هؤلاء المؤلفين للسير المذكورة آنفاً ، هم وحدهم الذين يقبلون فيما يبدو بان مجموع ارادات الجماهير تمنح لبعض الاشخاص دون اي شرط ؛ ولذا فانهم حين يضعون سلطة ما ، يجعلون منها شيئاً حقيقياً ومطلقاً ، لا يكون اية سلطة مناهضة سلطة حقيقية حيالها ، بل تهجما واعتداء على السلطة ليس غير .

وتوافق نظرياتهم العصور البدائية المسالمة من التاريخ ؛ لكنها حين تطبـق على العصور حيث تعقدت حياة الشعوب واضطربت ، وحيث تقوم في وقت واحد سلطات متعددة تقاتل بعضها بعضاً ، فانها تبدي السيئة التالية : ان مؤرخاً ملكياً يبرهن اذن ان الجمعية التأسيسية ، وحكومة الادارة ، وبونابرت ، هم جميعاً مغتصبون للسلطة ، بينما يبرهن مؤرخ جمهوري وآخر بونابرتي ، ان الجمعيـة التأسيسية بالنسبة الى الأول ، والامبراطورية بالنسبة الى الثاني ، هما السلطة الحقيقية ، وكل شيء آخر لايعدو كونه اعتداء على السلطة . ومن الواضح ان التفسيرات المقدمة من قبل هؤلاء المؤرخين لايمكن أن تصلح ، بمثل تلك التناقضات ، سوى لأطفال صغار العمر .

ولكن نوعاً آخر من المؤرخين الذين يعترفون بخطل هذا الرأي يزعمون ان السلطة تعتمد على تسليم مجموع ارادات الجماهير للحكام بصورة مشرطة وهكذا لا تملك اية شخصية تاريخية السلطة الا بقدر ماتنفذ البرنامج الذي املته ارادة الجماهير

عليها ضمنا . بيد ان هؤلاء المؤرخين لايقولون في اي شيء يقوم ذالك البرنامج او اذا تحدثوا عنه ، فكي يناقضوا بعضهم بعضاً بصورة أبدية .

ويوافق هذا البرنامج ، عند كل مؤرخ ، وجهة نظره عن غاية حركة شعب ما على صورة العظمة ، والثروة ، والحرية ، وثقافة المواطنين في فرنسا او في دولة اخرى ولكننا اذا غضضنا النظر بعد الآن عن التناقضات التي يقع فيها المؤرخون في موضوع طبيعة هذا البرنامج ، وحتى اذا قبلنا بأن ثمة برنامجاً مشتركاً بينهم جميعاً ، فالوقائع التاريخية تناقض مع ذلك هذه النظرية بصورة دائمة تقريباً فاذا كانت الشروط التي تمنح السلطة بموجبها تقوم في الثروة ، والحرية وتطور الشعب ، فكم كان حكم أمثال لويس الرابع عشر وشارل الأول ؟ ويجيب المؤرخون عن هذا السؤآل بأن أفعال لويس الرابع عشر التي كانت منافية للبرنامج قد وقعت نتائجها على لويس السادس عشر . ولكن لماذا لم تقع نتائجها على لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر نفسيهما ، ولماذا وقعت بالضبط على لويس السادس عشر؟ وأخيراً ماهي مدة مثل هذا الانعكاس ؟ليس هناك ولا يمكن ان يكون أجوبة عن هذه الأسئلة . وكذلك فانهم يسيئون في هذه النظرية تفسير السبب الذي تظل السلطة من اجله ، طوال قرون عديدة بين ايدي الحكام وخلفائهم ثم تنتقل بعدئذ بصورة مباغتة ، خلال خمسين عاماً ، الى الجمعية التأسيسية ، وحكومة الادارة ، ونابليون ، والكسندر ، ولويس الثامن عشر ، ونابليون وشارل العاشر ، ولويس فيليب ، وجمهورية ١٨٤٨ ، ونابليون الثالث . وفي سبيل تفسير هذه الانتقالات السريعة للسلطة في ملء المضاعفات الدولية ، والغزوات والاحلاف ، فلابد لنفس المؤرخين من الاعتراف رغماً عنهم بان جزءاً من هذه الاحداث ليست مسببة عن التحويل المنتظم لارادة الجماهير ، بل عن الصدفة التابعة تارة لخداع ، وتارة للأخطاء ، او ضعف دبلوماسي معين ،

او ملك ، او رئيس حزب . وهكذا فان معظم الأحداث التاريخية ، من حروب أهليـة ، وثورات ، وغزوات لم تعد بعد الآن في نظر هؤلاء المؤرخين نتاج تحويل ارادات حرة ، بل بالأحرى نتاج الادارة الموجهة بصورة مغلوطة لفرد واحد او عدة افراد ، يعني مرة اخرى نتاج اعتداءات على السلطة . وبالتالي فان الاحداث التاريخية تقدم من قبل المؤرخين من هذا النوع على اعتبارهـا نقضاً ومخالفة للنظرية .

هؤلاء المؤرخون أشبه ما يكونون بعالم نباتي يدعي ، بعد ماشاهد بعض النباتات تنمو بفلقتين ، ان كل ماينبت لاينمو الا بفلقتين ، وان شجرة النخيل ، والفطر ، والسنديانة أيضاً ، التي بلغتْ نموها الكامل وهي لاتظهر لنا الفلقتين البدئيتين ليست سوى استثناءات للقاعدة العامة .

ويزعم المؤرخون من المقولة الثالثة ان ارادة الجماهير تتجه بصورة مشروطة الى شخصية تاريخية ، بيد ان شروط هذا الاتجاه مجهولة منا . ويقولون ان الشخصيات التاريخية لاتتمتع بالسلطة الا بقدر ماتنفذ الارادة التي القتها الجماهير على عاتقها .

وفي هذه الحال ، اذا كانت القوة التي تحرك شعباً ما تقوم لا في الشخصية التاريخية بل في الشعب نفسه ، فما هو معنى هذه الشخصيات اذن ؟

ويقول المؤرخون : انهم يعبرون عن ارادة الجماهير ، وفعاليتهم تفيـد في تمثيل فعالية الجماهير .

ولكن سؤالاً جديداً يطرح إذن : هل تعبر سائر أفعال الشخصيات التاريخية عن إرادة الجماهير ، أو عن احد مظاهر الارادة فقط ؟ فإذا كانت جميع أفعال الشخصيات التاريخية تعبر عن إرادة الجماهير ، كما يعتقد البعض فسيرة نابليون وكاترين الثانية بسائر تفاصيلها المستمرة من إشاعات البلاطات وثرثرتها ، تمثل إذن نفس حياة الشعوب وهذا سخيف واضح . فإذا كانت فعالية الشخصيات التاريخية لاتمثل

إذن سوى مظهر واحد مــــن حياة الشعوب ، كما يقول ذلك بعض المؤرخين الآخرين المزعومين فلاسفة ، فالقضية هي تعين ماهية هذا المظهر ؛ وعندئذ يصير من الضرورة أن نعرف فيما تقوم حياة الشعب .

وحيال هذه الصعوبة ، تخيل المؤرخون من المقولة الثالثة ، التجريد الأشد غموضاً والتباساً وشمولاً ، الذي نستطيع ان نضع أكبر عدد من الوقائع تحت جناحه ، وهم يقولون إن هذا التجريد هو هدف حركة الانسانية . وإن التجديدات الأكثر عمومية وانتشاراً ، والمقبولة من سائر المؤرخين تقريباً ، هي التالية : الحرية المساواة ، التطور ، التقدم ، المدنية ، الثقافة ويستدير المؤرخون ، بعد أن يعينوا أحد هذه المجردات كهـدف لحـركة الانسانية ، إلى الشخصيات الذين تركوا خلفهم أكبر عدد من الذكريات ، من ملوك ، ووزراء . وجنرالات ، ومؤلفين ، ومصلحين ، وباباوات ، وصحفيين ، لكن بقدر مايلوح لهم أن هؤلاء الشخصيات قد عملوا من أجل هذه المجردات أو ضدها . ولما لم يكن ثمة برهان على أن الأهداف التي تنمو صوبها الانسانية هي الحرية والمساواة ، والتطور أو المدنية ، ولما لم يكن للرابطة بين الجماهير والحكام والمصلحين أساس سوى الفرضية الاعتباطية القائلة إن مجموع إرادات الجماهير تنصب دائماً على الشخصيات الشهيرة فإن فعالية ملايين البشر الذين يهاجرون ، ويحرقون المنازل ، ويتركون الأرض بائرة ، ويفنون بعضهم بعضاً لايؤتي حتى على ذكرها في وصف أفعال عشرة شخصيات يحرقون المنازل ولم يعنوا بالزراعة ، يقتلون أشباههم .

ويقدم لنا التاريخ برهان ذلك لدى كل خطوة . وهل يفسر غليان الشعوب الغربية في أواخر القرن الأخير ومطامحهم المتجهة نحو الشرق بنشاط لويس الرابـــع عشر ، ولويس الخامس عشر ، ولويس السادس عشر ، وعشيقاتهم ووزرائهم وبحياة نابليون ، وروسو ، وديدرو ، وبومارشيه ، وسواهم ؟

وهل تفسر حركة الشعب الروسي نحو الشرق ، نحو قازان وسيبريا ، بتفاصيل الخلق المرضى لايفان الرابع وبمراسلاته مع كوربسكي ؟

وهل تفسر هجرات زمن الحروب الصليبية بسيرة غودفروادي بويون ، والقديس لويس ، وزوجتيهما ؟ إن هذه الحركة التي قامت الجماهير بها من الغرب نحو الشرق ، دون هدف محدد ، ودون زعماء جديرين ، لعصابة من الحفاة ، مع بطرس الناسك تظل عصية على الادراك بالنسبة إلينا . وإن توقف هذه الحركة بعدما أعطى كبار ذلك العصر هدفاً عقلانياً ومقدساً للحروب الصليبية ، وهو إنقاذ اورشليم ، لأشدامتناعاً عن الفهم ، إن البابوات ، والملوك ، والفرسان ، قد استحثوا الشعوب إلى تحرير أماكن مقدسة ؛ بيد أن الشعب لم يتحرك إما تلاشي السبب المجهول الذي حمله قبلًا على الحركة . إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين لا يمكن أن يحتوي كل حياة الشعوب . إن تاريخ أشباه غودفروا والشعراء الجوالين يظل تاريخهم الخاص ، بينما تاريخ حياة الشعوب ودوافعهم يظل مجهولاً .

وتاريخ الكتاب والمصلحين أيضاً أقل منه ايضاحاً لحياة الشعوب .

بيد أن تاريخ الحضارة يفسر لنا ، مع ذلك ، ودافع كاتب او مصلح وشروط حياته وأفكاره . نحن نعرف ان لوثر كان غضوب الطبيعة ؛ وقد القى هذا الخطاب وذاك ؛ ونحن نعرف أن روسو كان متشككاً وانه كتب هذه الكتب وتلك ؛ بيد اننا لا نعرف السبب الذي جعل الشعوب تتذابح بعد الاصلاح ، ولماذا حكم الناس بالاعدام على بعضهم البعض زمن الثورة الفرنسية

واذا ما جمعنا هذين النوعين من التاريخ معاً ، كما يفعل ذلك المؤرخون المحدثون ، فاننا لن نحصل أيضاً سوى على تاريخ الملوك والكتاب ، وليس تاريخ حياة الشعوب .

الفصل الخامس

الشعوب والشخصيات

إن حياة الشعوب غير منطوية في حياة بعض الشخصيات ، مادمنا لم نجد الرابطة التي تربط هذه الشخصيات القليلة وتلك الشعوب . وليست النظرية التي تقول إن هذا الرباط يقوم في وقف مجموع إرادات الجماهير على شخصية معينة سوى فرضية لا تؤيدها الحقائق مطلقاً .

ومما لا ريب فيه أن في مكنة هذه النظرية تفسير أشياء كثيرة في ميدان علم الحقوق ، كما أنها ضرورية في دون شك في سبيل غايتها المخصوصة . لكننا إذا طبقناها على التاريخ ، فلا يكاد تحدث ثورة ، أو غزوة ، أو حرب أهلية ، يعني لا يكاد التاريخ يبدأ ، حتى تصير هذه النظرية عاجزة عن تفسير اي شيء البتة .

ومهما يكن الحادث ، ومهما تكن الشخصية القائمة على رأس هذا الحادث ، ففي قدرة هذه النظرية ان تزعم دائماً ان تلك الشخصية انما وضعت في ذلك المكان بمجموع الارادات الموقوفة عليها .

والاجوبة التي تعطيها هذه النظرية عن القضايا التاريخية أشبه ماتكون بأجوبة امرىء يرى قطيعاً من الغنم أثناء مسيرة فلا يأخذ بعين الاعتبار صفة الكلأ المغايرة في مختلف مناطق الرعي ، أو فعالية الراعي نفسه ، فلا يعني ، كي

يعبر هـذا او ذاك من الاتجاهات التي يسلكها القطيع ، سوى بالحيوان السائر في الطليعة .

« ان القطيع يذهب في هذا الاتجاه لأن الحيوان السائر في المقدمة يقوده ، ولأن مجموع ارادات سائر الحيوانات الباقية قد أحيل اليـه » . هكذا يعفي المؤرخون من المقولة الاولى ، الذي يقبلون بالتحويل غير المشروط للسلطان .

«اذ كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتغير ، فلأن مجموع ارادة القطيع كله من قائد الى آخر ، حسب مقدرة هذا القائد على قيادة القطيع بصورة أفضل او أسوأ في الاتجاه الذي اختاره أذاعه بجموعهم . » هكذا بعض المؤرخون الذين يزعمون أن مجموع ارادات الجماهير الحكام تبعاً لشروط غير معلومـة وغالباً مايحدث للمتفرج ، في مثل هذه الحال ، ان يتخذ ادلاء له ، تبعاً للاتجاه الذي اختاره ، اولئك الذين يقومون ، منذ حدوث تبدل في الاتجاه الذي يتبعه الجمهور ، على جانب القطيـــع بدلاً أن يكونوا في طليعته ، أو يكونوا في مؤخرته في الأحايين .

« اذا كانت الحيوانات السائرة في الطليعة تتبدل باستمرار ، واذا كان الاتجاه الذي يتبعه القطيع يتبدل أيضاً ، فذلك ناشيء عن كون الحيوانات ، كي تبلغ هذا الاتجاه المعروف من قبلنا ، تضع اراداتها تحت تصرف اولئك الذين نميزهم بين الآخرين ؛ وبالتالي لابد لنا ، كي ندرس حركة القطيع ، ان نراقب سائر هذه الحيوانات التي نميزها ، والتي تسير على جوانب القطيع المختلفة » هكذا يصرح المؤرخون من المقولة الثالثة الذي ينظرون الى سائر الشخصيات التاريخية ، منذ الملوك حتى الصحفيين ، على اعتبارهم تعبيراً عن زمنهم .

ان نظرية وقف ارادة الجماهير على شخصية تاريخية ليست اكثر من اجترار لنفس الكلمات ، ليست سوى للتعبير عن جوانب المسألة نفسها بكلمات اخرى .

ماهي أسباب الحوادث التاريخية ؟ ـ السلطة . ماهي السلطة ؟ ـ مجموع الارادات المنقولة الى شخص واحد . بأية شروط يحدث هذا النقل ؟ ـ بشرط أن يعبر الشخص المنتخب عن ارادة الجميع وبكلام آخر ، فالسلطة هي السلطة . وبمعنى آخر ، فالسلطة كلمة لاندرك معناها .

. . .

لو كان ميدان العلم البشري ينحصر بالفكر المجرد وحده ، فقد كانت الانسانية تتوصل ، بعدما يخضع للنقد تفسير السلطة المعطاة من قبل العالم ، الى هـــذه النتيجة ، ألا وهي ان السلطة ليست أكثر من مجرد كلمة ، وهي غير موجودة في الحقيقة . بيد أن الانسان يملك ، في سبيل معرفة الظواهر ، اداة اخرى غير الفكر المجرد ، وهي التجربة التي يراقب بواسطتها محاكاته التجريدية . وان التجربة لتثبت أن السلطة ليست كلمة ، بل حقيقة .

واذا تركنا جانباً أنه ليس ثمة وصف لفعالية البشر الجماعية يستطيع الاستغناء عن تعريف للسلطة ، فان وجود السلطة يثبته التاريخ ومشاهدة الاحـداث المعاهدة على السـواء

وكلما وقع حادث ما ، نرى ظهور شخص او عدة أشخاص يتم هذا الحادث بفضل ارادتهم . أن نابليون الثالث يصـدر أمره ، فينطلق الفرنسيون الى الى المكسيك . ان ملك روسيا وبسمارك يصدران أمرهما ، فتسير جيوشهما على بوهيميا . ان نابليون الأول يأمر ، وتسير جيوشه على روسيا . ان ألكسندر الأول يأمر ، ويخضع الفرنسيون للبوربونيين . ان التجربة تبين لنا أن أي حادث كان مرتبط بارادة شخص أو عدة أشخاص قد أمروا به .

ويريد المؤرخون ، بفضل ما اعتادوه قديماً من مشاهدة تدخل الله في قضايا العالم ، ان يقوم سبب كل حادث في ارادة شخص يتمتع بالسلطة ، بيد أن هذا الاستنتاج لاتؤكده المحاكمة العقلية ولا التجربة العملية .

فمن جهة ، تبرهن المحاكمة أن التعبير عن ارادة الانسان - أي كلامه - ليس سوى جزء من الفعالية الكلية المتظاهرة في حادث ما ، الحرب مثلاً ، او الثورة ايضاً . وبالتالي ، فاذا لم نعترف بوجود قوة مجهولة فوق طبيعية ، يعني بوجود المعجزة ، فمن المستحيل القبول بأن الكلمات وحدها يمكن ان تكون سبب تحرك ملايين الناس . ومن جهة اخرى فالتاريخ يبرهن ، حتى اذا قبلنا ذلك . ان التعبير عن ارادة الشخصيات التاريخية لايؤدي في معظم الحالات الى أية نتيجة ، يعني ان أوامرهم لاتظل دون تنفيذ فحسب ، بل ان عكس ما أمروا به يحدث في بعض الأحيان .

فاذا لم نقبل بالتدخل الالهي في القضايا البشرية ، فاننا لا نستطيع ان نرى الى السلطة على أنها سبب للحوادث .

فالسلطة ، من وجهة نظر التجربة ، ليست سوى علاقة التبعية القائمة بين الارادة المعبر عنها لانسان ما ، وتحقيق هذه الارادة من قبل اناس آخرين .

وكي نفسر شروط هذه التبعية ، ينبغي بادىء ذي بدء أن نرجع مفهوم الارادة المعبر عنها لا الى الله ، بل الى انسان ما .

فاذا كانت الألوهية ، كما يقول لنا القدماء تصدر الأوامر وتعبر عن ارادتها ، فتعبير هذه الارادة غير تابع للزمان وغير مسبب عن أي شيء كان ، مادامت الألوهية لاتملك اية علاقة بالحوادث . أما فيما يتعلق بالأوامر المعبرة عن ارادة بشر يتحركون في الزمان ويتاسلون ببعضهم بعضاً ، فينبغي لنا ، كي يفسر العلاقة الموجودة بين الأوامر والحوادث ، أن نبين : ١ - الشرط الضروري لكل مايقع ، ألا وهو اتصال الحركة في الزمان ، والحوادث وأوامر الشخصية المعينة ؛ ٢ - الشرط الضروري لوجود رابطة بين من يصدر الامر الذين ينفذونه .

الفصل السادس

القيادة والتنفيذ

ان إرادة ألوهية مستقلة عن الزمان تستطيع وحدها أن تؤثر في سلسلة من الأحداث لابد من وقوعها خلال بضع سنوات أو بضعة قرون ؛ إن الألوهية وحدها تستطيع بارادتها غير المشروطة ، أن تحدد اتجاه مسير الانسانية. أما الانسان فيفعل على العكس من ذلك ،في الزمان ويشارك بنفسه في الأحداث.

وإما حققنا هذا الشرط الأول المهمل عادة ، شرط الزمان ، فسوف نرى أنه لايمكن تنفيذ أي أمر كان مالم يسبقه أمر آخر يسمح بتنفيذه .

أبداً لايظهر الأمر بتو الدعفوي أو يحتوي في ذاته سلسلة كاملة من الأحداث؛ كل أمر ينشأ بالضرورة عن أمر آخر ، وتكون علاقتـه لابسلسلة كاملة من الأحداث ، بل بلحظة وحيدة في حادث واحد فقط .

فعندما نقول ، مثلاً ، إن نابليون أرسل جيوشه الى الحرب ، فانا نرجع الى أمر وحيد ، يلفظ في لحظة معينة من الزمان ،سلسلة من الأوامر المتتابعة المترابطة . ما كان في مكنة نابليون ان يأمر بالحملة على روسيا ، وهو لم يفعل ذلك قط . لقد أمر ذات يوم بارسال هذه الأوراق أو تلك الى فيينا، وبرلين، وبترسبورغ ؛ وأمر في الغداة بارسال هذه المراسيم والمعلومات أو تلك إلى الجيش ، والأسطول ، ومركز الادارة ، وهلم جرا .اذن فهو قد أصدر آلاف

الاوامر المتعلقة بتلك الحلقة من الحوادث التي قادت الجيش الفرنسي الى روسيا .

وإذا كان نابليون لم يكف ، طوال فترة حكمه ، عن إصدار الأوامر المستهدفة الحملة على انكلترا ، وبذل في ذلك من الجهد أكثر مما بذل في سبيل أي من مشاريعه الأخرى ؛ وإذا لم يجرب مرة واحدة ، رغم ذلك كله ، أن يحقق مشروعه ، بل انهمك في حملته على روسيا التي كانت محالفتها ، كما أكد مرات عديدة ، تعود عليه بالفائدة الجمة ، فمنشأ ذلك أن أوامره الأولى لم تكن تتجاوب مع سلسلة من الحوادث، بينما كانت الاوامر التالية تتجاوب معها.

فالأمر لا يمكن أن يوضع موضع التنفيذ مالم يكن صادراً بصورة يمكن تنفيذه معها . وإن معرفة ما كان يمكن وما كان لا يمكن تنفيذه هو الشيء المستحيل ، لا فقط بالنسبة الى حملة نابليون على روسيا حيث يساهم ملايين البشر ، بل كذلك بالنسبة الى أبسط حدث ، لأن تنفيذ الامر يمكن ان يصدم في كلتا الحالتين بملايين العقبات . وانا لنجد ، مقابل كل أمر تم تنفيذه ، عدداً من الأوامر الاخرى التي لم تنفذ . فالأوامر المستحيلة لا علاقة لها البتة مع الحوادث ولا يمكن إنجازها ، والأوامر القابلة للتنفيذ هي وحدها التي ترتبط بسلاسل من الأوامر الموافقة لسلاسل من الأحداث ، وانها لتنفذ .

فاذا ماتخيلنا بصورة خاطئة أن الأمر السابق لحادث ماهو سبب هذا الحادث ، فمنشأ ذلك أننا ننسي وقوع الحادث وحقيقة تنفيذ الأوامر التي كانت ذات علاقة به من بين آلاف الأوامر الصادرة ، تلك الاوامر التي لم تنفذ لانه لم يكن في الامكان تنفيذها وفيما عدا ذلك ، فالمصدر الرئيسي لضلالنا هو ان سلسلة لا حصر لها من الوقائع التافهة ، ومثالها كل ماجر الجيوش الفرنسية الى روسيا ، يذوب في العرض التاريخي للحقائق في حدث وحيد تبعا لنتيجة تلك السلسلة من الوقائع ، وبالتالي فاننا نصهر ، بصورة متفقة مع ذلك الذوبان ،

سلسلة كاملة من الأوامر في امر واحد يعبر عن إرادة الزعيم .

إننا نقول : لقد أراد نابليون الحملة على روسيا وحققها . وفي الحقيقة أننا لانجد في أي كان من نشاطه ،شيئا يشبه التعبير عن هذه الارادة . انناترىفقط سلسلة من الأوامر أو في تعبير ارادته ، موجهة بصورة على أشد ماتكون من التنوع والالتباس ولقد استخرج من السلسلة اللامتناهية لأوامر نابليون غير المنفذة سلسلة من الأوامر القابلة للتنفيذ ، المتعلقة بحملة عام ١٨١٢ ، ليس لأن هذه الأوامر الاخيرة تتميز في أي شيء كان على الأوامر السابقة ، بل لأن هذه السلسلة في الأوامر تتطابق مع سلسلة الوقائع التي قادت الفرنسيين الى روسيا . وتلك هي الحال بالضبط حين تصور شخصا بالاستناد الى أصل مرسوم فنحن لانعني إذن كيف ومن أي جانب تنطبق الالوان ، بل نمر فقط اللون على سائر ملامح الوجه الذي يصوره ذلك الأصل .

وهكذا ، فعندما نأخذ بعين الاعتبار ، في زمن معين ، العلاقات بين الامر والحادث ، فاننا نرى أن الأمر لايمكن في حال من الأحوال أن يكون سبب الحادث ، بل إن ثمة علاقة محددة بينهما .

وكيما نفهم جوهر هذه العلاقة ، فلابد لنا من تحقيق الشرط الثاني الذي الذي سكتنا عنه حتى الآن ، الخاص بكل أمر صادر لاعن الألوهية بل عن الانسان ، والقائم في أن الانسان الذي يصدر الأمر يساهم هو نفسه في الحادث.

وإن هذه العلاقة بين الآمر والمنفذ هي بالضبط هي ماتسمية السلطة . وهذه العلاقة تقوم فيما يلي :

إن البشر كي يعملوا بصورة مشتركة ، يتحدون على الدوام في جماعات تظل فيها العلاقة بين البشر الذين يساهمون في الفعل واحدة ، وذلك بالرغم من الفارق القائم بين الهدف المطلوب والعمل الجماعي .

وإما يتحد البشر هكذا ، فهم على الدوام تربطهم العلاقة التالية : إن العدد الاكبر يقوم بالنصيب الاكبر المباشر ، والاقلية الزهيدة ، تقوم بالنصيب الأصغر في العمل الجماعي الذي اتحدوا من أجله .

وفي عداد هذه التجمعات حيث يلتقي البشر في سبيل إنجاز أفعال مشتركة نرى أن الجيش هو في أوضحها وأكثرها تحديداً .

فالجيش يتشكل بادىء الأمر من أحط العناصر في التراتب العسكري : الجنود الذين هم العدد الأكبر به ومن ثم من اولئك الذين يلحقون بهم في هذا التراتب ، الجنود الأولون ، والعرفاء ، وصف الضباط الذين عددهم اقل من ذلك ، حتى القيادة العليا المركزة في فرد وحيد .

ويمكن تشبيه التنظيم العسكري بمخروط يشكل الجنود قاعدته ، والضباط المقاطع المسطحة منه ، المتناقصـــة بقدر ما نرتفع نحو القمة التي رأسها هو القائد العام

فالجنود الذين هم الغالبية العظمى يشكلون إذن القسم الأسفل ، قاعدة المخروط . وانه الجندي الذي يضرب ويطعن ويحرق ويسلب ؛ وهو يتلقى الأمر بذلك من رؤسائه دوما ، بينما هو نفسه لايصدر الأوامر قط . وان صف الضباط ، وهم أقل عدداً ، لايقومون بنفس العمل الا في حالات اندر ؛ لكنهم يأمرون قليلا أما الضابط ، فيساهم في الفعل بنصيب اقل من ذلك ، ويصدر الأوامر أكثر فأكثر . ولا يفعل الجنرال سوى قيادة مسير القوى المسلحة نحو هدف بينة لها ، لكنه يكاد لايلمس السلاح مطلقاً . اما القائد العام ، فانه لايستطيع مطلقاً ان يساهم في الفعل مباشرة ، بل يكتفي بأن يصدر الأوامر باتخاذ التدابير الضرورية المتعلقة بالحركة الكتلية للجيوش . وان الصلة نفسها بين الافراد تتكرر في كل جماعية تجمعت مستهدفة فعلا

مشتركاً ، أكان ذلك في ميدان الزراعة أم التجارة ، أم أي مشروع آخر .
وهكذا ، من دون أن نضاعف بصورة مصطنعة مقاطع المخروط أو رتب الجيش أو ألقاب ومراكز دائرة ما ، أو أية منظمة عامة ، نرى أن ثمة قانوناً ينبثق من ذلك كله ، ينص على ايجاد العلاقات بين مراكز الرجال المعينين لانجاز عمل مشترك بحيث ينقص اشتراكهم في القيادة بقدر مايزداد عددهم ومساهمتهم المباشرة في هذا العمل ؛ وبالمقابل ، وبقدر ماينقص نصيبهم من العمل المباشر ، ينقص عددهم ويتضاعف اشتراكهم في العمل القيادي ، وهكذا بحيث نرتفع من الأسفل الى الأعلى ، حتى شخصية وحيدة وأخيرة توجه ، رغم ان نصيبها في العمل المشترك هو أقل من نصيب أي شخص آخر ، نشاطها نحو القيادة اكثر من الآخرين جميعاً .

وإن العلاقة بين الشخص الذي يقود ، وأولئك الذين يخضعون للقيادة هي التي تشكل جوهر المفهوم المسمى سلطة .

ونحن لم نكتشف أن الأمر لاينفذ إلا عندما يرتبط بالسلسلة الموافقة في الوقائع سوى بتحقيق شروط الزمان التي تتم الأحداث فيها . ولقد اكتشفنا ، بتحقيقنا لذلك الشرط الذي ينص على ضرورة وجود رباط بين من يأمر، ومن ينفذ ، أن أولئك الذين يصدرون الأوامر يكون لهم النصيب الأدنى ، تبعاً لماهيتهم نفسها ، في الحادث بمعناه الصحيح ، وأن نشاطهم موجه نحو القيادة وحدها من دون أي شيء آخر .

الفصل السابع

تغطية المسؤولية الاخلاقية

عندما يلوح حدث ما في الأفق ، فكل امرىء يقدم اذن رأيه الخاص . ولابد دائماً ان يوجد شخص يقترب رأيه أكثر أو اقل من الحقيقة ، بحيث يرتبط الرأي بالحادث في ذهننا ارتباط السبب بالمسبب .

هؤلاء رجال يجرون كتلة من الخشب . ان كل واحد منهم يعطي رأيه عن كيفية جرها والمكان الذي يجب أن توضع فيه وينتهي الرجال من جر الكتلة، فيتبين أن الشيء قد تحقق تبعاً لأقوال واحد من عدادهم. ويفكرون أن هذا الرجل هو الذي قام بدور القيادة . واليكم الأمر والسلطة حسب شكلها البدائي : إن من اشتغل بيديه أكثر من الجميع كان أقلهم تفكيراً فيما يصنع . وبالتالي كان أقلهم تفكيراً أيضا فيما يمكن أن ينتج عن الفعالية المشتركة وفي الأوامر التي يجب إصدارها . أما الذي قام بدور القيادة اكثر من سواه ، فقد انحصر فعله في الكلام وهو بالتالي كان أقوى الجميع عملاً بيديه .

وبقدر مايعظم تجمع الناس الذين يوجهون فعلهم نحو هدف واحد ، فان مقولات الرجال الذين ينقص مساهمتهم في العمل العام بمقدار مايكون نشاطهم موجهاً نحو القيادة تزداد هذه وضوحاً .

إن الانسان ، حين يعمل لوحده ، يملك على الدوام عدداً من الأسباب وجهت في اعتقاده ، نشاطه السابق ، وهي تبرر نشاطه الراهن وتوجهه في اختيار أفعاله المقبلة . وإن الجماعيات لتفعل بالصورة عينها ، اذ تترك لغير المساهمين في الفعل أمر تخيل الاعتبارات والمبررات والفرضيات المتعلقة بعملهم المشترك .

لقد أخذ الفرنسيون يغرقون بعضهم بعضاً أو يتذبحون لأسباب معروفة أو مجهولة منا . وإن هذا الحادث اترافقه مبررته الخاصة ، الموجودة في إرادات الفرنسيين الواضحة ، هؤلاء الفرنسيين الذين كانو يعتبرون هذا الحادث ضرورياً من أجل سعادة فرنسا ، ومن أجل الحرية والمساواة ولاينتهون من التذابح حتى يترافق هذا الحادث ايضاً بمبرراته : ضرورة سلطة وحيدة ، وضرورة الصمود في وجه اوروبا ، الخ . ويسيرون من الغرب في اتجاه الشرق ، وهم يتبعون أشباههم ، ويترافق هذا الحادث أيضاً بخطابات عن عظمة فرنسا ، وسفالة انكلترا ، الخ ، ويبين التاريخ ان هذه المبررات كانت خالية من الحس السليم ، وانها تتناقض ، مثلها مثل قتل الانسان إثر إعلان حقوق الانسان ، ومقتل ملايين الناس في روسيا في سبيل إدلال انكلترا . بيد ان لهذه المبررات ، عند الناس المعاصرين ، مغزى ضرورياً .

وإن الغاية منها هي تغطية المسؤولية الأخلاقية لمرتكبي هذه الحوادث . فهذه الغايات لأشبه بالمكانس الموضوعة في مقدمة القطارات بغية تنظيف الخط الحديدي ؛ انها تنظف طريق مسؤولية البشر الأخلاقية . وإن أبسط سؤال ليظل ، من دون هذه المبررات ، دون جواب لدى تفحص كل حادثة على حدة كيف يمكن لملايين الناس أن يرتكبوا بصورة مشتركة الجرائم والحروب ، والمذابح ، الخ . ؟

أيمكننا ، في الأشكال المعقدة للحياة الحديثة ، السياسية والاجتماعية ، في

أوروبا أن تتخيل اية حادثة كانت لم يقدرها سلفاً الملوك ، أو الوزراء ، أو البرلمانيون ، أو الصحف ، ويأمرون بها ويقررون حدوثها ؟ أثمة نشاط جماعي لم يجد تبريره في وحدة الدولة ، أو الدفاع عن الأمة ، أو التوازن الأوروبي ، أو مصلحة الحضارة ؟ إن كل حادثة واقعة توافق بالضرورة رغبة ثم التعبير عنها ، وهي تعتبر ، في سبيل تبريرها ، كنتاج لارادة واحد أو أكثر من هذه الشخصيات.

ومهما يكن اتجاه سفينة ما ، فاننا نجد على الدوام ، في مقدمتها ، دواراً مائياً ناتجاً عن الموجه التي تخترقها . وإن هذه الدوامة ، بالنسبة الى المسافرين على سطح السفينة ، هي الحركة الوحيدة المنظورة .

ونحن لاندرك أن كل حركة من حركات الموجه تحددها حركة السفينة ، وأن مايوقعنا في الخطأ هو كوننا نتقدم نحن انفسنا دون أن نلاحظ ذلك ، نحن لاندرك هذا إذن إلا إذا تمعنا عن قرب لحظة إثر لحظة ، في حركة دوامة المياه وقارنا تجربة السفينة نفسها .

ونصل إلى نفس النتيجة إذا تتبعنا ، خطوة فخطوة ، حركات الشخصيات التاريخية ، يعني إذا ماحققنا الشرط الضروري لكل مايجري من حوادث : اتصال الحركة في الزمان ، واذا لم يغب عن انظارنا الرباط الضروري القائم بين الشخصيات التاريخية والجماهير .

ومهما يكن من امر ، فان الحادث يبدو انه ذلك الحادث الذي كان متوقعاً ومأموراً به مهما يكن اتجاه السفينة ، فالدوامة التي تطرطش عند مقدمة السفينة لاتوجد حركتها كما انها لاتقوي هذه الحركة ؛ ومع ذلك فهي تلوح لنا عن بعد لانابضة بحركة مستقلة فحسب ، بل موجهة لحركة السفينة أيضاً .

☆ ☆ ☆

إن المؤرخين ، حين لايأخذون بعين الاعتبار سوى هذه التعابير عن إرادة

الشخصيات التاريخية التي ترتبط بالأحداث على صورة أوامر قد افترضوا أن الأحداث تابعة لهذه الأوامر . ولكننا حين تفحصنا الحوادث ذاتها والرابطة التي تجمع بين الشخصيات التاريخية والجماهير وجدنا أن هذه الشخصيات ، مثلها مثل أوامرها ، هي التي تقع في تبعية الحوادث . والبرهان على ذلك أن الحادث لايقع ، مهما تكن الأوامر كثيرة متعددة ، اذا لم يكن ثمة أسباب أخرى ؛ ولكن الحادث ، مهما يكن ، لايكاد يقع حتى نجد ، بين الارادات التي عبرعنها شخصيات مختلفة ، أسباباً يمكن أن تنسب ، تبعاً لمنحاها وساعة وقوعها ، للحادث كأوامر أدت إلى وقوعه .

وإما وصلنا الى هذه النتيجة ، فاننا نستطيع ان نجيب بوضوح ويقين عن المشكلتين الأساسيتين للتاريخ :

١ — ماهي السلطة ؟

٢ — ماهي القوة التي تحرك الشعوب ؟

١ — إن السلطة تنشأ عن علاقات شخصية معينة بشخصيات أخرى . وإن هذه العلاقات منظمة بحيث أن هذه الشخصية تعبر عن عدد أكبر من الآراء والفرضيات والمبررات المتعلقة بالحادثة الجارية بقدر ماتنقص مساهمتها في العمل المشترك .

٢ — إن حركة الجماهير لاتحدثها السلطة ولا الفعالية الفكرية ولااتحاد فلان أو فلان ، كما يحسب ذلك المؤرخون ، بل بفعالية سائر الذين يشتركون في الحوادث ، والذين يتجمعون بحيث ، أن الذين يساهمون في الفعل بصورة أشد مباشرة هم أقل الجميع مسؤولية . والعكس بالعكس .

ومن وجهة النظر الأخلاقية ، يبدو أن السلطة هي سبب الحادث ؛ ومن وجهة النظر الحكمية ، يبدو أن الخاضعين للسلطة هم سبب ذلك الحادث . ولكنه

لما كانت كل فعالية إخلاقية مستحيلة بدون فعالية حكمية ، فأسباب الحادث لاتوجد إلا في اجتماع كلناهما .

وبتعبير آخر : إن مفهوم السبب لاينطبق على الظاهرة التي نحن في سبيل تفحصها .

وإننا لنصل في آخر تحليل إلى الدائرة الأبدية ، الى هذا الحد الأقصى الذي يبلغه الذهن البشري في ميدان الفكر اذا لم يكن لاهياً في دراسة موضوعه. إن الكهرباء مولدة للحرارة ، والحرارة تنتج الكهرباء . إن الجواهر الفردة تتجاذب ، وإن الجواهر الفردة تتدافع .

وحين نتحدث عن التفاعلات المتبادلة بين الكهرباء والحرارة ، فاننا لانستطيع أن نقول أين تنشآن ؛ نحن نقول إذن إن ذلك يحدث على هذه الصورة المعينة لأنه يبدو لنا مستحيلًا بأية صورة أخرى ، لأن ذلك يجب أن يكون هكذا ، لان هذا قانون مطلق . وكذلك الأمر بالنسبة إلى القضايا التاريخية . فنحن نجهل لماذا توجد هذه الحرب أو تلك الثورة ، ولا نعرف سوى أن البشر يتحدون في جماعية يساهم كل منهم فيها كي ينجزوا هذا الفعل أو ذاك ؛ ونحن نقول إن الأمور هكذا ، وإن الأشياء غير معقولة بصورة أخرى ، وإن ذلك هو القانون.

الفَصْلُ الثّامِنْ

الحرية الانسانية

لو كانت علاقة التاريخ منحصرة بالظواهر الخارجية فحسب، فقد كان يكفي طرح هذا القانون في بساطته ووضوحه، وبذلك تنتهي محاضرتنا. بيد أن قانون التاريخ يرتبط بالكائن الانساني. إن ذرة في المادة لاتستطيع أن تقول لنا مطلقاً إنها تحس حاجة الانجذاب أو الدفع، وهي لاتستطيع أن تقول لنا أيضاً إن هذا القانون مغلوط. أما الانسان، الذي هو عرَض التاريخ، فيؤكد على العكس بصورة حازمة: إني حر وغير خاضع للقوانين.

وإن هذا الوجود الخفي لقضية الحرية الانسانية ينبثق أمامنا لدى كل خطوة يخطوها التاريخ.

ولقد انتهى سائر المؤرخين الجديين، بصورة غير إرادية، الى هذه المشكلة. وما منشأ سائر تناقضات التاريخ وشكوكه، وتلك الطريق الخاطئة التي يسلكها هذا العالم، سوى من بقاء هذه القضية دون حل.

فاذا كانت إرادة كل من الأفراد حرة، يعني اذا كان في مكنة كل امرىء أن يتصرف بحرية يعني على هواه، فمن الواضح أن فعلاً وحيداً حراً يقوم به هذا الشخص بصورة مناقضة للقوانين يقضي قضاء مبرماً على إمكانية وجود أية قوانين بالنسبة إلى الانسانية بأسرها.

واذا كان ثمة قانون واحد يسير الأفعال البشرية ، فلا يمكن إذن أن تكون ثمة حرة، لأن إرادة كل امرىء يجب عندئذ أن تكون خاضعة لذلك القانون .

ويطرح هذا التناقض مشكلة حرية الاختيار التي تشغل ، منذ العصور القديمة ، أدمغة النخبة دون أن تفقد قط شيئاً من أهميتها العظيمة .

وتطرح هذه القضية كما يلي : اما ننظر إلى الانسان كموضوع للملاحظة من أية وجهة نظر كانت : لاهوتيه أم تاريخية أم أخلاقية أم فلسفية ، فاننا نجد على الدوام قانون الضرورة المحتوم المشترك بين سائر الكائنات الحية . وإما ننظر اليه على العكس من وجهة نظر تجربتنا الصميمية ، من وجهة نظر وجداننا ، فاننا نحس الحرية إذن .

فالوجدان هو ينبوع معرفتنا بذاتنا ، المنفصلة والمستقلة تماماً عن العقل . إن الانسان يتمكن ، بفضل العقل، أن يراقب نفسه بنفسه الا بواسطة الوجدان .

وبدون وعي الذات لن يفيدنا شيئاً أن نفكر في أية ملاحظة أو أي تطبيق عملي للعقل .

وينبغي للانسان . كي يفهم ويراقب ويستنتج ، أن يعي نفسه في البدء بصفته كائناً حياً . ولا يعرف الانسان ذاته كائنا حيا إلا حين يدرك أنه يتحلى بالارادة ، وبتعبير آخر فهو لايعي سوى إرادته ، وهذه الارادة ، ماهية حياته ، لايمكنه أن يتصورها سوى حرة .

وخلال ملاحظاته عن نفسه ، إذا أدرك الانسان أن إرادته موجهة بصورة متصلة نحو نفس الهدف الواحد ، أكان هذا الهدف ضرورة إيجاد غذائه أم قيام دماغه بالعمل أم أي شيء آخر ، فانه لايستطيع أن يفسر ذلك لنفسه سوى كتحديد لارادته . إن ماليس هو حراً لايمكن حده ، والانسان يعتبر إرادته محدودة بالضبط لأنه لايتصورها سوى حرة .

أنت تزعم أنك غير حر . وأنا أستطيع مع ذلك، أن أرفع ذراعي وأخفضه .
وإن كل امرىء ليفهم أن هذا الجواب غير المنطقي هو برهان على الحرية لا يمكن دحضه
بيد أن هذا الجواب ينشأ عن الوعي غير الخاضع للعقل .

فاذا كان الوعي الذي نملكه عن حريتنا غير مستقل عن عقلنا ، فهذا الوعي سيكون إذن خاضعاً للعقل وللتجربة ؛ بيد أن مثل هذا الخضوع غير موجود مطلقاً في الواقع ، بل هو غير معقول البتة .

إن سلسلة من المحاكمات والتجارب تبرهن لكل امرىء أنه خاضع ، بصفته موضوع الملاحظة ، لبعض القوانين ؛ وانه ليخضع لها ، إنه لا يتمرد أبداً على قانون الجاذبية أو قانون عدم النفوذ عندما يلم بهما مرة . بيد أن هذه السلسلة عينها من التجارب والمحاكمات تبرهن له ان الحرية التامة التي يعيها في ذاته مستحيلة ، وأن كلا من أفعاله تابع لعضويته ، وخلقه ، والمحركات التي تؤثر عليه ؛ ومع ذلك ، فانه لا يخضع قط لهذه الاستنتاجات .

إنه يعرف بالتجربة والمحاكمة أن الحجر يسقط ؛ إنه يعتقد ذلك دون تحفظ ، وينتظر في مختلف المناسبات أن يجد هذا القانون الذي يعترف به مطبقاً .
ولكنه ، رغم معرفته بمثل ذلك اليقين أن ارادته خاضعة لقوانين ، فانه لا يؤمن بذلك ويرفض ان يؤمن به .

ومهما يكن عدد المرات التي برهنت له فيها التجربة والعقل أنه سيفعل ، في ذات الشروط ونفس الخلق ، بالضبط ماقد فعله سابقاً ، ورغم انه توصل آلاف المرات ، عندما يفعل في نفس الشروط ونفس الخلق ، الى نتائج متماثلة ، فانه لا يبرح يؤمن دون أدنى ارتياب في حريته في التصرف على هواه ، تماماً كما كان يؤمن بذلك قبل تجاربه تلك . فكل إنسان ، المتوحش ، والمفكر على السواء ، يحس رغم المحاكمة والتجربة اللتين برهنتا له بصورة لا تدحض تماثل

أفعاله في الشروط المتماثلة ، أنه لايستطيع دون هذا الايمان غير المعقول الذي يشكل ماهية حريته أن يتصور الحياة لحظة واحدة . إنه يحس أن ذلك حقيقي مهما يكن نصيبه من المحال ، وانه اذا ماحرم من هذا الاعتقاد في الحرية فلن يكون عاجزاً عن فهم الحياة فحسب بل لن يستطيع أيضاً أن يعيش لحظة واحدة .

إنه لايستطيع ان أن يعيش ، لأن كلًا من جهود الانسان وكلًا من انطلاقاته ، لايستهدفان سوى زيادة حريته . الغنى والفقر ؛ المجد وعدم الشهرة ، السلطة والخضوع ؛ القوة والضعف ؛ الصحة والمرض ؛ المعرفة والجهل ؛ العمل والبطالة ؛ الشبع والجوع ؛ الفضيلة والرذيلة ، ليست هذه الأمور جميعاً سوى درجات أكثر أو أقل ارتفاعاً من الحرية .

وإن تصور إنسان محروم من الحرية يعني تصوره محروماً من الحياة .

واذا كانت فكرة الحرية لاتخلو من تناقض سخيف بالنسبة الى العقل ، مثلها مثل فكرة انجاز فعلين في وقت واحد أو فكرة نتيجة دون سبب ، فذلك لايبرهن سوى كون وجداننا غير خاضع لأحكام العقل .

وإن هذا الوعي لحريتنا ، هذا الوعي الذي لايتزعزع ولايتدمر ، غير الخاضع للتجربة أو للمحاكمة ، الذي يعترف به سائر المفكرين ، ويحسه سائر البشر دون استثناء ، ان هذا الوعي الذي لاغنى عنه ليفهم الانسان هو مايشكل المظهر الآخر من القضية .

إن الانسان خليقة إله كلي القوة ، كلي الطيبة والصلاح ، قادر على كل شيء . فما هي الخطيئة إذن ، هذه التي ينشأ مفهومها عن وعي حرية الانسان ؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم اللاهوت .

إن افعال الانسان خاضعة لقوانين عامة لاتتغير قد سجلتها الاحصائيات .

ففي أي شيء تقوم إذن مسؤولية الانسان حيال المجتمع ، التي ينشأ مفهومها عن وعي حريته ؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم الحقوق .

إن أفعال الانسان تنشأ عن صفاته الموروثة وعن المحركات التي تحمله على الفعل . فما هو الوجدان ومفهوم الخير والشر في الأفعال التي تصدر عن وعي حريته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه عالم الاخلاق . . .

إن الانسان المرتبط بحياة الانسانية العامة يبدو خاضعاً للقوانين التي تسير هذه الحياة . بيد أن الانسان يظهر ، بصورة مستقلة عن هذا الرباط ، كأنه مطلق الحرية . كيف ينبغي لنا أن ننظر الى الحياة الماضية للشعوب والانسانية؟ أهي نتيجة فعالية الناس الحرة أم المقيدة ؟ هــــذا هو السؤال الذي يطرحه عالم التاريخ .

وإن قضية الارادة الحرة لم تنته الى ميدان لايمكنها حتى أن تطرح فيـه سوى في عصرنا المغرور الذي يدعي تعميم المعرفة وبفضل هذه الأداة الكلية القوة لنشر الجهل التي هي المطبعة . وإن غالبية الناس الذين يدعونهم الطليعة ، في عصرنا ، يعني هذه الجمهرة في الجاهلين ، قد حسبوا انهم وجدوا في أعمـــال العلماء الطبيعيين الذين لاينظرون سوى الى جانب واحد من القضية حل المشكلة كلها .

وإنهم ليقولون وينشرون : ليس ثمة نفس أو إرادة حرة ، مادامت حياة الناس تتظاهر بحركة عضلاته ، وما دامت العضلات تخضع لأوامر الجهاز العصبي ليس ثمة نفس أو إرادة حرة مادام الانسان قد انحدر عن القرد في زمن غير معروف . ولايخطر في بالهم مطلقاً أن سائر الديانات وسائر المفكرين ، منذ آلاف السنين ، لم يعترفوا فحسب ، بل لم يفكروا لحظة واحدة في انكار نفس قانون الضرورة هذا الذين يتكبدون هم كل هذه المشقات كي يثبتوه اليوم

بواسطة الفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن . إنهم لايدركون ان دور العلوم العلوم الطبيعية لايقوم ههنا سوى في ايضاح جانب واحد من القضية . وفي الحقيقة أن المناداة بأن الملاحظة ، والعقل ، والارادة ماهي سوى إفرازات دماغية ، وأن الانسان الخاضع للقوانين المشتركة قد تمكن في زمن مجهول أن يتملص من الحيوانية السفلى لاتعني سوى تفسير مستحدث هذه الحقيقة المعترف بها منذ آلاف السنين من قبل الأديان والفلاسفة ، ألا وهي أن الانسان ، من وجهة نظر العقل ، يرتبط بقوانين الضرورة ؛ بيد أن هذا لايتقدم بالمشكلة حتى ولاخطوة واحدة نحو الحل المرجو ، لأن لتلك المشكلة وجهاً آخر ، مقابلًا ، يتركز على وعي الحرية .

فاذا كان الانسان قد انحدر ، في زمن مجهول ، من القرد ، فاننا نستطيع كذلك أن نقبل بخروجه ، في زمن معروف ، من قبضة من تراب ؛ وإن الزمن هو المجهول في الحالة الأولى ؛ أما في الحالة الثانية فالمجهول هو أهل الانسان. بيد أن المشكلة لاتكمن ههنا . المشكلة هي أن نعرف كيف يتحد الوعي الذي يمكله الانسان عن حريته بقوانين الضرورة التي يخضع لها . وهذه المشكلة لايمكن حلها بالفيزيولوجيا وعلم الحيوان المقارن ، لأننا نلاحظ في الضفدع والأرنب والقرد مجرد فعالية عضلية وعصبية ليس غير ، بينما نلاحظ في الانسان بالاضافة الى هذه الفعالية العضلية العصبية ، وجود الوعي .

إن العلماء الطبيعيين والمعجبين بهم الذين يزعمون حل هذه المشكلة لأشبه بعمال بناء قد تلقوا الأمر بتكليس أحد جوانب كنيسة ما ، فهم يغتنمون فرصة غياب رئيس العمل كي يزيدوا ، بدافع في فرط الحمية الدينية ، في طلي النوافذ والصور والصقلات والجدران التي لم تصبح ثابتة مكينة بعد ، ثم يسيرون بعملهم لأن سائر أقسام البناء ، من وجهة نظرهم كبنائين ، قد تلقت نفس الطبقة من الطلاء .

الفصل التاسع

الحرية والضرورة

إن حل مسألة الحرية والضرورة يعطي التاريخ ميزة على سائر فروع المعرفة الأخرى التي سعت إلى حلها ، ألا وهي أن هذه المسألة لاتتعلق بذات ماهية الارادة البشرية بل بتظاهرها في الماضي وفي شروط معروفة .

وفي هذه القضية يجد التاريخ نفسه ، حيال العلوم الاخرى ، في مركز العالم التجريبي حيال العلوم النظرية .

فليس غرض التاريخ إرادة الانسان نفسها ، بل الفكرة التي تشكلها عنه .

وهذا هو السبب في أن التاريخ لايقف ، مثل اللاهوت والأخلاق والفلسفة ، حيال ذلك السر الغامض الذي لايسبر غوره ، سر اتحـــاد النقيضين ، الحرية والضرورة . إن التاريخ يدرس تظاهرات الحياة البشرية التي تحقق فيهـــا ، سلفاً ، هذا الاتحاد .

ففي الحياة الواقعية ، يصير ادراك كل حدث تاريخي وكل فعل إنساني بوضوح ودقة كاملين ، ودون ان يبين فيه أدنى تناقض ، هذا رغم ظهوره بعد اكتماله حراً ومحدداً في وقت واحد .

وحين يتوجب حل قضية اتحاد الحرية والضرورة ، وقضية ماهية هـذين المفهومين ، ففلسفة التاريخ يمكنها ويجب عليها أن تسلك طريقاً معاكسة للطريق

التي تتبعها العلوم الاخرى . فالتاريخ ينبغي له ، بدلاً من محاولة تعريف مفهومي الحرية والضرورة في ذاتهما قبلًا ، ومن ثم إخضاع ظواهر الحياة لهذا التعريف ، أن يستخرج من كتلة الظواهر الضخمة المطروحة أمامه ، بصفتها مسيرة بالحرية والضرورة ، وتعريف هذين المفهومين .

فبأية صورة تطلعنا إلى أفعال إنسان واحد أو عدة أشخاص ، فاننا نجد فيها أثر الحرية الانسانية من جانب ، وأثر قوانين الضرورة من جانب آخر .

وسواء أخذنا بعين الاعتبار هجرات الشعوب ، أم غزوات البرابرة ، أم سياسة نابليون الثالث ، أم العمل الذي انجزه شخص ما قبل ساعة واحدة والذي لم يكن سوى اختياره القيام بنزهة في هذا الاتجاه بالأحرى منه في أي اتجاه آخر ، فاننا لانجد في ذلك كله أدنى تناقض البتة فنصيب الحرية والضرورة الذي حدد هذه الأفعال يبدو لنا بكل وضوح .

وتختلف الآراء غالباً حول نصيب الحرية الموجودة في فعل ما ، وذلك تبعاً لوجهة النظر الذي نتفحص القضية منها ؛ بيد أن الفعل الانساني يتراءى على الدوام ، في جميع الحالات ، كمزيج محدد من الحرية والضرورة وإن كل حالة نتفحصها تظهر لنا مقداراً معيناً من الحرية والضرورة التي نراها في هـذه الحالة نفسها ، وبقدر مايعظم نصيب الضرورة نرى أن الحرية قد تناقصت وتقلصت .

فعلاقة العنصرين اللذين يزداد أحدهما أو ينقص تبعاً لوجهة النظر تظل على الدوام متناسبة عكساً .

الانسان الذي يغرق ، فيتعلق بانسان آخر يجره معه ؛ الأم الجائعة التي ينهكها إرضاع وليدها والتي تسرق الغذاء ؛ الرجل الخاضع للانضباط ، الذي يقتل تنفيذاً لأمر يتلقاه رجلًا آخر أعزل ؛ هؤلاء جميعاً يتراؤون أقل جرماً ، يعني أقل حرية وأكثر خضوعاً لقوانين الضرورة ، في عيني الانسان الذي يعرف

أية شروط كانوا يخضعون لها ؛ وإنهم ليتراؤون اكثر حرية ، على العكس ، في عيني الانسان الذي لايعرف ان ذلك الرجل كان بسبيل الغرق ، وأن هذه الأم كانت جائعة ، وأن ذلك الجندي كان في الصف ، الخ . وتلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى رجل ارتكب جريمة قبل عشرين عاماً ، وهو يعيش منذذلك الحين ، في المجتمع ، حياة هادئة دون أن يلحق الأذى بأي مخلوق البتة ؛ إنه يبدو أقل جرماً ؛ ويبدو عمله في عيني من يحكم على ذنبه بعد عشرين سنة ، أكثرخضوعاً لقوانين الضرورة ؛ وإن الجريمة عينها تلوح أكثر حرية .في نظر من يتفحصها بعد إقترافها بيوم واحد . وكذلك الأمر في حال أفعال رجل مجنون ، أو سكران أو مهتاج ، فهي تبدو أقل حرية وأكثر ضرورة عند من يعرف الحالة الذهنية لهؤلاء الناس ، وأكثر حرية وأقل ضرورة في عيني من يجهلها . فالحرية والمسؤولية تزدادان وتتناقصان ، في هذه الحالات المتنوعة ، حسب ماتعظم الضرورة أو تنقص ، وتبعاً لوجهة النظر التي نتطلع منها . إننا نجد على الدوام أن الضرورة اعظم حين تكون الحرية ضئيلة ، والعكس بالعكس .

وإن الدين ، والحس السليم ، وعلم الحقوق والتاريخ نفسه تفهم هذه العلاقات بذات الطريقة

وإن جميع الظروف ، دونما استثناء ، التي تعظم فيها أو تنقص فكرتنا عن الحرية والضرورة ليس لها سوى ثلاثة أسس .

١ ـــ علاقات الانسان الذي ينجز عملاً ، مع العالم الخارجي ؛

٢ ـــ مع الزمان ؛

٣ ـــ مع الحركات التي تدفعه إلى العمل .

الأساس الأول للفحص : العلاقات الأكثر أو أقل وضوحاً لأعيننا ، التي

تربط الانسان بالعالم الخارجي ، ونفهم المكان المضبوط الذي يحتله كل انسان بالنسبة الى وسطه . ومن هنا نرى أن الانسان الذي يغرق هو أقل حرية وأكثر ضرورة من الانسان الواقف بثبات على الأرض الصلبة . وكذلك نرى من هنا أن أفعال إنسان يختلط بجمهور كبير من الناس الآخرين في مكان مزدحم ، وأن أفعال إنسان مرتبط بقيود عائلته ، وخدمته ومشروعه ، هي بكل تأكيد أقل حرية وأكثر خضوعاً لقوانين الضرورة من أفعال إنسان وحيد منعزل .

واذا أخذنا بعين الاعتبار انساناً وحيداً ، دون الاهتمام بعلاقته مع محيطه ، فان كلا من أفعاله يبدو لنا إذن حراً طليقاً . ولكننا اذا رأينا الى أية علاقة كانت من علاقاته مع وسطه ، إذا رأينا الى الروابط التي تقيده إلى أي شيء كان : الانسان الذي يحدثه ، الكتاب الذي يقرأه ، العمل الذي يشغله ، حتى الهواء الذي يحيط به والنور الذي يقع على الأشياء التي يستخدمها ، رأينا أن لكل من هذه الشروط صداه ، فهو يوجد مظهراً واحداً على الأقل من مظاهر فعاليته . وبقدر ماندرك هذه المؤثرات بصورة أفضل ، فان فكرتنا عن حريته تنقص ويزداد شعورنا بخضوعه للضرورة .

الأساس الثاني للفحص : العلاقات المؤقتة ، الأكثر أو أقل بينة ، بين الانسان والعالم ؛ الفكرة الأكثر أو أقل وضوحاً عن المكان الذي تشغله فعاليته في الزمان . ومن هنا يبدو أن سقوط الانسان الأول ، الذي كان مولد الجنس البشري نتيجة له وأقل حرية من دون ريب من زواج الانسان في الايام الراهنة . وكذلك فان حياة وفعالية البشر في القرون المنصرمة ، وهم مرتبطون بي في الزمان ، لايمكن أن تلوح لي على مثل حرية حياة البشر المعاصرين لي ، التي لما تبرح نتائجها مجهولة عندي .

وهكذا فان درجة الحرية أو الضرورة التي ننسبها الى فعل تابعة لفترة الزمن

الأكثر أو أقل امتداداً التي انقضت بين تحقيق ذلك العمل والحكم الذي تصدره بحقه .

فاذا نظرت الى عمل أنجزته لقوي قبل لحظة في شروط مماثلة تقريباً للشروط التي أنا فيها حالياً ، فان عملي يلوح لي حراً بصورة لاتقبل الجدل . بيد أني إذا حكمت على العمل بعد شهر من إنجازي له حين أكون في شروط مختلفة ، فاني أعترف إذن مرغماً ان عدداً كبيراً من الأشياء النافعة ، والمسرة ، بله الضرورة ، التي نشأ عنه ما كانت تحدث لو لم يكن ذلك العمل . وإذا اعدت بالذاكرة إلى عمل أقدم من ذلك ، يبعد عني عشر سنوات ونيفاً ، فان نتائجه تلوح لي أشد وضوحاً أيضاً ، حتى ليصعب علي أن اتصور ما كان يمكن أن يحدث لولا ذلك العمل . وهكذا فبقدر ماتعود الداكرة بي القهقرى ، اوبقدر ماأتقدم الى الذاكرة في أحكامي ، وهذا يؤدي الى ذات الشيء ، ازدادت استنتاجاتي عن حرية أحد أفعالي تردداً وحيرة .

وإننا انرى في التاريخ مثـــل هذا التقدم تماماً بشأن اعتقادنا في مساهمة الارادة الحرة في الأفعال الانسانية . فهذا الحادث الذي تم حديثنا يلوح لنا كعمل لايتعرض للشك قامت به شخصيات معروفة ؛ بيد أن الحدث لايكاد يبتعد عنا حتى تمنعنا نتائجه المحتومة الواقعة تحت أنظارنا عن رؤية أي شيء آخر سواها بعد الآن . وبقدر مانعود القهقرى في تفحص الحوادث ، فهي تظهر لنا أقل حرية وعضوية .

إن الحرب النمساوية البروسية تلوح لنا كنتيجة حتمية لأحابيل بسمارك ، الخ ... وتبدو الحروب النابليونية لنا ، مع بعض الشكوك الآن ، مسببة عن إرادة بعض الأبطال . بيد أننا نرى حقاً في الحروب الصليبية حادثة تشغل مكاناً محدداً كان تاريخ اوروبا الحديث يخلو بدونها من كل معنى ؛ ومع ذلك

فان كتاب القرون الوسطى لم يجدوا فيها يومذاك سوى نتيجة لارادة بعض الأشخاص . واذا ماانظرنا الى الغزوات الكبيرة ، فان أحداً لن يعتقد اليوم أن تجدد العالم كان متعلقاً بهدى أتيلا . فبقدر ماتعود القهقرى في التاريخ ، شكوكنا حول حرية فعلة الحوادث ، بينما يزداد قانون الضرورة يقيناً .

الأساس الثالث للفحص : القدر الأكبر أو الأقل المتوفر لنا في امكانية النفوذ الى تسلسل الحوادث الذي لانهاية له ، والذي هو من متطلبات عقلنا المحتومة ، والذي يجب ان يكون فيه لكل حادث معقول ، وبالتالي كل فعل من أفعال الانسان ، مكانه المحدد كنتيجة للحوادث السابقه وسبب للحوادث اللاحقة به .

وينتج عن ذلك أن أفعالنا وأفعال الآخرين تتراءى لنا أكثر حرية وأقل خضوعاً للضرورة بقدار ما تزيد معرفتنا للقوانين الفيزيولوجية والبسيكولوجية والتاريخية المستخرجة في الملاحظة الخاضع الانسان لها ، وبقدر ماندرس بدقة أعظم السبب الفيزيولوجي والبسيكولوجي أو الحادث ما ؛ هذامن جهة ، ومن جهة أخرى فان الفعالية الخاضعة للمراقبة تبدو لنا أشد بساطة بقدر مايكون خلق وفكر الانسان الذي نعرفه أقل تعقيداً .

عندما لانفهم سبب عمل ما ، شرير ،أو صالح ،أو معتدل بالنسبة الى الخير والشر ، فاننا نميل نحو أن نرى فيه أعظم مقدار من الحرية . واذا كان جريمة ، فاننا نطلب عقابه قبل كل شيء ، وإذا كان عملاً فاضلا غمرناه بالاطراء والمديح ، واذا كان معتدلاً ، وجدنا فيه دلالة على قوة الشخصية ،والجدة والحرية ولكننا اذا عرفنا حتى بجرد سبب واحد من أسباب هذا العمل ، رحنا نجد فيه إذن مقداراً معيناً من الضرورة ، فنحن أكثر تسامحاً عندئذ بالنسبة الى الجريمة ، وأقل حماسة لعمل الخير ، نرى مقداراً أقل من الحرية في العمل الذي كان يلوح

لنا جديداً مستحدثاً . فحقيقة نشوء المجرم في وسط من الأشراف يخفف من ذنبه ، والتضحية التي يقوم عليها أب أو أم وتترافق بامكانية المكافأة لأقرب الى أفهامنا من التضحية التي ليس لها سبب ظاهر ، ولذا فهي أقل إثارة لعطفنا ، وأقل حرية في أنظارنا . وإن مؤسس عصبة أو حزب يصير أقل إثارة لدهشتنا عندما نعرف كيف وبأي شيء تم تحضير عمله ومهنته . واذا كنا نملك سلسلة طويلة من التجارب ، واذا كانت ملاحظتنا موجهة بصورة متصلة نحو التفتيش عن العلاقات الموجودة بين الأسباب والنتائج ، فان الأفعال البشرية تبدو لنا أشد ضرورة وأقل حرية بقدر مانربط بيقين أعظم بين النتائج والأسباب . واذا كانت الوقائع التي نتفحصها بسيطة ، واذا كنا نملك لدراستها كمية عظيمة من الوقائع المماثلة ، فان الفكرة التي نشكلها عن ضرورتها تصير أكمل اذن . ان عدم أمانة ابن أب شرير . والسلوك الشائن لامرأة وقعت في وسط شرير ، وعودة سكير الى عربدته ، هي جميعاً وقائع تبدو لنا أقل حرية بقدر ماتزداد معرفتنا باسبابها . واذا كان الرجل الذي نتفحص سلوكه يقف في أخفض درجة من سلم الذكاء ، اذا كان طفلا أو مجنوناً ، أو معتوهاً ، فاننا نرى فيه إذن ، وقد عرفنا أسباب سلوكه وحالة خلقه المنحطة ، نصيباً كبيراً من الضرورة ونصيباً ضئيلاً جداً من الحرية بحيث لانكاد نعرف الدافع الذي يحركه حتى نستطيع أن نتنبأ بالعمل الذي سينتج عن ذلك الدافع .

على هذه العناصر الثلاثة في الفحص ترتكز عدم المسؤولية في الجرم والظروف المخففة المقبولة من قبل سائر التشريعات . فالمسؤولية تبدو أكبر أو أصغر بقدر مانعرف أكثر أو أقل الظروف التي كان المجرم خاضعاً لها ، وتبعاً للفاصل الزمني الأطول أو الأقصر الذي يفصل بين الفعل والحكم ، وتبعاً لدرجة المعرفة التي نملكها عن أسباب الفعل .

الفصل العاشر

اتحاد الحرية والضرورة

وهكذا فالتعقيب الذي ننسبه للحرية والمسؤولية ينقص أو يعظم حسب الرابطة الأشد أو الاضعف بين العقل والعالم الخارجي ،ودرجة بعده في الزمان وتبعيته الاعظم أو الاصغر للاسباب التي نرى فيما بينها بروز ظاهرة في ظواهر الحياة البشرية .

فاذا أخذنا بعين الاعتبار حاله امرىء معروفـــة جيداً علاقاته مع العالم الخارجي ، والذي يطول بالنسبة اليه الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه حتى الدرجة القصوى ، والذي دوافعه واضحة لنا كل الوضوح ، فاننا نرى في هـذه الحالة المقدار من الضرورة ، والمقدار الاقل عظماً من الحرية . أما اذا أخذنا بعين الاعتبار ، على العكس ، حالة امرىء أعماله أقل ماتكون تبعية للعالم الخارجي ، فاذا كان عمله قد جرى هذه اللحظة بالذات واذا كانت أسباب هذا العمل غامضة علينا ، فاننا نجد أدنى مقدار من الضرورة وأعظم مقدار من الحرية .

ولكننا ، في كلتا الحالتين ، مهما بـــدلنا في وجهة نظرنا ، ومهما دققنا في رابطة الانسان مع العالم الخارجي أو اعتبرنا هذه الرابطة ممتنعة على معرفتنا ، ومهما أطلنا الفاصل الزمني بين العمل والحكم عليه أو قصرناه ، ومهما فهمنا الاسباب أو جهلناها ، فاننا لن ننتهي قط الى حرية تامة أو الى ضرورة تامة .

١ — فمهما تصورنا الفرد غير خاضع لأي تأثير خارجي ، فاننا لن نتوصل الى فهم الحرية في المكان . ان كلًا من أعمال الانسان مشروط أنْ لما يحيط به أو بذات جسده . اني أرفع يدي وأخفضها . ويبدو لي أن حركتي حرة ، بيد أنني حين أتساءل عما اذا كان في مكنتي أن أرفع يدي في سائر الاتجاهات أجد أن حركتي قد تمت في الاتجاه حيث مقاومة الاشياء المحيطة بي وجسدي نفسه هي اقل ما يمكن . فانا قد اصطفينا ، من سائر الاتجاهات الممكنة ، الاتجاه الذي يكلفني أقل جهد ممكن . وكي تكون حركتي حرة ، لم يكن بد من انعدام أية عقبة تماماً . إذن فنحن لا نستطيع ان نتصور انساناً حراً الا خارجاً عن المكان ، الامر المستحيل بكل تأكيد .

٢ — ومهما قربنا الحكم على عمل ما من الزمن الذي ارتكب هذا العمل فيه ، فاننا لن نتمكن قط أن نفهم الحرية في الزمان . وفي الحقيقة أني ، اذا اخذت بعين الاعتبار عملًا حدث قبل لحظة واحدة فقط ، فاني لا أستطيع ان احكم عليه بالحرية ما دام مقيداً الى الوجه التي صار انجازه فيها . هل أستطيع أن أرفع ذراعي ؟ اني أرفعها ، لكنني اتساءل عما اذا كنت استطيع الا أرفعها في هذه اللحظة التي انقضت لتوها . وكي أتأكد من ذلك ، فانا لا أرفع ذراعي في الثانية التي تتلو ذلك . بيد أنني لم أرفع في ذات اللحظة التي تساءلت فيها عما إذا كنت أملك الحرية لذلك . لقد فرق الزمان وما كنت أملك القدرة على الامساك به ، والذراع التي رفعها الآونة ، والهواء الذي قمت بالحركة فيه ، لم يعودا ، لا ذلك الهواء الذي كان يحيط بي في اللحظة المعينة ، ولا الذراع التي احتفظ بها ثابتة الآن . ان البرهة التي تمت فيها الحركة الأولى من تعود قط ، وفي تلك البرهة ، كنت أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة ، ومهما تكن هذه الحركة فلا يمكن أنت تكون سوى وحيدة ، ومهما يكن من أمر ، فكوني

لم أرفع ذراعي في الثانية التي أعقبت ذلك لا يبرهن قدرتي على عدم رفعها عندئذ. وما دمت لا أستطيع أن أفعل سوى حركة واحدة في تلك اللحظة المعينة ، فهذه الحركة لا يمكن أن تكون حركة أخرى البتة . فلا بد لي ، كي أتصور هذه الحركة حرة ، من شعورها في الوقت الحاضر ، عند حدود الماضي والمستقبل ، يعني خارج الزمان ، الأمر الذى يستحيل حدوثه .

٣ — ومهما عظمت صعوبة الوصول الى السبب ، فاننا لم نتوصل مطلقاً الى تصور حرية تامة ، يعني الى شعور عـــدم وجود أي سبب . مهما يكن تظاهر الارادة في فعل مانقوم به عن أو الآخرون غامضاً علينا ، فان أول متطلبات فكرنا هو البحث عن السبب الذي لا يمكن بدونه أن نتصور أية ظاهرة مطلقاً . اني أرفع يدي كي أقوم بعمل لاسبب له ، بيد أن مجرد ارادتي عملا سبب له يشكل له سبباً في الحال .

وحتى اذا افترضنا امرءاً حراً تماماً من أي تأثير ، فاننا لن نستطيع قط ، اذا ماأخذنا بعين الاعتبار أحد أعماله في ذات اللحظة التي يقوم فيها انجازه ، دون أن نربطه بأي سبب ، بل حتى بقبولنا لبقية في الضرورة لامتناهية في الصغر تساوي صفراً ، لن نستطيع قط اذن أن نتوصل الى فهم حرية الانسان التامة . ذلك إن كائناً خارجاً عن أي تأثير خارجي ، خارجاً عن الزمان ومستقلا عن كل سبب هذا الكائن لا يمكن أن يكون إنساناً .

وكذلك يستحيل علينا أن نتخيل فعلا بشرياً تغيب فيه الحرية ويكون خاضعاً لقانون الضرورة وحده .

١ — مهما تكن معرفتنا بالشروط المكانية التي يخضع لها الانسان واسعة ، فلا يمكن أن تكون كاملة ، لأن عدد هذه الشروط لامتناه ، تماماً كما أن المكان لامتناه وبالتالي ، فمادامت الشرور التي تؤثر في أحد الأفراد غير محددة جميعاً ،

فليس ثمة ضرورة مطلقة ، ويبقى بعدئذ نصيب ما من الحرية .

٢ – مهما فعلنا كي يظل الفاصل الذي يفصل الظاهرة المفحوصة عن اللحظة التي نحكم عليها فيها ، فان الفترة المأخوذة بعين الاعتبار تظل محددة على الدوام، بينما الزمان نفسه لا متناه ؛ وبالتالي فلا يمكن أيضا ، من وجهة النظر هذه ، أن يكون ثمة ضرورة تامة .

٣ – مهما تكن معرفتنا بتسلسل الأسباب التي أدت الى فعل معين ، فاننا لانبلغ حتى معرفتها التامة مادام هذا التسلسل لامتناهياً ، وبالتالي فاننا لانبلغ الضرورة المطلقة ايضاً .

وفيما عدا ذلك ، فحتى اذا قبلنا بوجود بقية من الحرية لامتناهية في الصغر، مساوية للصفر ، فاننا نتحقق في أية حالة كانت ، حالة رجل يموت ،أو جنين ،أو أبله ، من الغياب المطلق للحرية ، وبذلك نقضي تماماً على مفهوم الانسان ،لأنه حيث لايوجد حرية فالانسان غير موجود . ولذا كان تصور الفعل الانساني خاضعاً لقانون الضرورة وحده،دون أي أثر من الحرية ، مستحيلا بقدر استحالة تصور ذلك الفعل حراً بصورة مطلقة .

وهكذا ، فكي نعتبر فعلا انسانياً أنه خاضع لقانون الضرورة وحده ، ينبغي لنا أن نعترف بأننا نعرف الكمية من اللامتناهية الشروط المكانية ، والفترة اللامتناهية لزمن الديمومة ، والسلسلة اللامتناهية من الأسباب .

وكيما نتخيل ، على العكس ، إنساناً حراً تماماً من قانون الضرورة،ينبغي لنا أن نعتبره بصفته وحيداً ، خارج المكان ، والزمان ، والسببية .

ففي الحالة الأولى ، اذا كانت الضرورة ممكنة دون الحرية ، فاننا نصل الى تعريف لقانون الضرورة بالضرورة نفسها ، يعني الى شكل بدون محتوى .

وفي الحالة الثانية ، اذا كانت الحرية ممكنة بدون الضرورة ، فاننا نبلغ

الى حرية غير مشروطة،خارج الزمان ،والمكان، والسببية،حرية ان تكون ، لكونها غير مشروطة أو محددة بأي شيء ، سوى محتوى بدون حاو .

وإننا نصل بصورة عامة إلى هذين الأساسين لكل فلسفة : ماهية الحياة العصية على الادراك ، والقوانين التي تعرفها .

واليكم مايقول العقل : ١ – إن المكان ، مع سائر الأشكال التي صار بها مرئياً ، يعني المادة ، هو لامتناه ولايمكن إدراكه بصورة أخرى. ٢ – إن الزمان حركة لامتناهية دون لحظة واحدة من التوقف ، ولايمكن إدراكه بصورة مغايرة . ٣ – إني خارج أي سبب كان ، لأني أستشعر اني سبب كل تظاهرة في حياتي .

إن العقل يعبر عن قوانين الضرورة ، والوعي يعبر عن ماهية الحرية .

إن الحرية غير المشروطة هي ماهية الحياة في وجدان البشر . وإن الضرورة محتوى هي العقل البشري تحت أشكاله الثلاثة .

إن الحرية هي ما نتفحصه ، والضرورة هي ماجرى فحصه . إن الحرية هي دون المحتوى ، والضرورة هي الحاوي .

ونحن إذ نفصل هذين الينبوعين للمعرفة اللذين هما بالنسبة إلى بعضهما بعضاً مثل الحاوي والمحتوى ، نتوصل بذلك وحده إلى مفاهيم عن الحرية والضرورة تنفي بعضها البعض وتظل ممتنعة على الادراك .

ونحن إذ نوحد بينهما نتوصل بذلك وحده إلى تصور واضح عن الحياة الانسانية وخارج هذين المفهومين اللذين يحددان بعضهما بعضاً في اتحادهما ، تماماً مثلما يتحد المحتوى بالحاوي ، ليس ثمة أي تصور ممكن عن الحياة .

وكل مانعرفه عنها لايعدو كونه علاقة مابين الحرية والضرورة ، يعني بين الوجدان وقوانين العقل .

وكل مانعرفه عن عالم الطبيعة الخارجي لايعدو كونه علاقة مابين قوى الطبيعة والضرورة ، أو بين ماهية الحياة وقوانين العقل .

إن القوى الحياتية للطبيعة موضوعة خارجاً منا ومن وجداننا، ونحن ندعوها الثقالة ، وقوة المطالة ، والكهرباء ، والقوة الحياتية ، الخ ؛بيدأن قوةالانسان الحياتية معروفة عندنا بواسطة وجداننا ، ونحن ندعوها الحرية .

والثقالة التي يحسها كل إنسان ممتنعة عن إدراكنا في ماهيتهاونحن لانستطيع أن نفهمها سوى بقدر ما نعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها (منذ أول فكرة عن سقوط الأجسام حتى قانون نيوتن) . وكذلك فان قوة الحرية التي يحسها الوجدان لهي ممتنعة عن الادراك في ماهيتها أيضاً ، وهي لاتصير مفهومة عندنا إلا بقدر مانعرف قوانين الضرورة التي تخضع لها ، منذ حقيقة موت كل انسان حتى أكثر القوانين الاقتصادية أو التاريخية تعقيداً .

فكل من معارفنا ليست سوى فعل خضوع من ماهية الحياة لقوانين الضرورة .

وتتميز حرية الانسان عن سائر القوى الأخرى لأننا نعيها ، بيد أنها ،عند العقل ، لاتختلف البتة عن أية قوة أخرى إن قوةالثقالة،والكهرباء، والجاذبية الكيموية لاتتميز عن بعضها البعض إلا لأن عقلنا قد عرفها كلًا على حدة .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بقوة الحرية ؛ إنها لاتتميز ، بالنسبة الى العقل ، عن قوى الطبيعة الأخرى سوى بالتعريف الذي يمنحها إياه هذا العقل . فالحرية دون الضرورة ، يعني دون قوانين العقل التي تحددها ، لاتتميز عن الثقالة ، والحرارة ،أي عن قوة الانبات ؛ ماهي سوى إحساس آني غير محدد عن الحياة . وكما ان الماهية غير المحددة للقوة التي تحرك الاجرام السماوية ، والقوة الحرارة ، والقوة الكهرباء ، وقوة الانجذاب الكيموي أو القوة الحياة تشكل محتوى علم الفلك ، والفيزياء ، والكيمياء ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، الخ .. كذلك

فان ماهية القوة الحرية تشكل محتوى التاريخ . ولكنه كما أن غرض كل من العلوم هو تظاهر هذه الماهية المحولة للحياة ، وأن هذه الماهية بدورها يمكن أن تكون غرض ماوراء الطبيعة فقط ، كذلك فان تظاهر الحرية الانسانية في المكان ، والزمان ،والسببية ، يشكل غرض التاريخ ، بينا الحرية هي غرض ماوراء الطبيعة .

في العلوم التجربية ندعو ماهو معروف عندنا : قوانين الضرورة ، وماهو غير معروف عندنا : القوة الحياتية . وليست القوة الحياتية سوى الاسم المعطى للأثر المجهول مما نعرفه عن ماهية الحياة .

كذلك في التاريخ ندعو ماهو معروف عندنا قوانين الضرورة ، وما هو غير معروف الحرية . وليست الحرية ، بالنسبة الى التاريخ ، سوى التعبير عن الأثر الباقي غير المعروف لما نعرفه من قوانين الحياة البشرية .
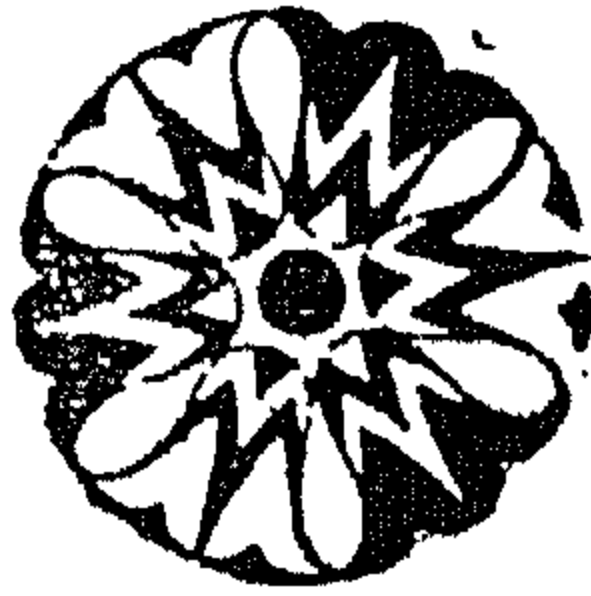
الفصل الحادي عشر

غرض التاريخ

ان التاريخ يدرس تظاهرات الحرية البشرية في علاقاتها مع العالم الخارجي، ومع الزمان، وفي تبعيتها حيال السببية، يعني أنه يحدد الحرية تبعاً لقوانين العقل، ولذا ما كان يمكن أن يكون عالماً إلا بقدر ماتخضع الحرية لهذه القوانين.

وإن الاعتراف بالحرية الانسانية كقوة على قدر كاف من الكبر بحيث يكون لها تأثيرها في الحوادث، يعني أنها غير خاضعة لأية قوانين، ليعادل بالنسبة إلى التاريخ الاعتراف بقوة تحرك الأجرام السماوية بالنسبة إلى علم الفلك.

وإن القبول بذلك يعني القضاء على إمكانية وجود أية قوانين، وبالتالي وجود أي علم كان. فاذا كان في مكنة جسم واحد أن يتحرك بحرية، فقوانين كيبلر ونيوتن لم يعد لها وجود إذن، وما عاد في الامكان تصور حركة الأجرام السماوية. وكذلك إذا كان ثمة فعل إنساني واحد حر، فليس ثمة إذن أي قانون تاريخي، ويصير من المستحيل تصور وقائع التاريخ.

وبالنسبة إلى التاريخ، فان الارادات الانسانية تتحرك تبعاً لخطوط يختبيء أحد أطرافها في المجهول، بينما وعي الحرية في البرهة الراهنة يتحرك، عند الطرف الآخر، في المكان، والزمان، والسببية.

وبقدر مايبتعد حقل هذه الحركة في انظارنا، فان قوانينها تزداد وضوحاً وإن

إدراك هذه القوانين وتعريفها يشكلان غرض التاريخ .

وإذا انطلقنا من وجهة نظر العلم الراهن ، واذا سلكنا الطريق التي يتبعها في البحث عن أسباب الظواهر في الارادة الانسانية الحرة ، فانه من المستحيل تعريف هذه القوانين . ذلك أنه مهماتكن الحدود التي نعينها للحرية ، فان وجود القانون يصير محالاً منذ اعترافنا بها كقوة غير خاضعة لقوانين .

ولن نقتنع باستحالة النفوذ حتى الأسباب بصورة مطلقة الا بابعادنا حدود هذه الحرية الى مالانهاية ، يعني باعتبارنا إياه كمية لامتناهية في الصغر ، وعندئذ يأخذ التاريخ على عاتقه ، بدلاً من البحث عن هذه الأسباب ، مهمة البحث عن قوانين .

ولقد بدىء هذا البحث منذ زمن طويل ، وإن طرق التفكير الجديدة التي يجب أن يتمثلها التاريخ تنضج بينما التاريخ القديم الذي كان يجزىء أكثر فأكثر أسباب الحوادث يتهدم من تلقاء نفسه في الوقت ذاته .

وعلى أية حال ، فالعلوم البشرية تسلك نفس الطريق . إن الرياضيات ، هذه العلوم المضبوطة حتى الدرجة القصوى ، تهمل طريقة التجزيء المتدرج عندما تبلغ اللامتناهي في الصغر في سبيل الطريقة الجديدة عن تكتيل العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر . ان الرياضيات تتنازل عن مفهوم السبب كي تفتش عن قانون ، يعني عن خصائص مشتركة بين سائر العناصر المجهولة اللامتناهية في الصغر .

وتفعل العلوم الأخرى الشيء نفسه ، وإن بصورة مغايرة . عندما برهن نيوتن قانون الجاذبية لم يقل إن الشمس أو الأرض تملكان خاصة جذب الأجسام الأخرى ، بل قال إن سائر الأجسام ، من أكبرها حتى أصغرها ، تملك خاصة التجاذب ، يعني أنه عبر ، وقد ترك جانباً سبب حركة الأجسام ، عن خاصة

مشتركة بين سائر الأجسام ، من اللامتناهي في الكبر حتى اللامتناهي في الصغر . وهذا ماتفعله أيضاً العلوم الطبيعة : لقد وضعت الأسباب جانباً كي

. إن التاريخ يسلك الطريق نفسها . واذا كان غرضه دراسة حركات الشعوب والانسانية لا وصف مقاطع مخصوصة من الحيوات ، فينبغي له ان يبعد مفهوم الاسباب كي يفتش عن القوانين المشتركة بين سائر عناصر الحرية اللامتناهية في الصغر ، المتساوية والمتماسكة بصورة متينة لاسبيل إلى حلها .

الفصل الثاني عشر

الضرورة والقوانين

منذ صار اكتشاف قانون كوبرنيك وبرهانه، فان تأكيد دوران الأرض حول الشمس قد دمر كل علم الفلك القديم . ولقد كان في الامكان رفض هذا القانون والاحتفاظ بالمفهوم القديم من حركة الأجسام ؛ بيد أننا اذا لم نرفضه ، فقد كان يتراءى من المستحيل الاستمرار إذن في دراسة عوالم بطليموس . ومهما يكن من أمر ، فإن عوالم بطليموس قد استمرت دراستها فترة طويلة ، حتى بعد اكتشاف قانون كوبرنيك .

ومنذ أن أعلن رجل وبرهن للمرة الأولى أن عدد الولادات أو الجرائم خاضع لقوانين رياضية ، وأن ظروفاً جغرافية وسياسية اقتصادية معينة تؤدي الى هذا الشكل أو ذاك من الحكومة ، وأن علاقات معينة بين الأرض والسكان الذين يشغلونها تنتج حركات هؤلاء السكان ، منذ ذلك الحين انهارت القواعد التي بني عليها التاريخ من أساساتها .

وإنه لفي الامكان رفض هذه القوانين الجديدة والاحتفاظ بوجهة النظر القديمة ؛ بيد أنه كان يبدو من المستحيل ، دون رفضها ، الاستمرار في دراسة الوقائع التاريخية على اعتبارها نتائج ارادة البشر الحرة . ذلك أنه اذا كان هذا الشكل المعين من الحكومة ، وهذه الهجرة المعينة للشعوب ، مسببين عن هذه أو تلك من الظروف الجغرافية ، والقومية ، والاقتصادية ، فإن إرادة البشر

الذين يلوح لنا أنهم أقاموا ذلك الشكل من الحكومة أو أدوا الى تلك الهجرة التي قامت الشعوب بها لايعود في الامكان اعتبارها سبباً فعالاً .

[illegible] فان التاريخ القديم مابرح يدرس الى جانب القوانين الجديدة ، للاحصاء ، والجغرافيا ، و[illegible] السياسي ، ويقارنها مع الفلسفة وعلم طبقات الأرض التي لها مبادىء معاكسة بصورة مباشرة [illegible]كدات .

أما عن فلسفة الطبيعة ، فقد كان الصراع دامياً ههنا بين النظريات القديمة والجديدة . لقد كان اللاهوت يقوم بواجب الحراسة حول المبادىء القديمة ويتهم المبادىء الجديـــدة بتدمير الوحي ولكن الحقيقة ما انتصرت حتى تركز اللاهوت في الأرض الجديدة بما لايقل من ثبات عنه قبلاً .

وان الصراع القائم في عصرنا بين المفهومين القديم والجديد عن التاريخ قد ظل غامضاً عنيداً ؛ ان اللاهوت لما يبرح يقوم بواجب الحراسة حول وجهة النظر القديمة ، وهو يتهم دوماً وجهة النظر الجديدة بانكار الوحي .

وفي كلتا الحالتين تثير المعركة الأهواء وتخنق الحقيقة ؛ فمن جهة يظهر الخوف والأسف على البناء الذي رُفع طوال قرون ، ومن الجهة الثانية يبدو حب التدمير .

وان الناس الذين يرفضون الحقائق الجديدة في حقل فلسفة الطبيعة يحسبون أن قبولهم لهذه الحقائق يعني دمار الايمان بالله وبخليقة العالم وبمعجزة يشوع ابن نون ، أما المدافعون عن قوانين كوبرنيك ونيوتن ، فولتير مثلا ، فقد كان يبدو لهم أن قوانين علم الفلسفة تدمر الدين . ولقد كان فولتير يستخدم قوانين الانجذاب كسلاح ضد الايمان .

ويبدو اليوم ، بذات الطريقة بالضبط ، أنه يكفي ان نعترف بقوانين الضرورة كي تنهار مفاهيم النفس ، والخـــير والشر ، والمؤسسات الحكومية والاكليريكية المبنية عليها .

ان حماة قانون الضرورة يجعلون اليوم ، فواتير تماماً ، من هذا القانون سلاحاً ضد الدين . ان قانون الضرورة في التاريخ ، مثله مثل قانون كوبرنيك في علم الفلك بالضبط ، لايدمر المؤسسات السياسية والدينية ، بل يزيد أسسها متانة وثبوتاً .

فنحن نقع اليوم إذن ، في التاريخ ، على نفس [illegible] الفلك . ان الفارق بين النظريات [illegible] في قبول او رفض وحدة مطلقة تخدم كمقياس [illegible] الظاهرة . وفي الفلك ، كانت هذه الوحدة هي ثبات الأرض ، وفي التاريخ كانت استقلال الشخص ، حرية الانسان .

وفي علم الفلك ، كانت صعوبة قبول حركة الأرض والكواكب الأخرى تقوم في كوننا نتنازل عن الاحساس المباشر بثبات الأرض وبحركة الكواكب ، وفي التاريخ تقوم صعوبة قبول خضوع الشخص لقوانين المكان والزمان والسببية في ضرورة التنازل إذن عن الاحساس المباشر الذي يملكه كل شخص عن استقلال ذاته . ولكنه ، كما ان النظرية الجديدة في علم الفلك تقول : « هذا صحيح ، نحن لانملك إحساساً بحركة الأرض ، لكننا نتوصل الى أشياء غير معقولة اذا قبلنا بثباتها . أما اذا قبلنا ، على العكس ، هذه الحركة التي لانحسها ، فاننا نتوصل الى قوانين . » كذلك تقول النظرية الجديدة في التاريخ : « صحيح أننا لانملك الاحساس بتبعيتنا ، لكننا اذا قبلنا بحريتنا فاننا نتوصل الى شيء غير معقول . أما اذا قبلنا ، على العكس بتبعيتنا حيال العالم الخارجي ، والزمان ، والسببية ، فاننا نتوصل الى قوانين . »

ولقد اضطررنا في الحالة الأولى أن نتنازل عن إحساس الثبات في المكان والقبول بحركة لاتدركها حواسنا . وإنه لينبغي لنا في الحالة الراهنة أيضاً أن نتنازل عن هذه الحرية التي نعيها ونقبل بتبعية لسنا نشعر بها .

(تمّ الكتاب — في اربعة مجلدات)

كانون الثاني — ١٩٥٦ م

ألف الكونت ليو تولستوى أعظم رواياته فى ستينيات و سبعينيات القرن التاسع عشر نابذاً فيها القيم الرومانسية للبطولة و الحب العذرى و أظهر بدلاً من ذلك اهتماماً عميقاً بالمراحل الطبيعية للنمو البشرى كالولادة والزواج والوفاة .

و روايته الرائعة "الحرب والسلم" (1869 م) جلبت الانتباه إلى طبيعة الاجتياح الفرنسى لروسيا و نيرانه عام 1812 م و لكن الرواية ترفض كذلك فكرة الحرب و تكشف عن رغبة تولستوى فى حياة هادئة تنسجم مع الطبيعة.

و فى آنا "كرنينا" (1875 ـ 1877 م) هاجم تولستوى الحب الرومانسى باعتباره ضرباً من الانغماس الذاتى و شجع بدلاً من ذلك الإحساس بالواجب الأخلاقى وحب الأسرة.

أما روايته " موت إفيان إيليتش " فإنها صورة مرعبة لموت رجل و قبوله لمصيره المحتوم باعتبار ذلك نهاية طبيعية للحياة.

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg

الثمن : خمسة جنيهات

تصميم الغلاف : فكرى يونس